من هدى القرآن

١٢

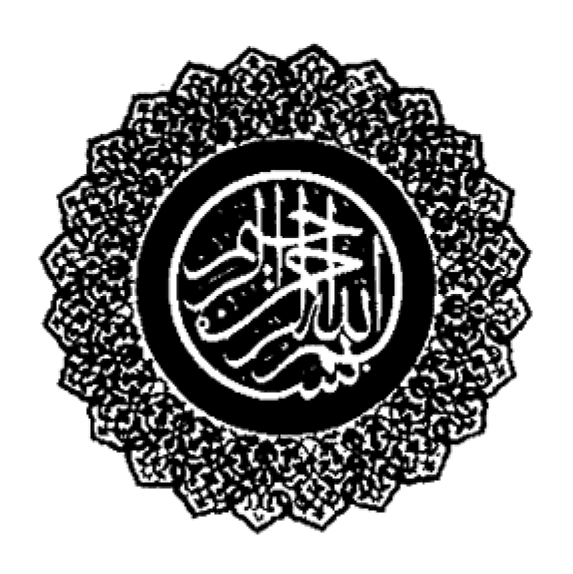
تفسير سور

المؤمن إلى الزخرف

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي





سورة المؤمن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

«**من قرأ حم المـؤمن في كـلّ ليلة غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تـأخّر ، وألزمه كلمة التقـوى ، وجعل الآخرة خيرا له من الدنيا**» .

نور الثقلين / ج 3 ص 500 ، عن الإمام الباقر (عليه السّلام).

«**الحـــواميم ريـــاحين القـــرآن فـــإذا قرأتموها فاحمدوا الله واشـكروه لحفظها وتلاوتهـا. إنّ العبد ليقـوم ويقـرأ الحـواميم فيخـرج من فيه أطيب من المسك الأذفر والعنـبر ، وإنّ الله عـزّ وجـلّ لـيرحم تاليها وقارئها ، ويـرحم جيرانه وأصـدقاءه ومعارفه وكـــلّ حميم وقـــريب له ، وإنّه في يـــوم القيامة يســـــتغفر له العـــــرش والكرسي وملائكة الله المقربون**» .

المصدر عن الإمام الصادق (عليه السّلام) .

الإطار العام

الاسم :

اشتهرت هذه السورة باسمين :

1 ـ غـــافر. لما فيها من ذكر كرامة الله للمؤمـــنين واستغفار حملة العرش لهم.

2 ـ المــؤمن. لما فيها من تفصــيل قصة مــؤمن آل فرعـــــون ، ولما فيها من ذكر إكـــــرام الله له ولســــائر المؤمنين.

الإطار العام :

الغاية السامية التي تسعى آيات هــذه الســورة نحوها بحق هي التــذكرة بأســماء الله الحســنى لـتزداد النفـوس العـامرة بالإيمـان عرفانا بربّها الكـريم ، ولتتم الحجّة على الكافرين.

ولقد تجلّى ربّنا العظيم في آيات كتابه الكريم جميعا ، ولكن كما الشمس

ـ وتعـالى الله عن الأمثـال ــ تتجلّى في كل أفق تجلّيـات بديعة وجديــدة ، فــإنّ لكــلّ ســورة تجلّياتها الخاصة بها ، وهكذا في هذه السـورة حيث عـرّفت فاتحة السـورة ربّنا العظيم بأنّه غـــافر الـــذنب (ومن هنا جـــاء أحد اســـمي السورة) وأنّه قابل التـوب شـديد العقـاب ذو الطّـول ، ثم في آية (15) ذكر اسم رفيع الـــدرجات ذي العـــرش وأنّه يلقي الروح من أمره على من يشـاء من عبـاده ، ثم جـاء في الآية (65) أنّه سبحانه هو الحيّ لا إله إلّا هو.

وجـــاء في الآية (13) والآية (81) أنّه ســـبحانه يرينا آياته (ويعرّفنا نفسه عبرهـا) ونتسـاءل : فلما ذا ــ إذا ــ لا نعرف ربنا عبر تلك الآيات المبصـرات؟! ويعـرف الجـواب حقّا من يرهف ســمعه لكلام ربّه ، حيث أنّ منهج القــرآن هو تصفية العقبات النفسية قبل إلقاء البصائر ببلاغة نافذة ، وحجّة تامّة ، وخطاب فصل مبين.

وقد تركّزت آيات السورة في هـذا التوجّه ، حيث نجد التحذير من الجـدال في آيـات الله أربع مـرّات تعتـبر كـلّ مرة عنوانا لسلسلة من البصائر والحـديث الشـافي الـذي يطهّر القلب من عقبــات الإيمــان ، وذلك عـــبر الــترتيب التالي :

أوّلا : في البدء نجد تحـذيرا من الجـدال عـبر التـذكير بعاقبة الجـدال السـوئى ، ثم نتلـوا بيانا لطائفة من آيـات الله التي تهدف إقامة الحجّة على الكـافر ، وزيـادة إيمـان ومعرفة الذي ألقى السمع ، وسلّم للحق.

دعنا نســـــتعرض جانبا من هـــــذا المنهج ، وفي ذات الوقت نجمل الحديث حـول موضـوعات السـورة ، ضـمن هذا الإطار ، وهو إعداد القلب لتقبّل آيات الذكر.

أوّلا : الآيات (4) تنعت المجادل في آيات الله بــالكفر والغرور ، وتحذّر من

عاقبة سيئة له مثل التي كانت لقوم نوح والأحزاب.

والآيات (7) تبشّـر المؤمـنين (الـذين يسـلّمون لآيـات الله بـــأنّهم مكرمـــون عند الله وعند حملة العـــرش من ملائكته ، الـذين يـدعون لهم بالوقاية من النـار ، ودخـول الجنة ، وحفظهم من السيّئات.

وهكذا لا يكتفي المنهج القرآني بالإنذار بل يقرنه غالبا بالتبشير.

ويعود السياق الى التحذير من الكفر (والجـدال) بـأنّ صـاحبه مخـزيّ ممقـوت ، وسـيندم حيث لا ينفعه النـدم (10) .

وهكـذا تتهيّأ النفـوس لاسـتقبال آيـات الله من دون الجـدال الباطل فيه ، فيـبين السـياق طائفة منها مع الأمر بـإخلاص الـدين له وتوحيـده وأنّه رفيع الـدرجات (أسـماء الله) وذلك عبر الآيات (13) .

ويعود السياق الى التحذير من مغبّة الجـدال في يـوم القيامة (16) مع التذكرة بأسماء الله التي تتجلّى في ذلك اليوم الرهيب.

ويذكّرنا بمصير الكفّار في الدنيا ، وكيف أخذهم الله ـ على شـدّة قـوتهم ومكاسـبهم الكثـيرة ــ كـلّ ذلك لأنهم جادلوا في آيات الله ، وكفروا بالبينات التي جاء بها رسله.

ويضرب القرآن مثلا على عاقبة الجدال في آيات الله والذي يسـاوي الكفر مما انتهى إليه أمر فرعـون وقومه ، كما يضـــرب مثلا للـــذين آمنـــوا بآيـــات الله من العاقبة الحسنى التي فاز بها مؤمن آل فرعون.

ويفصّل الكتاب ذات الحقـائق من خلال حـوار سـاخن بين موسى (الرسول)

وهارون (وزيره) والمـؤمن (الـذي صـدق بهمـا) من جهة ، وبين فرعون (الطاغية) وهامـان (وزيـره) وقـارون (الـذي اتبعهما) من جهة ثانية ، وتحوّل الحوار الى صراع ، وانتهى الصراع بمصرع آل فرعون ، وتدمير حضارتهم ، وعـــذابهم بالغــدوّ والآصــال في الــبرزخ ، واقحــامهم والتــابعين في جهنّم ، وساءت مصيرا.

وتتجلّى في الســياق صــورة مــؤمن آل فرعــون مثلا رائعا لشخصــية المـؤمن الصـلبة ونفـاذ بصـيرته ، وقدرته الربّانية على تحـدّي الطغيـان المـادّي ، مما جعلت اسـمه عنوانا لهذه السورة الكريمة.

ثانيا : وخلال الحوار والصراع والتحدّي يذكّرنا الكتــاب مــرّة ثانية بقضــية الجــدال في آيــات الله وكيف ينتهي بصـاحبه أن يطبع الله على كـلّ قلبه ، ويمسي كفرعــون الذي بلغ به الغرور الأهوج جدّا قال لـوزيره هامـان : (**ابْنِ لِي صَــرْحاً لَعَلِّي أَبْلُــغُ الْأَسْــبابَ**) ، ومضى في طريق الغواية حتى النهاية البئيسة ، بينما دعا الصّـدّيق الى اتبـاع نهجه نهج الرشاد ، وركّز على مسـئولية البشر عن أعماله ومواقفه ، ثم فوض أمره الى الله بعد أن تحـداهم بقـوّة ، وكانت العاقبة أنّ الله وقـاه من سـيئات ما مكـروا ، بينما حاق بآل فرعون سوء العـذاب ، ولم يفلت المستضـعفون من ذات العاقبة الــتي كــانت للمســتكبرين ، لأنّهم جميعا جادلوا في آيات الله وعصوا رسـله. أمّا رسل الله والـذين آمنوا فإنّ الله ينصرهم في الدنيا ويوم يقـوم الأشـهاد ، إلّا أنّ عليهم الصـــبر والاســـتغفار وأن يســـبّحوا بحمد الله بالعشيّ والإبكار (55) .

ثالثا : وفي المرّة الثالثة يحـذّرنا السـياق من الجـدال في آياته ، مبيّنا ـ هذه المرّة ـ الجـذر النفسي لهـذه اللعنة الـتي تصـيب القلب وهي الكـبر الـذي لن يبلغه صـاحبه ، وبعد أن يأمرنا بالاسـتعاذة بالله العظيم يهـدينا الى عظمة خلق الله للسموات والأرض ، ويوحي إلينا أنّ الكــبر عمى والإيمان بصيرة ، وأنّ الساعة آتية لا ريب

فيها ، ثمّ يأمرنا بالدعاء لأنّه شفاء من الكبر.
وحسب المنهج القـــرآني الفريد يلقي على الأفئـــدة السـليمة آياته (61) ثم يحــذّر من الجحــود بها ، لأنّ من يجحد بها يؤفك عن الحق (63) ويعـــود يـــذكّرنا بآياته المبصرة ، وبأنّه الحيّ الواحد ، ويأمر رسـوله بتحـدّي آلهة الزيف (66) ويذكّرنا بأنّه يحي ويميت.
رابعا وأخـيرا : ينهى عن الجـدال في آيـات الله (69) وينذر الذين كذّبوا بالكتـاب بأنه سـوف يعلمـون أيّ جريمة اقـــترفوا ، وذلك حين توضع الأغلال في أعنـــاقهم وفي السلاسل يسحبون.
وكذلك يعالج داء الجدال بالتحذير من عاقبته الأخروية ، ويجمل السـياق في خاتمة السـورة بصـائرها ، من الأمر بالصـــبر (77) اتباعا لســنة الأنبيـــاء ، والتحـــذير بعاقبة الاســتهزاء (78) والتـــذكرة بآية الله في خلق الأنعـــام ، والأمر بالســـير في الأرض للنظر في عاقبة المكـــذّبين ، وكيف دمّروا فلم يغن عنهم ما كانوا يكسبون ، وذلك أنّهم حينما أنذرهم الرسل فرحـوا بما عنـدهم من العلم فحـاق بهم ما كـــانوا به يســتهزئون (83) بلى. إنّهم آمنـــوا في اللحظة الأخـــيرة حين رأوا بـــأس الله ، ولكن ســنّة الله جـرت بـألّا ينفع الإيمـان في ذلك الـوقت ، وأنّه قد خسر هنالك الكافرون (85) .
وكلمة أخـيرة : الحقـائق الكـبرى الثلاث الـتي تحيط بالخليقة (التوحيد والبعث والرســالة) شـــواهدها وآياتها مبثوثة في الآفـاق والأنفس ، إلّا أنّ حجبا ســميكة تغطّي البصـائر عن رؤيتها والتفاعل معها ، وتـؤدي الى الجــدال في آياتها ودلائلها ، والقرآن الكـريم شـفاء للقلب من تلك الحجب ، وفي هـــذه الســـورة المباركة نجد نهجا بـــديعا وشفاء سريعا ، وعلينا فقط أن نلقي السـمع الى آياتها بلا جدال! .

سورة غافر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللـهِ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ (2) غـافِرِ الـذَّنْبِ وَقابِـلِ التَّوْبِ شَـدِيدِ الْعِقـابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْـهِ الْمَصِـيرُ (3) ما يُجادِلُ فِي آيـاتِ اللـهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا فَلا يَغْـرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4) كَـذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَـوْمُ نُـوحٍ وَالْأَحْـزابُ مِنْ بَعْـدِهِمْ وَهَمَّتْ كُـلُّ أُمَّةٍ بِرَسُـولِهِمْ لِيَأْخُـذُوهُ وَجـادَلُوا بِالْباطِـلِ لِيُدْحِضُـوا بِـهِ الْحَـقَّ فَأَخَـذْتُهُمْ فَكَيْـفَ كـانَ عِقابِ (5) وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6)**

---

3 [ذي الطّول] : الطّول هو الإنعام الذي تطول مدّته.
5 [ليدحضوا] : ليبطلوا ويزيلوا.

غافر الذنب وقابل التوب

هدى من الآيات :

المؤمن وغـافر هما اسـمان لهـذه السـورة المباركة ، الـتي تبـدأ حـديثها عن القـرآن (أو قل عن نفسـها) قبل الحـديث عن أيّ قضـية أخـرى ، والسـبب هو أنّ المنهج يسبق الفكر ، والذي يريد معرفة شـيء ما يجب عليه أوّلا أن يعرف الطريق المـؤدي إليه ، والقـرآن هو ذلك المنهج الـذي نفهم من خلاله الحيـاة ، ونعـالج الأمـراض النفسـية والعقلية ، وغير ذلك مما يمنع الفهم الصحيح عن الإنسان.

وأكثر سور القرآن حينما تبدأ الحـديث عنه فإنّها تنـذر بمختلف ألوان النذر أولئك الذين ينكرون الحقيقة استجابة لأهوائهم ولظروفهم ، وفي هذه الآيات يبيّن لنا القـرآن أنّ الـذين يكفـرون بـالحقّ إنّما بسـبب نفوسـهم المريضة ، وليس لنقص في الآيات الدالة عليه فهي بيان واضح للحق بالحق.

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وهو الرب الذي يتألّه ويجأر إليه ، والـذي به يسـتغاث وبه يستعان واليه يجأر كل مضـطر وصـاحب حاجة ، حيث غـــرزت الحاجة إليه في فطـــرة كـــلّ مخلـــوق ، وأركز الإحســـاس بألوهيته في أعمق أعمـــاق شـــعورنا جميعا ، فمهما اختلفنا في الألفـاظ والتعـابير على اختلاف ألسـنتنا ومــذاهبنا إلّا أنّنا لا نختلف في الحقيقة الــتي فطرنا عليها جميعا ، إذ كلّنا يسـتعين بالله ويتوسل إليه بأسـمائه الـتي أظهرها لفاقتنا إليها كما في الأخبار.

[1] (**حم**)

من المقطعات القرآنية التي سبق تفسيرها في عـدة مواضع. [1]

وجـاءت روايـات بـأنّ (ح) إشـارة إلى اسم الحميد و (م) إشـارة إلى اسم المجيد فيكـون «حم» حينئذ قسـما بحاكمية الله الـتي تقتضي حمـده ومالكيته الـتي تقتضي مجدا على أنّ القرآن حق ، أو ليست آيات القرآن تجلّيات لأسماء ربنا ، ولعل السور السبع التي تبتدئ بكلمة «حم» وأوّلها هذه السورة مظاهر لاسمي الحميد والمجيد.

[2] والكتـاب الـذي يتكـوّن من أمثـال هـذه الحـروف تنزّل من ربّ عزيز عليم.

(**تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**)

---

(1) راجع بدايات السور المماثلة.

فبعزته يفرض على الإنسان ويطبق ما فيه على واقع الحيـاة ، وبعلمه الـذي أحـاط بكـلّ شـيء إحاطة مطلقة جعله كلّه هـدى وحكمة ونـورا ينسـجم مع واقع الحيـاة والإنسان.

ويبـدو لي أنّ الآية جملة مفيـدة كاملة ، مبتـدؤها «**تَنْزِيـلُ الْكِتـابِ**» وخبرها «**مِنَ اللـهِ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ**» وهذا ما يوحي بالمعنى المتقدم.

[3] وتعرّفنا الآيات بربّنا من خلال ذكر صـفاته ، وهـذا ينفعنا في تحديد علاقتنا به تعـالى. وأوّل أسـماء الله المذكورة هنا أنّه غافر الـذنب ، (**وَمَنْ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللـهُ**) ، وأيّ رحمة واسـعة تلك الـتي تغسل جريمة المعصـية ، وأيّ قـدرة تسـتطيع محو الآثـار العديـدة للمعاصي على النفس والواقع غير رحمة الله وقدرته.

وتضفي أسماء الله السكينة على القلب ، فهو غـافر الذنب وقابل التوب وهو ذو الطول ، ولـولا هـذه السـكينة لتصـدّعت قلـوب المؤمـنين عند اسـتماعهم لاسم شـديد العقاب.

(**غـافِرِ الـذَّنْبِ وَقابِـلِ التَّوْبِ شَـدِيدِ الْعِقـابِ ذِي الطَّوْلِ**)

والمؤمن حقّا يعيش متوازنا مباركا ، يحثّه الرجاء على التوبة والعمل الصالح ، ويمنعه الخوف عن المعصية.

والخوف من عذاب الله كما رجاء رحمته ليس قضـية نفسـية وحسب ، إنما يعنيـان العمل ، فنحن يجب أن نتحـرّك عند الرجـاء ولكن ليس في أيّ اتجـاه ، إنّما في اتجاه مرضـاة الله وباتبـاع هـداه ، لأنّ الحيـاة تشـبه حقل الألغام والذي ينجو فيها هو الذي يمتلك خريطة واضحة لها يتبعها بدقة ، أمّا حينما ينحرف الإنسان عن الحق فسـوف يضلّ ويخسر ولن يجد من ينقذه أبـدا ، لأنّ الله وحـده هو الإله المتصرّف الذي يحدّد

مسيرة الإنسـان ومصـيره دون أن يكـون أحد قـادرا على التغيير والتبديل.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**)

فهو الذي يقرّره كيف يشاء بإرادته.

[4] ولكن بعض الناس يرفضون الحق وبكلّ إصـرار ، فتراهم يجادلون في آيات الله التي تهديهم الى الحق.

والجـدل ـــ حسب اللغة ـــ لـفّ الخيـوط الناعمة أو أنسجة الليف على بعضها لتصـبح حبلا ، وهـذا يشـبه حـال المجـادلين الـذين يلفّـون بعض الكلام على بعضه للتغطية على جهلهم.

(**ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ**)

مع وضوحها بما لا يدع مجالا للشك.

(**إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**)

لأنّهم لا يبحثـــون عن الحقيقة ، ولو كـــانوا كـــذلك لاستوجب الأمر قبولهم للآيات باعتبارها بينات بينما يسعى هؤلاء لتبرير إتباعهم للباطل ليخدعوا أنفسـهم بـأنّهم على الحق ، وليغطّـوا ضـعفهم ويـتراءوا بـأنّهم أقويـاء ، ولكن المؤمن الذي يتبع بصائر القرآن لا ينخدع بهم أبدا.

(**فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ**)

فمهما تظـاهروا بالمقـدرة من خلال تنقّلهم في البلاد عبر مسيرات عرض القوة ، كما تعوّد الطغـاة فعله ، كلما احسّـوا بـالخطر ، ولكن على المـؤمن ألّا تغـرّه مظـاهر القوة

لأنّهم ضـعفاء بمخـالفتهم للحق ، فمهما بلغـوا من القـوة والقدرة وأنّى أزاحـوا الحـقّ عن مراسـيه ، فـإنّ عـاقبتهم إلى البوار وإنّ إلى الله المصير.

[5] ويضرب لنا القرآن مثلا من واقع التـاريخ على أنّ تقلّب الكفار في البلاد وسـيطرتهم المادية الظـاهرة ليس دليلا على سلامة خطّهم.

(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ**)

أي قبل كفّار قريش الـذين يجادلونك يا محمد ، وقبل كلّ الطغاة في كلّ عصر.

(**قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ**)

لأنّهم لم يستفيدوا من تجربة قوم نوح.

(**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ**)

وكم هو مؤسف أن تصل البشرية الى هذا الحضيض ، فإذا بها بـدل أن تكـرم المصـلحين وتتّبعهم لأنّهم يحملـون لها الهـدى والسـعادة ترفضـهم وتسـعى لقتلهم والقضـاء على خطّهم ، هـــذا من الناحية العملية ، أمّا من الناحية النظرية فإنّها تحاول إبطال الحق الذي يأتي به الأنبياء.

(**وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ**)

وهكذا كلّ كافر لا يملك عقيدة إلّا الكفر بـالحق ، فهو لكي يملأ الفـــراغ العقائـــدي في نفسه يبحث عن باطل ليس ليعتقد به إنّما ليقـــاوم به الحق ، وإنّما ازداد ركـــام الباطل ، وتنـــوّعت مذاهبه ، وكــثر الكلام فيه لأنّه لم يكن يملك رصيدا من الواقع ولا شاهدا من الفطرة فيحتاج الى المزيد من السفسطة باسم البرهان ،

والفلسفة باسم الحكمة ، والجدل باسم الحوار.

ولكنه مع ذلك كلّه لا يغـــني شـــيئا ، وهكـــذا نهت النصـوص عن الجـدال في الـدين ، فقد روى عن رسـول الله (ص) أنّه قـــال : «**لعن المجـــادلون في دين الله على لسـان سـبعين نبيّا ، ومن جـادل في آيـات الله فقد كفر**» [1]

وإنّما يفشل الباطل ـ رغم الجدال عنه ـ لأنّ الله من فوق عرشه وعبر سننه في الحيـاة يـدافع عن الحق ، فهو يفشل كلّ محاولة لدحضه ، فـالحق هو المنتصر دائما لأنّه يملك قوة المنطق ومنطق القوة بتأييد الله.

(**فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ**)

والأخذ تنطـــوي على الشـــدة والمباغتة ، وتســـاؤل السياق عن العقاب ليثـير أفكارنا فنبحث عن الإجابة الـتي فيها العبرة والموعظة.

[6] ولأنّ الحديث هنا عن سنّة إلهيّة تحكم الحياة نجد السياق وبعد تخصـيص قـوم نـوح والأحـزاب بالـذكر يعمّم الحديث ليضمّ إليهم كلّ الكافرين في كلّ مكـان وزمـان ، فهم جميعا ينالهم عذاب الله وانتقامه.

(**وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ**)

ففي الـدنيا ينـالهم انتقـام الله ، وفي الآخـرة عذابه الشديد ، فهم خالدون في نار جهنم لأنّهم أصحابها.

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 511.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا

فَهَلْ إِلى خُـرُوجٍ مِنْ سَـبِيلٍ (11) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُـوا فَـالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) هُوَ الَّذِي يُـرِيكُمْ آياتِـهِ وَيُنَـزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّـــماءِ رِزْقــــاً وَما يَتَـــذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَـرِهَ الْكـافِرُونَ (14)

فالحكم لله العليّ الكبير

هدى من الآيات :

لكي لا تهـــزم الظـــروف الصـــعبة إرادة المـــؤمن ، خصوصا إذا كـان يتحـدّى الطغـاة وحـده ، أو يحافظ على إيمانه في ســرية ، ولكي يطّهر المــؤمن بالإنابة من درن الشـرك أوحى ربّنا بـأنّ أعظم خلق الله الـذين يحملـون عرش القدرة الإلهية يسـتغفرون للـذين آمنـوا وأنـابوا الى الله ، ويـدعون لهم بـالمغفرة ، وأن يقيهم عـذاب جهنم ، ويدخلهم جنات الخلود هم ومن صلح من آبائهم وذرياتهم ، وأن يحفظهم من السيئات برحمته.

بينما الكفار يلعنـون وينـادون بـأنّ مقت الله أكـبر من مقتهم أنفسهم حين رفضـوا الإيمـان ، وتـراهم يتضـرّعون يومئذ الى الله قــائلين : إنّنا بعد أن مررنا بتجربة المــوت والحيـاة مـرتين أصـبحنا نعـترف بـذنوبنا ، ويسـألون : هل نستطيع الخروج من العـذاب؟ فـيرفض طلبهم بحجة أنّهم قد كفــروا بالتوحيد وآمنــوا بالشــركاء ، وإنّما الحكم لله العليّ الكبير لا للشركاء المزعومين.

والله وحــده الحــاكم في الخليقة فهو الــذي يهــدي الناس الى نفسه عبر آياته ، ويرزقهم من السـماء ، ولكن لا ينتفع بآيات الله إلّا من ينيب إليه فيتذكر.

وفي ختـام الـدرس يـدعونا الـربّ الى إخلاص الـدين ونبذ الشركاء برغم الكفار الذين يكرهون التوحيد.

بينات من الآيات :

[7] تتّبع الآيــات القرآنية منهجا يتمــيز عن المنــاهج البشرية في أنّه كالضوء ينتشر من نقطة مركزية واحدة ، هي التوحيد لتتسع ســائر الحقــول. ذلك أنّ عــالم الخلق والحق كما عالم العلم والمعرفة مظهر وتجلّ لأسماء الله الحســنى ، وكــلّ شــيء فيه آية تــدلنا الى ربنا الحميد المجيد. ولقد افتتحت هذه السورة بذكر بعض صـفات الله التي تتجلى في الخليقة فاسم الله «الرحيم» الذي يتجلّى في قبــول الله للتوبة «قابل التــوب» لها انعكــاس على خلق الله ، ومن ثم على سـلوك الإنسـان ، وعليه أن يتخذ منه منهجا لتقويم سلوكه.

بل ينعكس هذا الاسم الكـريم على الخليقة إذ يحـدثنا القـرآن عن الملائكة الحـافّين بعـرش الله ، فهم من جهة يتصـلون بالله عـبر علاقة التسـبيح والإيمـان ، ويتصـلون بالإنســان المــؤمن عــبر علاقة الحب والرحمة ، وربنا إذ يشرح لنا جانبا من هذه العلاقة يبين ذلك في صورة دعـاء من قبل الملائكة للمؤمنين التائبين.

ويبقى السؤال : ما هو عرش الله؟

للعرش معنيين :

الأوّل : إنّ الله يملك محلا واسعا يسمّى بـالعرش ، لا نعــرف إلّا أنّه عظيم يسع الســماوات والأرض بل الخلق بــأجمعهم. وقد جــاء في الحــديث المــروي عن أمــير المؤمنين

عليه السـلام : «**إنّ الملائكة تحمل العـرش ، وليس العـرش ـ كما تظن ـ كهيئة السـرير ، ولكنّه شـيء محدّد مدبّر ، وربّك عزّ وجلّ مالكه**» [1]

وفي الحـديث المـأثور عن أبي ذر عن النـبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال : «**يا أبا ذر ما السموات السبع في الكرسي إلّا كحلقة ملقـاة في أرض فلاة ، وفضل العـرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة**» [2]

الثـاني : إنّ العـرش هو رمز القـدرة والهيمنـة. حيث فسرت الآية الكريمة (**وَكانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمـاءِ**) [3] بأنه سـيطرته وهيمنته تعـالى. أمّا الملائكة الـذين يحملـون العـرش فـإنّهم وسـائط رحمة الله ، وتنفيذ إرادته في الحياة.

والى ذلك تشـير الرواية المـأثورة عن الإمـام الرضا عليه السلام : «**العـرش ليس هو الله ، والعـرش اسم علم وقدرة**» [4]

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق ـ عليه السـلام ـ أنّه حين سـئل عن قـول الله عـزّ وجـلّ «**وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ**» قال : «**علمه**» [5]

ويحتمل أن يكـون لربّنا مقـام معلـوم حمله علمه وقدرته ، ومنه ينطلق تـدبيره للخليقة وهو عرشه ، وفيه ملائكة الله المقربون.

وما يهمّنا معرفته أنّ حملة العرش خلق من خلق الله وليسوا أنصاف آلهة ، وهم مشغولون بالتسبيح والتمجيد.

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 55 ص 9.
(2) المصدر / ص 5.
(3) هود / 11.
(4) بحار الأنوار / ج 55 / ص 14.
(5) المصدر / ص 28.

هـــذا عن علاقتهم بالله ، أمّا عن علاقتهم بالإنســـان فهي الــتي تكشف عن علاقة الطبيعة بالبشر ، إذ الملائكة وســائط أمر الله وتنفيذ إرادته ، فهم إذن يمثّلــون موقف الخلائق من الإنســـان ، وهو يرتبط بموقف الإنســـان من الحق ، فـإذا كـان البشر على فطرته وعلاقته الإيجابية مع ربّه فهم معه وإلّا فلا ، فما على الإنســـان حــتى يفلح في الحياة إلّا أن يتحرّك باتجاه تســخير الطبيعة الــتي من أهم عوامل تســخيرها العبودية لله ، وحينها ســوف يجد كــلّ شــيء يقف معه مؤيّـدا ، إذ الملائكة الموكلة من قبل الله بقــوى الطبيعة المختلفة ســوف يكونــون معــه. ولو كـان مجمل ســلوك الإنســان صــالحا فــإنّ هفواته لا تضــرّه إذ سرعان ما يتوب الى الله منها فتستغفر الملائكة له منها ، ولعلهم يسدّدون خطاه بأمر الله للعودة الى نقائه وطهره ، وقد يعصمونه بإذن الله من الــذنوب الجديــدة ، ويثبتــون قلبه ، ويحفظونه من تسوّلات النفس ووساوس الشيطان ، ويبدو أنّ هذا من علامات قبول التوبة.

(**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ**)

وهم من أعظم ملائكة الله ، ولعلّهم أوّل من يتلقّــون أمر الله.

(**وَمَنْ حَوْلَهُ**)

من الملائكة الآخرين.

(**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**)

وأعظم الــذكر هو التســبيح الــذي يقــدّس الــربّ عن الشريك والشبيه والنقص والعجز.

(**وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**)

فتسبيحهم ليس مجـرد كلمـات يتلفظونها ، أو أفعـال يمارســـونها ، إنّما يقومـــون بكل ذلك عن معرفة وقناعة راســـخة بوجوبه عليهم. هــذا عن علاقتهم بالله ، أمّا عن علاقتهم بــالمؤمنين فهي الاســتغفار لهم لكي يتــوب الله عليهم ويوفقهم في الحياة.

(**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**)

وليس يغفـــرون ، لأنّهم ليســوا آلهة ، إنّما هم عبـــاد مقربـون عند الله ، وكل ما يسـتطيعونه لخدمة المؤمـنين هو طلب العفو من الله لهم عبر الدعاء.

ومن آداب الدعاء :

أوّلا : البدء بحمد الله وتسـبيحه والثنـاء عليه ثم طلب الحاجة ، وهكذا فعل الملائكة إذ تراهم سبحوا الله بحمـده ثم استغفروا للمؤمنين.

ثانيا : البدء بطلب العفو قبل سائر الطلبـات حيث أنّ رحمة الله قريبة من التـائبين ، إذ الـذنوب تمنع اسـتجابة الدعاء ، ونزول الرحمة ، وهكذا فعل الملائكة.

(**رَبَّنا وَسِـعْتَ كُـلَّ شَـيْءٍ رَحْمَـةً وَعِلْمـاً فَـاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ**)

والتوبة هي الشرط الأوّل لقبول الله عودة العبد إليه. أمّا الشـرط الثـاني فهو أن تكـون التوبة صـادقة يسـتقيم عليها العبد ، فيتبع ســبيل الله وحـــده دون أن يعـــود الى سـبيل الشـيطان. وهـذا ما يبصـره ربّنا الـذي أحـاط بكـلّ شيء علما.

(**وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ**)

وهذا أهمّ وأعظم ما يمكن للمـؤمن الـدعاء به لنفسه ولإخوانــه. وهكــذا عند ما يتــوب المــؤمن إلى الله فــإنّ الملائكة تكـون معـه. وبالتـالي فـإنّ ما في الحيـاة يـدعو البشر

الى إصلاح نفسه والعودة الى الطريق المستقيم.

[8] وحينما يكـون الإنسـان صـالحا فإنّه سـوف ينفع الآخـرين ، فـإذا بآبائه وأبنائه كما الأشـخاص المحيطين به كزوجة يفيدهم بصلاحه ويـدخلون معه الجنة ، إلّا إذا كـانوا منحرفين تماما ، وهذا يعني أنّ الحيـاة قائمة على أسـاس البناء لا الهدم ، والصلاح لا الفساد ، والملائكة تـدعم هـذه المسيرة وتؤيدها ، بإذن ربها.

(**رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَـدْنٍ الَّتِي وَعَـدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

فبعزّتك تقـدر على اسـتجابة الـدعاء ، وبحكمتك تستجيب أو لا تستجيب ، وهكـذا ينبغي على من يـدعو أن لا يحتّم على الله بل يقدّم دعوته ويثني على ربّه وحسب.

ويتوافق هذا الدعاء مع رغبة الإنسان حيث يتطلّع الى العيش مع أحبّائه وأعزّته في الـدنيا والآخـرة. وإنّما تكتمل النعم عند ما يجتمع الأحبة تحت ظلال نعم الله في الجنة.

[9] ولا يبلغ البشر غاية مناه إلّا إذا تخلّص من سـيئاته التي تتجسد يوم القيامة في صور شتى ، فمنها الظلمـات الحالكة ، ومنها النـيران الملتهبة ، ومنها العقـارب والشـجعان ، ومنها اقـتران الشـيطان ، وقد تبتلع سـيئة واحدة عامّة صلاة الفـرد وصـيامه ، وقد تتسـبّب في حبط أعماله الصالحة ونقص درجاته. وقد جـاء في الحـديث عن ربّ العـزّة أنّه سـبحانه قـال : «**أنا المالك أنا الـديّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يـدخل الجنة ، ولا لأحد من أهل النـار أن يـدخل النـار وعنـده مظلمة حـتى أقصّه منه**» (1)

---

(1) المصدر / ص 516.

وهكـذا كـان في دعـوة الملائكة حفظ المؤمـنين من سيئاتهم في ذلك اليوم الذي تتجسد فيه السيئات.

(**وَقِهِمُ السَّـيِّئاتِ وَمَنْ تَـقِ السَّـيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَـدْ رَحِمْتَهُ**)

والوقاية هنا بمعـنى الحفظ ، وإنّما يتقي البشر آثـار السـيئات في الآخـرة عند ما ينتصر على نفسه في الـدنيا ويتجاوز الأهواء والشهوات السلبية.

(**وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

إنّ الوصـول الى النجـاة من النـار ودخـول الجنة غاية عظيمة ، وعمل صـعب ، وعلى الإنسـان المـؤمن أن يعقد عزمه ويشـحذ إرادته من أجل تحقيقها ، إذ كلّما كـان الهدف عظيما يجب أن تكون الإرادة عظيمة بقدره.

[10] هذا عن علاقة الملائكة بـالمؤمنين. أمّا علاقتهم بالكـافرين فهي سـلبيّة وتتسم بالـدعاء عليهم والتشـمّت بهم.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ**)

تناديهم الملائكة وكـلّ الطبيعة المفطـورة على الحـقّ الذي خالفه هؤلاء ..

(**لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَـكُمْ إِذْ تُـدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ**)

إنّ الله يريد الخـير لعبـاده وما خلقهم إلّا لـيرحمهم ، أمّا إذا رفضـوا الإيمـان به والاسـتجابة لدعوته ، وبالتـالي أهانوا أنفسهم وأذلّوها بالكفر ، فإنّه سوف يهينهم أضـعافا مضـاعفة على إهـانتهم لأنفسـهم ، بإبعـادهم عن رحمته ، وإدخالهم العذاب.

والإنسـان يهين نفسه ولا يحترمها حينما يحتقر الحـقّ ويرفض الاسـتجابة لـه. ذلك أن لا قيمة للإنسـان إلّا بقربه من الحقّ وتجسيده له في حياته.

[11] وفي جواب الكفّار للنداء بشدة مقت الله لهم :

(**قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**)

ونتساءل : متى كانت الموتتـان؟! لقد اختلف العلمـاء والمفسّـرون في بيـان هـذه الآية ، فقـال بعضـهم : إنّ الموتة الأولى قبل دخول الإنسان في الحياة الـدنيا ، حيث كان في عالم الأشباح حيّا ثم مات ، ثم دخل الحياة الـدنيا ثم يموت عند بلوغه أجله ثم يحيا للحساب والجزاء.

وقال آخـرون : إنّ الله يحـيي الإنسـان في قـبره بعد الموت ليحاسبه حساب القبر ، وبعدها يميته ثم يحييه يوم القيامة للجزاء.

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال ـ في تفسير الآية ـ : «**ذلك في الرجعة**» [1]

وهناك تفسير آخر هو : إنّ الإنسـان منذ أن خلقه الله لا يزال حيّا ، وهذه الحياة الأولى التي وهبها الـربّ للأرواح تستمرّ مع الإنسان في الدنيا فلا مـوت قبل هـذه الحيـاة ، ثم يوافي الإنسـان أجله المتعـارف فيمـوت ، بمعـنى : أنّه تنفصل روحه عن جسده وتبقى الروح في حالة الحياة.

وبعد هذا الموت يموت البشر ـ مرة أخـرى ـ فتنعـدم عنه الحيـــاة تماما وذلك حينما ينفخ في الصـــور النفخة الأولى ، وقد أشار القرآن الحكيم لهذا المعنى في سورة

(1) المصدر / ص 513.

الزمر حيث قـال : (**وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللــهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ**) [1] وهذه هي الحيـاة الثانية التي تستمرّ مع الإنسان خالدة للأبد.

وبين الحياتين والموتين تتجلّى قـدرة الله للبشر حيث لا يملك الكفّار سـوى الاعـتراف بخطئهم ، وأنّهم قد أحيط بهم من كـلّ جـانب بسـبب الـذنوب الـتي اقترفوها في الحيـاة الـدنيا ، فيسـألون الله بضـراعة عن مخـرج من مأزقهم.

(**فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا**)

وإنّنا لا نملك من أمرنا شيئا.

(**فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ**)

[12] وتجيبهم الملائكة بأنّه قد كان يوجد مخرج واحد فقط من هـذا المـأزق ، وهو الإيمـان بالله الواحد القهّـار والتسـليم له (**وَمَنْ يَتَّقِ اللـهَ يَجْعَـلْ لَـهُ مَخْرَجـاً**) [2] ، ولكنكم رفضــتم الــدخول فيه وضــيعتم على أنفســكم الفرصة.

(**ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللـــهُ وَحْـــدَهُ كَفَـــرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**)

لأنّكم كنتم تريــــدون إيمانا يــــبرّر لكم شــــهواتكم ، ويعترف بواقعكم الفاسد وتصرّفاتكم الخاطئة ، وهذا ما لا تجدونه في الــدين التوحيــدي الخــالص ، مما يــدعوكم لرفضه.

(**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**)

---

(1) الزمر / 39.
(2) الطلاق / 65.

أمّا الشــــركاء الـــذين عبـــدتموهم من دون الله فلن ينفعوكم أبدا لأنّهم لا يملكون شيئا من الحكم.

[13] وليس الله بعيـــدا عن البشر ولا مجهـــولا لمن يستثير عقله حـتى يشـرك به الإنسـان ، فرحمته المعنوية الـتي تتمثل في الهداية مهيئة لنا في كـلّ شـيء وفي كـلّ حين ، إذ كـلّ شـيء آية تهـدينا الى ربنا ، ورحمته المادية التي تتجسد في أنواع الرزق هي الأخـرى تتـنزّل علينا من السـماء وتحوطنا من كل جـانب. ويبقى الإنسـان مع ذلك يشـــرك بربّه ولا ينتفع من كل ذلك ، إلّا إذا كـان مؤمنا به منيبا إليه.

(**هُـوَ الَّذِي يُـرِيكُمْ آياتِـهِ وَيُنَـزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّـماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ**)

والمنيب هو الذي يرجع الأمـور الى الله ، ويتـوب إليه كلّما أدركه النسـيان أو الخطأ ، أمّا المشـرك فإنّه لا ينتفع بهذه الآيات ولا بهذه النعم حــتى يحصل على معرفة ربّه ، لأنّه ينسب كلّ ذلك الى الشـركاء ، فـإذا به يعتقد أنّ منبع رزقه هو صـاحب المـال والسـلطة ، أو يرجع الـرزق الى حتميّات وعوامل من عنده فلا يشكر ربّه ولا يتذكره بها.

[14] ولمّا كان الشـرك يحـرف مسـيرة الإنسـان في الحيـــاة ، ويوجّهه لغـــير الله ولغـــير الحق ، أكّد ربنا على ضــرورة الإخلاص له في الإعتقـاد بعيـدا عن كـلّ عوامل الشرك.

ولأنّ الضـغوط الـتي يواجهها المـؤمن الاجتماعية منها والسياســية والاقتصــادية من قبل الآخـــرين من أهمّ تلك العوامل وأبلغها أثرا خصّصها بالذكر.

(**فَـادْعُوا اللـهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكافِرُونَ**)

وهـذا ينسـجم مع سـياق السـورة الـذي يحـدثنا عن مـؤمن آل فرعـون كمثل لمحافظة الإنسـان على إيمانه وإخلاصه لله رغم الضغوط والظروف المعاكسة.

رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (18) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ

15 [يوم التّلاق] : أصله التلاقي حذف الياء تخفيفا ، أي يوم يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض.

18 [يوم الآزفة] : من أزف بمعنى دنى ، ويسمّى يوم القيامة بالآزفة لدنوّه.

بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الَّذِينَ كـانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كــانُوا هُمْ أَشَــدَّ مِنْهُمْ قُــوَّةً وَآثــاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كـانَ لَهُمْ مِنَ اللــهِ مِنْ واقٍ (21) ذلِــكَ بِــأَنَّهُمْ كــانَتْ تَــأْتِيهِمْ رُسُــلُهُمْ بِالْبَيِّنــاتِ فَكَفَـرُوا فَأَخَـذَهُمُ اللــهُ إِنَّهُ قَـوِيٌّ شَــدِيدُ الْعِقابِ (22) وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُـلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى فِرْعَـوْنَ وَهامــانَ وَقــارُونَ فَقـالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24)

---

21 [واق] : الواق أصله واقي ، من وقى بمعنى حفظ ، أي لم يكن لهم حافظ يحفظهم من بأس الله وعذابه.

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ

هدى من الآيات :

انطلاقا من النقطة المحورية في توجيهــات القــرآن الحكيم وهي التـــذكرة بالله الواحد القهّـــار وبرســـالاته الحضارية الهابطة على عباده ، يبين لنا هذا الــدرس بعض ما يتصل بالرؤية التاريخية وما يـدور في هـذا المجـال من الحقــائق الــتي أبرزها انتقــام الله انتقاما عمليّا للأفكــار الحقة ممن يكفر ويستهزئ بها.

بينات من الآيات :

[15] بمــاذا نســتدل على ربّنــا؟ وما هو الســبيل الى المعرفة الأعمق به؟

إنّ الكون بما فيه من مخلوقات ، وظواهر ، يهـدينا لو تفكّرنا فيه الى ربّنا والى الحق ، ولكنّ آيــات القــرآن أبلغ بيانا وهداية ، لأنّها حــديث الله عن نفسه ، كما أنّها موضع التجلّي الأعظم لله تعالى بصفاته وأسمائه الحسنى ، وفي الدعاء عن أمـير المؤمـنين (ع) يخـاطب ربّه فيقـول : «يا من دلّ على ذاته بذاته» فلنقرأ كلام الله

عن نفسه.

(**رَفِيعُ الدَّرَجاتِ**)

إنّه المالك لتلك الآفاق والمراتب السامية في الدنيا والآخرة ، فهو يرفع المؤمنين به الى أسمى درجات الكمال والرقي والعزّة. أمّا المعنى الآخر للآية فهو : إنّ الله ذاته تبارك وتعالى في أرفع الدرجات من الكمال في كلّ صفاته ، فهو مطلق الرحمة ، ومطلق العزة والقدرة ، و.. و.. كما أنّه مطلق الانتقام والشدة و.. و..

(**ذُو الْعَرْشِ**)

أي القوة والسيطرة. وقد تقدم أنّ للعرش أحد معنيين : الأول المعنى المادي ، وهو أنّ العرش خلق عظيم واسع الحجم ، ممتد الطول هائل المقام ، والثاني المعنى المعنوي بأن يكون العرش رمزا للقوّة والهيمنة.

وربّنا من تلك الدرجات الرفيعة ينزل رسالاته للبشر على من يصطفي من عباده ، والتي تعتبر في لغة القرآن منبع الحياة الحقيقية للإنسان ، لأنّها تنقذه من الهلكات ، وتنفخ فيه الحركة والتكامل والعروج الإنساني الفاضل ، ولعلّه لهذا السبب سمّيت الرسالة والملك الذي يتنزّل بها وهو جبرئيل (ع) بالروح.

(**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ**)

وهنا إشارة الى أنّ الروح ليس جزء ينفصل من الله لينزل من عنده الى الأرض ، إنّما هو مخلوق فهو من أمر الله كما هو حال سائر الخلق في كونهم من أمره تعالى ، والذي تشير إليه الآية الكريمة (**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) [1] وهذا يعني أنّ الأنبياء والرسل ليسوا آلهة بما اختصّوا به من الوحي إنّما

---

(1) سورة يس / 82.

هم عبــاد له تعــالى ، وما عنــدهم من الــوحي والمنزلة الرفيعة لم يبلغــوه بســعيهم المجــرّد وإنّما بمشــيئة الله وحكمته.

وتنفي هــذه الفكــرة فكــرة التكامل الطــبيعي عند الإنسان ، والتي يدّعي أصحابها بأنّ الإنسان يتكامل بطبعه حتى يعرج إلى السـماء أو إلى مقـام الرسـالة والألوهية ، بلى. الإنسان يستطيع أن يهيئ في نفسه أرضيّة للعروج ، ولكن الله هو الـذي يكمّله ، وإذا رفعه الى مقـام الأنبيـاء فليس معـــــنى ذلك أنّه أصـــــبح إلها ، أو أنّه رفعت عنه المسؤولية ، كلا .. والدليل أنّ نزول الروح على أيّ إنسان يحمّله مسئولية التبليغ لهداية الناس.

(**لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ**)

وتلخّص هـــذه الآية كثـــيرا من العقائد الإســـلامية والنظـرات الحياتية في القـرآن بمفرداتها الأربع : «**رَفِيـعُ الـــدَّرَجاتِ**» ، «**ذُو الْعَـــرْشِ**» ، «**يُلْقِي الـــرُّوحَ مِنْ أَمْــرِهِ**» ، «يــوم التلاق» ، ويــوم التلاق هو يــوم يلتقي الإنسان بخصـومه ، وهو من الأيّـام الحساسة والمشـهودة في حياته ، فيلتقي المســتكبر بالمستضــعف ، والظــالم بــالمظلوم ، والغاصب بالمغصــوب منه ، والكــاذب بمن افـــترى عليه ، وكـــلّ عامل يلتقي يومئذ بعمله ، ويلتقي المجرمون بالشهود ، والناس جميعا يلتقون بالحساب عند ربهم ، وهكـذا يكـون يوما عظيما لا بد أن يـرهب مقامه ، وينذر به المنذرون.

[16] ويضـيف القـرآن مبينا واقع ذلك اليـوم العظيم والحاسم :

(**يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ**)

في الــدنيا يحــاول الإنســان جاهــدا إخفـاء سـلبياته وتجاوزاته لحقوق الآخرين ، وحتى إنّه يحـاول خـداع ذاته ، وإخفاء جرائمه عن ضميره بالتبريرات والأعذار ، وقد

يستطيع الهـرب من يد العدالة ، ولكن هل يتمكّن من مثل ذلك في الآخــرة؟ كلا .. لأنّ اعتقــادات الإنســان وأقواله وأعماله كلّها تظهر يومئذ ولا تخفى منها خافية أبـــدا كما يقول تعالى : (**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُـونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَـةٌ**) كبيرة كـانت أو صـغيرة ، وكيف يكـون ذلك وقد أوكل الله بكل واحد ملائكة يكتبون له وعليه كل ما يصـدر منه ، وهو من ورائهم رقيب؟!

وحينئذ يرتسم في الأفق سؤال عـريض ربما ينطق به كلّ شيء ، لأنّه سؤال الساحة الذي يقتضـيه الحـال ، وقد ينادي به مناد من عند الله ، السؤال هو :

(**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ**)

والإجابة يحكيها لسـان الواقع ، وهي الـتي وردت في فاتحة الكتاب التي وصفت الله بأنه (**مالِـكِ يَـوْمِ الـدِّينِ**) وهنا أيضا يقــول القــرآن مجيبا على النــداء أو الســؤال المفترض :

(**لِلَّهِ الْواحِدِ**)

فلا يشاركه أحد في الملك والحكم.

(**الْقَهَّارِ**)

والقهــار هو أبــرز ســمات الانفــراد بالملك ، حيث لا شــيء يعجز الله ويقهــره ، ولا أحد ينازعه على الملك إلّا وقصـمه ، وملك الله ليس محـدودا بـالآخرة وحسب ، فهو الملك في الدنيا أيضا ، ولكنّ الكفّار يعمـون ويصـدون عن هـذه الحقيقة بعنـادهم وبفقـدانهم للبصـيرة الهادية حيث رفضـوا رسـالات الله ، أمّا المؤمنـون فهم يعرفـون هـذه الحقيقة بعمق ، لهـذا يسـلمون لله ولمن يختـاره راضـين طائعين.

جـــاء في الأثر في تفســـير هـــذه الاية الكريمة عن يعقوب الأحمر قال : دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام نعزيه بإسماعيل فترحم عليه ثم قـال : إنّ الله عـزّ وجـلّ نعى الى نبيّه صـــلّى الله عليه وآله نفسه فقـــال : «**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُـــونَ**» وقـــال : (**كُـــلُّ نَفْسٍ ذائِقَـــةُ الْمَـوْتِ**) ، ثم انشأ يحـدث فقـال : إنّه يمـوت أهل الأرض حـتى لا يبقى أحد ، ثم يمـوت أهل السـماء حـتى لا يبقى أحد الا ملك المـــوت وحملة العـــرش وجبرئيل وميكائيل عليهم السلام ، قال : فيجيء ملك الموت حتى يقـوم بين يدي الله عز وجل فيقال : من بقي؟ ـ وهو أعلم ـ فيقـول : يا ربّ لم يبق إلّا ملك المـوت وحملة العـرش وجبرئيل وميكائيل ، فيقـــــال له : قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا ، فيقـــول الملائكة عند ذلك : يا ربّ رســـوليك وأمينيـــك؟ فيقول : إنّى قد قضيت على كلّ نفس فيها الروح المـوت ، ثم يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله عـزّ وجـلّ فيقال له : من بقي؟ ـ وهو أعلم ـ فيقـول : يا رب لم يبق الا ملك المـــوت وحملة العـــرش ، فيقـــال : قل لحملة العـــرش فليموتـــوا ، قـــال : ثم يجيء كئيبا حزينا لا يرفع طرفه فيقال له : من بقي؟ ـ وهو أعلم ــ فيقـول : يا ربّ لم يبق إلّا ملك المـوت ، فيقـال له : مت يا ملك المـوت فيموت ، ثم يأخذ الأرض والسـماوات بيمينه ويقـول : أين الذين كانوا يدعون معي شريكا؟ أين الذين كـانوا يجعلـون معي إلها آخر؟ [1]

[17] ثم يبيّن القرآن أنّ كون الملك للواحد القهـار لا يعني أنّه يجور على الناس ، تعالى ربّنا عن الظلم والحيف ، إنّما يحاسبهم على أساس المقاييس العادلة التي جـاءت ببيانها رسالات الأنبياء.

(**الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ**)

---

(1) نور الثقلين / ج 4 / ص 516.

في السر أو العلانية ، قليلا كان أو كثيرا ، والآية تلغي المقـــاييس الأخـــرى الباطلة ، كالفـــداء والشـــفاعات المزعومة ، أو أن ينتفع الإنسـان لمجـرّد انتمائه ظـاهرا للحق ، وذلك حينما تؤكد المسؤولية «بما كسـبت» وتركّز الآية الكريمة هنا على العدالة الإلهية فتقول :

(**لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ**)

لأنّه مطلق العلم والقدرة ، ولأنّه يحاسب الناس على ضـوء المقـاييس والحجج ، وإذا كـان الإنسـان بعلمه وإمكاناته المحـدودة قد اكتشف جهـاز الكومـبيوتر الـذي يفحص الأمتعة والحقـائب من خلال الشاشة في لحظـات فكيف بربّنا وهو سريع الحساب؟!

فلا يتـوهّم البعض أنّ كـثرة عـدد البشر وتنـوّع ما يكتبونه بما لا يحصى يمنع ربّنا من الدقة في الحسـاب أو النصف فيه ، كلا .. إنّه سريع الحساب يحصي عليهم حـتى أنفاسهم وخفيّ ضمائرهم فيحاسبهم جميعا على كـلّ ذلك في ساعة يوم القيامة.

[18] (**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ**)

وهو أحد أسـماء يـوم القيامة ، ولعـلّ كـلّ اسم من أسماء الآخرة جاء بمناسبة معيّنة أو بحالة معينة.

ولهذا الاسم عدّة معان :

منها : أنّ القيامة قريبة جـدا ، من أزف الأمر إذا دنا وقته واقـترب ، وفعلا السـاعة قريبة فلا تفصـلنا ـ نحن البشر ـ عنها عمليا إلّا زجـرة المـوت ، وبعـده يغفل عن أكثر الناس حتى قيام الساعة فيكونون كمن غطّ في نـوم عميق سحابة نهاره

فيتصل عنده أوّل يومه بـآخره ويكـون ما يحـدث عليه آخر النهار قريبا من أول النهار.

أمّا الـذين محضـوا الإيمـان والكفر فـإنّهم إذا مـاتوا قامت قيامتهم ، فتـدفع أرواح المؤمـنين في الجنـان فـور انتقالها من أبدانهم ، ويعـرض على أرواح المعانـدين النـار غدوّا وعشيّا كـآل فرعـون ، فالقيامة إذا قريبة منّا جميعـا. وفي القـرآن إشـارة الى هـذا المعـنى في قوله تعـالى :

(**فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ**) [1]

ومنها : أنّ العـذاب يكـون قريبا من النـاس في ذلك اليـوم ، أو أنّ روح الإنسـان يقـرب خروجها من جسـده لأهوال ذلك اليوم.

(**إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ**)

وربما يكـون المقصـود من القلب هنا بالإضـافة إلى الـروح ، القلب بواقعه المـادي ، ذلك أنّ الإنسـان يحسّ وكـأن قلبه يصـعد الى الأعلى عند ما يتعـرّض للفـزع ، وبالـذات إذا كـان مفاجئا لا يتوقعه ، ولأنّ النـاس كلّهم مشـغولون بأنفسـهم لا يجد الواحد طرفا يمكنه أن ينفعه يظهر له ما في نفسه لـــــــذلك يخفي الجميع ما في صدورهم ويكظمون غيظهم ، وحـتى إذا أرادوا البـوح فهل هي إلّا ندامة وخسارا! بالإضافة إلى هيبة ذلك اليـوم الـتي تعقل ألسـنتهم ، وإلى الملائكة الغلاظ الشـداد الـذين لا يـأذنون لهم بـالكلام ، وإلى خشـوع الأصـوات جميعا لـربّ العـالمين ، فهم لهـذه الأسـباب وغيرها يضـطرون للكظم بالرغم من شدّة غيظهم حتى ليكادون يتميّزون حنقا.

(**ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ**)

وهو أقرب الأصدقاء وأحبّهم للإنسان ، إذ تنقطع بينهم الروابط والعلاقات.

(1) النازعات / 13 ـ 14.

(**وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ**)

والشفيع هو الوسيط الذي يعرف الشخص ويقضي حاجته عند الآخرين ، وقد تعوّد الظلام في الدنيا على التوسّل بالشفعاء في بلوغ مآربهم وحلّ مشاكلهم ، ولكنّهم في الآخرة لا يجدون الى الشفعاء سبيلا ، لأنّ الذين اعتمدوا عليهم من أئمة الظلم هم بدورهم يريدون من يشفع لهم ، ولو افترضنا أنّ أحدا صالحا أو طالحا تحمّل هذه المسؤولية وحاول الشفاعة للظلمة فإنّه لا ينفعهم شيئا ، إذ لا تعتبر الشفاعة عند الله للظلمة إنّما تنفع من تكون مسيرتهم العامة في الحياة سليمة ، فتأتي الشفاعة لترفع عنهم تبعات الذنوب الجزئية.

فقد روي عن الإمام موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ أنّه قال : ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلّا ساءه ذلك وندم عليه ، وقد قال النبي (ص) : «كفى بالندم توبة» ، وقال : «من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» ، فإن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ، ولم تجب له الشفاعة وكان ظالما ، والله تعالى يقول : (**ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ**) [1]

هكذا نعرف أنّ الشفاعة إنما هي للتائبين الذين تسوؤهم سيئاتهم فيندمون عليها ، وكفى بالندم توبة.

وحيث أكد ربّنا على أنّ الشفاعة لا تنفع الظالمين ، لأنّهم إنّما اعتقدوا بالشركاء وبشفاعتهم ليتهربوا من المسؤولية ، فأراد الله بذلك تأكيد المسؤولية عليهم ، ونفي هذه الذريعة التي يتوسّل بها البعض لاجتراح الجرائم.

[19] ويمضي السياق مؤكدا مسئولية البشر بأنه تعالى يحصي عليه كلّ شيء ،

---

(1) المصدر ص 517.

ولا تفوته من تصــرفاته صــغيرة ولا كبــيرة ، ويكفي بهــذا وازعا إيّاه عن المعصية ، ودافعا نحو تحمّل المسؤولية.

(**يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ**)

حيث ينظر الإنسان الى ما حـرّم عليه أو أن يسـتخدم نظرة في غير أهدافه ، كالتجسس على النـاس وحسـدهم ، والنظر إلى أعراضهم وعموم عوراتهم وأسرارهم.

وفي الحـديث قـال الـراوي : سـألت أبا عبد الله عن قوله عــزّ وجــلّ : «يعلم خائنة الأعين» فقــال : «**ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنّه لا ينظـر؟ فـذلك خائنة الأعين**» [1]

وجاء في تفسير هذه الآية : أنّ النبي (ص) حينما فتح الله له مكة المشـرّفة أهـدر دم بعض المشـركين ، وكـان بينهم عبد الله بن سعد بن أبي سـرح ، فجـاء إليه عثمـان يستأمنه منه فسكت النبيّ طـويلا ليقتله بعض المؤمـنين ، ثم أمنه بعد تـردّد المسـألة من عثمـان ، وقـال : أما كـان منكم رجل رشـيد يقـوم الى هـذا يقتلـه؟! فقـال عبـاد بن بشر : يا رسول الله إنّ عيــني ما زالت في عينك انتظـارا أن تــومئ فأقتله ، فقــال (ص) : «**إنّ الأنبيــاء لا يكــون لهم خائنة الأعين**» [2]

بلى. قد تفــوت نظــرات الخيانة بــني البشر ، أمّا الله فلا يفوته منها شــيء .. وكيف يكـون ذلك وهو يحيط بنوايا الإنسان وما ينطوي عليه قلبه؟!

ولو تعمّقنا في هــــــــذه الآية الكريمة ، واعتبرنا بها لاستطعنا أن ننزع من قلوبنا بذور النفاق وجــذور الخيانة ، لأنّ الإنسان حينما يتحسّس رقابة الله عليه ، ويستشعر

---

(1) المصدر ص 517.

(2) المصدر

حقيقة علمه تعالى بما في قلبه فإنّه لن ينـافق أو يخـون ، ولن تأخذه روح اللامبالاة بالذنب.

(**وَما تُخْفِي الصُّدُورُ**)

من نوايا يســعى نحو تحقيقها ، والــتي قد تخفى في بعض الأحيان عن الإنسان نفسه.

[20] (**وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِ**)

وإنّما يكــون قضــاؤه حقّا لحكمته وإحاطته بما يحكم فيه ، فمهما حـاول أحد أن يتعلّل ويقـدم المعـاذير ليفلت من العدالة فلن يســـتطيع أبـــدا ، لأنّ الله يعلم الغيب والشهود حتى نوايا الضمير ، وعلى الإنسـان أن يبحث عن الحق ويلتزم به فهو وحده الذي ينفعه عند الله.

وكلمة «بـالحق» تـوحي بـأنّ وسـائل الحكم ونتائجه كلّها حق ، فربّنا يعتمد الحق في تحديد الموضـــــــوع ، ويعتمـــده أيضا في تحديد الحكم وتنفيـــذه ، أما الآخـــرون الذين يشرك بهم الظلمة وجهّال النـاس فـإنّهم لا مقيـاس لهم في الحياة والحكم فلا يصيبون حتى جزء من الحق.

(**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ**)

والسبب بالإضـافة الى اعتمـادهم الأهـواء والشـهوات في قضـائهم أنّهم لا يحيطـون بموضـوعات الحكم إحاطة تامّة ، فحكمهم قائم على الشهادات الظاهرية أو الظنـون والتخرّصــــات ، أمّا الله فهو يحيط إحاطة مطلقة بكـــلّ شيء مما يجعل حكمه حقّا تامّا.

(**إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ**)
الذي يحيط بكلام الناس وما تنطوي عليه نفوسهم.
(**الْبَصِيرُ**)
الذي يرى تصرّفاتهم وأفعالهم.
وفي الآية إيحـاء بـأنّ الباطل لا يمثّل شـيئا. أو ليس الباطل كـان زهوقا ، فالشـركاء المزعـومين يقضـون بالباطل الـذي لا يمثّل شـيئا ، ويا لروعة الكلمة وبلاغة التعبير ، فهم لا يقضون ـ عند الله ـ شـيء بـالرغم من أنّ الطغاة يتشـدقون بـألوف القـوانين الـتي يتظـاهرون أنّهم يقضون بها خلافات الناس ، بينما يعقّدون بها في ـ الواقع ـ أوضـاع النـاس ، ويزيـدون بأحكـامهم الباطلة هـذه الصراعات ، فيا لخسارة تابعيهم! .
[21] إنّ تحمّل أمانة المسـؤولية لأشد على قلب الإنسـان من حمل الجبـال الراسـيات ، وإنّه ـ في ذات الوقت ـ السـبيل الوحيد لنجاته ، والقـرآن يهـدينا الى ذلك بحجج شتى ، أبرزها بيان عاقبة أعمـال البشر في الآخـرة وقد تحـدّث السـياق عنه آنفا ، والحجة الثانية بيـان عاقبة أعماله هنا ، ولكن كيف نعـرف ذلـك؟ إنّما بـالنظر في أحداث التاريخ ، الـتي تكشف عن خطأ التكـذيب بـالحق ، وبالتالي ضعف الإنسان أمام إرادة ربّه المتجلّية في سـنن الحياة.
وأصدق كتاب ينبّؤنا عن حقائق التاريخ ـ بعد القرآن ـ آثار الغـابرين على الطبيعة ، فلا بد من السـير في الأرض وقراءة تلك الآثار.
(**أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ**

(**قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ**)

يعـني قـوة أبـدانهم أو عمـوم أسـباب القـوة الـتي اجتمعت عنـدهم بحيث اسـتطاعوا إعمـار الأرض ماديّا بما لم يصل الى مسـتواه الأقـوام الـذين يعـنيهم القـرآن بخطابهم.

إلّا أنّ هـذه القـوة وتلك الآثـار لم تكن قائمة على أساس صالح ينميها ويحافظ على كيانها ، إنّما كانت القوة تزيـدهم غـرورا ، والإعمـار يزيـدهم كفـرا وفسـادا ، ممّا دعاهم للإسراف في المعصية اعتمادا عليهما.

(**فَأَخَذَهُمُ اللهُ**)

ولكن ليس بظلم وإنّما بالحق.

(**بِذُنُوبِهِمْ**)

ولم يكن ثمة أحد ينقذهم من عذاب الله وأخذه.

(**وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ**)

فلم تنفعهم قـوتهم وقـدراتهم شـيئا عند العـذاب ولا أولئك الشركاء الذين اعتقدوا بهم ، إنّ الـواقي الوحيد هو عمل الإنسـان الصـالح الـذي لم يـتزوّدوا منه بـالرغم من وصـية ربّهم حين قـال لنا : «**وَتَـزَوَّدُوا فَـإِنَّ خَيْـرَ الـزَّادِ التَّقْوى**» .

[22] ويبين القرآن السبب في هلاكهم.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ**)

والرسل إنّما بعثهم الله ليستنقذوهم من الـذنوب وما تنتهي إليه من العذاب ، ولكنّهم رفضوهم وتمسكوا بقيادة الطواغيت ، ورفضوا رسالاتهم وتمسكوا بالعقائد

والأفكــــار المنحرفة ، فما بقيت ضــــمانة لهم تمنع عنهم العذاب.

(**فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

وإذ يصف الله نفسه هنا بالقوة وشـدّة العقـاب فلكي يبيّن لنا نوع العذاب الـذي حـلّ بهم ، ببيـان صـفات منزلة عليهم ، ولكي يبين لنا من جانب آخر أنّه لم ولن يقدر أحد على منع العــذاب عن الظــالمين والكــافرين حين يــنزل بساحتهم.

[23] وكشاهد على تكذيب الأقوام تضـرب الآيـات لنا مثلا من واقع موسى (ع) مع قومه الذين كذّبوا برسالته.

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ**)

ولعــلّ الآيــات هي التــوراة ، وأمّا الســلطان المــبين فلعلّها المعاجز الّـتي أظهرها الله على يد نبيّه (ع) كالعصا واليد البيضاء.

[24] وقد جـاء موسى (ع) لتغيـير الواقع المنحـرف ، ومقاومة الفســاد المتمثّل في الطــاغوت وأعوانه ، وكل من يجسّد ذلك الواقع.

(**إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ**)

وهؤلاء هم نماذج مختلفة ، كـلّ واحد منهم يمثّل جانبا من الفساد ، فرعون يجسّـد الطـاغوت الحـاكم ، وهامـان يمثّل الجهــــــاز الإداري له ، بينما يمثّل قــــــارون بماله الرأسماليّة التي تمتصّ خيرات الشعوب ، وقد جاء موسى (ع) لتصفية هذه الأجهزة الثلاثة.

(**فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ**)

وواجهـــوا بهـــذا المنطق الباطل الحجج الظـــاهرة والبينات فكان عاقبتهم الدمار كما تفصّله الآيات التالية.

فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِســاءَهُمْ وَما كَيْـدُ الْكـافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25) وَقالَ فِرْعَـوْنُ ذَرُونِي أَقْتُـلْ مُوسى وَلْيَـدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخـافُ أَنْ يُبَـدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِـرَ فِي الْأَرْضِ الْفَســادَ (26) وَقــالَ مُوسى إِنِّي عُــذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِســابِ (27) وَقالَ رَجُـلٌ مُـؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَـوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَـهُ أَتَقْتُلُــونَ رَجُلاً أَنْ يَقُــولَ رَبِّيَ اللـــهُ وَقَــدْ جــاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَـكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ (28) يا قَوْمِ

لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَـوْمَ ظـاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُـرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا قـالَ فِرْعَـوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشـادِ (29) وَقـالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخـافُ عَلَيْكُمْ مِثْـلَ يَـوْمِ الْأَحْـزابِ (30) مِثْـلَ دَأْبِ قَـوْمِ نُـوحٍ وَعـادٍ وَثَمُـودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31) وَيا قَـوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32) يَـوْمَ تُوَلُّونَ مُـدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللـهُ فَما لَـهُ مِنْ هادٍ (33)

---

32 [يوم التّناد] : أصله التنادي ، وإنّما حذف الياء تخفيفا ، والمـراد به : أمّا يوم نزول العذاب ، فإن فيه ينادي كلّ إنسان صاحبه بالفرار والحذر ، وأمّا يــوم القيامة حيث ينــادي أهل النــار أهل الجنة : «**أَنْ أَفِيضُــوا عَلَيْنا مِنَ الْمــاءِ**» وينــادي أهل الجنة أهل النــار : «**ما سَــلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**» .

وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ

هدى من الآيات :

تتكـــرر في القـــرآن قصة موسى مع فرعـــون وذلك لأسـباب شـتّى من أهمّها أنّ هـذه القصة تكشف خلفيّـات الصـراع بين المستضـعفين والمسـتكبرين ، والـذي ينتهي بانتصـــار المستضـــعفين حين يتوســـلون بالله ، ويتبعـــون القيـــادة الشـــرعية الـــتي تســـتمد مواصـــفاتها من الحق المتجلّي في رسالة الله.

بينات من الآيات :

[25] حينما جـــاء موسى بـــالتوراة وواجه فرعـــون وأتباعه بالبيّنـــات لم يكن عنـــدهم منطق حـــقّ لمواجهته ، لهذا توسلوا بالإرهاب الذي يمثّل منطق القوة.

(**فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُـوا أَبْنـاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ**)

وقد كـانوا يريـدون من وراء ذلك الضـغط عليهم لكي يتنازلوا عن مسـيرتهم الثورية ، ويتخلّـوا عن الجهـاد تحت راية الحركة الرســـالية وقيادتها المتمثلة في نــــبيّ الله موسى (ع) ، وهـــذا من أهمّ ما يتوسل به الطغـــاة في خططهم الرامية لمواجهة الحركات الجهادية عبر التاريخ ، ولكن إذا اسـتقامت الجمـاهير وواجهت طلائعها الضـغوط بوعي وحزم استطاعت إفشال خطط الطغاة.

(**وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ**)

والكيد هو الخطة المـاكرة الـتي يسـتهدف صـاحبها النيل من عـــدوّه ، وربّنا يصف كيد الكـــافرين والطغـــاة (كفرعون) بأنّه لا ينتهي الى النتيجة الـتي يتطلعـون إليها ، بل ربما جـاءت النتيجة مخالفة لمصـالحهم ، لأنّ أمـرهم يشـبه من يـرمي في الظلام ولا يـدري لعلّه يقتل أقـرب الناس إليه.

والسـبب أنّ الخط الإسـتراتيجي العـام للكفّـار خط منحـرف ، فكلّما حـاولوا تكتيكيّا أن يخططـوا لأنفسـهم انتهت خططهم للفشل بسبب انحـراف أفكـارهم ، كما لو افترضـنا شخصا يريد الـذهاب الى مدينة تقع شـمالا ولكنّه يتحرك باتجاه الجنوب ، فإنّه مهما حـاول أن يكـون تحركه دقيقا ومدروسا فلن يصل الى هدفه المنشــــــود ، وفكر الكفّـــار خـــاطئ لأنّهم يكفـــرون بالنقطة المحورية في الخليقة وهي الإيمان بالله عزّ وجل.

[26] فالجـانب الأول من خطتهم أن يفصـلوا النـاس عن الحركة الرسـالية من خلال الإرهـاب والضـغوط ، أمّا الجانب الثاني منها والذي يستهدف القضـاء على التحـرّك الثـوري في المجتمع فهو القضـاء على النـبي موسى (ع) محور الحركة وقائدها.

(**وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى**)

ومن كلمة فرعــون «ذروني» يتضح أنّ خلافا تفشّــى في بيته حـــول تحديد الموقف المناسب من النـــبي (ع) ، ولعلّه كـــان من رأي جماعة منهم بالاســـتماع الى دعوته ومقارعة الحجة بالحجة وكان يمنع هذا الرأي فرعــون من قتله ، وحيث يعلم هو بخطئه وقصوره عن مواجهة موسى ورسالته بهـذا الأسـلوب حـاول تجـاوز هـذا الـرأي وإقنـاع أصحابه بقبول خطته القاضية بتصـفية موسى (ع) تصـفية جسدية ، وطالما يتكرّر وبصورة مستمرة في الثـورات أنّ مفجّرها يثـير الخلاف في صـفوف الطـاغوت وقـراراتهم تجاه الثورة.

ولأنّ فرعون تبنّى قرار التصـفية الجسـدية أراد إقنـاع المخالفين له بصحة رأيه ، وذلك بتـبرير أنّ موسى (ع) لم يكتف بقـــوة المنطق وحسب وإنّما تســـلح أيضا بمنطق القوة. اذن مواجهته بهذا الأسلوب أمر موضوعي في رأي الطاغوت.

(**وَلْيَدْعُ رَبَّهُ**)

الذي تحدّانا به كثيرا ، وهذا منطق كلّ الطغاة ، إنّه لو كـان الثـائرون على الحق إذن لكـانوا أقويـاء ولانتصـروا لأنفسـهم فعلا! إلّا أنّ خلط القـوة بـالحق ، وجعل القـوّة الظاهرية الآنية مقياسا لمعرفة الحق من الباطل خطأ كبير يقع فيه الطغاة ، لأنّ الحق والقانون لا يتحدّد بـالقوة والإرهـاب ، فقد يكـون الحق ضـعيفا لعوامل خارجة عن إرادة أصحابه ، وقد يكـون الباطل قويّا ولكن هـذا لا يبـدّل الباطل حقّا والحـقّ بـاطلا أبـدا ، وفي ما يلي من الآيـات نجد المزيد من البيان في خطأ هذه الفكرة الـتي يعتمـدها الطغـاة في تضـليل النـاس لأنّ هـذه الفكـرة من الأسس التي تقوم عليها الأنظمة الفاسدة وتعطيها صبغة الإرهـاب والقمع ، الذي يسعى الطغاة لتبريره بشتّى الحجج ، فهـذا فرعون يحاول تبرير قراره الإرهابي وتهيئة المعارضـين له لقبوله.

(**إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ**)

أي أفكاركم وثقافتكم ، وكـلّ أفكـار يلـتزم بها النـاس فهي دينهم ، وتبـــدّل ثقافة النـــاس من ثقافة التخلف والقابلية بالطـــاغوت الى ثقافة ثورية حضـــارية من أشد الأمور خطورة على الطواغيت ، فهم يخـافون من حـدوث ذلك كما صرّح فرعون بنفسه.

أو ليس النظام الطاغوتي هو إفــراز لثقافة المجتمع ، وبقـاؤه يعتمد على سـكوته؟ إذن فـأيّ تغيـير إيجـابي في هذه الثقافة يعني تغيّر النظام الحاكم أيضا.

وحيث أحسّ فرعون بخطورة الحركة الرسالية سعى بالإضــافة الى ضـغطة على تيّارها الاجتمــاعي ومؤيــديها لفصـلهم عنها ، وقـراره بقتل قائـدها ، سـعى الى إثـارة النـاس ضـدها عن طريق الإيحـاء لهم بأنّها تحـارب دينهم وما التزموا به هم وآباؤهم ، هذا فيما إذا سكت فرعــون ، أمّا إذا عــارض موسى فســوف تقع الفتنة بين النـــاس ، وتسبّب في قتل النـاس وتـدمير اقتصـادهم ، هكـذا صـوّر فرعون لقومه وقال :

(**أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ**)

وهاتــان التهمتــان هما في عــرف السياســيين اليــوم أخطر ما يمكن توجيهه للمعارضة وخاصة في البلاد الديكتاتورية ، والقــرآن يختصر بهـذه العبـارات المـوجزة موقف الطغــاة من الحركــات التغييرية في كــلّ مكــان وزمان.

[27] أمّا موسى (ع) فهو في الوقت الذي تحدّى هـذا الغـــــرور والعنجهية الفرعونية ، لم يعتمد على ذاته ، ولا على منطق القوة ، إنّما اعتمد وكسائر الأنبيـاء والربّـانيين على قوة ربّه وقوة الحق الذي يؤمن به ويجاهد من أجله.

(**وَقـالَ مُوسى إِنِّي عُـذْتُ بِـرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُـلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ**)

والتكبّر والكفر بيوم الحساب ، هاتان الصفتان تنتهيان الى شيء واحد ، هو ضياع المقاييس عند الإنسـان ، فـإذا به يعتقد بأنّ ما تشتهيه نفسه هو الحق ، فبتكبره لا يخضع للحق ، وبكفره بالجزاء لا يتحسّس المسؤولية ، ولمقاومة شرّ هذا النوع من الرجال لا بدّ من الاستعاذة بالله ، أوّلا : للاستقامة أمام إغرائهم وإرهـابهم ، وثانيا : للاسـتلهام من الوحي سبل مقاومتهم.

[28] وينعطف السـياق القـرآني ليكشف جانبا من الصراع الداخلي الذي يدور في صـفوف الطـاغوت ، حيث الموقف الرسالي الحاسم لمؤمن آل فرعـون من النظـام الفاسد ، والـذي يكشف ظهـوره في هـذا الموقع من الصـراع عن مـدى تغلغل الحركة الرسـالية في الأجهـزة الفرعونية ، كما يعكس محتـوى الاسـتعاذة بالله وكيف أنّ ربّنا ينصر رسله برجال ادخرهم لمثل ذلك.

(**وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ**)

وهو حزقيل الذي بقي إيمانه طيّ الكتمان دهرا طويلا حسب بعض الأخبار ، وإن دلّ هـذا الأمر على شـيء فإنّما يـدلّ على أنّ أسـاليب النضـال ليست واحـدة ، بل ينبغي لكلّ مناضل أن يتحرّك في جهاده من الخنـدق المناسب ، وإذا كانت خنادق الجهاد تختلف ـ كما صوره ـ من شـخص لشـخص ومن ظـرف لآخر فـإنّ الهـدف يبقى واحـدا والمحتـوى هو المحتـوى ، بينما يقتضي الأمر الإلهي أن يفجّر موسى (ع) صراعا صريحا مع الطاغوت ، ويتسـاقط أتباعه من بني إسرائيل كأوراق الخريف بعاصفة الإرهـاب ، نجد هـذا المـؤمن المجاهد يحتفظ بمركـزه في بيت فرعون ، ليقوم بدور أساسي في هدم نظامه.

فبينما كـان الطـاغوت جالسا يتبـاحث أمر موسى (ع) مع خاصته ليكيدوا به ويقتلوه ، والكل يزعم بـأن لا غـريب بينهم ، وإذا بالمؤمن ينهي فترة الصمت

والكتمان ويستنكر عليهم قرارهم المنحرف.

(**أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ**)

وهذا هو الحقّ والواقع.

(**وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ**)

ثم إنّ دعوته لم تكن مجـــردة ، إنّما كـــانت مدعمة بالأدلة والبراهين التي تؤكد صـدقها ، وإنها ليست من عند موسى نفسه بل من ربّ الخلائق ، ولعل هذا الحدث كـان ذا أثر عميق على فرعـــون وقـــادة نظامه ، أن ينهض من بينهم شخص يؤيد المعارضة وينتمي لها.

من هنا ينبغي لأولئك الــذين يتوبــون لله من أعــوان الظلمة ، أن يدركوا أهمية كتمانهم ، فلا يظهرون قـرارهم بالتوبة ، وإنّما يبعثــون بشــخص موثــوق أو برســالة ، أو يلتقون هم بأنفسهم بالقيادة الدينية الواعية ، ويستطلعون رأيها ، ويعرفون مسـئوليتهم والـدور المناسب الـذي يجب أن يمارسوه ، كما فعل نعيم بن مسـعود الأشـجعي الـذي جاء الى رسول الله (ص) فقـال : يا رسـول اللـه! إنّي قد أسـلمت ولم يعلم بي أحد من قـومي ، فمـرني بـأمرك ، فقال له رسول الله (ص) إنّما أنت فينا رجل واحد فخـذل عنا ما استطعت (يعني شط الأعداء وجبنهم) فإنّما الحرب خدعة ، فـانطلق نعيم بن مسـعود حـتى أتى بـني قريظة فقـــال لهم : إنّي لكم صـــديق والله ما أنتم وقـــريش وغطفـان من محمد (ص) بمنزلة واحـدة. إنّ البلد بلـدكم وبه أموالكم وأبنـاؤكم ونسـاؤكم ، وإنّما قـريش وغطفـان بلادهم غيرها ، وإنّما جـاؤوا حـتى نزلـوا معكم فـإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن رأوا غـــير ذلك رجعـــوا إلى بلادهم وخلّـــوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به ، فلا تقـــاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا

يبرحوا حتي يناجزوا محمدا ، فقالوا له : قد أشرت برأي ، ثم ذهب فأتى أبا سفيان وأشراف قريش فقال : يا معشر قريش إنّكم قد عرفتم ودّي إيّاكم ، وفراقي محمــدا ودينه ، وإنّي قد جئتكم بنصيحة فاكتموا عليّ ، فقـالوا : نفعل ما أنت عنــدنا بمتهم ، فقــال : تعلمــون أنّ بــني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد فبعثوا إليه أنّه لا يرضــيك عنّا إلّا أن نأخذ من القــوم رهنا من أشــرافهم وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك فقال : بلى. فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجالكم فلا تعطـوهم رجلا واحـدا ، واحـذروا ، ثم جاء غطفان وقال : يا معشر غطفـان إنّي رجل منكم ، ثم قـال لهم ما قـال لقـريش ، فلما أصـبح أبو سـفيان وذلك يوم السبت في شوّال سنة خمس من الهجـرة بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قـريش أنّ أبا سفيان يقول لكم : يا معشر اليهـود إنّ الكـراع والخف قد هلكا وإنّا لسنا بدار مقام فاخرجوا الى محمد حتى نناجزه ، فبعثوا إليه : إنّ اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شـيئا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حـتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمـدا فقال أبو سفيان : والله قد حـذرنا هـذا نعيم ، فبعث إليهم أبو ســفيان : إنّا لا نعطيكم رجلا واحــدا فــإن شــئتم أن تخرجوا وتقاتلوا ، وإن شئتم فاقعدوا ، فقالت اليهود : هذا والله الذي قـال لنا نعيم ، فبعثـوا إليهم ، إنّا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا. وخذّل الله بينهم ، وبعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية بـاردة شـديدة الـبرد حـتى انصـرفوا راجعين. قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليمان : والله لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجـوع والخـوف ما لا يعلمه إلّا الله ، وقـام رسـول الله (ص) فصلّى ما شـاء الله من الليل ثم قـال : ألا رجل يأتينا بخـبر القـوم يجعله الله رفيقي في الجنــة. قــال حذيفة : فو الله ما قــام منّا أحد ممّا بنا من الخوف والجهد والجـوع ، فلمّا لم يقم أحد دعاني فلم أجد بـدّا من إجابته ، قلت : لبيـك! قـال اذهب فجئـني بخـبر القـوم ولا تحـدثنّ شـيئا حـتى ترجع ، قـال : وأتيت

القـــوم فـــإذا ريح الله وجنـــوده يفعل بهم ما يفعل ، ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا تطمئن لهم قــدر ، فـإنّي لكـذلك إذ خـرج أبو سـفيان من رحاله ثم قـال : يا معشر قــريش لينظر أحــدكم من جليسه ، قــال حذيفة : فبدأت بالذي عن يميـني فقلت : من أنت؟ قـال : أنا فلان ، ثم عــاد أبو سـفيان براحليه فقــال : يا معشر قــريش! والله ما أنتم بـدار مقـام ، هلك الخـفّ والحـافر ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وهـذه الـريح لا يستمسك لنا معها شـيء ، ثم عجل فركب راحلته وإنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلّا بعد ما ركبها. قـال : قلت في نفسي : لو رميت عـدوّ الله فقتلته كنت قد صنعت شيئا ، فوقرت قوسي ، ثم وضعت السهم في كبد القوس ، وأنا أريد أن أرميه فأقتله ، فذكرت قول رسول الله (ص) : «لا تحدثنّ شـيئا حـتى ترجـع» ، قـال : فحططت القـــوس ثم رجعت الى رســـول الله (ص) وهو يصـلّي فلّما سـمع حسي فـرّج بين رجليه فـدخلت تحته ، وأرسل على طائفة من مرطة (يعـــني الكســـاء ، ولعـــلّ الرسـول كـان يريد أن يخفيه حـتى عن المسـلمين ليبقى مجهـولا في تحرّكـه) فركع وسـجد ، ثم قـال : ما الخـبر؟ فأخبرته [1]

ولا ريب أنّ الــدور الــذي مارسه مــؤمن آل فرعــون (حزقيل) لم يكن بعيدا عن قرار القيادة الرسالية المتمثلة يومئذ في شـــــــــخص موسى (ع) فقد بقي إيمانه طيّ الكتمان مـدّة طويلة ، كـان خلالها حـذرا قـويّ المراوغة ، فلم يفتضح أمره أبدا ، وكان ثابت العقيدة ، راسخ الإيمان ، فلم تغيّر المناصب ولا المغريـــــات من موقفه ، وهو مع ذلك لم يعتــبر الكتمــان هــدفا في حركته ، إنّما اعتــبره وسيلة لهدف ، لهذا فجّر صراعه مع الطاغوت حيث كانت الظـــروف مناســبة للإعلان عن موقفه الـــواقعي ، وذلك حينما دافع عن موسى (ع) وعارض الطغيان الـذي مارسه فرعـون ونظامه الى حد رفض الآراء المعارضة ومواجهتها بالقتل والإرهاب ، قائلا : بأنّ الموقف السليم تجاه آراء

---

(1) مجمع البيان / ج 7 ـ 8 ص 244 ـ 345.

الآخــرين ليس اســتخدام منطق القــوة وإنّما اســتماعها والإصغاء لصاحبها ، فإن كانت خاطئة فليس ذلك مما يضرّ السلطة إذا كانت على الحق ، وإن كانت صـادقة وسـليمة فيجب إتباعها والانتفاع بها ، وإلّا فإنّ العاقبة سـتكون غـير محمودة إذا رفض الإنسان الحق.

(**وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ**)

وهو الذي يتحمّل مسئولية رأيه وموقفه.

(**وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**) .

هكــذا تســاءل مــؤمن آل فرعــون : لمــاذا تقتلــون موسى؟ فهو إن كان كاذبا لم نخسر نحن شـيئا ، وإن يكن صادقا فالأمر خطير بالنسبة لكم؟ وكان هذا السؤال كافيا لو انطلق منه فرعــون وحاشـيته أن يوصـلهم الى الحق ، ولكنّ الشك المنهجي لا ينفع الـــذين حجبت شـــهواتهم عقولهم ، وأرادوا الإسراف في اللّذات ثم تبريرها بالأعذار والأسباب الكاذبة.

(**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ**)

فقلبه متجه الى الشهوات كلية.

(**كَذَّابٌ**)

يستخدم لسانه في تبرير شهواته ، والخلط بين الحق والباطل وهذه من أخطر المشاكل التي يبتلى بها الإنسان ، ولذلك قـال رسـول الله (ص) : «**أعـوذ بالله من قلب مطبق ولسان مطلق**» .

[29] ويــبيّن المــؤمن الســبب الــذي جعل فرعــون وقومه يكفرون بموسى (ع) وهو

الخلط بين الحق والقوة ، فقد زعمـوا بـأنّ ما عنـدهم من قوة ظاهرة تغنيهم عن البحث الجاد من أجل الوصول الى الحق والالتزام به.

(**يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ**)

فأنتم أصـحاب القـوّة الماديّة والسـيطرة الاجتماعية ، ولا أحد ينافسكم ، ولكن هل تبقى هذه القوة وتستمر؟ ثمّ إذا حلّ غضب الله فهو لا يرد.

(**فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا**)

وبالطبع سوف تكون الإجابة على هذا السؤال بـالنفي (لا أحـد) إذن فما قيمة القـوة الـتي لا تمنع عن أصـحابها الأذى؟ وكل هذه الأسئلة والتي ستليها يجمعها سياق واحد هو : محاولة المؤمن من خلالها إثـارة الشك المنهجي في النفوس وقيادتها للحق.

ولعل المـؤمن أفلح في إيجـاد جبهـتين في صـفّ الحـاكمين ، مما دفع فرعـون للتـدخل من أجل حسم الخلاف وإنهائه لصالحه.

(**قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ**)

قطع عليهم مسيرة الشك المنهجي والتفكير ، قـائلا : إنّكم لا تحتـاجون الى التفكـير ، ولا أن تـروا شـيئا ، فأنا أفكّر وأرى لكم ، ولا أرى إلّا الحق ولا أهـــــدي إلّا إليه ، فيجب عليكم أن تسـلّموا لي تسـليما مطلقا ، وهـذا هو ديدن الطغاة في كلّ مكـان وزمـان ، وبالـذات في الـدول الديكتاتورية الـتي يعتقد حكّامها بـأنّ صـحفهم وإذاعـاتهم وبالتـالي رأيهم وفكـرهم وحـده الـذي يجب أن تـؤمن به الجمـاهير ، ومن هنا نهتـدي إلى أنّ فرعـون الـذي حاربه موسى لم يكن سـوى مظهر من مظـاهر الطغيـان عـبر التاريخ.

[30 ـ 31] وإذا كــان كلام فرعــون هــذا قد أخضع ظــاهرا من كــان حوله ، فــإنّ المــؤمن بقي متصــلّبا في نصــرته للحق ، والتزامه ببصــيرة الهــدى ، رغم تضــليل الطـــاغوت ، وهكـــذا ينبغي للمؤمـــنين في كل الأمكنة والعصور.

(**وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخـافُ عَلَيْكُمْ مِثْـلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ**)

وهم كــلّ جماعة يتحزّبــون على أســاس الهــوى ضد الحق ومن يمثّله ، وكمثل لهذه الفئة يشير القرآن إشــارة عابرة إلى طوائف منهم ذهبت قصصــهم عــبرا وأحــدوثات في الأمم الغابرة.

(**مِثْـلَ دَأْبِ قَـوْمِ نُـوحٍ وَعـادٍ وَثَمُـودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ**)

فهــؤلاء وإن اختلفــوا في تــاريخهم وقصصــهم وفي عاقبتهم إلّا أنّهم متشابهون في جحــودهم الحق ، إذ كــذّبوا الرسل وخالفوا رسالاتهم ، وهذا الربط بين أحداث التاريخ ثم الاهتــداء بها الى سـنّة الله في الحيـاة يـدلّ على عمق البصيرة والإيمان عند مؤمن آل فرعون.

وبعد أن وجّه هذا الداعية العقول الى عبر التاريخ من خلال أحداثه المأساوية الفظيعة يؤكد على عدالة الله وأنّ ما يصير إليه البشر نتيجة تفكيرهم وسلوكهم لا نتيجة قدر إلهيّ ظالم ، حاشا لله.

(**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ**)

بل العباد هم الذين يظلمون أنفسـهم حينما يخــالفون الحق وسنن الحياة.

[32 ـ 33] ثم تابع تحذيره من يوم غضب الله.

(**وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ**)

حيث ينـادي كـلّ شـخص بـالآخرين لعلهم ينقذونه من العـذاب. وكلمة «أخـاف» الـتي يقولها المـؤمن دليل على شفقته ورأفته بالناس.

ثم يبين واقع ذلك اليوم.

(**يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ**)

لأنّ ما يعصم البشر من عذاب الله ونقمته هو الإيمان والعمل الصالح ، وليس عندكم من هذا شيء.

(**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ**)

فالهداية مرتبة رفيعة لا يصل إليها كـلّ إنسـان ، ومن يريد الهداية فإنّها لا تحصل بـــــــالبحث عن الحق وتزكية النفس وحسب ، إنّما لا بد من التوسّـل بالله ودعائه ، لأنّ الهـدى الحقيقي لا يكـون إلّا من عنـده وبإرادته ، والـدليل على ذلك أنّه تعـالى حينما يضـلّ أحـدا فلا سـبيل بعـدها لهدايته.

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنـاتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللـهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُـولاً كَـذلِكَ يُضِـلُّ اللـهُ مَنْ هُـوَ مُسْـرِفٌ مُرْتـابٌ (34) الَّذِينَ يُجـادِلُونَ فِي آيـاتِ اللــهِ بِغَيْـرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللـهِ وَعِنْـدَ الَّذِينَ آمَنُـوا كَـذلِكَ يَطْبَـعُ اللـهُ عَلى كُـلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقـالَ فِرْعَـوْنُ يا هامـانُ ابْنِ لِي صَـرْحاً لَعَلِّي أَبْلُـغُ الْأَسْـبابَ (36) أَسْـبابَ السَّـماواتِ فَـأَطَّلِعَ إِلى إِلـهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُـوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (37) وَقالَ الَّذِي

---

37 [تباب] : هلاك وخسارة ، من تبّ بمعنى هلك وخسر.

آمَنَ يا قَـوْمِ اتَّبِعُـونِ أَهْـدِكُمْ سَـبِيلَ الرَّشـادِ (38) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِـلَ صـالِحاً مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْـثى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40)

وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ

هدى من الآيات :

يشــــكّل نمـــوذج فرعـــون في حكم مصر المحـــور المناقض ليوسف (ع) الذي حكم تلك الـديار أيضا ، وحينما لا يريد الإنســان أن يـؤمن فسـوف يجـادل في آيـات الله ســواء هبطت على يوسف (ع) الملك المقتـــدر ، الـــذي جمعت فيه الصفات الحسنة الماديّة والمعنويّة ، أو أنـزلت على موسى (ع) الــــراعي الفقــــير والمنتمي الى طائفة مستضـــعفة مظلومـــة. ونمـــوذج فرعـــون ينـــاقض كلتا الرسالتين ، لأنّ مقياس الإيمان أو الكفر هو القلب فتــارة يكــون خاشـعا يســلّم للحق ولمن يجسّــده في المجتمع ، وتارة يكون متكبّـرا يكفر بكـلّ ذلك ، مهما كـان الشـخص الذي يمثّل الحق ، ومهما كانت الآيات بيّنة واضحة.

ويذكّر ربنا في هذا الدرس بهـذه الحقيقة ، فبينما نجد شخصا كمــؤمن آل فرعــون يكتم إيمانه مزروعا في قلب النظام الطاغوتي ، ومحاطا بكـلّ إرهـاب فرعـون وإغرائه وتضــــليله ، نجد شخصا آخر يعيش في كنف يوسف (ع) ، حيث الملك والرخاء

والهداية ، ولكنّه يكفر في قلبه بـــالحق ، ولا يـــؤمن إيمانا حقيقيّا بيوسف وبربه.

بينات من الآيات

[34] يوسف (ع) هو أحد الأبناء الاثـنى عشر ليعقـوب (ع) والــذي يســمّى بالعبرية إســرائيل أي عبد الله ، ومن صـلب هـؤلاء الإخـوة انسـلّ بنو إسـرائيل في اثـنى عشر سبطا وقبيلة ، ويوسف كان أحد آبائهم الكبار.

وقد بعث يوسف (ع) بالرســالة وأصــبح ملكا مقتــدرا يخضع له أهل مصر ، فقد جمعت عنـده الكمـالات المادية بالملك والســيطرة ، والمعنوية بالرســالة ، وبــالرغم من ذلك كفر به البعض ، ولكنّهم قـالوا في أنفسـهم : لا نظهر هـذا الكفر بل ننتظر حـتى يمـوت يوسف فنسـيطر بعـده على الحكم والملك.

(**وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ**)

موسى (ع) .

(**بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ**)

لأنّ قلوبكم لا تريد الإيمان ، وإلّا فالأدلة واضحة.

(**حَتَّى إِذا هَلَــكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللــهُ مِنْ بَعْــدِهِ رَسُولاً**)

مع أنّه ـ عليه السـلام ـ جـاءهم بـالخير والفضل ، ولا يـدلّ مـوقفهم إلّا على الضـلال الـذي كتب عليهم بسـبب إسرافهم وتردّدهم في الريب.

والآية تـوحي بـأنّ شـعب مصر أسـلم ظـاهرا على يد يوسف إلّا أنّه كــان يحبّذ العــودة إلى ضــلالته ، لأنّه كــان فاسدا بالإسراف والارتياب ، وسرعان ما عاد إلى

كفـره بعد هلاك يوسف ، وكأنّه قد اسـتراح بمـوت يوسف .. وهناك أحاديث تدلّ على إسلام الشـعب المصـري على يده.

(**كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ**)

وهنا تكشف الآية عن سـبب مـوقفهم المنحـرف من الحق ، وهو إسرافهم من الناحية العملية ، فلا يقنعون بما عندهم من الخـير والنعمة ، وارتيـابهم من الناحية النظرية والنفسية ، فلا يسلّمون للحق والبينـات ، وإذا أمعنّا النظر لوجدنا كلتا الصـفتين تنتهيـان إلى صـفة واحـدة هي عـدم التسليم للحق ، وعدم الاكتفـاء بما أعطـاهم الله ، وطلب المزيد ، المزيد من النعم الى حدّ الإسـراف ، والمزيد من الأدلّة إلى حدّ الجدل في الآيات الواضحات.

وتـدلّ هـذه الآية على أنّه كـانت ليوسف رسـالة الى قوم مصر ، وقد وفّر الله لهم فرصة الهداية بهذه الصورة الفريـدة حيث جعل مليكهم الحـبيب رسـولا إليهم لعلّهم يهتدون. ولعلّ الحكمة في ذلك كانت شـدّة تعلّق الشـعب المصري ذا الحضارة النهرية بالسلطة السياسية مما حدى بموسى ـ عليه السـلام ـ أيضا الى التوجّه الى شـخص فرعون الحاكم الأعلى لبلادهم.

[35] ونسـأل : من هم المرتـابون؟ ويجيب القـرآن : (**الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ**) ، ويحاولون تحريفها من دون أدنى حجة ، والحال أنّ الذي يخالف فكرة مّا لا بد أن يأتي بأخرى مثلها أو أفضل منها.

(**الَّذِينَ يُجـادِلُونَ فِي آيـاتِ اللـهِ بِغَيْـرِ سُـلْطانٍ أَتاهُمْ**)

وتشمل الآية ـ كما يبدو ـ الـذين يحرّفـون آيـات الله ، ويتصـرّفون فيها بغـير تفـويض من الله ، فهم يضـعون أنفسهم مواضع الحكم بلا سلطان من الله.

(**كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا**)

فالله يمقتهم فيـذلّهم في الـدنيا ويضـلّ أعمـالهم ولا يـدعهم يفلحـون أبـدا. أمّا الـذين آمنـوا فيمقتـونهم فلا ينخـدعون بهم ولا يسـلّمون لقيـادتهم. وهاتـان عاقبتـان سـيئتان لهم. أمّا العاقبة السـوءى فهي سـلب فرصة الهداية عنهم إلى الأبد ، وذلك بإطفـاء شـعلة الهـدى من قلوبهم.

(**كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**)

والجبّار هو الذي يسعى لقهر الآخرين والتسلّط عليهم ، وهي من نزعـات الملـوك والحكّـام الظلمـة. أمّا المتكبّر فهو الـذي لا يتواضع للحق ، ولا يقتنع بواقعه ، إنّما يتصـوّر نفسه دائما أكـبر من حجمه الحقيقي ، ومن هـذه صـفته فإنّ قلبه يصير منغلقا فيختم الله عليه بسـلب نـور العقل والفطرة منه.

والتعبير القـرآني دقيق جـدا حينما قـال : «**كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**» ومع أنّ بعضا من المفسّـرين قـالوا بأنّه يسـاوي قولنا : قلب كل متكبّر جبّـار ، إلّا أنّه يبـدو أنّ السـياق القـرآني أراد بيـان حقيقة هامّة هي : إنّ الطبع على القلب تختلف نسبته بـاختلاف الصـفات السـلبية عند الإنسان ، فقد يطبع الله بنسبة خمسـين بالمائة على قلب الـزاني أو السـارق ، أمّا المتكـبر الجبّـار فإنّه يطبع على قلبه كلّه أي مائة بالمائة ، وهـذا يكفي لبيـان الخلفيّـات السيئة جدا لهاتين الصفتين.

[36 ـ 37] ولأنّ بني إسـرائيل لم يؤمنـوا إيمانا حقيقا في ظـلّ يوسف الملك النـبي فقد ابتلاهم الله بفرعـون يحكم من ذات الأريكة ، وشـتّان بين الإثـنين ، وحقّا إنّها عاقبة الكفر بالنعمة.

ويوجّهنا السياق هنا إلى النهايات السيئة لهذا التحـوّل ، لعلّنا ننتبه الى أنّ

الكفر برسالات الله ، والإسراف والارتياب والتكبّر والتجبّر ، وبالتالي التملّص من مسئوليات النظام العـادل والحـاكم العـادل ــ كيوسف عليه السـلام ــ قد لا تظهر عاقبته في البداية ولكنّها عند الختام ، حيث يكـون مصـير المجتمع ما انتهى إليه أهل مصر ، إذ ابتلوا بحاكم مثل فرعون. وهكذا علينا ألّا تخـدعنا المظـاهر الخلّابة لحضـارة الشـهوات بل ندرســـها من خلال نهاياتها المأســـاوية ، وما قيمة بداية الغرور مع عاقبة السوء.

(**وَقـالَ فِرْعَـوْنُ يا هامـانُ ابْنِ لِي صَـرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ**)

بعد أن فشل فرعــون في إقنــاع من حوله بضــرورة قتل موسى (ع) ، ممّا أثبت ضعف حجته ، حـاول الاعتمـاد على القوة المادية لفرض سيطرته على الجماهير ، وهـذه مرحلة من المراحل الـتي تمـرّ بها الحضـارات ، فهي تبـدأ بـالقيم قوية حيوية ، وتبلغ المظــاهر المادية قبل أن تصل نهايتها إمّا بالـــــدمار الشــــامل أو حالة العبثية المطلقة والانطـواء التـام. وهكـذا نظـام فرعـون حينما تـبيّن لهم خـــواؤه المعنـــوي وفراغه العلمي ، توجّه الى البنايـــات الضخمة ، حيث بنى صرحا عظيما حـاول الوصـول به الى إله موسى ، وهـــذا مؤشّـــر واضح على نظرته الشـــيئية للحياة ، وسعيه لتحدّي القيم المعنوية بالمظاهر المادية.

إنّه سـعى نحو مواجهة إله موسى عـزّ وجل ، وتحدّيه سبحانه بما لديه من إمكانـات محـدودة ، كما فعل نمـرود حين أمر بإعـدام سـجين وإطلاق الآخر ، وقـال لإبـراهيم متحدّيا ربّ العزّة : أنا أحيي وأميت ، وهكذا يفعل الطغـاة في كلّ عصر. إنّهم يقومـون ــ أمـام كـلّ حركة تحررية ــ باستعراض قـوّتهم لفـرض الهيبة الـتي تكـاد تسـقط أمـام عاصفة الثورة.

وقد يكون فرعون هو الذي بنى بعض أهرامــات مصر حسبما توحي به هذه الاية

الكريمة ، والــتي كــان يســعى من خلالها لتضــليل النــاس وبلوغ أعلى مكان في نظره وهي أسباب السموات.

(**أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلــهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً**)

وهــذا ديــدن الطغــاة. إنّهم يستصــدرون الأحكــام في مختلف القضــايا بعيــدا عن المنهجية الســليمة حيث يعلم فرعــون بــأنّ الإله الحق الــذي يــدعو إليه موسى (ع) لا يدرك بالمقاييس المادية ، ولكنّه أخذ يستخدم منهجا ماديّا بحتا للتعرّف على الله ـ سـبحانه وتعـالى ــ والنتيجة الـتي سيصل إليها حتى إذا قدّر أنّه بلغ السموات العلى خاطئة ، وعلى ضوء هذا المنهج سيكون موسى كاذبا.

ومن المعروف أنّ فرعون كان يســخّر المستضـعفين لبنـاء الصـرح سـخرة وبلا أجـور ، وكـان الكثـير من هـؤلاء التعســاء الــذين كــان يحشــرهم من مختلف أنحــاء مصر يموتــون تحت ضـغط الكــدح ، وســوء التغذية ، وانتشــار الأمــراض ، وكــان قد خصّــص الى جنب أهرامــات مصر أراضي واسعة لاسـتقبال جثث هـؤلاء المسـاكين مما أثـار هذا العمل بذاته غضب الجماهير ، وهيّأ أرضية التحوّل عند شعب مصر.

(**وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ**)

بسبب تراكم العادات والممارسات الســيئة على قلبه المتكبّر الجبّار ، فكان يرى الباطل حقّا والعكس ، الى هذا المســتوى الهابط من الإعتقــاد ، حيث زعم أنّه يتحــدّى بقوّته المحـدودة إرادة اللــه. ألم ير الجبـال كيف أرسـاها الربّ ، وأنّه إذا صـعد عليها رجل لا يـرى السـماء إلّا بمثل ما يراها على الأرض؟! أو لم يعلم أنّ عاصــــفة واحــــدة تكفي لاقتلاع مظــاهر قوّته في لحظــة؟! وقد جــاء في الحديث : أنّ هامان رفع الصرح حـتى منعته العواصف من الاستمرار ، ولم يلبث أن جاءت عاصفة رهيبة

وقضت عليه.[1]

ومن جملة الآثار النفسية التي يخلّفها العناد والإصـرار على ممارسة السيئة الصدّ عن سبيل الله.

(**وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ**)

وهو القيادة الرسالية الـتي تمثّل رسـالة الله ، والـتي تهـدي البشر الى ربّه الـرحيم ، وهل يخضع المتكـبر الى الحق ، أو هل يرتضي الجبّار العدل؟ كلّا .. إذن فهو سوف يتبع الباطل في الحيـاة ، وحيث رفض السـبيل الى الله (القيادة الرسالية) فسوف يحاربها ويكيد لها.

ولكن سـنّة الله وإرادته فـوق محـاولات فرعـون الفاشلة لإطفاء نوره عزّ وجل.

(**وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ**)

أي يحوطه الفشل والخسران من كلّ جانب.

[38] وهنا يـبرز على مسـرح الأحـداث مـرة أخـرى مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه ثم تحـدّى به الطـاغوت في اللحظة المناسبة فحاز على فضـيلة الكتمـان وفضـيلة التحـدّى معا ، وهي كلمة الحق عند السـلطان الجـائر. ونحن إذا تعمقنا في قصة هـذا المـؤمن من خلال القـرآن الحكيم ، نعرف حينها المعنى الحقيقي للتقيّة في الإسـلام ، ويجب أن نبلـور هـذا المفهـوم لأنّ التقـاة تحـوّلت لـدى الكثـير الى تـبرير للتقـاعس والنكـوص عن الجهـاد ، بينما التقية (التقـاة) في مفهـوم الرسـالة هي العمل والجهـاد المركّز والمسـتمر بعيـدا عن أعين الطغـاة حـتى تحين لحظة التحدّي الكبير. وهل يحتاج

---

(1) نقلا عن موسوعة بحار الأنوار / ج 13 ص 125.

الى الكتمان إلّا من يجاهد الطغاة؟!
إنّ البعض يجعل كلمة التقية بـــــــــديلا عن العمل والتحـرك في ظـروف القمع والإرهـاب ، ولكنّه لا يتحـرّك حـتى في الظـروف المناسـبة ، ومثـال ذلك الكثـير من الشـعوب الـتي تـرفض التجـاوب مع الحركـات الرسـالية وتعلّل ذلك بوجـود الإرهـاب ، ولكنّها تـرفض الجهـاد حـتى في المهجر حيث لا إرهاب ولا شرطة.
إنّ (التقـــاة) حقًّا هي أن تحافظ على نفسك وتحركك الجهـادي بعيـدا عن سـطوة الظـالم في ظـلّ الإرهـاب ، لتحتفظ بقوتك ليوم الصراع.
وهكذا كان مؤمن آل فرعـون (حزقيـل) يكتم إيمانه ، ويتحـرّك في ظـلّ توجيهـات القيـادة الرسـالية ، منتظـرا الساعة المناسـبة لتفجـير الصـراع مع الطـاغوت ، وها قد حـلّ أوانها حيث جمع فرعــون وزراءه وأنصــاره وقــوات جيشه وسـحرته ليقـرّروا قتل موسى (ع) ، فاستبسل من بينهم وتحدّى الظلم والظالمين ليضرب لنا مثلا صادقا عن التقية التي يرتضيها الله تعـالى ، وهي النابعة من الإيمـان والإرادة والتخطيط والعمل ، وليست الناتجة عن خــــور العزيمة وخــوف الإنســان وحبّه للراحــة. فهي إذن تمهيد للتحـــدي ، وجمع للقـــوى ، لتفجـــير الصـــراع في وقته المناسب.
وهكـذا اسـتطاع مـؤمن آل فرعـون تعويق مـؤامرات فرعون التي استهدفت قتل موسى عليه السلام ، وبــذلك وفى ربّنا عهده لرسوله الأمين بنصره وتأييده.
(**وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَـوْمِ اتَّبِعُـونِ أَهْـدِكُمْ سَـبِيلَ الرَّشادِ**)
فهو من جهة تحدّى فرعون ، ومن جهة أخـرى طـالب من حوله باتباعه ، وهكـــذا ينبغي للرســاليين أن يثقـــوا برسالتهم في الحياة ، وأن يطرحوا أنفسـهم قـادة للنـاس بديلا عن القيادات الفاسدة.

[39] وحيث شـخّص المـؤمن جـذر الانحـراف ونقطة الضعف التي تدعوهم للالتفاف حول فرعـون واتباعه وهي المادية التي تتجسّد في اللهث وراء حطام الدنيا ، ذكّـرهم بالآخرة التي تتميّز عن الدنيا بنوعيّة نعيمها الأفضل ، بينما الدنيا بما فيها تشبه المتاع الذي يأخذه المسـافر معه وهو قليل ومحدود ، كما أكّد على مفارقة أخرى هامّة هي : انّ نعيم الآخرة دائم لا ينتهي حيث يلغى فيها حساب الزمن ، بينما الدنيا محدودة جدّا.

(**يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتـاعٌ وَإِنَّ الْآخِـرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ**)

وهل يختار العاقل تلك على هذه؟!! كلّا ..

[40] ويمضي المـؤمن في بيـان معـالم ثقافته الرسالية رغبة منه في إنقاذ الناس من ضلالات الطـاغوت ، قائلا :

(**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها**)

عدالة ورحمة من الله بعبـاده ، ولعلّه أراد من ذلك فضح سياسة فرعون القائمة على الظلم والجور.

(**وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ**)

فالمقياس عند الله هو العمل ، أمّا التمـايزات المادية والظاهرية ـ الـتي تقرها الأنظمة البشـرية الفاسـدة ـ فلا معنى لها أبدا. بلى. هنـاك أمر واحد يرتكز عليه العمل فلا يقبل إلّا به وهو الإيمـان. والـذين يتـوفّر لـديهم هـذان الشرطان (العمل+ الايمان) هم الذين يدخلون الجنة.

(**فَأُولئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُـونَ فِيها بِغَيْـرِ حِسابٍ**)

إنّ مشكلة الكثير من الذين يرفضـون الإيمـان بـالحق والعمل به هو انّهم ينظــرون له من خلال البلاء والمعانــاة التي يستتبعها الإيمان به ، وليس من علاج لهذه المشــكلة أفضل من التوجيه إلى نعيم الآخرة الذي هو ثمرة الإيمـان والعمـــل. وحيث ركّز المـــؤمن حديثه مع أتبـــاع فرعـــون الغـــارقين في المـــادة أراد علاج هـــذه المشـــكلة ، فهم يتساءلون : نحن الآن نترك فرعون ونخسر هذا النعيم فما ذا نجد باتباع الحق؟

وَيا قَـوْمِ ما لِي أَدْعُـوكُمْ إِلَى النَّجـاةِ وَتَـدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْـرِكَ بِـهِ ما لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُـوكُمْ إِلَى الْعَزِيـزِ الْغَفَّارِ (42) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْـوَةٌ فِي الـدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللــهِ وَأَنَّ الْمُسْـرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44) فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَـوْنَ سُـوءُ الْعَـذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُـدُوًّا وَعَشِـيًّا وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ أَدْخِلُـوا آلَ فِرْعَـوْنَ أَشَـدَّ الْعَـذابِ (46) وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ

(47) قالَ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا إِنَّا كُـلٌّ فِيها إِنَّ اللـهَ قَـدْ
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبــادِ (48) وَقــالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَــةِ
جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمـاً مِنَ الْعَـذابِ (49)
قـالُوا أَوَلَمْ تَـكُ تَـأْتِيكُمْ رُسُـلُكُمْ بِالْبَيِّنـاتِ قـالُوا بَلى
قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (50)

وأفوّض أمري إلى الله

هدى من الآيات :

كما الـبرق الخـاطف في جـوّ مـدلهم في ليل داج ، شـعّت كلمـات المـؤمن في بيت فرعـون ، وهم يتـآمرون على حيـاة صـاحب الرسـالة موسى بن عمـران عليه السلام.

لقد قال لهم : إنّني أدعوكم لنجـاة أنفسـكم من النـار الـتي تحيط بكم ، بينما أنتم تـدعونني لألتحق بكم في سـواء اللهب. بلى. إنّ الكفر بالله والشـرك به (واتبـاع سلطة غير شرعية) ان ذلك بذاته النار الـتي هم فيها ، أمّا هو فـإنّ دعوته الى النجـاة منها بالإيمـان بالله العزيز

أنتم تـدعونني الى الشـركاء الـذين لا ينبغي أن يـدعو أحد إليهم ، لأنّهم تـافهون حقـراء ، بينما أنا أدعـوكم الى من إليه مصـيرنا جميعا ، وأنتم تـدعونني الى الإسـراف الذي لا ريب ينتهي بصـاحبه الى النـار ، بينما أدعـوكم الى التقوى.

وتحـدّاهم (حين لم يسـتجيبوا لـه) بأنّه ينتظر وإيـاهم عاقبة الأمر حين يستذكرون

إنــذاره ، أمّا هو فقد فــوّض أمــره الى الله الــذي وقــاه سيئات ما مكروا ، بينما أحاط بآل فرعون سوء العــذاب ، ففي عالم البرزخ يعرضون على النار صباحا ومساء ، وإذا قامت الساعة يذوقون في جهنم أشدّ العذاب.

هنالك حيث لا ينفع الضعفاء تبريرهم بأنّهم إنّما اتبعــوا كبراءهم فلذلك لا بد أن يتحملوا عنهم نصيبا من العذاب ، كلا كل من الضــعفاء والمســتكبرين في النــار بحكم الله الذي لا ينقض حكمه أحد.

بينات من الآيات :

[41] لا يطيب المــوت في فم أحد إلّا أنّ المــترفين أشــدّ هيبة منه ، لأنّهم أحــرص على حيــاة الــدنيا ، وأعمق اغترارا بزخارفها ، ولا بد أن يضــرب الــدعاء إلى الله على هــذا الــوتر الحسّــاس في أفئــدة المــترفين ، ويــذكّروهم بــالموت وما بعد من الجــزاء الشــديد ، وكفى به موعظة لمن يريد هدى وخلاصا.

وهكــذا فعل مــؤمن آل فرعــون حين ذكّــرهم بعاقبة الدعوتين ، دعوة الحق ودعوة الباطل.

(**وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُــوكُمْ إِلَى النَّجــاةِ وَتَــدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ**)

إنّهم الآن في النار وقد أحاطت بهم من كــلّ صــوب ، السياسة طغيــان ، والإقتصــاد تــرف ، والتربية انحــراف ، والاعلام ضــلالة ، فهم يتقلبــون في ســرادقات الجحيم ، وإنما يدعوهم المؤمن للنجاة ، بما تحتاجه من همّة وسعي واجتهاد ، ولكنهم يدعونه الى التوغّل في النار.

والآية تشملنا أيضا ، فباســتثناء المتقين يعيش النــاس في ســواء النــار ، ما دامت الشــهوات تقــودهم ، والفســاد يحيط بهم ، وقد قال ربّنا سبحانه : (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا**

وارِدُها كـانَ عَلى رَبِّكَ حَتْمـاً مَقْضِـيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا) [1]

ونتساءل : كيف نحن جميعا في النار إلّا المتقين؟

أرأيت جرثومة السل في المجهـــــــر؟ أو ســــــمعت بفــيروس الجــذام؟ إنّهما في الواقع يمثلان ذات المــرض الــذي تظهر أعراضه على المســلول والمجــذوم ، ولكنّ الخبير وحـده يعـرف ذلك ، أمّا الجاهل فـتراه يسـتنكر أن تكـون هـذه الجرثومة وذلك الفـيروس هو ذات المـرض .. كذلك خبير المتفجّرات يعرف مدى قـوة النـار الكامنة في كيلو غــرام من مــادة متفجّــرة حارقة ، أمّا الجاهل فلعلّه يحسبها ترابا ، كذلك الواعون يعرفـون أنّ مـال اليـتيم هو ذاته اللهب إذا أكله الغاصب ، وأنّ الكــــــــذب ريحته نتنة تخــرج من فم صــاحبها وتنتظــره على بــاب جهنم ، وأنّ الظلم اليوم ذاته ظلمات في القيامة ، وهكذا ..

[42] والنار التي يدعو المؤمن للنجـاة منها هي الكفر بالله الــذي يتمثّل بالشــرك بــه. فما هو الشــرك؟ إنّه الخضوع لأحد من دون أن يـأذن الله ويـنزل عليه سـلطانا مبينا.

(**تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ**)

لعلّ قوم فرعون كانوا جاحــدين بالله رأسا ، أو كـانوا مشــركين وشــركهم دعــاهم الى الكفر ، لــذلك قـال لهم مؤمنهم :

(**وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**)

---

(1) مريم / 72.

ونستوحي من هذه الآية كما من آيات أخرى أنّ مجرد التسليم لما لا يعلم الإنسان يقينا ان الله أمره به شرك.

وقد خلق الله الإنسان عبدا له لا لغيره ، ولم يـأذن له بـأن يتنـازل عن حريته لأحد أبـدا ، بل فـرض عليه مقاومة من يريد سـلب حريته والاعتـداء على حرمة اسـتقلاله ، واعتبر مجرد التسليم للطاغية شـركا ، وإنّ الشـرك لظلم عظيم.

أمّا دعوة الحق فهي الى الله :

(**وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ**)

فبعزته يهيمن علينا ويفرض سلطانه ، وبمغفرته يقبل التوبة عن عبـاده المسـرفين ، الـذين طالما سـكتوا عن جرائم الطاغوت ، وغدوا يأكلون رزق الله ويعبدون عـدوّه ، كما قبل توبة السحرة.

[43] لا ريب أنّ البشر ـ أنّى سـخر القـوى المادية ـ يحيط به الضعف من كل جهة ، فهو محكـوم بسـنن الله ، وإنّما يسـعى للطغيـان لعلّه يخفّف عن ضـعفه ، لعلّه يمنع عن نفسه المرض والشيخوخة والمـوت ، فهو أضـعف من أن يمنح الآخرين قوّة ..

وهكذا فهو ليس جديرا بالدعوة إليه.

(**لا جَـرَمَ أَنَّما تَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ لَيْسَ لَـهُ دَعْـوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ**)

انها مجرّد خرافات وأوهام وأماني وغرور.

وتفسير كلمة «لا جـرم» حرفيّا : لا قطع ، وتعـني أنّه لا أحد قادر على قطع هـذا الكلام أو نقضه ، فهو كلام حق ، وقد استخدمها مـؤمن آل فرعـون لمزيد من الثقة بهـذه الحقيقة ، ولتحدّى حالة الخوف والرغبة عند أنصار فرعون الذين فقدوا كلّ

استقلالهم وثقتهم بأنفسـهم أمـام طغيـان فرعـون .. وإن كـانوا يتفكـرون قليلا لعرفـوا أنّ فرعـون أضـعف من أن يفرض عليهم سلطانه ، إنّه إن لم يكن أقلّ منهم قـوة فلا ريب أنّه كواحد منهم ، وإنّما يســتمدّ قوته من ضــعفهم ، وهيبته من ذلّهم ، ولو أنّهم عرفــــوا قيمة أنفســـهم حقّا لوجدوه تافها حقيرا ، وأنّه ـ بالتالي ــ ليس له دعـوة ، ولا فـرق بينه وبين صـخرة صـمّاء أو بقـرة عجمـاء أو شـجرة مسوسـة. أرأيت هـؤلاء الـذين يعبـدون صـنما أو بقـرا أو شجرة هل يعطيهم ما يعبدونه شيئا أم هم الـذين يضـفون عليه قداسة ويعطونه القوة على حسابهم؟

أمّا الله الذي يدعو إليه المؤمن فإليه مصـير الجميع ، فهو خير من دعي وأكرم.

(**وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ**)

ثم ذكّرهم بالحقيقة الفطرية التي أودعت ضـمير كـلّ إنســان ، تلك هي أنّ الله الــذي خلق كل شــيء وقــدّره تقديرا حكيما ، وانبثّت آيات عدله وحكمته في كلّ صـغيرة وكبـيرة ، لا يسـتقبل بترحـاب المسـرفين الـذين تجـاوزوا حـدودهم ، واعتـدوا على حقـوق الآخـرين ، إنّما يـودعهم سجنه الأليم النار وساءت مصيرا.

(**وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ**)

لو أيقن الإنســان حقّا أنّه يــرد الى الله ، وأنّ الله هو الذي يحاسبه ويجازيه ، لارتدع عن الجــرائم ، لأنه يعلم أنّ ربّه بصــير بعبــاده ، وأنّه لا يمكن خداعه أو الهــرب منه ، وأنه لا يظلم أحدا ، فهو الحكم العدل العزيز الجبار.

وهكذا نجد السـياق يوصل المـردّ الى الله بـأنّ عاقبة المســرفين النــار ، وهي حقيقة فطرية لا جـــرم فيها ولا جدال.

[44] إذا عرف المبتلى أنّ سبب آلامه سوء اختياره ، وأنّه كـــان يقـــدر أن يتقيها بحسن عمله ، ازداد إحساسا بالألم.

وهكذا ذكّرهم داعية الحقّ بأنّهم ــ في يـوم الجـزاء ــ سوف يذكرون ما قال لهم ، ويعلمـون صـدقه ، فيضـاعف إلى ألم أجسادهم عذاب روحي شديد.

(**فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ**)

أمّا هو فقد بلغ أقصى درجـات اليقين ، ففـوّض أمـره الى ربّه ، لــذلك لا يحتمل قلبه الجــدل في تلك الحقــائق التي سردها.

(**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ**)

(**إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ**)

فهو يعلم ما في صـدور المفوّضـين أمـورهم اليه من إخلاص ويقين ، ولذلك فهو يأخذ بأيديهم.

ولعل ختـام الآية يهـدينا الى شــرط التفــويض ، وهو أعلى درجات اليقين ، وهو الإخلاص.

وهنـاك شـروط أخـرى للتفـويض نجـدها في الحـديث الذي رواه البعض عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ :

المفوّض أمره إلى الله في راحة الأبد ، وعيش الدائم الرغد ، والمفـوّض حقّا هو الفـاني عن كـلّ همّة دون الله تعالى ، كما قـال أمـير المؤمـنين علي : رضـيت بما قسم الله لي ، وفوّضت أمـــري إلى خـــالقي ، كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن

فيما بقي .. قال الله عزّ وجلّ في المؤمن من آل فرعون : (**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ**) .

والتفويض خمسة (أي أنّها خمس كلمات) لكلّ حرف منها حكم ، فمن أتى بأحكامه فقد أتى به ، «التاء» من تركه التدبير في الدنيا ، و «الفاء» من فناء كلّ همّة غير الله تعالى ، و «الواو» من وفاء العهد وتصديق الوعد ، و «الياء» اليأس من نفسك واليقين من ربّك ، و «الضاد» من الضمير الصافي لله والضرورة إليه ، والمفوّض لا يصبح إلّا سالما من جميع الآفات ، ولا يمسي إلّا معافى بدينه [1]

[45] وحين فوّض حزقيل أمره الى الله ، تولّاه ربّ العزة بأحسن وجه ، فحفظه من مكر آل فرعون ، بينما أحاط بهم سوء العذاب.

(**فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا**)

جاء في بعض التفاسير أنّه التحق بموسى (ع) وعبر البحر معه الى برّ الأمان ، وقال البعض : إنّه اعتصم ببعض الجبال وسخر الله الوحوش للدفاع عنه. [2]

وجاء في حديثين عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ انّ عاقبة أمر حزقيل كانت الشهادة ، وأنّ الله سبحانه إنّما وقى دينه عن مكر أولئك المفسدين ..

قال : «**والله لقد قطّعوه إربا إربا ، ولكن وقاه الله عزّ وجلّ أن يفتنوه عن دينه**» [3]

بلى. قد يختار ربّنا هذه الخاتمة الحسنى لبعض الدعاة إليه حين يعرف أنّ ذلك

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 520.

(2) عن مجمع البيان عند تفسير الآية.

(3) نور الثقلين / ج 4 ـ ص 521.

صلاح لهم وللقضية فيتقبّلها هؤلاء بكلّ رحابة صدر ، أوّلا : لأنّها غاية مناهم ، وثانيا : لأنّها تحقّق أهدافهم التي أخلصوا لها ، فإذا كان تحقيق الأهداف لا يمكن إلّا عبر الشهادة فأهلا بها وألف مرحبا.

(**وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ**)

لقد حقّ عليهم العذاب السيء لأنّهم ما استجابوا للنذير.

[46] ما هو سوء العذاب الذي حاق بآل فرعون؟ كلّنا يعلم أنّهم أغرقوا في اليمّ ، وأورث الله بني إسرائيل ديارهم وأموالهم ، ولكنّ السياق هنا يتجاوز ذلك الى عذاب آخر أشدّ من الغرق. لماذا؟

إنّ الإنسان يعرف جانبا من أهوال الغرق ، خصوصا إذا شمل مئات الألوف من الناس ، كما جرى لآل فرعون. ولكن السياق يذكّرنا بأنّ هذه الأهوال بسيطة إذا قيست بعذاب الآخرة. أو ليس الموت مكتوبا على كلّ نفس؟ وأنّى كانت أسبابه فإنّ مرارته في لحظات. أمّا النار التي أنذر بها الوحي فهي خالدة. أمّا في البرزخ فإنّها :

(**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا**)

ونستوحي من الآية أنّ أرواح الكفار تؤخذ كلّ يوم مرّتين إلى النار : أوّل النهار وآخره ، ولعلّ مجرد زيارة النار تعتبر عذابا سيئا ، إذ أنّهم يمسّهم لهيبها ، ويردعون بألوان العذاب فيها. أو أنّهم يدخلون سواء النار ليعذبوا فيها مباشرة.

وفي الحديث عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ في تفسير هذه الآية أنه :

سأل أوّلا عن تفسير الناس لهذه الآية ، فقال : ما يقول الناس؟ قال الراوي :

يقولون : إنّها في نار الخلد ، وهم لا يعذّبون فيما بين ذلك ، فقال : فهم من السعداء! فقيل له جعلت فـداك! فكيف هذا؟ فقال : إنّما هـذا في الـدنيا ، فأمّا في نـار الخلد فهو قوله : (**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُـوا آلَ فِرْعَـوْنَ أَشَـدَّ الْعَذابِ**) [1]

وحسب هـذا التفسـير فـإنّ أرواح الكفّـار تعـذّب في البرزخ بعذاب أخفّ من عـذاب الآخـرة ، ولـذلك روي عن الإمام الصادق (ع) أنّه سئل عن أرواح المشـركين؟ فقـال : في النـار يعـذّبون ، يقولـون : ربّنا لا تقم السـاعة ، ولا تنجز لنا [ما] وعدتنا ، ولا تلحق آخرنا بأولنا [2]

(**وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ أَدْخِلُـوا آلَ فِرْعَـوْنَ أَشَـدَّ الْعَذابِ**)

[47] ويبقى السؤال : لماذا أدخل الله كلّ آل فرعون أشدّ العذاب ، بينما المجرم الأصلي هو فرعون وجنوده؟

الجواب : إنّ الضعفاء منهم خضعوا لفرعون ، ورضـوا به ، فشاركوه الجزاء الشديد ، ولم ينفعهم تبريرهم بـأنّهم كـانوا أتباعا لفرعـون زاعمين أنّ فرعـون والمسـتكبرين يتحمّلون عنهم وزر أعمالهم ، كلا ..

(**وَإِذْ يَتَحـاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُـولُ الضُّـعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعـاً فَهَـلْ أَنْتُمْ مُغْنُـونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ**)

هنالك تسـقط هـذه الأعـذار الواهية الـتي يحـاول الضعفاء تبرير سكوتهم عن المستكبرين بها.

كما يقال مثلا : أنا عسـكري وعليّ طاعة قيـادتي ، أو يقال : المأمور معذور ، أو

---

(1) المصدر / ص 523.
(2) المصدر / ص 523.

يقـال : بـأنّ القيـادة أعـرف وأنّ الملـوك أعلم بالصـلاح وأبخص. كلا .. إنّ كلّ بشر مسئول بصـورة مسـتقلة يـوم القيامة عن كلّ مواقفه وأعماله.

[48] وهكذا يسدل الستار على هـذه المحاجة عند ما يكشف المستكبرون عن مدى عجزهم.

(**قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها**)

نحن وأنتم ، فكيف نستطيع إنقاذكم ونحن لا نسـتطيع إنقاذ أنفسنا منها.

(**إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ**)

ولا أحد بقادر على أن يفرّ من حكومة الله.

وهكذا كشف السياق بأنّ الذين يـدعون من دون الله ليست لهم دعـوة في الـدنيا ولا في الآخـرة وأنّهم جميعا في النار ، كما بيّن السياق : نهاية الخضوع للطـاغوت أنّها المشـاركة معه في النـار ، بينما عاقبة الثـائرين عليه ، أنّ الله يحفظهم من مكر الطـاغوت ، كما وقى مـؤمن آل فرعون سيئات ما مكروا.

[49] وبعد أن يقنط أهل النـار من شـفاعة بعضـهم ، يـدفعهم الألم الى التوسل بخزنة جهنم ، وهم الملائكة الغلاظ الشداد الذين وكّلـوا بهم ، وكلّفـوا بالإشـراف على تعذيبهم ، فيتوسل بهم أصحاب النـار لعلّهم يشـفعون لهم عند ربّهم ليخفّف عنهم يوما من النار.

(**وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ**)

سواء المستكبرون منهم والضعفاء.

(**لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ**)

وحفظة الجحيم.

(**ادْعُوا رَبَّكُمْ**)

ونتساءل : لماذا لم يبادروا بالدعاء بأنفسهم؟ يبدو أنّه لا يحقّ لهم يومئذ التحدّث مباشرة مع ربّ العزة كما كـان يحــقّ لهم في دار الــدنيا ، وإنها لفرصة نــادرة ينبغي أن ننتهزها اليوم قبل فوتها غدا ، وقد جاء في الدعاء المـأثور :

«**اللهم أذنت لي في دعائك ومسئلتك ، فاسـمع يا سميع مدحتي ، وأجب يا رحيم دعوتي**» [1]

وسـوف نتحـدث إن شـاء الله عن الـدعاء وفضـيلته قريبا.

(**يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ**)

فبعد أن فشـلوا في إلقـاء جـانب من العـذاب على بعضهم بحجة أنّهم السبب فيه ، حاولوا التخفيف في برهة زمنية ، مثلا بمقدار يوم من أيام الدنيا ، وهل كـان ينفعهم التخفيف في يوم لو عـادوا مـرة أخـرى الى النـار؟! كلا .. ولكن لسوء العـذاب وشـدّة الألم كـانوا يحـاولون التخلّص منه بأيّة حجة ، ولكن عبثا.

[50] لقد جـــاء رفض الخزنة لطلبهم كالصـــاعقة صـــدعت أفئـــدتهم ألما ، ليس فقط لأنّ بصـــيص الأمل الوحيد تبــدّل عنــدهم إلى اليــأس ، وإنّما أيضا لأنّه حفل بالشماتة ، ممّا أضاف ألما نفسيّا الى آلامهم الجسمية.

---

(1) دعاء الافتتاح من أدعية شهر رمضان.

(**قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ**)

لقد عذّبوا بعد الإنذار ، والإنذار تمّ بوضوح كـاف حيث حمله إليهم رسل الله مدعوما بالآيات البينات.

(**قالُوا بَلى**)

فاعترفوا بعدالة حكم الله عليهم بالعذاب.

(**قالُوا فَادْعُوا**)

ما شئتم كثيرا أو قليلا ، ولكن اعلموا أنّه عبث.

(**وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ**)

فكما أنّ الضـال كلّما جـدّ في السـير لم يبلغ هدفه ، كذلك دعاء الكافر الـذي أضـاع فرصـته في الـدنيا للتوبة ، وأخذ يدعو في الآخرة.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْـذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُـدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْـرائِيلَ الْكِتـابَ (53) هُـدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللـهِ حَـقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكـارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللـهِ بِغَيْـرِ سُـلْطانٍ أَتـاهُمْ إِنْ فِي صُـدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْـرٌ ما هُمْ بِبالِغِيـهِ فَاسْـتَعِذْ بِاللـهِ إِنَّهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ (56) لَخَلْـقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْـقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57)

وَما يَسْـتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِـيرُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ وَلا الْمُسِـيءُ قَلِيلاً ما تَتَـذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّـــاعَةَ لَآتِيَـــةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَـــرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ

هدى من الآيات :

في إطار الحديث عن صلابة الشخصـية ، واسـتقامتها عند المـؤمن ، الى درجة نـراه يعيش في كنف الطـاغوت وهو يكتم إيمانه عنه سنين عديدة ، ثم يتحـدّاه في سـاعة المواجهة مفوضا أمـره الى الله .. في هـذا الإطـار تحمل آيات هذا الدرس وعدا من الله بنصـرة رسـله والمؤمـنين بهم (بنصــرة أهــدافهم المقدســة) ويضــرب لنا من قصة موسى مثلا حين أنــزل عليه الهــدى ، وضــمّنه في كتـاب أورثه بــني إســرائيل ، ولكنّ النصر يـأتي بعد عـدّة أمــور يوفّرها المؤمن :

أوّلا : الصبر انتظارا لوعد الله الحق.

ثانيا : الاسـتغفار من الـذنوب (وإصـلاح النفس حـتى تتهيّأ لاستقبال النصر) .

ثالثا : تسبيح الله آخر النهار وأوّله.

رابعا : التسـليم للحق ، والاسـتعاذة بالله من الكـبر الـذي يبعث البعض نحو المجادلة في آيـات الله بغـير سلطان أتاهم ، ذلك أنّ هذا الكبر (الـذي ينشأ من الـنزوع نحو الربوبيـة) لا يبلغه الإنسـان أبـدا ، وما قيمة الإنسـان حـتى يتكبّر على ربّـه؟! أولا يـرى أنّ الله خلق السـموات والأرض وهنّ أكبر منه؟! ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.

خامسا : العمل الصـالح ، ذلك لأنّه لا يسـتوي الأعمى والبصير ، كما لا يستوي المسيئون والصـالحون ، وأنّ الله يجازي كلا بعمله يـوم تقـوم السـاعة ، وبـالرغم من أنّها لا ريب فيها إلّا أنّ أكثر الناس لا يؤمنون.

بينات من الآيات :

[51] لقد وعد الله ـ ومن أصـدق من الله قيلا ـ أن ينصر رسـله الـذين حمّلهم مسـئولية بلاغ وحيه ، وأمـرهم بـأن يتوكلـوا عليه ، ويفوّضـوا أمـورهم إليه ، وهيهـات أن يخلف معهم وعده أو يخذلهم بعد أن أمـرهم بالتوكّل عليه ، أو يتركهم بعد أن فوّضوا أمورهم الى حسن تدبيره.

وهـذا النصر يمتـدّ الى تـابعي الرسل من المؤمـنين ، لأنّهم جميعا يشتركون في المسؤولية والعاقبة.

(**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا**)

ولكي لا يزعم البعض أنّ نصر الله مخصوص بـالآخرة فقد أكّد أنّ نصره يمتدّ من الدنيا إلى الآخرة :

(**فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**)

والقــرآن الكــريم كلّه شــاهد على مســيرة النصر ، شروعا من نـوح (ع) وانتهـاء بمحمد (ص) ومـرورا بسـائر النبـيين والصّـدّيقين والشـهداء والصـالحين ، صـلّى عليهم جميعا مليك السماء.

وإذا سـرنا في الأرض ، وأثرنا ذخـائر المـدن ، وبحثنا عن بقايا الحضارات البائدة ، وجـدنا شـواهد التـاريخ تـدلّنا أيضا على تلك الحقيقة.

أمّا كتب التــاريخ فبــالرغم من أنّها تــأثّرت بطبيعة المــؤلفين لها إلّا أنّ من قــرأ فيها الحقــائق وتــرك التفســـيرات يجد بين ثناياها ألف دليل ودليل على تلك الحقيقة.

وبكلّ المقاييس لا تزال حـوادث الـدنيا اليومية تشـهد امتـدادا لحركة الأنبيـاء ، عـبر توسّـع الـديانات السـماوية والمزيد من التوجّه الى تعاليمها.

بلى. إنّنا قد نجد مصـير بعض الـدعاة الشـهادة أو لا أقل الاعتقال والتهجير ، فأين النصر منهم؟!

أو لم يقتل السبط الشهيد بكربلاء؟! كما قتل المئـات من أنصار الحق بعد استتباب الأمر للأمـويين؟! بلى. ولكنّ النصر المطلــوب ليس دائما انتصــار الأشــخاص ، بل قد يفـدي الشـخص نفسه لدينه وقيمه راضـيا مسـرورا ، وقد عبّر أحد الشــعراء عن هــذه الحقيقة فيما يتصل بالإمــام الحسين سيد الشهداء (ع) :

إن كــــان دين محمد لم يســـتقم	إلّا بقتلي فيا سيوف خذيني

وعند ما سقط بطل الطف عن جواده مثخنا بـالجروح البليغة ، وحوله تنــاثرت جثث أهل بيته وأصــحابه ، وفي الأفق صيحات أطفاله : العطش العطش ، وعويل النسـاء والثكـالى ، حينـذاك جمع حفنة من الـتراب ، ووضع خـدّه عليها ، وناجى ربّه قائلا : «**إلهي رضا برضاك ، لا معبود سواك**» بلى. إنّه كان يعلم أنّ السبيل

الوحيد لحمل الرسـالة إلى القلـوب هو استشـهاده ، وأنّ قطرة الدم أبلغ أنباء من الكتب والخطب.

ولا يزال السبط الشهيد عالما يستلهم منه أبناء أمتنا البطـولات ، وينتصـرون لـدينهم بأنفسـهم .. وكـأيّن من مؤمن اعتلى عرش المشـانق مطمئنا راضـيا لتنتصر قيمه المقدسة ، وكـأيّن من مجاهد آثر الشـهادة على الحيـاة ليعلو بناء الحق والعدل ، ولتقوّض أركان الظلم والفساد.

وسؤال أخير : كيف ينتصر الربّ لرسله والمؤمنين؟

ليس بالضـرورة أن يكـون بصـورة غيبية ، مما نجـدها في طوفان نوح ، وتحوّل النار لإبـراهيم الى بـرد وسـلام ، وعصا موسى ، وإحيـــاء الأمـــوات عند عيسى ، وتأييد رسـولنا الأكـرم بالملائكة المسـوّمين ، صـلى الله عليهم جميعا.

بل قد يكـون عـبر السـنن الجارية في الخليقة ، ذلك أنّ سـنن الله الحاكمة في الكائنـات قائمة على أسـاس الحق (فقد خلق الله السموات والأرض بالحق) ورسـالات الله تهـــدينا الى ذلك الحق ، ورسل الله والمؤمنـــون مسـتقيمون عليه ، وتلتقي أفكـارهم وأعمـالهم عند نقطة الحق مع حركة الخلائق جميعا ، فلا جـــرم ينتصـــرون ، أرأيت لو أخبرت خصمك اللجـوج أنّ الشـمس تشـرق بعد ساعة وكـان حقا إنبـاؤك ، فعند الشـروق تنهـار مقاومته ، لأنّها سنة الله ألّا تتـأخّر الشـمس عن شـروقها لمجـرد أنّ شخصا لجوجا يجادل في ذلك ، كذلك حين أنبأت رسـالات الله أنّ عاقبة الظالمين الـدمار بـالرغم من أنّهم يجـادلون في ذلك ، إلّا أنه في ساعة الدمار لا أحد قـادر على إنكـار الحق ، هكذا سنن الله تجري في الاتجاه الذي تهتـدي إليه رسالات الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والتجلّي الأعظم لحقيقة رسالات الله لا يكـون إلّا عند قيام الساعة ، ذلك لأنّ

الـدنيا دار ابتلاء ، وسـتبقى فيها فرصة الإنكـار أو الجـدل لمن حقت عليه كلمة الضـلال ، فحـتى عصا موسى الـذي ابتلع حبـال السـحرة لم يفحم فرعـون الجاحد بل قـال للسـحرة :

(**إِنَّهُ لَكَبِـيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّـحْرَ. وَكـانَ الْإِنْسـانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**) .

وهكـذا ذكّرتنا الآية هنا : أنّ النصر الشـامل للرسل يكون عند انتهاء وقت الامتحان وحلول ساعة الجزاء.

(**وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ**)

هنالك الولاية لله والشهادة لأوليائه ، حيث يرى الناس المقام الكريم والمقام المحمـود للرسل والمؤمـنين حيث يقومـون بالشـهادة لهـذا فيـدخل الجنة وعلى هـذا فيدخله الله النار.

[52] أمّا الظـالمون فهم الخاسـرون إذ لا تنفعهم الأعذار التي عادة يبرّرون بها ظلمهم في الدنيا ، كما أنّهم يلاحقـون بلعنة الله والطـرد عن بركاته ورحماته ، كما أنّ مستقرّهم الأخير يكون النار.

(**يَـوْمَ لا يَنْفَـعُ الظَّالِمِينَ مَعْـذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَـةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**)

[53] لقد نصر الله المؤمنين من بني إسرائيل عند ما هيّأ لهم قائدا كريما كموسى بن عمران ، وزوّده بالتوراة ، فيها هـدى يحتـوي على جملة القيم والتعـاليم المباركة ، وفيها ذكـرى ومواعظ لمن شـاء أن يـزداد قربا من ربّه ووصولا الى الحقائق التي هي اللباب والجوهر.

(**وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُـدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْـرائِيلَ الْكِتابَ**)

ويبدو أنّ الوراثة هنا توحي إلى أمرين :

الأوّل : إنّ الكتاب أعظم رأسمال وأكـبر مجد ، وكـان بمثابة المحور الثابت الذي تدور حوله فاعليّات الأمة.

الثـاني : إنّ الكتـاب ظـلّ بينهم يرثه الجيل بعد الجيل بينما رحل عنهم قائدهم موسى عليه السلام.

[54] ولم يكن وجود الكتـاب بين بـني إسـرائيل بذاته مفخرة لهم بل الاهتداء به والتـذكر بآياته وهـذا كـان خاصا بأولي الألباب.

(**هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ**)

[55] مـــاذا ينبغي أن يقـــوم به الرسل والمؤمنـــون تمهيـدا لنصر الله ، بل وثمنا مـدفوعا سـلفا لهـذه النعمة الكبرى؟

أوّلا : لا بدّ من الصبر ، والذي يعني ـ بمعناه الشامل ـ الصبر في تنفيذ الأوامر ، والصـبر عند الشـدائد ، وبكلمة : السعي والاجتهـاد الآن انتظـارا للنتـائج المسـتقبلية ، فمن كان عجولا ، وكان يفتّش عن نتـائج سـريعة ، فإنّه لن يبلغ منـاه .. ورأسـمال الصـبر الإيمـان بوعد الله ، وأنّه حق لا ريب فيه.

(**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ**)

ثانيا : الاستغفار الذي يسقط سدود الذنوب التي تمنع النصر الإلهي ، ويهيء أرضـية الفتح ، ويوجه الإنسـان الى نواقصه الذاتية لكي يصلحها.

(**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**)

ثالثا : التقرّب الى الله بالمزيد من التسبيح والتقديس لمقـــام ربّنا الكـــريم ، حـــتى لا نظنّ بربنا ظنّ الســـوء فيوسـوس الشـيطان في قلوبنا الشـكوك حـول وعـده أو نفقد خلال المسيرة شيئا من عزمنا في تأييد دينه.

رابعا : التقـرّب الى الله بحمـده عشـيّا وبكـورا ، ذلك أنّ حمد الله يجعلنا نتبصّـر النعم الـتي أسـبغها علينا فتمنع عنّا القنوط والنظرة التشاؤمية.

(**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ**)

إنّ حمد الله يـؤدّي الى تسـبيحه ، فمن عـرف أنّ ما تصـيبنا من حسـنة فمن عنـده وما تصـيبنا من سـيئة فمن عند أنفســنا نــزّه ربّه من النقص ونســبة الســيئات إليه سبحانه.

ولعل هـذا أحد معـاني البـاء في قوله «بحمد ربـك» فيكون الحمد وسـيلة التقـديس لربّنا العظيم ، وهو أقـرب من أن نجعل معـنى البـاء مجـرد المعيّة ليكـون المفهـوم سبّح واحمد ربك.

[56] ولا بدّ أن نسلّم لربّ العالمين ، ومعنى التسليم له الإيمـان بآياته والاحـتراز من الجـدل فيها ، فمن يجـادل فيها انطلاقا من أهوائه وبغير سلطان مبين وحجة واضـحة من عقله فقد اسـتحوذ عليه الشـيطان ، وأثـار في نفسه الكـبر الـذي انطـوت عليه حيث نـازعت ربّ العـزة رداء الالوهية فأخزاه الله ولعنه وأبعده عن تحقيق مناه.

(**إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ**)

المجادل في آيات الله يغلق منافذ قلبه عن النــور. أو ليست آيـات الله في الطبيعة وآياته في الكتـاب تجلّيـات لظهوره وأمواج نوره ، فمن نظر إليها نظرة ذاتية دون أن

يجعلها وسـيلة لبلـوغ غيرها أصـيب بـالعمى. أرأيت الـذي ينظر الى المــرآة ليعــرف طولها وعرضــها ، لا يمكن أن ينظر الى صورته فيها ، أو رأيت الذي يلاحظ في علامــات السـير طبيعة خطّها وطريقة صـنعها ، لا ينتفع بإشـاراتها ، كذلك عالم الطبيعة الذي يركّز نظره في خصائص المـادة دون أن يجعلها معبرا إلى أسماء الله.

ومن النـاس من عقد عزمه على ألّا يعـرف الحقيقة ، لأنّ الحقيقة تخالف ما انطـوت عليه نفسه من الكـبر ، بل إنّ مجرد التسليم لها يتنافى وحالة الكبر التي في قلبه.

بلى. إنّما يجـوز الجـدال في آيـات الله إذا كـان يملك الإنســان الحجة الكافية من الله ، حينئذ يمكن تفسـير آية أو تأويلها انطلاقا من تلك الحجة ، وأخذا بمبــدإ النسخ في الآيات كما قال ربّنا : (**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ**) .

أمّا من لا يملك حجة وســـلطانا ، فلا يجــــوز له إلّا التسليم.

(**بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ**)

ويبدو أنّ المراد منه الوحي.

(**إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ**)

ما هو ذا الكـبر الـذي لا يبلغـوه؟ هل هو مطلق الكـبر وحبّ الذات ، وهو النفس؟ أم أنّه أكبر من ذلك؟

يبــدو لي أنّه نزعة الألوهية في النفس ، حيث يــزعم الإنســـان أنّه قـــادر على بلـــوغ درجة الألوهية بإمكاناته المحــدودة ، وبعمــره القصــير .. ولعل ســائر الخصــال الذميمة تنبع من هذا الإحساس الخاطئ ، وبالرغم من أنّ الإنسان لن يحقّق هذه الرغبة

فإنّه يتعب نفسه من أجلها حـــتى يكـــون من الهـــالكين ، وأبرز مثل لهذه النزعة الفراعنة والطغاة الـذين ينـازعون الله رداء العظمة ، وإنّما أثار إبليس هذه النزعة في نفس آدم أبي البشر حين أطمعه في الخلود والملك الدائم.

وكفّار قريش وكلّ الكفّار في التاريخ والحاضر يتبعون هذه النزعة حين يرفضـون التسـليم للحق ، لأنّ تسـليمهم للحق يفرض عليهم التسليم لقيمه وشـرائعه ، ولمن يمثّل تلك القيم وينفّذ الشرائع من القيادات الإلهية.

وإنّ العلم ـ أيّ علم ــ يفـرض على صـاحبه مسـئولية ولذلك فهو صعب مستصعب ، لأنّ احتمال المسؤولية أمر عظيم ، لذلك ترفض النفس البشرية الانفتاح أمام حقـائق العلم إلّا بصعوبة بالغة.

ولكي نتخلّص من جـذر الفسـاد في النفس وهو هـذا الكبر ، علينا أن نسـتعيذ بالله ، لأنّ الشـيطان غـوي مضل مبين ، وهو يتقن أساليب المكر والخداع ، ويعرف من أين يدخل في قلب هذا البشر الساذج ، ولـولا الاسـتعاذة بالله تضعف النفس أمام وساوسه وأمانيه.

(**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**)

فهو يســمع أقــوال المتكــبرين والمجــادلين ويبصر أعمالهم ، كما يسمع همسات المناجين ربّهم المسـتعيذين من مكر الشيطان ويبصر أعمالهم.

ونتساءل : كيف نستعيذ بالله؟

أوّلا : بالــدعاء والمناجــاة. والملاحظ أنّ المــؤمن قد تهجم عليه أمواج البلاء أو صنوف الإغراء فيـتردّد قليلا في الأمر ، ولكنّه بمجرّد أن يدعو الله حتى يعطيه القوة

الكافية لمقاومة الشيطان.
ثانيا : بمعرفة الله والتقــرّب إليه بــذكره وتســبيحه والثقة بنصره.
[57] ومن الوســائل الناجحة لمحاربة كــبر النفس النظر في عظيم خلق الله وقيامه بذاته ، فهل أنا المتكـبر أكبر أم الجبال أم الأرض أم الشمس والقمـر؟! وأساسا : من أنا بالقياس الى هذا الخلق العظيم؟!
(**لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**)
تعالوا لننظر الى ملكوت السموات والأرض ، لنتعرف على الحجم الحقيقي لأنفســنا ، أنا واحد من خمسة آلاف مليون إنسان يمشون اليوم فـوق كوكبنا ، والإنسـان واحد من ألوف الأحياء ، والأحياء نوع من عشرات الأجناس غير الحية ، ثم كلّ ما في الأرض لا تحتلّ إلّا مسـاحة محـدودة منها ، ثم إنّي لا أعيش عليها إلّا ســنين معــدودات ، لو قيست بــالملايين من ســني عمر الأرض لكــانت كلحظة خاطفة.
ثم الأرض هذه تابع صغير للشمس ، فحجمها أقلّ من واحد الى مليون من حجم أمّها ، وهي لا تـزال تعيش على مقربة منها كالرضـيع لا يبتعد عن أمّه ، ولكن مع ذلك تبلغ المسافة بين كوكبنا والشمس حوالي ثلاثة وتسعين مليون ميل!!
أمّا الشمس فهي من عضوات مجرة تحتوي على نحو من مائة مليــون شــمس .. ولكن هــذه المجــرة ليست الوحيــدة في هــذا الفضــاء الأرحب ، بل هي واحــدة من عشـرات الملايين من المجـرّات اكتشـفها البشر ، وكلّما اخــترعوا أجهــزة جديــدة اكتشــفوا ملايين جديــدة من المجرّات ، حتى شاعت بين علماء الفضاء فكـرة تقـول : إنّ الكــون يشــهد ولادة مجـرات جديـدة لا تســتطيع أن تلاحقها أجهزتنا المتطورة ..
الله أكبر .. من أنا أمام هذا الحشد من المجرات!

هكذا قال رسولنا الأكرم لـزينب العطـارة الـتي زارته في بيته قائلة : إنّما جئتك أسألك عن عظمة الله ، فقال : جلّ جلال الله ، سأحدّثك عن بعض ذلك.

ثم قــال : وإنّ هــذه الأرض بمن فيها ومن عليها عند الـتي تحتها كحلقة في فلاة قي [1] ، وهاتـان ومن فيهما ومن عليهما عند التي تحتها كحلقة في فلاة قي والثالثة .. حتى انتهى إلى السـابعة ، ثم تلا هـذه الآية : (**خَلَقَ سَـبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ**) [2]

ومضى الرسول (ص) يبيّن طبقات الأرض وما وراءها ، وأنّ الواحدة منها بالنسبة الى تاليتها كحلقة فلاة واسـعة ، الى أن قـال عن السـماء : «والسـماء الـدنيا ومن فيها ومن عليها عند الـــتي فوقها كحلقة في فلاة قي ، وهـــذا وهاتان السماء ان عند الثانية كحلقة في فلاة قي ، وهـذه الثالثة ومن فيهن ومن عليهن عند الرابعة كحلقة في فلاة قي ، حـتى انتهى إلى السـابعة ، وهـذه السـبع ومن فيهن ومن عليهم عند البحر المكفـــوف عن أهل الأرض كحلقة في فلاة قي [3]

ومضى النـــبي (ص) يـــبين عظمة خلق الله حيث أنّ بعض خلقه أعظم من بعض كما الحلقة الصــــــغيرة في الصحراء المترامية ، وهو أقرب مثل لاتسـاع المنظومـات الشمسية والمجرّات وما أشبه.

فهل يحق لنا أن نتكبّر على ربّنا الواسع الــــذي وسع كرسيّه السموات والأرض أو ندّعى مقامه سبحانه؟!

هــذا في أفق المكـــان وامتـــداده. أمّا عن الزمـــان وامتداده فنحن لسنا أوّل ما خلق

---

(1) القفر من الأرض.
(2) الطلاق / 12.
(3) التوحيد (للشيخ الصدوق) ص 276.

الله ، ولن نكون آخر خلقه سبحانه ، جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر (ع) أنّه قال في تفسير قوله تعالى : (**أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**) [1] قال : يا جابر تأويل ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم ، وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، جدّد عالما غير هذا العالم ، وجدّد خلقا من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه ، وخلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم ، وسماء غير هذه السماء تظلّهم. لعلك ترى إنّما خلق هذا العالم الواحد وترى أنّ الله لم يخلق بشرا غيركم ، بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين» [2]

وأخيرا يرى بعض علماء النفس أنّ أفضل وسيلة لتربية الإنسان أن يعطى له عند بلوغه مبلغ الرجال جهازان يرى بهما عظمة الخلائق ، جهاز ميكرسكوب يرى به عجيب لطف الصنع في خلقة الموجودات المتناهية في الصغر ، وجهاز تلسكوب يرى به عظيم القدرة في خلقة الأجرام المتناهية في الكبر.

[58] هل يستوي من يستوعب هذه الحقائق ببصيرة قلبه فيكون كالبصير ، والذي هو أعمى حتى لو اقتربت منه حقائق الكون جميعا لا يعيها ولا يستوعب دروسها ، وتراه كالشرنقة لا يزال في تلك الزنزانة الضيقة من نسيج أهوائه وشهواته ووساوس الشيطان.

(**وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ**)

أرأيت الذي قضى عمره في جزيرة مهجورة لا يعلم عن الدنيا شيئا ، هل يختلف

---

(1) ق / 15.

(2) المصدر ص 277.

بالنتيجة عمّن يعيش في غرفة ضـــيقة في وسط أضـــخم العواصم قد حجب نفسه عن كـلّ ما حولـه؟ كلا .. كـذلك الكـافر الـذي تحيط به حقـائق الكـون فلا يسـتوعبها ، ولا يعيش قلبه في أجوائها ولا تعيها بصيرة نفسه ، بل هو في ظلام جهله وجهالته ، لا يعترف بشيء غـير نفسه وأهوائها ، إنّه أشدّ عمى ممّن فقد عينيه. أليس كذلك؟

وكم هو فــــرق بينه وبين من يعيش عــــوالم الخلق جميعا في ضــميره ووعيه ، ويــرى نفسه منها ولا بــدّ أن يتناغم سـلوكه وسـننها ، لأنّه يـؤمن بربّها العظيم ، ويعمل الصالحات التي أمر بها كما أمر سائر العوالم بمثلها.

(**قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ**)

[59] وفي خاتمة الـــدرس يلخّص الســـياق عـــبرة الحقـائق الـتي ذكّر بها أنّها السـاعة حيث يتبـدّل النظـام القائم هنا على أساس الابتلاء ، بنظام يقـوم على أسـاس الشهود والجزاء.

(**إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها**)

وكيف يرتاب في يوم تدلّ كلّ حقائق العـالم على أنّه المنتهى ، فحكمة الله الـتي تتجلّى في كـلّ خليقة صـغيرة أو كبيرة تدلّنا بوضوح كاف على يوم الجزاء.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**)

فلا تتبع سلوكهم ، وذرهم يخوضوا في لهـوهم ، وأنقذ نفسك من المصير الذي ينتهون إليه بكفرهم بها.

وَقـــــالَ رَبُّكُمُ ادْعُـــــونِي أَسْـــــتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبـادَتِي سَـيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِـرِينَ (60) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيـهِ وَالنَّهـارَ مُبْصِـراً إِنَّ اللـهَ لَـذُو فَضْـلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَشْـكُرُونَ (61) ذلِكُمُ اللـهُ رَبُّكُمْ خـالِقُ كُـلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَـذلِكَ يُؤْفَـكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (63) اللهُ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّـماءَ بِنـاءً وَصَـوَّرَكُمْ فَأَحْسَـنَ صُـــوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبـــاتِ ذلِكُمُ اللـــهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللـهُ رَبُّ الْعـالَمِينَ (64) هُـوَ الْحَيُّ لا إِلـهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65) قُــلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُــدَ الَّذِينَ تَــدْعُونَ مِنْ دُونِ اللــهِ لَمَّا جــاءَنِي الْبَيِّنــاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِــرْتُ أَنْ أُسْــلِمَ لِــرَبِّ الْعــالَمِينَ (66) هُــوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُــرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَــةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَــةٍ ثُمَّ يُخْــرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُــوا أَشُــدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُــوا شُــيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَــوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)

وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

هدى من الآيات :

لكي نعالج الكبر الـذي انطـوت عليه النفـوس ، لا بـدّ أوّلا : أن ننظر الى حجمنا بالقيـــاس الى عظمة الخلائق ، ثانيا : إذا اطمـأنّت النفس الى عظمة البـارئ الـذي خلقها وأتقن صنعها ، التجأت إليه بالـدعاء ، وخلعت رداء التكبّر ، وارتـــدت ثـــوب العبودية لـــربّ العـــالمين ، أمّا الـــذين يستكبرون عن عبـادة الله (وعن الـدعاء وهو مخّ العبـادة) فسـيدخلون جهنّم داخــرين ، ثالثا : نشــكر ربّنا على نعمه التي تحيط بنا ، ولولا واحدة منها انعـدمت حياتنا وتحـوّلت الى جحيم لا يطـاق ، فهو الـذي جعل الليل سـكنا والنهـار معاشا ، إنّه فضل عظيم ، ولكنّ أكـثر النـاس لا يشـكرون (ولذلك تجدهم يستكبرون) .

ولمــاذا ينحــرف البشر عن صــراط الله الــذي ربّـاه ونعّمه ، وهو خالق كـلّ شـيء ، ولا سـلطان إلّا سـلطانه ، ولا إله إلّا هو الواحد الأحـد؟ لأنّه يجحد بآيـات الله (وهكـذا عـــاد الســـياق الى موضـــوع رئيسي في الســـورة ، وهو التعامل مع آيات الله)

وآيات الله (التي هي السـبل الى معرفته وعبادتـه) مبثوثة في الآفـاق وفي أنفسـنا ، فهو الـذي جعل الأرض قـرارا والسماء بناء (هذا عن الآفاق) ، وهو الـذي صـوّر الإنسـان في أحسن تصوير ، وأغدق عليه من رزقه الطيّب. إنّه ربّنا وربّ العالمين تبارك وتعالى.

وهو الحيّ الـذي تفـرّد بالألوهية فإليه لا بـدّ أن يجـأر الإنســان خالصا له الطاعة والانقيـاد ، وإنّ له الحمد كلّه ، لأنّه ربّ العالمين ، لأنه هدانا اليه بالبيّنـات الـتي أرسـلها ، ويتجلّى حمدنا له في تحدّي الكفّار الذين يـدّعون الأنـداد ، وكذلك في تسليمنا له. أو ليس قد أسلم له كلّ شيء في العالمين؟

من هــذا الإنســان المســكين الـذي يتكبّر على ربّه ، وينازعه رداء العزّة؟! إنّه مخلوق كان أصله التراب فجعله الله نطفة ثمّ علقة ثمّ أخرجه طفلا ورعــاه حـتى أضـحى بالغا رشـيدا ، وأحـاطت به نعم الله حـتى أمسى شـيخا ، بينما البعض توفّـاهم الله من قبل ، كـلّ قد حـدّد له أجلا ، كلّ ذلك بهدف أن يعرفوا ربّهم من خلال تطوّرات حيـاتهم ويعقلوا.

وبيـده ـ لا بيد غـيره ـ الحيـاة والمـوت ، وهو مطلق القـدرة ، فعّـال لما يريد ، وأمـره ـ إذا قضى شـيئا ـ بين الكاف والنون.

بينات من الآيات :

[60] الـذين يعيشـون في غيـاهب السـجون ، أو في ظلمات الحكم الطاغوتي ، أو في ذلّ المهاجر بعيدين عن الأهل والوطن. إنّ مثل هـؤلاء سـوف تهجم عليهم سـحب اليــأس والقنـــوط ، ويتعرّضـــون لموجـــات من الشك والارتيــاب. أحــقّ نحن على حق أم هم؟ فلما ذا نـــراهم المسيطرين علينا ، وإلى متى؟

وأكثر من هؤلاء جميعا ، أولئك الذين يتحصّنون بالتقاة ، ويعيشــون داخل الكيــان الطــاغوتي ، حيث يتعرضــون لعمليــات غسل الــدماغ المســتمرة ، وترتبط مصــالحهم ورغباتهم ومجمل وشائج حياتهم بعجلة النظام ، وفي ذات الـوقت يكتمـون إيمـانهم ، وتكـاد صـدورهم تتفجّر ضـيقا بالأسرار التي يحملونها ، فما الذي ينقذهم من هذا الوضع ، وأيّ وقــود إيمــانيّ يمــدّهم بطاقة الاســتمرار وقــدرة الاستقامة .. حيث لا صلة بالقيادة ، ولا تفاعل مع المجتمع الإيمــــاني ، ولا جلســــات للتعبئة الروحية ، ولا بـــــرامج اجتماعية ، ولا مصالح مشتركة مع المؤمنين.

لقد فتح الله لهـؤلاء وأولئك جميعا بـاب الـدعاء حيث تتصل قلوبهم بنور ربّهم مباشرة ، وينهلون من نبع التوحيد الأصفى ما يمدّهم بالرجاء والثقة والاستقامة فقال ربّنا :

(**وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**)

ما هو هذا الدعاء؟ قـال المفسـرون إنّه طلب الحاجة من الله ، وتفـرّد ابن عبـاس بتفسـير آخر حيث قـال انّه توحيد الله ، ويبـدو لي أنّ ابن عبـاس التقط إشـارة خفيّة من الآية حيث أرهف سمعه الى ضمير «ادعوني» وعـرف أنّ المعنى لا تدعو من دوني أحدا ، وحقّا : إنّ الإنسان إمّا أن يـدعو ربّه أم يـدعو الأنـداد .. والله يأمرنا بدعوته دون الأنـداد ، وسـوف نـرى ـ إن شـاء الله ـ كيف أنّ الـدعاء أسمى درجات التوحيد.

وعند ما وعد ربّنا الاستجابة فـإنّ ذلك يكـون شـرطا ضمنيّا بـأن يكـون الـدعاء خالصا لله ، كما قـال سـبحانه :

(**وَإِذا سَـأَلَكَ عِبـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعـانِ فَلْيَسْـتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُـوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**) .

ولعلّ في كلمة «**إِذا دَعانِ**» إشارة الى هـذه الحقيقة ، كما نجد تصريحا بذلك في قوله «**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**» .

(**إِنَّ الَّذِينَ يَسْــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبــادَتِي سَــيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ**)

لمــاذا اعتــبر الــدعاء عبــادة؟ وأوعد الله على تركه النار؟ لكي نعرف الإجابة : دعنا نتساءل : ماذا كان محــور الخلاف الأصلي بين الموحّدين والمشـركين؟ هل كـان في وجــود اللــه؟ كلا ، هل كــان في أســماء الله الــتي تتعلّق حسب المصــطلح بذاته ســبحانه؟ كلّا ، بل إنّ المشــركين كـانوا يعـترفون بالله هو الخـالق ، وقد قـال ربّنا : (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**) [(1)]

إنّما جــوهر الخلاف ومحــوره الأصــيل في كلمة : إنّ الموحّدين يقولون : إنّ الله هو المهيمن المدبّر لأمور الله ، فهو القابض الباسط ، المحيي المميت ، المعزّ المـذل ، وهو الذي يولج الليل في النهار ، ويـولج النهـار في الليل ، ويدبّر الأمر ساعة بساعة ولحظة بلحظة ، بينما كـان يـرى المشركون عوامل حتميّة أخرى غير مشيئة الله في تدبير شــؤون الخليقة ، فيتوجّهــون الى تلك العوامل من دون الله.

على أنّ المشركين قلـوبهم شـتّى ، وآراؤهم في ذلك مختلفة ، إلّا أنّ أبعـدها ضـلالة ما قالته اليهـود بـأنّ يد الله مغلولة ، اتباعا لفلاسفة اليونـان حيث زعمـوا بـأنّ الله قد فــرغ من أمر الخلق واســتراح ولا يمكن له التــأثير في الخلق أبدا.

وتتنـاقض رسـالات الله عن فلاســفة البشر في هــذا المحـور ، حيث بشّـرت البشـرية بـأنّ ربّهم قـريب منهم ، يهيمن على حياتهم ، ويسمع نداءهم ، ويستجيب دعاءهم ، وتوضّـحت هـذه البصـيرة الإلهية عـبر آيـات الـذكر ، وفي تفسير أهل بيت النبي (ص).

---

(1) الزخرف / 9.

لكلمة (البداء) التي تعني أنّ لربّنا سبحانه مطلق المشيئة في فعل ما يريد ، والذي تشير إليه الآيات القرآنية :

(**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ**) [1]

(**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ**) [2]

(**وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً**) [3]

(**كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ**) [4]

(**لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ**) [5]

أمّا الآيات التي تبيّن أنّ ربّنا استوى على العرش وأنّه المدبّر والمهيمن والحـاكم وما أشـبه مما تشـير الى هـذه الحقيقة بصـورة مّا فهي كثـيرة ، بل هي ـ في الواقع ـ المحور الأساس للقرآن كلّه.

وقد بيّنت آيات محكمات واقع البداء في عدّة سـور .. قال الله سبحانه :

(**ما نَنْسَـخْ مِنْ آيَـةٍ أَوْ نُنْسِـها نَـأْتِ بِخَيْـرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) [6]

(**وَقـالَتِ الْيَهُـودُ يَـدُ اللـهِ مَغْلُولَـةٌ غُلَّتْ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ**

---

(1) هود / 107.
(2) البروج / 15 ـ 16.
(3) الأحزاب / 37.
(4) آل عمران / 40.
(5) الأعراف / 54.
(6) البقرة / 106.

يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ) [1]
(**لِكُـلِّ أَجَـلٍ كِتـابٌ يَمْحُـوا اللـهُ ما يَشـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**) [2]

وجاء في تفسير أهل البيت لبصيرة البداء في القـرآن الكثير من الأحاديث الشريفة ، فقد روي عن الإمام الرضا (ع) أنّه قال لسـليمان المـروزي : ما أنكـرت من البـداء يا سليمان والله عزّ وجـلّ يقـول : (**أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسـانُ أَنَّا خَلَقْنـاهُ مِنْ قَبْـلُ وَلَمْ يَـكُ شَـيْئاً**) ، ويقـول عـزّ وجل : (**وَهُـوَ الَّذِي يَبْـدَؤُا الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ**) ويقـول : (**بَـدِيعُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ**) ، ويقــول : (**يَزِيـدُ فِي الْخَلْـقِ ما يَشاءُ**) ويقول : (**وَبَدَأَ خَلْـقَ الْإِنْسـانِ مِنْ طِينٍ**) ويقـول عـزّ وجل : (**وَآخَـرُونَ مُرْجَـوْنَ لِأَمْـرِ اللـهِ إِمَّا يُعَـذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**) ، ويقــول عـزّ وجل : (**وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ**) [3]

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال في تفسير قول الله عزّ وجلّ : (**وَقالَتِ الْيَهُودُ يَـدُ اللـهِ مَغْلُولَةٌ**) لم يعنوا بذلك أنّه هكذا .. ولكنّهم قالوا : قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص فقـال الله جـلّ جلاله تكـذيبا لقـولهم : (**غُلَّتْ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُـوا بِما قـالُوا بَـلْ يَـداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ**) ألم تسـمع الله عـزّ وجل يقـــــول : (**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**) [4]

وذكر الفخر الـرازي في تفسـير الآية وجوها جـاء في الرابع منها : لعلّه كان فيهم من كان على مذهب الفلسفة ، وهو إنّ الله تعـالى مـوجب لذاته وإنّ حـدوث الحـوادث عنه لا يمكن إلّا على نهج واحد ، وإنّه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث غير

---

(1) المائدة / 64.
(2) الرعد / 38 ـ 39.
(3) موسوعة البحار / ج 4 ص 95.
(4) المصدر / ص 104.

الوجــوه الــتي عليها يقع فعبّــروا عن عــدم الاقتــدار على التغيير والتبديل بغلّ اليد.

إنّ معرفة الله بأنّه قادر على كـلّ شـيء ، وأنّه فعّـال لما يريد ، وأنّه كما أبــدع الخلائق بعد ان لم تكن شــيئا ، قــادر على أن يبــدع ما يشــاء ، هي المعرفة الحق ، وهي الــتي تبعث على الثنــاء عليه وتوصـيفه بالحمد والشـكر ، وأيّ حمد أو ثناء لمن لا يقـدر على تغيـير شـيء حسب ما يزعمون.

ولذلك كان الاعتراف بهـذه القـدرة للـرب أي بالبـداء أعظم عبادة وأفضل تعظيم.

جــاء في الحــديث عن زرارة عن أحــدهما (البــاقر أو الصادق عليهما السّلام) :

«**ما عبد الله بشيء مثل البداء**» [1]

وفي حــديث آخر عن هشــام بن ســالم عن الإمــام الصــادق (ع) أنّه قــال : «ما عظّم الله عــزّ وجــلّ بمثل البــداء» [2] وقــال : «**لو يعلم النــاس ما في القــول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه**» [3]

ومن مظــاهر البــداء الــدعاء ، ذلك أنّ في الــدعاء اعترافا بســــلطان الله الفعلي والمباشر على الخليقة ، وأنه القــادر على أن يصــنع ما يشــاء فيما خلق ، وأنّه المستعان على بوائق الدهور ونوائب الحياة ، ولذا أضـحى الـدعاء العبـادة الأسـمى ، وقـال ربّنا سـبحانه : (**قُـلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ**) .

وقد اســتعرض الســياق القــرآني كيف أنّ الرجــال العظام بلغوا الدرجات السامية

---

(1) المصدر / ص 107.
(2) المصدر
(3) المصدر / ص 108.

بالــدعاء ، شــروعا من آدم أبي البشر حيث اســتغفر ربّه (بالدعاء) فغفر له ، وآتاه النبوّة والصفوة ، حتى نوح حيث دعا على قومه فأعانه الله عليهم بالطوفـــــــان العظيم ، وإلى إبراهيم الذي ما ونى عن الدعاء في كل موقع حــتى اتخـذه الله خليلا وجعله للنـاس إماما ، وإلى موسى الـذي نصره الله على فرعون بالـدعاء ، وكـذلك سـائر النبـيين ، الـذين ما فـتئوا يـدعون ربّهم ويسـتجيب لهم الله بخـرق سنن الطبيعة ، فمثلا حين يرزق مـريم من عنـده ، يتـذكّر كفيلها زكريا حاجة قديمة في نفسه ، فيــــدعو زكريا ربّه ويطلب منه ذرية ، فيرزقه الله يحيى وكانت امرأته عـاقرا ، وقد بلغ من الكبر عتيّا ..

وهكذا يعـرف من خلال حيـاة الأنبيـاء مقـام العبد من ربّه ، وكيف أنّه مقـام الطلب والـدعاء ، وهو من أبــرز ما يســتفيده المــؤمن من قصص قدواته الصــالحة الأنبيــاء والأوليـاء ، وقد جـاء في الأثر عن الإمـام البـاقر (ع) في تفسـير قوله سـبحانه (**إِنَّ إِبْـراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**) قـال : «**الأوّاه الدعّاء**» [1]

وجـاء في حـديث آخر عن الإمـام الرضا (ع) أنّه كـان يقول لأصحابه : عليكم بسلاح الأنبيـاء ، فقيل : وما سـلاح الأنبياء؟ قال : «**الدعاء**» [2]

وللدعاء فوائد عاجلة نتذكّر معا بعضها :

ألف : إنّه أفضل دواء لداء الكبر في النفس البشـرية. وإذا عرفنا أنّ الاســتكبار أعظم حجــاب بين العبد وربّه ، وهو العقبة الكأداء في سبيل الصلاح والفلاح ، وهو مصـدر أكثر الفواحش والذنوب ، فسوف نعرف أهميّة الدعاء.

---

(1) موسوعة البحار / ج 93 ص 293.
(2) المصدر / ص 295.

وهكذا نجد في السياق القرآني هنا ما يوحي بــأنّ من يسـتنكف عن الـدعاء فقد اسـتكبر عن عبـادة ربّه ، وأنّه سـوف يـدخل جهنم داخـرا ، كما نجد هـذه الآية تـأتي في سياق معالجة كبر النفس الذي لن تبلغه ، الى جانب سائر طرق العلاج التي سبقت أو تأتي في هذه الآيات.

بــاء : الـــدعاء يلهم الأمل ويرفع اليــأس ، ويعيد إلى القلب حيويته ونشاطه وعنفوانه.

أرأيت أعظم الهزيمة هزيمة القلب ، وأعقد المشاكل انهيار النفس؟ بلى. والدعاء هو الدواء. كيف؟

إنّ الـداعي يرجو ربّه الكبـير أرحم الـراحمين فكيف يعتريه اليـأس؟ وهل يظمأ من يـرد على حيـاض مترعـة؟ وقد روى عن الإمـام الصـادق (ع) انه قـال : «إنّ الـدعاء يردّ القضاء المبرم بعد ما أبـرم إبراما ، فـأكثر من الـدعاء فإنّه مفتاح كلّ رحمة ، ونجاح كـلّ حاجة ، ولا ينـال ما عند الله إلّا بالدعاء ، فإنّه ليس من بـاب يكـثر قرعه إلّا أوشك أن يفتح لصاحبه» [1]

وروي عنه (ع) : «**الـــــدعاء كهف الإجابة كما أنّ السحاب كهف المطر**» [2]

وقد جاء في حديث ـ قدسي ـ مفصّل عن النبي (ص) عن جبرئيل عن ربّ العـالمين أنّه قـال : «يا عبـادي كلكم ضــالّ إلّا من هديته ، فاســألوني الهــدى أهــدكم ، وكلّكم فقــير إلّا من أغنيته ، فاســألوني الغنــاء أرزقكم ، وكلّكم مذنب إلّا من عافيته ، فاسألوني المغفرة أغفر لكم .. الى أن قال ربّنا سبحانه : ولو أنّ أوّلكم

---

(1) المصدر / ص 299.
(2) المصدر / ص 295.

وآخـركم ، وحيّكم وميتكم ، ورطبكم ويابسـكم ، اجتمعـوا فيتمنّى كــلّ واحد ما بلغت أمنيته فأعطيته لم يتــبيّن ذلك في ملكي ، كما لو أنّ أحـــدكم مـــرّ على شـــفير البحر فغمس فيه إبرة ثم انتزعها [1] ذلك بـأنّي جـواد ماجد واجد ، عطائي كلام ، وعداتي كلام ، فإذا أردت شيئا فإنّما أقول له : كن ، فيكون» [2]

جيم : الـــــدعاء يزيد العبد حبّا لربّه ، والحبّ أفضل علاقة تصل قلب الإنسان بـربّ العـالمين. إنّه يغمر القلب صفاء وعطاء ، وحبّا للناس وحبّا للحياة ، وبهجة وسكينة .. كذلك الدين ليس إلّا الحب ، وما أغلى قيمة الحبّ إذا كان الحبيب ربّ السموات والأرض.

وهل يشعر بوحشة من يعيش بقلبه في حضـرة ربّـه؟ وهل يحسّ بالفقر من يجد مليك السموات والأرض ، وهل يجد الذلّ سبيلا الى قلب جليس جبّار السموات والأرض؟

ومن أحبّ ربّه سارع الى طاعاته ، بلا تكلّف ولا تـوان ولا حزن ، وكانت الصلاة قرة عينه ، والزكاة مطيّة قربه ، والشهادة غاية مناه ، لأنّ فيها لقاء ربّـه. وإنّ أولئك الـذين منّ الله عليهم بحبّه لا يبيعون لحظة مناجاته بملك الدنيا ، لأنّ في تلك اللحظة وجدان الحقيقة ولـذّة العمر ، وحلاوة اللقاء بالحبيب.

وهكذا جـاء في النصـوص انّ الله يحبّ الـدعاء ويحبّ الـــدّاعين ، وهل يحبّ الله أحـــدا ثم لا يرزقه حبّه ، وهو أعظم نعمة؟!

قـــال النـــبي (ص) : «**ما من عبد يســـلك واديا فيبسط كفّيه فيذكر الله ويدعو**

---

(1) معناه : إنّ كلّ تمنيات العبـاد ليست عند ملك الله الا بمقـدار رأس ابرة بالنسبة الى بحر عظيم.

(2) المصدر / ص 293.

إلّا ملأ الله ذلك الــــوادي حســــنات. فليعظم ذلك الوادي أو ليصغر» [1]

وقال الإمام الباقر (ع) : «**ما من شــيء أحسن الى الله من أن يسأل**» [2]

وقال الإمام الصادق (ع) : «**الدعاء سلاح المـؤمن ، وعمود الدين ، ونور السموات والأرض**» [3]

وقال النبي (ص) : «**لا تعجزوا عن الــدعاء فإنّه لم يهلك مع الــدعاء أحد ، وليســأل أحــدكم ربّه حــتى يســـأله شسع نعله إذا انقطع ، واســـألوا الله من فضله فإنّه يحبّ أن يسأل**» [4]

وقال (ص) : «إنّ الله يحبّ الملحّين في الدعاء» [5]

دال : الـدعاء يـوفّر نيّة المـؤمن لمتابعة مسـيرته نحو الأهــداف الصــالحة ، إذ مع طــول الأمد يخبو الهــدف في نفس صـاحبه ، خصوصا إذا واجهته الصـعاب ، فيتسـاءل : لمــاذا نســعى من أجلــه؟ وهل هو يســتحقّ كــلّ هــذه التضـحيات؟ فيـأتي الــدعاء ليكــرّس الغايــات النبيلة في النفس ، خصوصا الأدعية المـأثورة الـتي ترسم لنا خريطة متكاملة للأهـداف السـامية ، فـإذا بنا نـزداد تعلّقا بها كلّما

هاء : الدعاء يساهم في تزكية النفس والتقـوى ، ذلك أنّ الإنسان ليعلم بفطرته أنّ دعاءه لا يسـتجاب إذا كـانت بينه وبين ربّه حجب الــذنوب أو لم يف بعهد الله ، وهكــذا ينشط ـ بالدعاء ـ لتنفيذ واجباته.

---

(1) المصدر / ص 292.
(2) المصدر
(3) المصدر / ص 294.
(4) المصدر / ص 300.
(5) المصدر

جاء في الأثر عن الإمام الصادق (ع): «**أطب كسبك تستجاب دعوتك ، فإنّ الرجل يرفع اللقمة الى فيه حراما فما تستجاب له أربعين يوما**» [1]

وروي عنه أنّه قال : قال رسول الله (ص) : «**خمسة لا يستجاب لهم : رجل جعل الله بيده طلاق امرأته فهي تؤذيه وعنده ما يعطيها ولم يخلّ سبيلها ، ورجل أبق مملوكه ثلاث مرّات ولم يبعه ، ورجل مرّ بحائط مائل وهو يقبل إليه ولم يسرع المشي حتى سقط عليه ، ورجل أقرض رجلا مالا فلم يشهد عليه ، ورجل جلس في بيته وقال : اللهم ارزقني ولم يطلب**» [2]

والعامل المشترك بين هؤلاء جميعا : الاكتفاء بالدعاء عن السعي. [3]

وكلمة أخيرة : إنّ من الناس من يحجم عن الدعاء بمجرّد تباطؤ الإجابة عنه وهو لا يعلم :

أوّلا : أنّ توفيقه للدعاء أعظم مما يطلبه ، وأنّ أجره عند الله أكبر بكثير من تحقيق رغباته العاجلة ، حتى أنّ المؤمن يتمنّى يوم القيامة أن لو كانت أدعيته جميعا غير مستجابة في الدنيا لما يجد من الثواب العظيم لمن لم يستجب دعاؤه.

ثانيا : قد يدعو الإنسان بما يضره فيرحمه الله بعدم استجابته ، ويبدله بما هو خير له.

ثالثا : بعض الدعاء يستدعي تغيير سنن الله التي لا تتبدّل ، كأن يدعو المرء توقّف الأرض عن الحركة أو ألّا يموت أبدا أو أن ينتهي الصراع القائم بين الناس أو

---

(1) المصدر / ص 358.

(2) المصدر / ص 356.

(3) للتفصيل في الدعاء يمكن مراجعة كتاب المؤلّف عن الدعاء.

تتهـاوى صـروح الظـالمين بلا جهـاد وتضـحيات ، فـإذا لم يستجب له يصيبه اليأس.

رابعا : أنّ تأخير الاستجابة لا يعني التعرّض للقنوط إذ أنّ الله قد جعل لكلّ شيء قدرا.

ولعل الله سـبحانه قد أمر له بالاسـتجابة ولكن وفق سـننه الجارية مما يحتـاج الى بعض الـوقت ، وجـاء في رائعة دعـاء الافتتـاح ما يهـدينا الى حكمة التبـاطئ في الاستجابة :

«مـدلّا عليك فيما قصـدت فيه إليك ، فـإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك ، ولعلّ الـذي أبطأ عنّي هو خير لي ، لعلمك بعاقبة الأمور ، فلم أر مولى كريما أصبر على عبد لئيم منك عليّ يا رب»

[61] حين تـأوي الخلائق الى مسـاكنها عند هبـوط الظلام ، وتسـتريح الى السـكون والهـدوء ، وتعيش خلايا الجسم والأنسجة في سبات بعيدا عن آثار أشعة الشـمس ، تتجلّى نعمة الليل الـتي جعلها الله سـكنا ، فلـولاه لما تجلّت نعمة النهـار للإنسـان حين تسـتيقظ الطبيعة ، نباتها وأحياؤها ، وتلبس الكائنات حلّة الضياء حـتى لكـأنّ بعضـها يبصر بعضا ، إذ سبات الليل وسـكونه يمهّد لنشـاط النهـار وحركته وضيائه.

(**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيـهِ وَالنَّهـارَ مُبْصِراً**)

إنّه الله الذي قدّر الليل والنهار بهذه الدّقة المتناهية ، فلو لا حركة الأرض حول نفسها في مواجهة الشـمس لما تعـاقب الليل والنهـار ، ولو دارت بسـرعة أكـبر مما عليها لتنـاثر ما عليها وتفكّكت وأصـبحت كهشـيم يـذري في الفضـاء الأرحب ، ولو دارت حـول نفسـها أبطأ ممّا عليها الآن لانعدمت الحياة بالبرد الشديد حينا وبالحرّ الشديد

حينا ، فسـبحان الـذي قـدّر الليل والنهـار وما أعجب حـال الـذي يسـتريح في كنف الليل ويتقلّب في كـفّ النهـار ثم يتكبّر على ربه؟!

(**إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**)

إنّهم لا يتذكّرون عظيم نعم الله عليهم ليل نهار ، وأنّه لا حـــــقّ لهم فيها ، إنّما هي فضل من الله عليهم ومنّة ، وحق عليهم أن يشكروا ربّهم الذي منّ عليهم بهذا الفضل ، وأوفى الشـــــكر أن يعرفـــــوا بأنّه هو المنعم ، فتخشع قلوبهم لذكره ، ثم تسعى جوارحهم الى أوطان تعبّده.

[62] أنظر الى ما حولك من الكائنات. أو لا تـرى في كلّ شـيء آثـار قـدرة الله ، ولطيف صـنعه ، وواسع علمه وخـبره ، وبـالغ حكمته ، وحسن تـدبيره؟ بلى. كـلّ شـيء يسـبّح بحمد ربّنا العظيم ، وكـلّ شــيء ينطق بأفصح لغة بأنّ الله خالقه ومدبّر أمره ، فهل خلقت الأشياء بـذاتها أم وجدت صدفة وبلا علّة ولا حكمة ولا تدبير؟!

أيّ عقل يتقبّل ذلك أم أيّ وجدان؟!

ثم أين ينحرف البشر عن خالق كلّ شــيء؟! أإله من دونه يتجهون إليه ، أم يتيممون صوب الضلال البعيد؟!

(**ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

أو يستقيم أن نقول : إنّ الله خالق كلّ شـيء ، ولكنّ من يهيمن على الأشياء هو غيره؟!

(**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**)

والإفك هو الانحــراف ، وإنّما ســمّيت الريــاح الهــوج بالمؤتفكـــــات لانحرافها ، وانما جاءتها الكلمة بصـــــيغة المجهــول للدلالة على أنّ العوامل الخفيّة الــتي تصــرف البشر عن صراط الله تجري بخلاف مصـالحه حـتى لكأنها تجبره على ذلك جبرا.

وانّه لو اعتصم الإنسان بالله لما قــدرت تلك العوامل على إضلاله عن سبيل ربّه وربّ الكائنات.

[63] وإنّما تهيمن عوامل الإفك على البشر ، لأنّه لم يسلم لآيات الله بالرغم من وحي الفطرة ودلالة العقل.

(**كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**)

فليس من سبيل هدى إلّا في آيات الله ، فإذا جحــدها الإنسان فإنّه ينحرف بفعل العوامل المضلّة.

ولا ريب أنّ من آيـات الله كتـاب الله ورسـوله ، فمن لم يسـلم لهما لم يعتصم بحبل الله ، ومن لم يعتصم بالله تقاذفته أمـــــواج الفتن يمنة ويســــــارا ، وحرّفته عوامل الضلالة الى التّيه البعيد.

إنّ ســـبيل الله واحد ، وهو الكتـــاب والإمـــام ، فمن جحدهما ألزمه الله التّيه الى يوم القيامة.

وإنّ سـبيل الله شـرعة العقل المنـوّر بـالوحي ، فمن اتبع أهــواءه ، وظنّ أنّ لله طرقا بعــدد أنفــاس الخلائق ، فقد افـترى على الله بهتانا عظيمـا. أرأيت معـالم الطريق وإشارات المرور لو لم تأبه بها في سيرك ، أين ينتهي بك المطاف؟ كذلك الذي لا يهتدي بمعالم الحقّ الـتي وضـعها الله لعباده ، ولم يتبع رسالاته ورسله وأولياءه الذين

يدعون الى رسالاته ويجسّدون هدى رسله.

وكلمة أخيرة : تبيّن لنا خواتيم الآيات في هذا السياق درجات المعرفة وهي العلم والتذكّر والإيمان والتسليم والشكر ، كما تبيّن ما يخالفها من الإفك والجحود ، وهي في ذات الوقت الذي تعالج حالة الكبر ، تبيّن الموقف السليم من آيات الله ، وهو موقف الانفتاح والتسليم ، وتحذّر بشدة من الجحود بها الذي ينتهي الى الانحراف ، وهذا التحذير نجده بصفة مكرّرة في هذه السورة.

[64] لا ينبغي لمن يتقلّب في نعم الله أن يتكبّر على ربّه أو يجحد بآياته ، فالله هو الذي جعل الأرض للإنسان قرارا ، فلو كانت جاذبية الأرض أقلّ أو أكثر إذا لصعبت الحركة فيها أو استحالت ، ولو كانت قشرة الأرض أسمك ممّا هي بمقدار بضعة أقدام لامتصّ ثاني أو كسيد الكربون الأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات ، ولو كان الهواء أرفع كثيرا ممّا هو فإنّ بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الغلاف الجوي كانت تدمّر الأرض ولو كانت مادّة الأوكسجين بنسبة 50 خ أو أكثر في الهواء بدلا من 21 خ فإنّ جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم كانت عرضة للاشتعال ، لدرجة أنّ أوّل شرارة من البرق تصيب شجرة كانت تلهب الغابة نارا ، ولو أنّ نسبة الأوكسجين كانت أقل من 10 خ فإنّ مدنيّة الإنسان كانت غير موجودة [1]

هذه الأرض التي كيّفها الله حسب حاجات الإنسان ، أو إن شئت قلت خلق الإنسان بحيث يعيش عليها بتناسق دقيق ، إنّها قرار الإنسان.

أمّا البناء الذي يرتفع فوقه فهو السماء التي جعلها الله سقفا محفوظا ونحن عن آياتها معرضون ، فلا علم لنا حتى اليوم بجميع أسرارها ، بله المساهمة في صنعها

---

(1) بتصرّف عن كتاب العلم يدعو للإيمان ، ترجمة محمود صالح الفلكي ، في ظلال القرآن ص 3093.

إنّما هو فضل من الله ومنّة.

(**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً**)

ثم خلق الإنسان في أحسن صورة وأفضل خلق ، فما من شيء مخلوق من جماد أو نبات أو حيوان إلّا وفضل الله الإنسان عليه تفضيلا في قوّة بدنه وصلابة أعضائه وقدرة احتماله للصعاب ، وزّوده بالعقل والعلم وسائر الطاقات التي يسخّر بها الطبيعة.

لقد زوّد الإنسان بالحياء ليكون وسيلة تعايشه مع نظرائه والتصاقه بقيمه. أو ليس يقري الضيف بالحياء ، ويفي بالوعود بالحياء ، ويقضي الحوائج ، ويتحرّى الفضائل ، وينشد الكمال ، ويتنكّب الرذائل والقبائح بفضيلة الحياء التي خصّ بها دون سائر الخليقة؟ [1]

وزوّد بالنطق ليكون وسيلة التفاهم ، ونقل التجارب ، وتواصل المعارف ، وتنامي العلوم المختلفة.

فإنّه لو لم يكن له لسان مهيّأ للكلام ، وذهن يهتدي به للأمور ، لم يكن ليتكلم أبدا ، ولو لم يكن له كف مهيّأة ، وأصابع للكتابة ، لم يكن يكتب أبدا ، واعتبر بذلك من البهائم التي لا كلام لها ولا كتابة. [2]

وزوّد بالعلم عبر العقل والوحي ، وسخّرت به الطبيعة له حتى أصبح سيّدا مطاعا بين موجودات الأرض ، هذا إلى جانب جمال الصورة ، وحسن الوجه ، وتناغم الأعضاء.

---

(1) اكتسبنا الأفكار من كلمات الإمام الصادق (ع) في توحيد المفضّل ، من موسوعة البحار / ج 3 ص 81.

(2) المصدر / ص 82.

(**وَصَـــوَّرَكُمْ فَأَحْسَـــنَ صُـــوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ**)

إنّ نظــرة الى الإنســان وإمكاناته وطبائعه وحاجاته ، ثمّ الى الســـــماء والأرض وآياتهما وعطائهما ، والأنظمة الجارية فيهما ، تهدينا الى وحدة الخالق.

وإنّه هو ربّنا ، وهو ربّ العــالمين ، للتطــابق الــدقيق والتناغم التامّ بين تصميم الكائنات وتصوير الإنســان الـذي خلقت له.

ولا تسعنا عند ما ننعم النظر إلّا أن نســبّح بحمد الله ، ونتذكّر أنّ خيره عظيم وثـابت ، وأنّه قد تضـاعفت بركته ، وتكامل خلقه ، وحسن تدبيره.

[65] ولكن حاجة الكائنــــات الى بعضـــــها ، وحاجة الإنســان إليها ، دليل عجز الخلائق ومحـدوديتها ، وبالتـالي إنّه يكشف وجود نسبة من الموت ومن العدم فيهـا. فهـذا الإنسان حيّ بعشـرات الملايين من السـنن الـتي تحيط به وقائم بها ومن دونها فهو ميّت ، دعنا نأخذ الطعام مثلا. أو يعيش البشر من دونه؟ وكـذلك الهـواء لو انعـدم انعـدمت حياته. أفلا يـدلّنا على أنّه ميّت لـولا الطعـام والهـواء؟ من ذلك نهتـــــدي الى حاجة كـــــلّ الطبيعة الى حيّ يزوّدها بحاجاتها ، ويدبّر أمورها ، وهو الله الحي.

ولكن يتّجه البعض الى المخلــــــوقين في قضـــــاء حوائجهم. أفلا يرون أنّهم بدورهم محتاجون؟

(**هُوَ الْحَيُ**)

حياته بذاته ، وحياة غـيره به ، حياته سـبقت المـوت ، ووجوده سبق العدم.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

فلا حيـاة إلّا به ، وإذا لا سـلطان إلّا سـلطانه ، فمن طلب حاجة أو أراد عزّا فليجأر إليه خالصا له الدّين.

(**فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**)

وسلّموا له ، واحمدوه حتى يستجيب لكم.

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

فقد جـاء في الحـديث المـروي عن الإمـام عليّ بن الحسـين (ع) : إذا قـال أحـدكم «لا إله إلّا اللـه» فليقل «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**» [1]

بلى. إذا عرفنا ربّنا بأسـمائه الحسـنى ، وأخلصـنا له النيّات ، فإنّه يستجيب الدعاء بفضله ، جاء في حديث قال قوم للإمام الصادق (ع) : ندعوه فلا يسـتجاب لنـا؟ قـال : «**لأنّكم تدعون من لا تعرفونه**» [2]

[66] لقد تـدرّج السـياق معنا في مـراتب الكمـال خطـوة فخطـوة ، فعـالج الكـبر الـذي يحجب صـاحبه من الاهتداء بالآيـات ، ويبعثه نحو الجـدل فيها ، وبسط القـول في آيات الله في الآفاق وفي أنفسـنا ، ثمّ أمرنا بالتسـليم لله ربّ العالمين.

وها هو الآن يأمرنا بمواجهة الأنـداد ، ذلك أنّ الإيمـان الحـقّ يتـبيّن عند ما يحنف صـاحبه عن البيئة الفاسـدة ، ويتطهّر من دنس الشـرك والخضـوع لغـير الله ، ويكـون خالصا دينه لله .. ولن يكـون ذلك مع مداهنة المشـركين ، بل يجب تحديهم.

(**قُـلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُـدَ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**)

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 534.

(2) المصدر / ص 535.

ورفضي للالهة المزيفة نابع من إيمـاني الخـالص بالله والذي هداني إليه الله بالأدلّة البيّنة.

(**لَمَّا جـاءَنِي الْبَيِّنـاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِـرْتُ أَنْ أُسْـلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ**)

وإنّنا نجد تأكيدا مجـددّا على أنّ الله هو ربّ العـالمين لتصــفية ما تبقّى من آثــار الكــبر في النفس ، وهل يفكر عاقل بمنازعة ربّ هذه السموات الواسعة والأرضين التي نشاهد عن قرب عجزنا عن مواجهة بعض قواها؟!

[67] ويسـتعرض السـياق تـدرّج الإنسـان في مراحل الخلق طورا بعد طور ، وكيف أنّه يتقلّب في كـفّ السـنن الربّانية من لدن كـان ترابا الى أن خلقه الله من نطفة ثم متقادما من ضعف الى ضعف حـتى أضـحى بشـرا سـويّا ، ثم ينكّسه الله في الخلق بعدئذ حــــتى يبلغ أرذل العمر ، فهل يجوز لمثل هذا الإنسان أن يستكبر أو يتكبّر؟!

(**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ**)

عند ما خلقنا الله جميعا في صــــورة ذرّ من تــــراب الأرض مع أبينا الأكبر آدم أبي البشر.

(**ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**)

أمشاج بين الذكر والأنثى. ولو قدّر لنا أن نرى النطفة هذه لاحتقرناها ، واستصـغرنا قـدرها ، ولكنّها ــ بالتـالي ــ طور من أطوار خلقنا.

(**ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**)

حينما تجتمع الخلايا الى بعضها وتتنامى حتى تبـدو في صورة قطعة دم عالقة

بالرحم.
(**ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً**)
ناشئا بحاجة الى حنين الأمّ وحماية الأبّ ، والمحافظة من عشرات الأخطـار الـتي تحيط به لضـعف بنيته وصـغر حجمه.
(**ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ**)
والله وحده يعلم كم هي السنن التي تساهم في بلوغ ذلك الوليد الصغير مرحلة الشباب والفتوة!
(**ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً**)
وتمرّ بكم ألوف الأخطار التي ينقـذكم الله منها حـتى يضـــحى الإنســـان شـــيخا ، ولكنّ البعض يختطفهم ملك الموت قبلئذ ليكونوا عبرة لمن نعي.
(**وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَـــوَفَّى مِنْ قَبْـــلُ وَلِتَبْلُغُـــوا أَجَلاً مُسَمًّى**)
فلا يمـوت الشـخص حـتى يسـتوفي أجله في الـدنيا. وكم من مـــريض دفن أو معـــارض للســـلطات القويّة أو محـارب في ميـادين القتـال ، يتطـاول به العمر متجـاوزا مئات العقبات ، بينما يموت الشـاب الصـحيح الـذي يحيط نفسه بكـــلّ الموانع ، ليكونا معا دليلا على أنّ الأجل نعم الحارس.
(**وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)
وتعلمـــون أنّ مـــراد ربكم من تطـــوّرات الحيـــاة أن تتعرّفوا عليه ، وأن تسلموا له ، وألّا تشركوا به شيئا.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْـراً فَإِنَّما يَقُـولُ لَهُ كُنْ فَيَكُـونُ (68) أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يُجـادِلُونَ فِي آياتِ اللـهِ أَنَّى يُصْـرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِالْكِتـابِ وَبِما أَرْسَـلْنا بِـهِ رُسُـلَنا فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْـحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَـلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَـدْعُوا مِنْ قَبْـلُ شَـيْئاً كَـذلِكَ يُضِـلُّ اللـهُ الْكـافِرِينَ (74) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُـونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُـونَ (75) ادْخُلُـوا أَبْـوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ

هدى من الآيات :

في إطار معالجة داء الكبر الـذي يحجب الحقـائق عن الإنسان ، ويبعثه نحو المجادلة في آيات الله ، يـذكّرنا الله بأنّ الحياة والممات بيده ، وأنّ قدرته لا تحـدّ ، وأنّ عاقبة الكبر في الآخـرة هي السـوئى ، إذ الأغلال في أعنـاقهم ، والسلاسل تحيط بهم ، ويسحبون الى مأواهم الأخـير عـبر مياه حامية ، ويقذف بهم في النـيران كما يقـذف بـالوقود في التنّور.

وخلال التعذيب الشديد يبكتون ليتمّ تعـذيبهم نفسـيا ، ويقــال لهم : (**أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْــرِكُونَ مِنْ دُونِ اللـــهِ**) (وتظنــــون أنّهم ينقـــذونكم من نـــار جهنّم لو ارتكبتم السيئات)؟!

قالوا : ضـلّوا عنّا (فلا نـرى لهم أثـرا) ثم قـالوا : إنّهم في الواقع لم يكونوا سوى أوهـام وتخيّلات ، فيقـال لهم : إذا ذوقوا عذاب الله جزاء فرحكم (النفسي) ومرحكم

(العملي) فيــدخلونهم (بعد أن يتمّ تعــذيبهم في القيامــة) أبواب جهنم التي هي المثوى البئيس للمتكبّرين.

والملاحظ أنّ السياق الذي يـذكّرنا منذ الآية (35) عن الجدال في آيـات الله بيّن أوّلا جـزاء المجـادلين في آيـات الله جـزاءهم في الـدنيا بـالختم على قلـوبهم ، ثم بيّن أنّ دافعهم الكبر فعالجه (65) وها هو يبيّن جزاءهم الأخــروي [1]

بينات من الآيات :

[68] كلّما قضــيت على نســبة الكــبر في قلبك كلّما اقـتربت من حقيقة نفسك وحقـائق الكائنـات من حولك ، واقـتربت من معرفة ربّك وأسـمائه الحسـنى الـتي تتجلّى في الخلائق ، فهـــذه الحركة النشـــيطة من المـــوت الى الحيــاة ومن الحيــاة الى المــوت الــتي تقرّبنا الى كشف جوانب من ذلك اللغز الكبير في الموجودات الذي نسـمّيه بالحياة ، هي أعظم مدرسة لمن طلب الحقيقة.

إنّنا أقرب شيء الى الحيـاة ، فكلّنا والحمد لله أحيـاء نعيش الحياة بكـلّ جوارحنا وجوانحنا وأحاسيسـنا ومعارفنا ، ولكن ـ في ذات الوقت ـ أبعد شيء عنها. ما هي الحيـاة حقّا؟ لعـلّ هنـاك فروقا نتعـرف عليها بين الحيّ والميت ، ولكن حقيقة الحياة هل عرفنا عنها شيئا؟ كلّا .. ثمّ ما هي القدرة المطلقة لربّنا العظيم الـذي يحـيي ويميت؟ وكيف نتلمّس يد الغيب تحرّك هذه الكائنات بين الموت والحياة؟

عند ما تـدبّ أيّـام الربيع الحيـاة في أشـجار الحديقة القريبة منك ، وفي نباتها ، هل تـــدبّرت فيها لتقـــترب من لغز الحياة؟

عند ما استقبلت لأوّل مرّة وليدك الجديد وهو يحــاول أن يتكيّف مع الدنيا

---

(1) اقتباسا من تفسير نمونه / ج 20 ص 172.

الجديدة ، هل فكّرت فيمن أحياه كما أحياك من تــراب ثم من نطفة؟

وأكـــثر من ذلك حين تقف على جثمـــان فقيد ، هل تصــوّرت المــوت بجلاله ورهبته كيف اختطفه من بينكم ، وما الذي جرى عليه؟

إنّ بيننا وبين حقــائق الخلق حجبا من كــبر أنفســنا وغرورها ، تعالوا نخرقها لنعرف جانبا ممّا حولنا ، وليعرّفنا الربّ نفسه.

(**هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**)

كيف يحيي ويميت؟ إنّ قدرته لا تحدّ فاذا قضى شــيئا يكفي أن يلقي بأمره إليه فينفّذ فورا.

(**فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)

ولعلّ هذه الخاتمة جاءت لبيان عظمة الإحياء والإماتة ، وأنّهما يتحقّقان بأمر غيبي.

[69] إذا كـــان موقف الإنســـان من آيـــات الحقيقة وشواهدها سـلبيّا منذ البـدء ، لم يسـتطع بلـوغ المعـارف. أرأيت الذي يجحد أصلا بوجـود المصـباح ، كيف يستضـيء بنوره؟ وهذه هي مشكلة أكثر النـاس ، فهم يجـادلون في آيـات الله ، فلا يفتحــون لها أفئـدتهم ، بل ولا أبصــارهم ، وذلك بسـبب حـواجز نفسـيّة. تـرى كيف ينبغي ثـنيهم عن هذا الموقف؟

الجواب نجده في منهج القرآن عند ما يــدعو إلى الله وعند ما يــذكّرنا بآيــات اللــه. إنّه في البــدء يعــالج هــذا الموقف السلبي تجاه الآيات والذي يسـمّيه بالمجادلة فيها ، ثم يستعرض الآيات بعدئذ.

ففي هذا السياق مثلا نجد القـرآن قد بصّـرنا في الآية (35) بعاقبة الجــدال في آيــات الله ، وكيف أنّ الله يطبع على كـلّ قلب متكبّر جبّـار ، وضـرب لنا مثلا من تكـذيب فرعون ، وكيف زيّن له سـوء عمله ، وصـدّ عن السـبيل ، وفي الآية (56) عـاد مـرّة أخـرى إلى قضـية الجـدل في آيات الله ، وبيّن كيف أنّه ينبعث من الكـبر الـذي لن يبلغه البشر ، ثم نسف أساس هـذا الكـبر المزيّف ببيـان عظمة الخلق ، ثم عاد وللمرّة الثالثة الى ذات الموضوع في هذه الآية ليبيّن عاقبة الجدل وجزاءه في الآخرة.

وفي كـلّ مـرّة نـرى السـياق بعد أن يحـذّر من مغبّة المجادلة في آيـات الله ، يـبيّن طائفة منها لتعمر القلب ـ الــذي طهّر من حجب المعادلة والموقف السـلبي تجــاه الآيات ـ بضياء المعرفة.

(**أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يُجـادِلُونَ فِي آيـاتِ اللـهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ**)

إلى أيّ واد ضلال تسوقهم شهواتهم؟

ويبـدو أنّ الآيـات عامّة تشـمل كـلّ علامة تهـدينا الى الحقيقة ، إلّا أنّها هنا جــاءت بمناســبة الحــديث عن أدلّة النشور وشواهد الجزاء والمسـؤولية فهي تمهّد لـذكر تلك الآيات.

[70] أولئك الذين كذّبوا بالكتـاب وبما أوحى الله إلى رسله من أحكام ينتظرهم جزاؤهم العادل.

(**الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا**)

لعــلّ ذكر الرسل هنا للدلالة على ضــرورة التسـليم للحقّ ، وأيضا للشخص الذي يمثّله وهو الرسول والإمـام ، ذلك أنّ كلّ الوحي ليس مفصّلا في الكتاب ، بل منه ما

يبيّنه الرسول في سنّته ، وأنّ من كذّب رسولا واحدا أو بكتاب واحد فكأنّما كذّب بالكتاب كلّه وبالرسل جميعا.

(**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**)

ويعرفون أيّ عذاب شديد يجزون به.

[71] إنّهم يسحبون بالأغلال التي في أعناقهم والسلاسل التي قيّدوا بها.

(**إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ**)

يا للخزي! هكذا يقيّدهم الله بعد أن منحهم في الدنيا الحريّة فلم ينتفعوا بها ، بل قيّدوا أنفسهم بأغلال الشهوات وسلاسل الأنظمة الشركية.

[72] ولكن .. في أيّ واد يسحبون؟

(**فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**)

يجرّون في ماء حار محموم ثم إلى أن يبلغوا النار التي يلقون فيها حتى تلتهب بأجسادهم كما يسجر التنّور بالوقود.

[73 ـ 74] كلّ ذلك ـ كما يبدو ـ يجري عليهم في يوم القيامة ، وقبل أن يقتحموا في نار جهنم يقرأ عليهم الحكم الصادر بحقّهم ، والجرم الذي استحقّوا به ذلك الحكم.

(**ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**)

لقد آمنوا بالطاغوت ، وخضعوا للمجتمع الفاسد ، للمترفين وأدعياء العلم

والــدّين ، وزعمـوا أنّ ركـونهم الى تلك الآلهة المزيّفة تنجيهم من عذاب الله فسئلوا عنهم.

(**قالُوا ضَلُّوا عَنَّا**)

فلا نجد لهم أثرا. بلى. إنّهم ضلّوا عن الحقّ في الدنيا اعتمادا عليهم ، ولكنّهم اليوم قد ضلّوا عنهم.

(**بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً**)

هل إنّهم شرعوا في الكذب على ربّهم بعد أن وجـدوا صـرامة الجـزاء ، وعنف التبكيت ، وخـزي الشـماتة ، أم أنّهم بيّنـوا حقيقة طالما أخفوها في الـدنيا ، وهي أنّ الكـافرين لا يعبـدون إلّا أسـماء ، وإنّما الآلهة خيـالات وأوهام.

(**كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ**)

حتى يعبدوا مجـرّد أوهـام ، لأنّهم كفـروا بآيـات الله ، وكـذلك يـذهب سـعيهم في الحيـاة الـدنيا سـدى فلا يستفيدون منه في الآخرة.

[75] لقد أذهبـوا طيّبـاتهم في الـدنيا ، وسـعوا نحو اللّذات العاجلة دون الأهداف السامية.

(**ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ**)

الذي لا يـؤمن بالحسـاب يمتلئ غـرورا ، ويسـعى في الأرض بالباطل ، دون كـوابح أو ضـوابط ، ودون أن يأبه بمستقبل حياته أو عاقبة أفعاله ، ولعلّ هذا هو معنى

وإذا فاض غرور المرء طفق يمرح ، وينشط في اتباع الشهوات ، ويسـرف في اللهو والطـرب ، ويبتـدع وسـائل جديدة لقضاء الوقت [1]

[76] وجــزاء هــذا الانســياق مع ريــاح الشــهوات ، والترف في الملذات ، هو ذلك الحميم ، والسـجر بالنـار ، والتبكيت ، والخلود في جهنم.

(**ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها**)

ولماذا لا يدخلون من بـاب واحـد؟ هل لكـثرة عـددهم أم لتنوّع جرائمهم ، حتى أدخل كلّ فريق من باب مختلف عن غــيره؟ كـلّ ذلك جـائز ، وعلينا أن نسـعى جاهـدين لإغلاق كلّ أبواب النـار من دوننا ، وذلك بتجنّب كل طـرق الضلال وسبل الفساد.

(**فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**)

وإنّ جـذر سـائر المفاسد هو الكـبر الـذي يتعـالى به البشر عن سنن الله ، وجـزاء المتكبّـرين الخلـود أبـدا في جهنّم ، وساءت مصيرا.

---

(1) نقل عن اللغة : الفرح انشراح الصـدر بلـذة عاجلة ، والمـرح شـدّة الفرح والتوسّع فيه (تفسير نمونه / ج 2 ص 176) .

فَاصْــبِرْ إِنَّ وَعْـــدَ اللـــهِ حَــقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْـنا عَلَيْـكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُـولٍ أَنْ يَـأْتِيَ بِآيَـةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَـإِذا جـاءَ أَمْـرُ اللـهِ قُضِـيَ بِـالْحَقِّ وَخَسِـرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُـونَ (78) اللـهُ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَنْعـامَ لِتَرْكَبُـوا مِنْها وَمِنْها تَـأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيها مَنـافِعُ وَلِتَبْلُغُــوا عَلَيْها حاجَــةً فِي صُــدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُـونَ (80) وَيُـرِيكُمْ آياتِـهِ فَـأَيَّ آيـاتِ اللـهِ تُنْكِــرُونَ (81) أفَلَمْ يَسِــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُــرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَـةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كـانُوا أَكْثَـرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ

قُـوَّةً وَآثـاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْـنى عَنْهُمْ ما كـانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُـوا بِما عِنْـدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحـاقَ بِهِمْ ما كـانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِؤُنَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَـنا قـالُوا آمَنَّا بِاللَّـهِ وَحْـدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِـهِ مُشْـرِكِينَ (84) فَلَمْ يَـكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُـنَّتَ اللـهِ الَّتِي قَـدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85))

وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ

هدى من الآيات :

ما هو موقف الرسول والرساليين من هؤلاء المجادلين في آيات الله الذين بيّن السياق فيما مضى من الآيات انغلاق قلوبهم ، وكبر صدورهم ، وعاقبة أمرهم؟

إنّ عليهم الصبر بانتظار وعد الله الحق ، وسواء أراهم الله بعض الجزاء الذي وعد أعداءهم أو توفّاهم قبلئذ فإنّ الأمر بيده ، وهذه سنّة الرسل الماضين ، سواء منهم الذين قصّ علينا القرآن عنهم شيئا أو لم يقصص ، فحتى الآيات التي تجلّت على أيديهم إنّما كانت بإذن الله ، ولم ينزل العذاب على أممهم إلّا بعد أن جاء أمر الله فقضي بينهم بالحق ، فنجي المؤمنون ، وخسر هنالك المبطلون.

ويذكّر السياق بآيات ربّنا ، وكيف جعل في الأنعام ألوانا من النعم ، نركبها ونأكل منها ، ونستفيد من أشعارها وأوبارها ونتزيّن بها ، ونشبع عبرها حبّ التملّك والسيطرة التي في أنفسنا ، وتحمل أثقالنا كما تحمل السفن .. وأعظم نعمة أنّه يرينا

بها آياته حـــتى نحظى بمعرفة خالقنا العزيز ، فما ذا ننكر من آيات ربّنا؟!

ولكي يرفع القرآن حجاب الغرور الـذي يمنع الاهتـداء بآيات الله ، يذكّرنا بعاقبة الكافرين بها ، ويأمرنا بأن نسير في الأرض لننظر كيف كـان عاقبة الـذين من قبلنـا. أو لم يكونوا أكثر عددا منّا وأشدّ قوّة وأعظم آثـارا في الأرض ، ولكنهم دمّـــروا شر تـــدمير لما كـــذّبوا ، ولم تشـــفع لهم مكتسـباتهم الماديـة؟! إنّهم أنـذروا عـبر الرسل ، ولكنهم فرحوا بما لديهم من علم ضئيل واغترّوا به فلم يسـتجيبوا للنذر ، فأحاط بهم ما كانوا به يستهزءون.

واستمرّوا في غيّهم حتى رأوا بأس الله ، هنالك قـالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بالشـركاء من دونه .. ولكن هل نفعهم إيمانهم؟ كلا .. جرت سـنة الله بعـدم ذلك ، وخسر هنالك الكافرون.

أفلا نعتبر بمصيرهم ، ونسـتجيب لنـذر الله ، ونسـتمع إلى رسله؟!

بينات من الآيات :

[77] حين شـــاء الله خلق الســـموات والأرض لم يخلقهما فجأة بل قدّر لذلك ستة أيّام ، وهكذا كـان عالمنا عجينا بالزمن ، وهكذا جرت سنّة الله في سائر ما يقضـيه من شؤون الدنيا ، ولو افترضنا جدلا أنّ كـلّ شـيء يتحقّق فورا لكـانت ملامح عالمنا مختلفة جـدا عن واقعنا اليـوم ، ولما تحقّقت حكمة الـربّ في الابتلاء ، فهل كـان مجـرم يقترف ذنبا لو كان جزاؤه عـاجلا ، أم كـان بشـرا يـني من السعي نحو المكرمات لو جاء ثوابها فورا؟!

لا بدّ ــ إذا ــ من الصـبر حـتى يمضي الأجل المحـدّد ، ويبلغ الكتاب نهايته ، وهنالك لا يتأخّر الجزاء ساعة واحـدة ، فلو تكاثفت وتركزت جهود أهل الأرض

جميعا لتمديد حكم ظالم بلغ أجله لحظة واحدة لما قدروا.

(**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ**)

سوف يدمّر الظـالمون شر تـدمير ، وسـوف تلاحقهم لعنة اللاعـنين ، وسـوف ينتصر الـربّ لرسـالاته ، ويمكّن المستضـــعفين في الأرض ، كل ذلك وعد من الله ، ولن يخلف الله وعده ، ولكنّه بحاجة الى الصبر.

(**فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ**)

بما أنّ الرســـول ومن يتبع نهجه لا يبحث عن النصر لنفسه ، بل لرسـالته ، فـإنّ النتيجة عنـده واحـدة سـواء انتصرت مبادؤه في حياته أو بعد وفاته.

إنّ الرسـول والمؤمـنين قد شـروا أنفسـهم ابتغـاء مرضاة الله ، ولا يبحثون عن تشفّي نفوسهم بالانتقام من أعدائهم ، بل يفوّضون أمـرهم الى ربّهم فسـواء انتصـروا أم توفوا ، فإنّهم قد أدّوا واجبهم.

حقّا إنّه أعلى درجـات الإيثـار ، يـؤدّب الله بها من اصطفاهم من عباده الأكرمين!

كم هي صـــعبة (وعظيمة في ذات الـــوقت) أن يستخلص قلب الداعية من كلّ رغبة خاصّة حتى ولو كانت رغبة الانتقام من أعداء الله.

ولكن هـذا هو المطلـوب في حركة أتبـاع الأنبيـاء ، ولـولاه لكـانت تزيغ عن الصـراط المسـتقيم ، ولا نعـدم الاطمئنـان إليها وإلى حملتها ، ولم تقم الحجّة على عبـاد الله حيث أنّ طلاب المناصب كثـيرون ، ولو وضع هـؤلاء أيضا المنصب نصب أعينهم لاشتبه الأمر على عامّة الناس ، فلعلّ هؤلاء أيضا اتخذوا الدّين وسيلة

للسلطة ، كلا .. إنّ هؤلاء من نمط آخر ، فحتى لو سعت إليهم السلطة سعيا ابتعدوا عن لذاتها وبهارجها ، فهذا قدوتهم المثلى سيد البشر محمد بن عبد الله وخاتم النبيين (ص) سعت إليه قريش يعرضون عليه أجمل نسائهم ، وأصفى أموالهم ، والملك عليهم ، فرفض إلّا تبليغ دعوته.

ولو خالط حبّ الدنيا قلب الداعية أثّر من حيث يدري أو لا يدري على قرارته الإستراتيجيّة ، ذلك أنّ عمل الإنسان إنّما هو تجسيد لنيّاته ، وقد قال ربّنا : (**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ**) ، فشخصية الإنسان الداخلية تبرز من خلال أعماله شاء أم أبى ، وهكذا تنحرف الرسالة عن مسيرها القويم ، إذا لم يخلص حملتها نيّاتهم لله.

وإنّ فريقا من المنتمين الى الحركات الرسالية يزعمون أنّها حركات سياسية ولكن بصبغة إلهية ، فإذا زويت عنها المكاسب العاجلة لمصلحة سائر السياسيين اتّهموا قادة الحركة بالسذاجة والانطواء ، وحين يطول انتظارهم للنصر تراهم يرتابون في القيم رأسا ، وينسحبون عن الساحة ، كلا .. إنّها حركات دينية أوّلا ، وسياسية ثانيا ، ذلك أنّهم لا يصوغون استراتيجيتهم وفق المتغيّرات السياسية ، بل حسب الواجبات الدينية ، وأعينهم مسمّرة على أجر الله ورضوانه قبل أن ترمق ملامح نصره ، ولذلك تراهم لا يداهنون أعداءهم ، ولا يتنازلون عن قيمهم ، ولا يخادعون الناس ، ولا يمالئون المترفين على حساب دينهم ، ولا يخشون قوة كبري ، ولا يظلمون قوة صغرى.

فهذا الإمام علي ـ عليه السلام ـ حين أشار عليه قومه ببعض الحيل السياسية نهرهم قائلا : «**أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه**؟!» [1]

---

(1) نهج البلاغة / خ 126 ص 183.

والحكمة في ذلك أنّ الهـدف الأوّل لأنصـار الرسـالة تكـريس الحق وإنـذار النـاس به ، وقد لا تكـون السـلطة أفضل وسـيلة لـذلك ، إذ قد يكـون أثر حركة معارضة في توجيه الحالة الاجتماعية أشـدّ وأبقى من تـأثير السـلطة الحاكمة.

وقد يكون المطلوب إيجاد قوة رسالية ضاغطة باتجاه القيم في مواجهة قوة كافرة تضغط باتجاه الضلال ، وفي هذا الوقت تكون السلطة غير مناسبة لإيجاد تلك القوة.

وقد يخشى أن يولد الإنتصـار في غـير أوانه فيكـون ناقصا ، ويجهض سـريعا ، وبتعبـير آخر قد يمنع النصر العاجل المحدّد نصرا آجلا أرسخ جذورا وأوسع فروعا.

وقد تكون شهادة الرسالي أقـوى حجّة لسـلامة خطّه وصحة دعوته من انتصاره ، فتكون هي الغاية السـامية له ..

لـذلك نجد الإمـام الحسـين ـ عليه السـلام ـ انـدفع للشهادة قائلا :

«**خـطّ المـوت على ولد آدم مخـطّ القلادة على جيد الفتـاة ، وما أولهـني إلى أسـلافي اشـتياق يعقوب إلى يوسف**» .

ثم ناضل أعداء الرسالة ، حـتى إذا قـدّم كـلّ أنصـاره وأهل بيته وحتى طفله الرضيع ، واحتمل جسـده عشـرات الجراحات ، وخرّ على الأرض صريعا ، قال :

«**إلهي رضا برضاك ، لا معبود سواك**»

[78] تلك هي سـنّة الأنبيـاء جميعا ، إنّهم يتجـرّدون لرسالات ربّهم ، ويخلصـون لله نيّـاتهم وأعمـالهم ، وحـتى الآيات التي تنزل عليهم كانت بإذن الله.

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ**)

ولأنّك في خطّهم وعلى السبيل الـذي مضـوا عليه فلا بدّ أن تهتدي بسيرتهم ، وتنظر الى سنّة الله فيهم.

(**مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْـكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُـصْ عَلَيْكَ**)

جاء في حديث مأثور عن الإمام الرضا ـ عليه السـلام ـ عن الرسول ـ صـلى الله عليه وآله ـ : «**خلق الله عزّ وجلّ مـأة ألف نـبي وأربعة وعشـرين ألف نـبي ، أنا أكـرمهم على الله ، ولا فخـر. وخلق الله عـزّ وجـلّ مـأة ألف وصي وأربعة وعشـرين ألف وصي ، فعلي أكرمهم على الله وأفضلهم**» (1)

وجاء في حـديث مـأثور عن الإمـام أمـير المؤمـنين ـ عليه السـلام ـ : «**بعث الله نبيّا أسـود لم يقصّ علينا قصته**» (2)

وكلّ أولئك الرسل مضوا على هذه السنة ، وهي :

(**وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**)

فحتى الآيات التي تشهد على صدق نبوّته ليست بإذنه وإنّما بإذن الله سبحانه.

(**فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللـهِ قُضِـيَ بِـالْحَقِّ وَخَسِـرَ هُنالِـكَ الْمُبْطِلُونَ**)

الذين أعرضوا عن رسالة الله وخالفوا رسله ، وهكـذا حين فـوّض الرسل أمـورهم الى الله سـبحانه أحسن الله تدبيره ، وانتقم بشدة ممّن خالفهم ، بعد انقضاء أجلهم.

[79] الآيـات الخارقة الـتي كـان المبطلـون يزعمـون أنّهم إنّما يؤمنون بالرسالة إذا

---

(1) تفسير نمونه نقلا عن موسوعة بحار الأنوار ج 11 ـ ص 30.

(2) نور الثقلين / ج 4 ـ ص 537.

وقعت ، ليست ــــ في الواقع ــــ مختلفة عن آيـــات الله المبثوثة فيما حــولهم ، إلّا أنّهم تعوّدوها فلم تعد تــثر فيهم الإعجــاب ، وإنّهم لو شــاؤوا الإيمــان لكفتهم هــذه الآيــات شواهد على توحيد الله ، ولكن قلوبهم كــانت عليلة ، وهم بحاجة الى اســتيعاب عــبرة الأمم الــذين خســروا حين جاءتهم الآيات التي طالبوا الرسل بها.

وهكذا نجد السياق ينذر ــ من طــرف خفي ــ بمصــير أولئك الغابرين كلّ من لا يفتح أبواب فؤاده لآيات الله في الخليقة.

(**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها**)

فهي ذات الأنعـــام ولكنّ الله جعل فيها فوائد عظيمة للبشر فمنها ركوبكم.

(**وَمِنْها تَأْكُلُونَ**)

والمسافة شاســعة بين حاجة الأكل وحاجة الركــوب ، فبينما الأكل طعــام الإنســان لا بــدّ أن يكــون متناســبا مع متطلبـــات جســـده وليّنا ، وقـــابلا للقضم والهضم ، نجد مركبه ينبغي أن يكون قويّا ومتناسبا وطبيعة الأرض سهلها وحزنها وجبلها وحرّتها!

دعنا نقيس الســيّارات الــتي اخترعناها لســيرنا ، هل تتشابه وخلق اللــه؟ إنّها بحاجة الى وقــود لا يوجد في كــلّ أرض ، بعكس طعــام الأنعــام النــابت من كــلّ أرض توجد فيها ، وهي بحاجة الى مصانع ، بينما الأنعــام تتوالد ، وهي ليست قابلة للأكل بعكس الأنعـــام .. وأخـــيرا فهي بحاجة الى طــرق معبّــدة ، بينما تســير الأنعــام في أشــدّ الســبل وعـــورة. أو لا يـــدلّ ذلك على حسن تـــدبير الله لحيـــاة الإنسان؟!

وبـــالرغم من أنّ مكاسب الحضــارة الحديثة بــدورها شاهدة على عظمة الله ، لأنّها

بالتالي تهدينا الى عظيم خلق الإنسان الذي سـخّر الله له الطبيعة بـالعلم والقـدرة ، إلّا أنّها تكشف أيضا عن خبايا الطبيعة المحيطة بنا ، والتي هي خليقة الله ، ومن أحسن منه خلقا وتدبيرا.

[80] وفي الأنعـام منـافع أخـرى في جلودها وأوبارها وأشـعارها وحـتى في فضـلاتها ، واليـوم حيث أغـنى الله الإنسان بوسائل السير السريعة عن الأنعـام لا زلنا بحاجة ماسّة الى تلك المنافع.

(**وَلَكُمْ فِيها مَنـافِعُ وَلِتَبْلُغُـوا عَلَيْها حاجَـةً فِي صُدُورِكُمْ**)

قـالوا : تحمل أثقـالكم الى بلاد بعيـدة ، وتقضـون بها حوائجكم ، ويبـدو لي أنّ في الآية إشـارة الى الزينة الـتي جعلها الله للإنسان في الأنعام ، حيث قـال ربّنا سـبحانه : (**وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**) .

ومعـروف العلاقة الحميمة الـتي تنشأ بين الأنعـام ومالكيها بسبب وجود هذه الحاجة في الصدر.

(**وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**)

فالله الـذي خلق الإبل ليطـوي به الإنسـان المفـاوز البعيدة ، هو الذي أجرى سننه في البحر ، وسخّر للإنسـان الفلك ليحمله عبر المحيطات الى البلاد البعيدة.

[81] فهـذه آيـات الله يستعرضـها ربّنا في كتـاب الخليقة وفي ثنايا كتابه المرسل ، ليعـرّف نفسه إلينا من خلالها ، حـتى لا نكـاد نقـدر على إنكارها لشـدّة وضـوحها وكثرتها وتنوّعها ، فإذا ضلّ الإنسان فإنّما يضلّ على نفسه ، وبعد كمال النعمة وإتمام الحجة.

(**وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ**)

[82] وماذا يغني الإنكار ـ لو أنكـرتم ــ عنكم شـيئا؟!
إنّ الحجة قد تمّت ، والإنذار قد كان بالغا ، والانتقام شديد ، ولكم في حيـاة الغـابرين عـبرة لا ينبغي تجاوزها ، أولئك أيضا أنكـروا اعتمـادا على قـوّتهم وغـرورا بما لـديهم من علم ، واســتهزءوا بالحقــائق إيغــالا في اللهو واللعب ، فانظروا كيف كـانت عاقبة أمـرهم ، فما راعهم إلّا وبـأس الله على رؤوسهم ، فأعلنوا الإيمان لعلّه يدفع عنهم قضاء الله ، ولكن هيهات!

(**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**)

لينظروا مصارع عاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وليقـرأوا على بقايا قلاع بعلبك ، وأهرامــــات مصر ، وأطلال مدينة بابل ، وما في المدائن و.. و.. تاريخ الظالمين.

بلى. ساروا وقرءوا وحفظت كتب التـاريخ ، ومتـاحف البلاد ، وروايـات النـاس كثـيرا من هـذه الحقـائق ، ولكنّ الإعتبار هو المهم.

(**فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

وهل أنّهم انتهــوا لقلّة عــددهم ، أو ضــعف عــدّتهم ، ومحدودية آثارهم بالقياس إليهم؟ كلا ..

(**كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ**)

لقد عمّروا الأرض بإثارة الـتراب وتغيـير ملامحه أكـثر مما فعل هــؤلاء فما أغنت عنهم القصــور الشــامخة ، والقلاع المنيعة ، والمنائر الضاربة في السماء.

(**فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

[83] لقد اعتمـــدوا على منطق القـــوة فرفضـــوا المنطق السليم ، وأرادوا دعم منطقهم بأموالهم وآثـارهم في الأرض ، زاعمين أنّهم على حقّ لأنّهم الأقوى ظـاهرا ، وأنّ علمهم هو الأفضل لأنّهم أكثر عددا وعدّة.

(**فَلَمَّا جـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنـاتِ فَرِحُـوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**)

ولعـلّ معـنى الفـرح هنا : الاسـتغناء به عن العلـوم الأخـرى ، كمن يعـتزّ برأيه ، وهـذا يـوجب الانغلاق دون الأفكار الجديدة ، وهذه ـ في الواقع ـ عادة الظالمين حيث أنّهم يصـابون بالتعصّـب والتقليد حـتى لكـأنّ قلـوبهم في أكنّة ، يخشون من كلّ جديد ، وينغلقون دون كلّ دعوة.

وهذا ليس من حكمة العلمـاء إنّما هي صـفة أصـحاب القوة ، فـالعلم بذاته يـدعو إلى التواضع ، ويهـدي صـاحبه الى آفاق جهله ، وآماد المعـارف الـتي يجب عليه السـعي إليها ، وقد شـبّه بعضـهم العلم بحلقة في صـحراء الجهل كلّما اتسـعت حـدودها كلّما لامست مسـاحات جديـدة من هذه الصحراء ، لذلك ترى أحد العلماء يقول عند موته عند ما يسـأل : مـاذا علمت؟ يقـول : علمت بـأنّي لا أعـرف شيئا.

بلى. إنّنا نجد بعض الجهلاء اليـــوم يفتخـــرون بعلم العلماء (لا علمهم هم) ويرفضون رسالة الله اعتمادا على تقـدّمهم العلمي ، بينما نجد علمـاءهم يـزدادون تواضـعا للحقائق كلّما ازدادوا علما.

(**وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

لقد اسـتهزءوا بالحقـائق فـأهلكتهم ، واليـوم حيث يستبدّ بالمستكبرين في الأرض

غرور القـوة ، ويفرحـون بما لـديهم من العلم ، وينغلقـون دون دعـوات الإصـلاح الـتي يحملها أنصـار الرسـالة ، ويسـتهزءون بالإنـذار تلو الإنـذار الـذي يبلّغه أصـحاب الرسالة بأنّ عاقبة هذه الحضارة ليست بأفضل من عاقبة الحضـارات الماديّة السـابقة ، وأنّ الجهل ، والأنانية ، والظلم ، والترف ، والغفلة ، وسكر الغنى ، وغرور القـوة ، وكلّ الصـفات الرذيلة الـتي انتشـرت في الأرض عاقبتها الـدمار ، إمّا بحـرب ثالثة لا تبقي ولا تـذر ، أو بصـاعقة منشأها ارتطـام كـوكب بكوكبنا ، أو زلـزال مـدمّر كالـذي يتنبّأ به بعض العلماء فيما يتعلّق بغـرب أمريكا أو ما أشـبه ..

وإذا كان كلّ ذلك الإنذار يذهب سدى فإنّنا نخشى من مصير رهيب نسأل الله العلي القدير أن يـرحم البشـرية ، وأن يهدينا والعالم الى نور الإسلام الحق.

[84] هؤلاء يعرفون الحقائق ، ولكنّهم ينكرونها غرورا ، لذلك تراهم يؤمنون بالله عند ما ينزل عليهم بأسه.

(**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قـالُوا آمَنَّا بِاللـهِ وَحْـدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ**)

من سلطان ومال وضلال.

إنّ غـرورهم بـالقوة والـثروة ، وتعصّـبهم لضـلالاتهم ، يسمّى كلّ ذلك شركا في هذه الآية ، وقد كفـروا به ولكن بعد فوات الفرصة.

[85] إنّ الكفر بالأنداد ، ورفض الآلهة المزيّفة ، كـان ينبغي أن يسـبق البلاء حـتى يكـون نافعا ، لأنّ الـدنيا دار ابتلاء ، ووقت الابتلاء ينتهي عند رؤية العذاب.

(**فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمـانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَـنا سُـنَّتَ اللـهِ الَّتِي قَـدْ خَلَتْ فِي عِبـادِهِ وَخَسِـرَ هُنالِـكَ الْكافِرُونَ**)

إنّ الايمان ينفع قبل حلول البلاء ، تلك سنة لا تتحـوّل فيمن مضى وفيمن يأتي.

سورة فصّلت

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال :

«**من قرأ حم السجدة كانت له نورا يـوم القيامة حـدّ بصـره ، وسـرورا ، وعـاش في الـدنيا محمـودا مغبوطا**»

(تفسير نور الثقلين / ج 4 / ص 538)

عن أبي عبد الله (ع) :

إن العـزائم أربع : «**اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ**» والنجم ، و «**الم تَنْزِيلُ**» السجدة ، و «**حم**» السجدة

(المصدر)

الإطار العام

تفتتح السـورة ببيـان عن القـرآن الـذي فصّـلت آياته ببلاغة نافذة تنفع العلمـاء الـذين تبشّـرهم بالحسـنى ، كما تنذر المعرضين الذين لا يسمعون آياته.

وتلخّص هذه الفاتحة المحاور التالية للسورة :

المحور الأوّل : الجحـود والإعـراض والاسـتكبار الـذي ابتلي به أكثر القوم حتى زعمـوا أنّ قلـوبهم في أكنّة فلن تهتدي أبدا ، ويـذكر السـياق عوامل هـذه الحالة الشـاذة ، ويعطي وصفة العلاج لها.

ويقارن الـذكر بين هـذه الحالة الموغلة في الضـلالة ، وما عليه المؤمنون الذين استقاموا فنزلت عليهم الملائكة ، واشتغلوا بالحمد والتسبيح لله بلا كلل ولا سأم.

وتكاد تكون هذه المقارنة أبـرز سـمات هـذه السـورة المباركة ، فـإذا تلونا في الآية (5) قـول الجاحـدين (**فِي آذانِنا وَقْـرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِـكَ حِجـابٌ فَاعْمَـلْ إِنَّنا عامِلُونَ**) متحدين بكل صلافة الرسالة الإلهية ، فإننا نتلـوا في الآية التالية (6) قوله :

(**فَاسْـتَقِيمُوا إِلَيْـهِ وَاسْـتَغْفِرُوهُ**) ليتحــدى المؤمنــون صلافة الجاحدين بما يفوق إصرارهم ، ويهزم عنادهم!

وحين نقـرأ في الآية (25) :ـ (**وَقَيَّضْـنا لَهُمْ قُرَنـاءَ فَزَيَّنُـوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَـقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ**) حيث يـبيّن القـرآن مـدى شـقاء هـذه الطائفة الجاحدة حتى لزمتهم كلمة العذاب ، فإنّنا نقـرأ في الآية (30) :ـ (**إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَـةُ**) . فهنـاك قرنـاء السـوء ، وهنا أوليـاء الرحمة.

وأخــيرا حين يــبيّن الســياق في الآية (38) اســتكبار أولئك الجاحــدين ، يــبيّن أن من عند الله لا يسـأمون عن التسبيح.

ولمعالجة حالة الإعراض عن الذكر والجحود في آيات الله ينذرهم الـربّ في دنيـاهم بصـاعقة مثل صـاعقة عـاد وثمود (13) ، كما ينذرهم في عقبـاهم بنـار السـعير في يوم تشهد عليهم جوارحهم (19) .

ويشــير السـياق الى بعض عوامل الإعـراض كـالظن الســـيء بالله ، وقرنـــاء الســـوء ، واللّغو في القـــرآن (التضليل) ، ويحذّر مرّة بعد مرة من العذاب الشديد الذي ينتظر الجاحدين حتى أنّهم يبحثون هنالك عمّن أضلهم من الجن والإنس ليجعلوهم تحت أقدامهم (23) .

كما يبشّــر الـذين يـذكرون ويسـتقيمون على الـذكر بالسداد والنصر في الدنيا ، والجنة والرضوان في الآخرة.

المحور الثـاني : التـذكرة بآيـات الله في الآفـاق وفي أنفسـهم ، حيث يـبيّن القـرآن هنا قصة خلق الكائنـات في أيّــام أو مراحل (9) وأنّ من آياته الشـــمس والقمر حيث يـــــدعو الى نبذ الســـــجود لها ، وإنّما التوجه الى خالقها بالسجود والتسبيح ، وأنّ من

آياته إحيـاء الأرض بعد موتها ، وهو الـذي يحـيي المـوتى (27) ويردّ إليه علم الساعة ، وما تخـرج من الثمـرات من أكمامها (47) .. ويســـتعرض جانبا من أطـــوار النفس البشـرية حيث تـرى الإنسـان لا يسـأم من دعـاء الخـير ، ولكنّه إذا مسّه الشر تراه يؤسا قنوطا ، وحين يرزق نعمة يفقد من الفـرح توازنه ، وإذا أصـابه السـوء فهو ذو دعـاء عريض (49) .

وكما هو منهج القـرآن البـديع في سـائر السـور حيث يوصل الآيـات الشـاهدة على الحق بالإنـذار من الإعـراض عنها ، ذلك أنّ بيان الآيات لا يجدي الجاحد نفعا ، فلا بد إذا من استصلاح الأرض قبل أن يزرع فيها الحب ، كـذلك نجد في هذه السورة كيف تتماوج الآيات بين إنذار المعرضــين عن الآيات وبين بيان آيات الله في الآفـاق والأنفس ، مثلا بعد الآية (39) الـتي تلفت النظر الى خشـوع الأرض قبل أن ينزل الله عليها الماء فتهتز وتربو وتحيى ، وقبل الآية (47) التي تبيّن علم الله بالسـاعة وبـالثمرات الـتي تخـرج من أكمامها ، نجد الآيـات (40) تنـذر الـذين يلحـدون في آيـات الله أنّهم لا يخفـون على الله ، وأنّ الـذين كفـروا بالذكر لا يفلحون ، لأنّه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم يـذكر بعض أعـذار الجاحـدين من قبل ومن بعد الرسول.

وتتميّز السورة بقوّة الطرح ، وشدة نـبرات السـياق ، خصوصا فيما يتصل بـالإعراض والجحـود في آيـات الله ، كما تتميّز بالمفارقة الحادّة بين طـرفي الصـراع ، بين من يصرّ على الجحود ومن يستقيم على الطريق.

سورة فصلت

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(حم (1) تَنْزِيـلٌ مِنَ الـرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ (2) كِتـابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآنـاً عَرَبِيًّا لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ (3) بَشِـيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4) وَقـالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَـدْعُونا إِلَيْـهِ وَفِي آذانِنا وَقْـرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5) قُـلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُـوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلـهٌ واحِـدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْـتَغْفِرُوهُ وَوَيْـلٌ لِلْمُشْـرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

---

5 [أكنّة] : أي أغطية فإن أكنّة جمع كن وهو الغطاء.
[وقر] : أي ثقل عن استماع القرآن.

هُمْ كافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

---

8 [غير ممنون] : أي غير مقطوع ، فـإنّ «ممنـون» منّ بمعـنى قطع أو من «المنّ» بمعنى الأذى الذي يكدّر الإحسان ، أي غير مكدّر بالمن.

فاستقيموا إليه واستغفروه

هدى من الآيات :

يفتتح القرآن سورة «فصلت» بما يمهّد للحقائق التي تذكّر بها السورة ..

أوّلا : تبصّر الناس بحقيقة القرآن ، وأنّه كتاب فصّلت آياته بإحكام ، وقد أوحي بلغة عربية تبيّن الحقائق للذين يعلمون ، فهو كتاب علم ومعرفة كما هو كتاب حكمة وتربية تبشّر وتنذر ، إلّا أنّه هدى للذين يستمعون إليه أمّا الذين لا يهتدون إليه فقد أعرضوا عنه حتى قالوا : قلوبنا في أغطية ، وآذاننا ثقيلة ، وعلى أبصارنا غشاوة ، وإنّ المسافة بيننا وبينك قد سدّت بحجاب ، ثم تحدّوا الرسول (ص) بأنّهم عاملون حسب أفكارهم فليعمل حسب آدابه لينظروا لمن العاقبة.

هكذا ذكر السياق في فاتحة السورة بالمنهج الحق للانتفاع بالقرآن ، وهو منهج التسليم لا الإعراض والتحدّي.

ثانيا : تجـــــرّد الرسل عما يتّصل بـــــذاتهم من أجل الرسالة شاهد صـدق عليها ، فهم يـدعون إلى الله وحـده (لا إلى أنفســـهم أو قـــوميتهم أو إقليمهم أو ما أشـــبه) ويـأمرون بالاسـتقامة في طريقه ، ويعـدون بالرحمة عـبر الاستغفار ، وينذرون المشركين (الذين يعبـدون الطـاغوت أو سائر الأنداد) بالويل والثبور.

والمشــركون هم الــذين يمنعــون الزكــاة ويكفــرون بـالآخرة ، وبـإزاء هـذا الإنـذار تـأتي البشـارة للـذين آمنـوا وعملوا الصالحات بأنّ لهم أجرا لا ينقطع.

(وهكــذا تتجلّى صــفات القــرآن ودعوته في هــذه الكلمات البليغة) .

بينات من الآيات :

بنور الله الذي يرشّه على الأشـياء فيجعلها مخلوقـات مـدبّرات بـأمره ، بنـور الله الـذي يفيضه على الإنســان فيجعله خليفته في أرضه ، ويمنحه به العقل والهـــــــدى والمعرفة والمشــيئة ، وبنــوره الـــذي يوحيه الى أنبيائه فيجعلهم السرج المنيرة في ديجور الحياة ..

بذلك الاسم العظيم والنور الباهر يبتدأ الوحي رسالته ، وبه نتلوا تلك الرسالة.

(**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**)

[1] (**حم**)

مرة أخرى تسـتقبل أفئـدتنا هـذه الكلمـات المتقطّعة التي تستثير عقولنا ، فهل هي أسـماء للسـورة الـتي تبـدأ بهـا؟ أم هي إشـارات إلى ذات القـرآن وهي بمثابة هـذه الأحرف أو هذه الكلمات أو هي رموز بين الله والراسخين في العلم من عباده؟

كـلّ ذلك محتمل ، ولا ضــير في أن يكـون كـلّ ذلك مراد القرآن ، لأنّ للقرآن تخوما

وعلى تخومه تخـوم ، ويبـدو أنّ كلمة «حم» مبتـدء أسـند إليها قوله تعالى : «تنزيل» ، فيكـون المعـنى : هـذا تنزيل من الله.

[2] تتجلّى في كتـاب الله الرحمة الإلهية الـتي تتجلّى في خلقه ، تلك الرحمة التي تتّسم بالشمول والاستمرار.

(**تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**)

هل استطاع العادّون إحصاء رحمـات اللـه؟ كلّا .. وإن تعـدّوا نعمة الله لا تحصـوها ، فهو الـرحمن الـذي وسـعت رحمته كلّ شيء وأحاطت بكلّ شيء ، ورحماته مسـتمرة منذ أن خلقنا من تـــراب ، ثم من نطفة ، والى أن يوارينا الثرى ، وهي تستمرّ بالنسبة الى المؤمنين إلى الجنة.

أفلا ينبغي أن نسارع الى هذا الكتاب الـذي أنـزل من عند ذلكم الربّ الرحمن الرحيم؟ بلى. أو لسنا بشـــرا وقد أودع الله فينا حبّ المحسن إلينا ، وشكر من أنعم علينـا؟ أو لا نريد المزيد من الرحمـــة؟ دعنا إذا نبـــادر الى قبـــول رسالته التي تتسم بالرحمة.

[3] التنوّع والاختلاف سمة بارزة للمخلوقات ، والعلم الحـــقّ هو الإحاطة بمعرفة خصـــائص الأشـــياء واختلافاتها ونسبة بعضها إلى البعض الآخر.

وحاجات الإنسان هي الأخرى شديدة التنـــوّع وعظيمة الاختلاف ، سواء منها النفسية أو الجسمية ، ولكـلّ شـيء حد إذا تجـاوزه بطل ، وهكـذا حاجـات البشر ذات مقـدار فإذا أسرف فيها أفسد ، وإذا قـتر أفسد ، فنحن إذا بحاجة الى خريطة مفصّلة لوجود الكائنات ووجود الإنسان بينها ، فأين نجدها؟ أو ليس في كتاب ربّنا الحكيم؟ بلى.

(**كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ**)

إنّه كتـــاب (ثـــابت) ، وإنّه مفصّـــل قد أحكمت آياته وتشابهت وتناسقت ، لا تجد فيها عوجا ولا ثغرة ولا اختلافا ، وهــذا بذاته شــاهد على صــدقه ، فكــلّ آياته تنبعث من التوحيد الخالص ، وتدعوا الى الحق والعدل والجزاء.

والكتاب قـرآن عـربي جـاء بهـذه اللغة الفريـدة الـتي ســمت على كل اللغــات في إعرابها عن نوايا المتحــدّث بكلّ دقة وبلاغة.

(**قُرْآناً عَرَبِيًّا**)

وإنّه لشــرف عظيم لهــذه اللغة وللنــاطقين بها عــبر التـــاريخ أنّ وحي الله قد امتطى متنها ، ولعلّنا نســـتوحي من هذه الإشارة : أنّ شرف العروبة باللغة ، ولذلك فكــلّ من تحدّث بها واعتنق المبادئ السامية التي جاء بها الذكر فهو عربي ، وإنما تتفـاوت عروبة النـاس بمـدى الـتزامهم بتلك المبادئ ، وأكرم الناس جميعا أتقاهم.

(**لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

القــرآن كتــاب علم ولا يبلغ آمــاده إلّا العلمــاء ، وإذا قصر عن وعيه إنسان فلنقص في معارفه ..

وكلّما تقـدّم علم البشــرية كلّما اقــتربوا من محتـوى القرآن وعرفوا عظمته ، إلّا أنّ ركب الإنسانية يسير قـدما نحو التكامل ويبقى القرآن أمامه أبدا ، كالشمس ضــوؤها قريب والوصول إليها مستحيل.

وهذا الاستفتاح يتناسب والحقائق العلمية الـتي تشـير إليها هذه السورة لكي لا ننكر بعضها عند ما نجهل أبعادها ، فليس من خصائص الإنسان العاقل أن ينكر

ما لا يعرفه ، بل يسعى من أجل معرفته.

[4] والى جـانب أنّه كتـاب علم ، فهو كتـاب حكمة ، تنفذ بصائره في الفؤاد ، وتستثير عقل الإنسان من سباته ، وتنهض إرادته ، وتشـحذ عزائمه ، وتربّيه وتزكّيه ، كـلّ ذلك بما يحتوي من بشارة وإنذار.

(**بَشِيراً وَنَذِيراً**)

ولا يدع الكتـاب نافـذة على القلب إلّا وينفذ منها ، ولا وترا حساسا إلّا ويغرب عليه. إنّه يرغّبهم في ثـواب الـدنيا وحسن ثواب الآخرة بألوان من الـترغيب لا تكـاد تحصى ، كما وينذرهم بألوان من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

ولكن هل يعني ذلك أنّ القرآن يؤثّر في كـلّ النـاس؟ إذا بطلت حكمة الابتلاء. ولا يصـبح النـاس جميعا على هدى.

(**فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**)

لقد أعرضـوا عن ذكـرهم ، ولم تشأ حكمة الـربّ إكـراههم ، فهم لا يسـمعون الموعظة ولو سـمعوها حقّا لاهتدوا إذ لا نقص أبدا من جانب القـرآن ، بل قد وفّر الله وسـائل الهداية ، ولكن ما ذنب الشـمس لو كـان الإنسـان أعمى.

[5] وكان من ملامح إعراضهم أنّهم زعموا أنّ قلوبهم موضـوعة في أوعية مغلقة ، فهي لا تسـتجيب للحقـائق الجديـدة ، وأنّ بينهم وبين الرسـول حجابا لا يمكنهم رؤية الرسول من ورائه.

(**وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ**)

لقد عقـدوا عزمـات قلـوبهم على الكفر بما جـاء به الرسول ، والتعصّب الأعمى لما

كان عليه آباؤهم ، فزعموا أنّ هناك سواتر وأغطية عديدة تلـفّ أفئـدتهم عن الـدعوة الجديـدة ، بلى. الغفلة والجهل والكــبر والعنــاد كلّها أكنّة على قلــوبهم ، فكيف تخترقها الرسالة؟!

ثمّ قالوا : وحتى ولو كانت قلوبنا سليمة فــإنّ آذاننا لا تســمع لما فيها من ثقل ، وأبصــارنا لا تــرى وجوارحنا لا تحس لأنّ المسافة التي بيننا وبينك قد سدّت بالحجاب.

(**وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ**)

فمن أعرض قلبه ثقل سـمعه عن اسـتقبال الـدعوة ، كما علت عينه غشاوة.

ثم كشفوا عن غاية تعصّبهم وشدة جمودهم إذ قالوا :

(**فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ**)

فلم يطيقوا الحوار فقطعوه ، وقـالوا : اعمل أنت بما تــرى ، ونعمل بما نعتقد ، والمســتقبل يحكم بيننا وبينك ، وإذا كنت تخطّط للمواجهة فنحن مستعدون!!

هكــذا أعرضــوا عن الــذكر ، فهل يلام على ضــلالتهم غيرهم؟

[6] في مواجهة الدعوات الصادقة يلتجئ المتعصّبون الى مكر شـيطاني ، وذلك بـأن يخلطـوا بين الـدعوة وبين صاحبها فيتهموه بحبّ السلطان أو الجاه وما أشــبه ، ومن هنا كان من أقـوى الحجج الـتي اعتمـدها الرسل ـ عليهم الســلام ـــ التجــرّد للرســالة عن شخصــيّاتهم ، وأنّهم لا يطــالبون النــاس بــأجر (اللهمّ إلّا ما يكــون لهم) وأنّهم لا يبحثون عن جاه أو سلطة أو ثروة ، وأنّهم لا يدّعون التميّز عليهم إلّا بالوحي.

(**قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ**)

وأنّ دعوتهم خالصة لله ، وأنّهم يسلّمون أمرهم لذلك الربّ الواحد الذي يدعون الناس للتسليم له ..

(**أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ**)

وهـذه هي المـيزة الأساسـية لرسـالات الله عن كـلّ دعوات الباطل ، أنّ تلك الـدعوات تسـعى لإخـراج النـاس من ظلام الى ظلام ، ومن عبودية الى عبودية ، ومن غــلّ الى غـلّ آخر ، بينما رسـالات الله تـدعو الى النـور ، الى الحرية ، الى فكّ الأغلال جميعا.

ولولا حجاب الجهل والعصبية والعناد فإنّ نور الصـدق يتجلّى في دعوات الأنبياء ومن اتبع نهجهم.

(**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ**)

وهـذه مـيزة أساسـية ثانية : إنّ دعـوات الباطل تجـرّ أصــحابها من انحــراف الى انحــراف ومن ظلم الى ظلم ومن إســراف الى تقتـير ومن إفــراط الى تفريط ، بينما رســالات الله تـــدعو الإنســان الى الحكمة والاعتــدال والاستقامة ، في طريق الله.

وبما أنّ الاســتقامة الى الله تعــني مقاومة شــهوات النفس ، وضـغط المجتمع ، وسـلبيات الماضي ، وإرهـاب الطغـاة ، فـإنّ البقـاء عليها يشـبه المسـتحيل ، أو لم يقل رســول الله (ص) شــيّبتني ســورة هــود ، لأنّ فيها آية الاستقامة ، ولـذلك أمرنا الله بعد الاسـتقامة بالاسـتغفار ، كما أشــار في ســورة هــود الى مثل ذلك حيث قــال : (**فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ**) .

(**وَاسْتَغْفِرُوهُ**)

فكلّما دفعتك أعاصـــير الضـــغوط ذات اليمين وذات الشـمال عد الى طريقك المسـتقيم ، فـإنّ على أطـراف طريق الجنة حفر النـــيران فلا تسترسل مع الريـــاح الى نهايتها المريعة.

(**وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ**)

وهم الذين انحرفوا مع رياح الضـغط حـتى وقعـوا في حفر الشـرك فلحقهم الويل ، ونسـتوحي من الآية أنّ من لم يستغفر ربّه بعد الانحراف عن خطّ الاستقامة ينتهي به المطاف الى الشرك والكفر ، كما قال ربّنا في آية أخـرى : (**ثُمَّ كـانَ عاقِبَـةَ الَّذِينَ أَسـاؤُا السُّـواى أَنْ كَـذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ**) .

[7] وقد يكــون الإنســان مشــركا دون أن يعــرف ، لاعتقـاد أكـثر النـاس أنّ مجـرّد الشـهادة بالتوحيد لفظيّا تكفي علامة على الإيمـــان ، بلى. إنّه كـــاف في مجـــال التعامل الاجتمــاعي إذ يحسب من المســلمين ظــاهرا ، وتحلّ ذبيحته ، ويجـوز مصـاهرته ، ولكن لا يكفي عند الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

إنّ الإيمـــــان وقر في القلب ، وأثر على الســــلوك وممارسة للطقـوس .. ومن أبر علائمه الزكـاة والإيمـان بالآخرة ، فمن منع زكاة ماله واعتـبره مغرما وارتـاب في الاخرة فهو مشرك حتى ولو لهج لسانه بالتوحيد.

(**الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ**)

أيّ زكاة هـذه؟ هل هي النصـاب المعـروف أم مطلق الإنفاق في سبيل الله؟ يبدو أنّ الثاني أقـرب باعتبـار الآية مكية.

(**وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ**)

فلو لا كفرهم بالآخرة لما منعوا زكاة أموالهم جاء في الأثر المروي عن الإمام الصادق (ع) أنّ النبي (ص) أوصى عليّا (ع) فقال ضمن وصية :

«يا علي كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة (وعدّ منه مانع الزكاة ، ثم قال :) من منع قيراطا من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة ، يا علي :لا تارك الزكاة يسأل الله الرجعة الى الدنيا ، وذلك قوله عزّ وجلّ : (**حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ**)» [1]

[8] أمّا المؤمنون الذين يعملون الصالحات فإنّهم ينفقون زكاة أموالهم طلبا لأجر الله الذي لا ينقطع.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**)

ويبقى سؤال أخير : ما هو صراط الله الذي يجب أن نستقيم عليه؟

إنّه يتمثّل في كتاب الله الذي أوحي الى الرسول (ص) فيكون الشرك هو مخالفة كتاب الله المتمثّلة في مخالفة الرسول.

ومخالفة الرسول تعني اليوم مخالفة القيادة الشرعية التي تدعو الى الله وتنفّذ كتابه ، هذا ما نقرأه في تفسير أهل البيت لهذه الآيات. [2]

---

(1) تفسير نمونه / ج (20) ص (219) نقلا عن وسائل الشيعة / ج (6) ص (18 ـ 19)

(2) راجع نور الثقلين / ج (4) ص (539) نقلا عن الإمام الصادق (ع) في حديث مفصّل.

قُـلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُـرُونَ بِالَّذِي خَلَـقَ الْأَرْضَ فِي يَـوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيها رَواسِـيَ مِنْ فَوْقِها وَبـارَكَ فِيها وَقَـدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10)

وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

هدى من الآيات :

ربط حقـائق الكـون بعضـها ببعض ، ربطا متناسـقا ، ومـؤثّرا في قلب الإنسـان ، من المـيزات الـتي يتّسم بها القـــرآن الحكيم في منهجه الـــتربوي والتعليمي ، فبينما يحـدّثنا في هـذا الـدرس عن العـالمين ، عن الأرض كيف نظّم شـــؤونها ، وقـــدّر فيها أقواتها ، وعن الســـماء كيف اسـتوى إليها ، ووجّه لها وللأرض الأوامر ، وكيف قضـاهما سبعا ، وكيف أوحى في كلّ سماء أمرها ، نجـده يحـدّثنا ــ في ذات الـوقت ــ عن التـاريخ ودروسه وعـبره ، عن تلك المجتمعات المقتدرة التي دمّرها الله شرّ تـدمير ، بسـبب اغترارها بقوتها المادية ، ثم تحـــدّثنا الآيـــات الحكيمة ـــ بصورة مباشرة ــ عن ضـرورة معالجة الأمـراض النفسـية التي تعتري الفرد هكذا توصل آيـات الـذكر آفـاق السـماء وأبعاد الأرض بأعمـاق التـاريخ وأغـوار النفس لتصـنع منها جميعا منهجا تربويّا بديعا ، كما أنّها تمهّد ـ فيما يبدو ـ فؤاد الإنسان لاستقبال الوحي الإلهي بالطريقة المناسبة.

فالذي بسط الأرض وقدّر فيها أقواتها ، والـذي سـمك السـموات وجعلهنّ سـبعا ، وأوحى في كل سـماء أمرها ، هو الذي هدى الإنسان الى القرآن الحكيم ، بركة للإنسان وسلاما ورحمة ، وإنّ الأعراض عن منهاج القرآن خطـير ، كما الإعراض عن سنن الله في السـموات والأرض ، وكما الإعراض عن عبر التاريخ.

إنّ سـنّة الله في القـرآن كسـنّته في الخليقة .. فهل تسـتطيع أن تكفر بسـنة الجاذبية فتلقي بنفسك من قمة جبل دون أن يصـيبك سـوء ، وهل تضـرب رأسك بصـخرة وتنتظر السلامة ، وهل تقـدر على الاسـتغناء عن الهـواء ، عن الغـذاء؟ كـذلك لا يمكنك الاسـتغناء عن وحي الله بله الإعراض عنه.

وهل يسـتطيع أن يقـول أحد أنّي أريد تنظيم الكـون تنظيما جديدا ، وسلب الأرض جاذبيتها ، والهـواء رطوبته ، والغازات خصائصها؟ كلّا .. إنّ من يريد أن يفعل ذلك لا بدّ أن يجد طريقه يوما الى دار المجـانين! كـذلك الـذي يريد مخالفة وحي الله ، وسـنّته في التربية ، في الإقتصـاد ، والسياسة ، والاجتماع.

بينات من الآيات :

[9] قد يـأتي على إنسـان عشـرات السـنين ينشـغل فيها عن كبريـات الحقـائق الـتي تحيط به بأتفه الأشـياء ، فيرى الأرض بما فيها من آيات عظيمة ، ولكنه لا يتسـاءل : كيف خلقت ، وكيف سـطحت ، كيف قـدّر فيها أقواتها ، وتهيّـأت لاسـتقبال الحيـاة هـذه النعمة الكبـيرة والسـرّ العظيم؟

ويأتي القرآن يـذكّرنا بأمّنا الأرض ، ويشـير الى سـنن الله فيها ، وأنّه خلقها في يـومين ، لعلّنا نهتـدي الى ربّ القدرة.

(**قُــلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُـرُونَ بِالَّذِي خَلَــقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ**

لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ)

من خلال السياق نستوحي عظمة الأرض لعلّنا نهتـدي الى عظمة الخالق الـذي خلقها فقط في يـومين ، وهكـذا نعرف مدى خطورة الكفر بربّنا العظيم!!

ولكن تتـوارد التسـاؤلات الواحد بعد الآخر حـول هـذه الآية : كيف تمّ الخلــق؟ وما هما اليومــان اللّــذان خلقت الأرض فيهما؟ ولماذا التأكيد عليهما؟

أوّلا : تقـــول بعض النظريــــات الحديثة : إنّ الأرض انفصلت عن الشمس قبل حوالي ألفي مليون عام ، فهل هـذا هو معـنى خلق الأرض في يـومين؟ أم معـنى خلقها تهيئتها بصورتها التي استعدّت لاسـتقبال شـروط الحيـاة ، فقد مرّت مدّة طويلة حتى بردت الأرض وتصـلّب قشـرها بعد أن كـانت كـرة ملتهبة مثلما هي اليـوم باطنها حيث لا زالت المواد تنصهر هناك في حرارة شديدة.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام أمـير المؤمـنين (ع) فيما يتّصل بخلقة الأرض :

«كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ، ولجج بحار زاخـــرة ، تلتطم أواذيّ أمواجها ، وتصـــطفق متقاذفـــات أثباجها ، وترغو زبـدا كـالفحول عند هياجها ، فخضع جمـاح الماء المتلاطم لثقل حملها ، وسكن هيج ارتمائه إذ وطأته بكلكلها ، وذلّ مستخذيا إذ تمعّكت عليه بكواهلها ، فأصـبح بعد اصـطخاب أمواجه سـاجيا مقهـورا ، وفي حكمة الـذلّ منقـادا أسـيرا ، وسـكنت الأرض مـدحوّة في لجّة تيّـاره ، وردّت من نخــوة بــأوه واعتلائه ، وشــموخ أنفه ، وســموّ غلوائه» [1]

ويبــدو أنّ حــديث الإمــام يتصل بمرحلة واحــدة من أطـوار الأرض ، وكيف هيّأها الـربّ لسـكن الأحيـاء ، حيث مرّت الأرض بأطوار عديدة تشير إليها سائر النصوص

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج (57) ص (111) .

المأثورة كما توضّحها النظريّات الحديثة.

ثانيا : وما هما اليومان اللذان مـرت بهما الأرض؟ لقد اختلف المفسرون في ذلك اختلافا كبيرا حيث أنّهم قالوا : إذا كان تقدير اليوم بحركة الأرض فكيف نتصور اليوم قبل وجودها؟ فقال البعض : إنّ المراد منها الأوقات ، كما قال سبحانه : (**وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ**) [1] أي حينئذ أو وقتئذ ، وقـال بعضـهم : إنّ المنـاط في تقـدير الأيـام إنّما هو بحركة الأفلاك التي كانت قبل خلقة الأرض ، وقال ثالث : ما يكون بقدر الأيـام في فـرض وجودها ، وقـال الـرازي : المراد بالأيّام الأحوال المختلفة .. [2]

ويبدو هذا التفسـير أقـرب ، ذلك لأنّ أقـرب المعـاني لليوم هنا برهة من الوقت وحين من الـدهر ، وما نتصـوره من اختلاف وقت عن وقت وحين عن حين هو اختلاف الأحـوال ، فمثلا نحن نميّز بين اليـوم الأول من الربيع عن اليوم الثاني منه ، بفاصل الطلوع والغروب بينهما ، كـذلك كـانت هنالك فواصل معينة بين الـوقت الأول والـوقت الثاني (أو إن شئت قلت اليوم الأوّل واليوم الثاني) بتطوّر الأحوال.

وفي القـرآن يصـرّح بهـذا التطـوّر حيث خلق الله الكائنات بصورة ماء فكـان عرشه عليه ، ثم خلقها دخانا ، ثم خلق السـموات والأرض ، ولا بـدّ أن مـرّت دهـور متطاولة بين مرحلة ومرحلة حـتى اليـوم ، كم مـرة هـذه الدهور بقياساتنا المحـدودة؟ حـتى الآن لا نمتلك نظريّـات حاسمة في هذا الحقل ، بالرغم من أنّ بعض العلماء يقدّر ذلك بخمسة عشر مليـار عـام مـرّت من بداية ما يـزعم انفجـارا هـائلا وموجّها حـدث في هـذا الكـون ، وتمـدّدت المادة الأولية المخلوقة في صورة مجرّات ..

---

(1) الأنفال / (16) .

(2) نقلنا ذلك باختصار عن موسوعة البحار / ج (54) ص (6 ـ 10) .

ومن أطرف ما قرأته حول هـذه المـدة في النصـوص ما جاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين (ع) بعد أن سأله رجل قائلا : فكم مقـدار ما لبث الله عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء؟ فأجاب : أتحسن أن تحسب؟ قـال : نعم ، قـال : لعلّك لا تحسـن! ، قـال : بلى ، إنّي لأحسن أن أحسب ، قال علي (ع):

«**أفرأيت لو كان صبّ خـردل في الأرض [حـتى] سدّ الهـواء وما بين الأرض والسـماء ، ثم أذن لمثلك على ضعفك أن تنقله حبّة حبّة من مقـدار المشـرق الى المغـرب ، ثم مـدّ في عمـرك ، وأعطيت القـوة على ذلك حـتى تنقله ، وأحصـيته ، لكـان ذلك أيسر من إحصاء عدد أعـوام ما لبث عرشه على المـاء من قبل أن يخلق الأرض والســماء ، وإنّما وصــفت لك ببعض عشر عشير العشير من جـزء مائة ألف جـزء ، وأستغفر الله من القليل في التحديد**» [1]

ولعلّ أيّام خلق الأرض والسماء ، وتوفير فرص الحياة على الأرض ، هي التي أشارت إليها آيات الذكر من :

1 ـ خلقة المـاء ، حيث كـان عـرش القـدرة مسـتويا عليه ، ولعلّه كان أصل الكائنات مادّة تشبه الماء.

2 ـ خلقة الــدخان ، ولعلّه الحالة الســديمية في الكائنات.

3 ـ تكـوّن المجـرّات والشـموس والكـرات الأخـرى ، وانفصال الأرض عن الشمس.

4 ـ حالة دحو الأرض وتصــلّب قشــرتها ، حيث نجد إشارة الى ذلك في آي الذكر كثيرا.

---

(1) المصدر / ص (233) .

5 ـ حالة تـوفّر عوامل الحيـاة عليها من مـاء وهـواء ومواد ضرورية أخرى.

ثالثا : ويبقى السؤال : ما هي الحكمة التي نسـتفيدها من بيان هذه الحقيقة؟

والجواب :

ألف : بيـان قـدرة الله وعظمته المتجلّية في تكـوين الخلائق وتطويرها مرحلة بعد مرحلة وتـــدبير أمورها في كلّ مرحلة ، حتى انتهى المطاف بها الى صورتها الحالية ، وهي لا تزال تسير في ركب التطوّر الى حيث يشاء الله ، وهنا نجد إشـارة الى هـذه الحكمة حيث يـذكّرنا الـربّ بقدرته بعد بيان خلق السماء في يومين.

حقّا ، إنّنا حين نتصوّر الكائنات تتقلب في كفّ القدرة الالهية تلك الـــدهور المتطاولة الـــتي لا يعلمها الا الله سبحانه ، ونتصور ـ مثلا ـ ذلك الإنفجار المهيب الـذي يـرى بعض العلماء أنّه وقع في الكون قبل (15) مليـار عـام ولا تزال أصداؤه تدوّى في جنبات العالم الرحيب بـالرغم من هـذه الـدهور المتطاولة ، لا بـدّ أن تتضـاءل نفوسـنا أمـام قدرة الرب ، وندع التكبّر والغـرور والمعاصي ، وجـدير بنا أن نقـرأ خطب الإمـام أمـير المؤمـنين (ع) الـتي تصف الكائنات وتطوّراتها ، وتعظ الناس بالتواضع واجتناب الكبر والمعاصي.

باء : لعلّنا نستوحي من خلقة الله الخلائق في الـزمن أنّ انقضـاء الأجل وتقـدّم المـدة وصـيرورة التكـوّن من حقيقة الكائنـات المحدثة ، ذلك أنّ أول الشـواهد وأبلغ الحجج على أوّلية الخـالق زوال الكائنـات وعلى قدمه حدوثها ، وعلى حـدوثها صـيرورتها وتقلباتها ، واكتمالنا بعد النقص ، وانتقاصها بعد الكمال.

جاء في الحديث عن الإمام علي (ع) :

«الحمد لله الـدال على وجـوده بخلقه ، وبحـدث خلقه على أزليّته» [1] .

وبتعبير آخر : إنّ الزمن جزء من حقيقة الأشياء ، وإنّ هذا آخر ما توصّل إليه علمـاء الفيزيـاء ابتـداء من كبـيرهم إنشتاين.

إنّ بركات الله ورحماته مستديمة على الكائنـات فهي تنتقل من طــور الى طــور أفضل بفضل الله فتتكامل ، ولكنّها قد تنتكس الى الأسـفل إن هي تجبّـرت وتكبّـرت ، ولعلّ هذه هي البصيرة في التكامل والتطوّر ، ونسـتوحيها من قوله سـبحانه في سـورة الأعـراف : (**إِنَّ رَبَّكُمُ اللـهُ الَّذِي خَلَــقَ السَّــماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِــتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ وَالنُّجُـومَ مُسَـخَّراتٍ بِـأَمْرِهِ أَلا لَـهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ**) [2] .

فقد ختمت الآية باسم «تبـــارك» بعد بيـــان خلقة الكائنات في ستة أيّام ، ممّا بصّرنا بالتكامل الـذي تفضّـل الله به على الخلائق ببركته وخيره العميم المستمر.

وفي سـياق هـذه الآيـات نجد قوله تعـالى : (**وَبـارَكَ فِيها**) .

جيم : وإنّ علينا أن نعيش وعي الزمن في تقييمنا لما في الكـــون ليكـــون تقييما ســـليما ، فمن لم يضع في حساباته (الزمن) يتكاسل دون أن يعرف أنّ عمره هو هذا الـزمن الـذي يسـتهين به ، ولا يـرى إلّا ما يجـري أمامه فيصاب بالعجلة والجزع ، ولا تحرّكه النتـائج البعيـدة ، فهو يزداد نشاطا إذا أوتي جزاؤه الحسن عـاجلا ، ويخمل كلّما ابتعد زمن الجزاء.

ولعلّ وعي الزمن واحد من الغايات التربوية السـامية في كثير من آي الذكر ،

---

(1) موسوعة البحار / ج (54) ص (27) .
(2) الأعراف / (54) .

ولقد ذكّرنا بذلك مكرّرا.

[10] لقد وفّر الله شروط الحيـاة في الأرض ، وأوّلها استقرار الأرض بالجبـال الراسـيات ، الـتي تتصل ببعضـها وتمنع الميلان ، الناشئ من الريـــاح الهـــوج أو الغـــازات المتجمّعة في مركز الأرض والتي تسبّب الزلازل.

(**وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها**)

يقول العلمـاء : إنّ كـلّ حـدث يحـدث في الأرض في سطحها أو فيما دون سطحها يكون من أثره انتقـال مـادة من مكان الى مكان يؤثر في سـرعة دورانها ، فليس المد والجزر هو العامل الوحيد في ذلك ، حـتى ما تنقله الأنهـار من مائها من ناحية الى ناحية تـؤثر في سـرعة الـدوران ، وما ينتقل من ريـاح يـؤثر في سـرعة الـدوران ، وسـقوط في قاع البحار ، أو بروز في سطح الأرض هنا أو هنا يــؤثر في سـرعة الـدوران ، ومما يـؤثر في سـرعة الـدوران أن تتمدّد الأرض أو تنكمش بسبب ما ، ولو إنكماشا أو تمــدّدا طفيفا لا يزيد في قطرها أو ينقص منه إلّا بضع أقدام. [1]

وهذه الحسّاسية البالغة بحاجة الى أثقال تحافظ على الأرض ، ســواء من تــأثير الهــواء المحيط بها أو الغــازات المحتبسة فيها لكي لا يختلّ توازنها.

والمعروف أنّ الجبال هي النتوءات الظاهرة للقشـرة الصخرية التي تحيط بكرة الأرض ، وكأنّها درع حديدي برز بعض جوانبه بينما تبقى ســائر جوانبه غـائرة في المـاء أو مدفونة بالتراب.

هكذا أشار الإمام علي (ع) إلى هـذه الآية الإلهية حين قال :

---

(1) في ظلال القـــــرآن / ص (3113) نقلا عن كتـــــاب «مع الله في السماء» .

«وعـدّل حركاتها بالراسـيات من جلاميـدها [1] ، **وذوات الشـناخيب الشـمّ** [2] ، **من صـياخيدها** [3] ، **فسـكنت من الميلان ، برسـوب الجبـال في قطع أديمها وتغلغلها ، متسـرّبة في جوبـات خياشـيمها ، وركوبها أعناق سهول الأرض وجراثيمها»** [4] .

(**وَبارَكَ فِيها**)

لقد خلق الله الأرض طورا بعد طـور ، حـتى تكـاملت وتهيّأت لاستقبال الحيـاة ، فبعد أن تصـلّبت قشـرة الأرض خلق الله فيها المـاء من اتحـاد الأيـدروجين بنسـبة 2 والأكسجين بنسـبة 1 ثم تعـاون المـاء والهـواء في تفـتيت الصخور وتشتيتها حتى صارت تربة صالحة للزراعة والبناء ، كما تعاونا على نحر الجبال والنجاد وملء الوهاد فلا تكاد تجد في شيء كـان على الأرض أو هو كـائن إلّا إثر الهـدم والبناء. [5]

ومرّت العصور المختلفة ، وفي كلّ يوم بل كلّ لحظة تتطوّر الكرة الأرضية أكثر فأكثر بإذن الله ، ويبـارك فيها ، فحينا بالثلوج التي غطّت وجه البسـيطة ، وحينا بالطوفـان ، وآخر بالأعاصـير ، ورابع بالشـروق المسـتمر للشـمس ، وكذلك بتلقّي أشعة تنطلق من النجـوم البعيـدة ، وبـألوان العوامل الأخـرى .. وخلال ملايين السـنين بـارك الله في الأرض.

(**وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها**)

ومن مصاديق البركة الأقوات الـتي قـدّرها الـربّ في الأرض ، حيث أودع التربة

---

(1) الجلاميد : الصخور.

(2) الشناخيب الشمّ : القمم المرتفعة.

(3) الصياخيد : الصخور الشديدة.

(4) موسوعة البحار ج (54) ص (112) .

(5) نقلا عن كتاب «مع الله في السماء» .

المـواد الكيماوية النافعة للزراعة ، كما خـزّن في الجبـال المعـــادن المختلفة من الحديد والـــذهب والفضة وأنـــواع الأحجار الكريمة والصخور المفيـدة ، كما خلق في أعمـاق الأرض بحيرات النفط والغاز ، كما أودع فيما حـول الأرض حاجتنا من الهـواء الـذي نتنفّس من أوكسـيجينه ، ويتغـذّى النبـــات من كربونه ، ومن أكســـيد كربونه ، كما ضـــمّنه النتروجين الذي يخفّف من وطأة الأوكسجين ، وأجرى فيه تيّـــارات رطبة لتلطيف الجو .. وأرسل الريـــاح في الجو مبشّــرات برحمته ، حيث تحتمل الســحب المتراكمة الى الأراضي المتباعدة ليسقيها الربّ حاجتها من الماء.

(**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**)

قـالوا : معنـاه يومـان لخلقة الأرض ويومـان لتوفـير الأقوات فيها ، ويحتمل أن تكون خلقة الأرض قد تمّت في يومين ، وقد تمّت خلقة الســماء وتهيئة الأرض في يـومين بالتزامن ، ثم استمرت عملية تمهيد الأرض ليومين آخرين ، فيكـون المجمـوع سـتة أيّـام ، حيث أنّ الآيـات القرآنية صريحة في أنّ خلقة السموات والأرض قد تمّت في سـتة أيّام ، والله العالم.

وهنا وقفة اعتبـار ، لقد خلق الأرض على عظمتها في يــومين فقط ، بينما قــدّر فيها أقواتها في أربعة أيّـام. أفلا يـــدلّ ذلك على أنّ نعمة تهيئة الأرض للحيـــاة أعظم من نعمة خلقها ، بلى. فقد اكتشف العلماء مزيدا من الأجـرام السماوية ، ولكن حتى هذه اللحظة لم يكتشفوا شـيئا من آثار الحياة فيها ، ممّا يهدينا الى عظمة النعم التي أسـبغها الــربّ لأهل الأرض حــتى تهيّـأت لحيــاتهم. أفلا نشــكره سبحانه؟!

(**سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**)

فكلّ المحتاجين الى الأقـوات يتسـاوون في الحصـول عليها ، لأنّها متوفّرة في كلّ

مكان ، فليس الهواء والأرض والمعادن قليلة حتى يسـتأثر بها قوم دون آخرين ، بل الناس فيها شرّع سواء.

كما أنّ معرفة هذه الحقيقة متوفرة لكل السائلين.

ويحتمل أن يكــون التســاوي في الأيّــام الــتي هي الدورات التي مرّت بالأرض ، والله العالم.

ثُمَّ اسْـــتَوى إِلَى السَّـــماءِ وَهِيَ دُخـــانٌ فَقـــالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُــلِّ سَـماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّـماءَ الـدُّنْيا بِمَصـابِيحَ وَحِفْظـاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

قالتا : أتينا طائعين

هدى من الآيات :

لا تزال الآيات الأولى من هـذه السـورة ـ الـتي تـأمر الإنسان بالسـجود لـربّ العـزة كما سـجدت له السـموات والأرض ـ تستعرض خلق الكائنات ، حيث قـام ربّنا القـدير بـأمر الخلق بعلمه ومشـيئته ، فقـال للسـماء وهي دخـان وللأرض الـتي خلقها من قبل ائتيا فأتتا طـائعين ، (وهكـذا كلّ شيء مستجيب لمشيئته طوعا) .

فخلقهنّ ســبع ســموات خلال يــومين (أو دورتين) وأوحى في كلّ سماء منها ما يتعلّق بها من شؤون ، وزيّن السـماء الـدنيا وهي أقـربهن الى الأرض بمصـابيح هـدى للناس في ظلمـات الليل وزينة ، (وجعلهـا) حصـنا للأرض. إنّ ذلك من تقدير الـربّ ذي القـدرة الفاعلة والعلم النافذ سبحانه.

بينات من الآيات :

[11] بعد أن خلق مـادة الأرض قبل دحوها أو بعـدها قصد ربّنا المقتدر بمشيئته

النافذة الى السـماء ، وكـانت آنئذ مجـرّد دخـان ، وفـرض عليها طاعته ، فاستجابت.

(**ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ**)

أ/ وتساءل المفسرون : لمـاذا اسـتخدم حـرف «ثم» وهو للتعقيب والتراخي ، فهل تمّ خلق السـماء بعد الأرض ، بينما النظريـات العلمية تـرى العكس ، ويقـول ربّنا في سورة النازعات : (**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقـاً أَمِ السَّـماءُ بَناها ، رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها ، وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُـحاها ، وَالْأَرْضَ بَعْـــدَ ذلِـــكَ دَحاها ، أَخْـــرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها**) . [1]

أجاب البعض : إنّ ثمّ للتعقيب البيـاني ، أي ثم اسـمع قصة السماء وهي كيت وكيت.

وقال البعض : إنّ الله خلق الأرض أوّلا وخلق السماء ثانيا ، ولكنه إنما دحا الأرض بعد خلق السـماء ، كما تـدلّ الآية في سـورة النازعـات ، وعلى ذلك تـدلّ أيضا بعض النصوص الإسلامية.

ويبدو لي أنّ المراد من «السماء» هنا الهواء المحيط بالكوكب وليست الأجرام الموجودة في السماء .. «**وَهِيَ دُخـانٌ**» ذات طبقـات سـبع ، ولكـلّ طبقة أمرها ، وعلى ذلك فيكـون خلقها بعد خلق الأرض ، ويكـون معـنى قوله سـبحانه في الآية التالية : (**وَزَيَّنَّا السَّماءَ الـدُّنْيا بِمَصـابِيحَ وَحِفْظـاً**) أنّ الله جعل السواد المحيط بالكرة الأرضية بطريقة نرى النجوم الـتي خلقها في صورة مصـابيح ، كما جعلها حفظا بما خلق فيها من غازات خاصة.

---

(1) النازعات / (27 ـ 31) .

ب / وتساءلوا : ماذا يعني «استوى» فقـالوا : إنّ ربّنا قصد وتوجّه الى السـماء ، ويبـدو لي أنّ كلمة الإسـتواء تعني معنى القيام والاهتمام والقصد (بإضـافة معـنى إلى) والهيمنة ، وكلّها مرادة في هذه الجملة ، ولكن بالطبع من ملاحظة استخدام الكلمة في مقام الربوبية المقـدّس عن أيّة همهمة أو تجوال فكرة أو حركة ، سبحانه.

ج / ثم تساءلوا عن الدخان فقالوا : إنّه غـازات ، وإذا قلنا بـأنّ المـراد من الآية كـلّ ما في السـماء ، فـإنّ الآية تشـير الى المرحلة السـديمية السـابقة لتكـوّن الأجـرام الفضـائية ، حيث تجمّعت وتركّـزت بعد ذلك في صـورة نجوم ، ولا تزال كميـات كبـيرة منها منتشـرة في الفضـاء يقدّرها الخبراء بمثل الكمية التي خلقت منها النجـوم ، ولا تزال النجوم تكنس الفضاء من هـذه الجزئيـات السـديمية باجتـذابها إليها ، ولكنّها أكـثر بكثـير من قـدرتها على الجذب!!

(**فَقـالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعـاً أَوْ كَرْهـاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ**)

ولماذا لا تستجيب السماء والأرض لمشيئة الله الـذي خلقهما بفضـله ، وأودع فيهما آياته ، وجعلهما محلّا لعبـادة المكرّمين من ملائكته وأرواح أوليائه ، بلى .. إنّهما وسـائر الكائنات تسـتجيب للـرب طواعية ، سـعيا وراء مرضـاته ، وامتنانا لرحماته ، وشـكرا لبركاته ، قبل أن تسـتجيب له خشية غضبه ، ومخافة سطواته ، وقد تقول : تجلّي رحمة الله في الخلائق أبهى من تجلّي عزّته ، وقد سـبقت رحمته غضبه ، سبحان الله ربّ العالمين.

ولعـلّ الآية تشـير الى أنّ ربّنا كـان يجـري سـننه في الخليقة شـاءت أم رفضت ، ولكنّها خشـعت لأوامر الله طوعا لا كرهـا!! فجـرت سـننه فيها بلا إكـراه .. ويا ليتنا وعينا عبرة هذه الحقيقة ، وأجرينا أحكام الله على أنفسنا طوعا ورغبة في مرضاة الله.

ونتســاءل : هل كــان للســماء والأرض شــعور حــتى يخاطبهما الربّ بهذه الصـورة؟ ينفي البعض ذلك بشـدة ، ويأوّلون كلّ الآيات التي توحي بذلك الى خطـاب الحـال ، مثلا في هـذه الآية يقولـون : المعـنى : أمرهما بالتشـكّل فامتثلتا طـائعتين ، ويبقى سـؤال : مـاذا كـان إذا الخيـار الآخر أي أن تأتيا كرهــا؟ أفلا يــدلّ التقســيم الى اختلاف طرفيه ، فهناك حركة طوعية وأخـرى كرهية ، لم أجد من يجيب عن هذا النقاش ، ولكنّ بـاب التأويل لـديهم واسع ، بيد أنّ الأقرب حمل الآيات التي تـوحي بإحسـاس الخلائق على ظاهرها أو صريحها ، لأنّ ما يدعونا الى تأويلها مجرّد اســتبعاد ، فلأننا لا نعــرف كيف تمّ خطــاب الله للأرض والســماء نقــول لم يتم هــذا الخطــاب أبــدا ، وأمّا ذلك أســلوب بلاغي في القــرآن ، ولأنّنا لا نفهم كيف تســبّح السموات والأرض ، نقول : إنّ أهلها هم الذين يسـبّحون ، ولأنّنا لا نعي كيف عــــرض الله أمانته على الســــموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، قلنا كلّا .. إنّه كان مجرّد افتراض.

إنّ عشــــرات الآيــــات القرآنية وأضــــعافا منها من الأحـاديث المـأثورة عن المعصـومين ــ عليهم السـلام ــ ظاهرة أو صريحة في وجود الشـعور ــ بقـدر مّا ــ لسـائر الخليقة ، يتجلّى في يـوم القيامة عند ما يسـتنطقها الله ، فهل يجوز أن نضرب بها عرض الجدار لمجرّد أنّنا لا نعرف كيف ذلك؟ إنّ من الجهل أن ننكر شيئا لأنّنا لم نحط علما بتفاصيله ، ومن العقل أن نؤمن به ثم نبحث عن تفاصـيله بروح إيجابية.

بلى. إنّنا كبشر لا يمكننا بالوســــــائل المتاحة لنا أن ندرس الأحياء والأشياء من باطنها ، بل من خلال الظواهر التي تهدينا الى واقعها وحتى فيما بيننا كبشر هل يسـتطيع زيد أن يدرس نفسية عمر كما يـدرس هو نفسـيته؟ كلّا .. إنّما الظواهر تـدلّ عليها ، وإذا اتبعنا هـذا المنهج لعلّنا نبلغ الواقع .. فما هو الشـعور؟ وما هي الظـواهر الـتي تـدلّ عليـه؟ يبـدو أنّ الشـعور هو الجهـاز المنسّـق بين الشـيء والمحيط الذي هو فيه ،

فنحن نملك هـذا الجهـاز بفضل الحـواس الـتي تنقل الى المخ الإشارة عبر الأعصاب ، وهناك تقوم مجموعة أجهزة الدماغ بتحليل الإشارات وإصدار الأوامر المناسبة بشأنها ، ولا ريب من وجود مثل هذا الجهاز ـ ولو كان غير متطوّر ـ عند سائر الأحياء ، بل وفي النباتات التي تنسّق وضـعها ــ بصـورة وبـأخرى ــ مع بيئتها بفضل نواتها المركزيّة ، بلى. نحن لم نكتشف مثل هـذا الجهـاز عند الجمـادات ، ولكن يحقّ لنا أن نتسـاءل عنه بعد علمنا بوجـود قـدر كـاف من التنسيق بين جميع الكائنات ، ولو افترضنا قـوة الجاذبية ــ مثلا ـ إحدى ظواهر هذا الجهاز لم نجاف الحقيقة.

[12] ويمضي السـياق يـبيّن قـدرة الله المتجلّية في هـذا الخلق العظيم ، لقد خشـعت له السـموات والأرض وجائتا اليه طـائعتين ، فقـدّر وقضى أن تكـون السـموات سـبعا بحكمته البالغة وبمشـيئته الـتي لا تـرد ، فاسـتجابت السـموات الهائلة بلا تـردّد ، وأضـحت سـبعا خلال المـدة التي قرّرها الربّ لها ، وهي يومان أو دورتان.

(**فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ**)

ما هي هذه السموات السـبع؟ هل هي طبقـات سـبع حـول أرضـنا تشـكّل السـماء المحيطة بنـا؟ أم هي سـبع مجاميع من المجرّات ، والمجرّة الواحدة كـالتي نحن فيها المسمّاة بسكّة التبّـان يبلغ قطرها مـأة ألف مليـون سـنة ضـوئية؟ أم كل ما في المجـرّات الـتي نعـرف عنها من شـــموس وأجـــرام تقع في الســـماء الأولى ، وإنّ لله سماوات أخرى غيرها فيها ما لا يعلمها إلّا الله من كائنـات عظيمة؟

وعلى أيّ تفسير فإنّ قضاء الله جـرى خلال يـومين ، أو حسب تفسير سابق دورتين ، لا أعرف عنهما شيئا.

(**فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها**)

يبدو أنّ أمر كـلّ سـماء قيادتها ونظامها وما يتعلّق بها من شـؤون التـدبير أنّ كـلّ تلك قائمة فيها كما لو كـانت وحدة إدارية ، ولعل من أمرها ملائكة الله التي فيها.

(**وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ**)

ما هي هـذه السـماء الـدنيا؟ فـإذا كـانت السـماء المحيطة بـالأرض فـإنّ زينتها بسـبب طريقة تمـوّج النـور فيها ، حيث لا تـرى النجـوم خـارج الفضـاء المحيط بهـذه الصورة الجميلة ، ولكن القول المعـروف عند المفسّـرين أنّ السـماء الـدنيا هي جـانب من الفضـاء الأرحب ، وعلى ذلك نسـتوحي أنّ كل النجـوم الـتي تـرى تسـبح ضـمن السماء الدنيا ، وأنّ هناك سماوات لا نرى أجرامها.

(**وَحِفْظاً**)

فالغـازات المحيطة بـالأرض تحفظ الأرض من ملايين الشهب التي تتساقط عليها كـلّ يـوم ، كما أنّ الله يحفظ الأرض بالمصابيح من الشياطين.

(**ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**)

تعـالوا لننظر الى لطف صـنع الله ، وحسن تـدبيره ، وجمـــال خلقه ، وبـــديع تقـــديره.

أفلا يهـدينا كـلّ ذلك الى عزّته وعظمة قدرته في الخلق والتـدبير؟! أفلا يهـدينا الى أنّه العليم الـذي لا يعـزب عن علمه شـيء؟ وأيّ قـدرة وأيّ علم لربّنا الـذي سـخّر الشمس التي هي أكبر من أرضنا بمليون مرّة في مـدارها المحـدّد دون أن تفسق عن مسـارها قيد شـعرة؟! وأيّ قدرة وعلم لربّنا الذي أجرى في قلب الذرّة المتناهية في الصغر سننه النافذة التي لا تغيير فيها؟!!!

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عـادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُـلُ مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ قـالُوا لَـوْ شـاءَ رَبُّنا لَأَنْـزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِـلْتُمْ بِـهِ كـافِرُونَ (14) فَأَمَّا عـادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَقـالُوا مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُـوَّةً أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللـهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَكـانُوا بِآياتِنا يَجْحَـدُونَ (15) فَأَرْسَـلْنا عَلَيْهِمْ رِيحـاً صَرْصَـراً فِي أَيَّامٍ نَحِسـاتٍ لِنُـذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْـزى وَهُمْ لا يُنْصَـرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُـودُ فَهَـدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى

---

16 [ريحا صرصرا] : وهي الريح البـاردة ، من الصّـر بمعـنى الـبرد ، أو هي الـريح العاصـفة ذات الصـوت الشـديد ، واشـتقاق الصرصر من الصرير ، وضوعف اللّفظ إشعارا بمضاعفة المعنى.

الْهُـدى فَأَخَـذَتْهُمْ صـاعِقَةُ الْعَـذابِ الْهُـونِ بِما كـانُوا يَكْسِـبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُـوا وَكـانُوا يَتَّقُـونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَـــــهِدَ عَلَيْهِمْ سَـــــمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُـونَ (20) وَقـالُوا لِجُلُـودِهِمْ لِمَ شَـهِدْتُمْ عَلَيْنا قـالُوا أَنْطَقَنَا اللـهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)

---

19 [يوزعـون] : أي يحبس أوّلهم ليلحق بهم آخـرهم ، من وزع بمعـنى حبس ومنع ، والمعـنى إذا حشـروا حبسـوا هنـاك على حافّة النّـار قبل دخولها ، وفيه زيادة إهانة وإرهاب.

وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا

هدى من الآيات :

بمستوى الاجرام الذي يبلغه الإنســان حين يكفر بالله العظيم يكون مستوى الإنذار والعـذاب ، فليس هيّنا تمـرّد البشر هذا المخلوق الضعيف المحدود على سنن الله التي استجابت لها السموات والأرض طوعا!

كـذلك ليس هيّنا الصـاعقة الـتي ينـذر بها ــ إذ ذاك ــ فهي مثل الصاعقة التي أخذت قوم عاد وثمود!!

إنّها واحدة من السنن التي أجراها الله في الكائنات ، والتي لا تغيير فيها ولا تبديل (كما تقـدير العزيز العليم في خلق السموات والأرض) .

لقد جاءتهم الرسل قبل وبعد انحرافهم وأنذروهم من عاقبة الشرك بالله ، فكفروا بالرســالة زاعمين أنّ الله لو شاء لأرسل إليهم ملائكة ، واستكبرت عاد في الأرض بغير الحق اغترارا بقـوتهم الـتي قهـرت كـلّ قـوّة في الأرض ، ولكنّهم لم يروا

أنّ الله الذي خلقهم أشدّ منهم قوة ، وهكذا جحدوا بآيـات الله (اغترارا بقوتهم) ..

فأرسل الله عليهم ريحا عاصفة ، ذات صوت وصــرير ، في أيّـام ســيئات نحســات ، وعــذّبهم بعــذاب الخــزي والهـوان في الحيـاة الـدنيا ، وكـان ذلك بين يـدي عـذاب أخزى في الآخرة.

أمّا ثمود فقد هداهم الله حين جاءتهم الناقة مبصرة ، ولكنّهم اســتحبّوا العمى على الهــدى ، وكــان جــزاؤهم الصـاعقة الـتي تمثّلت في العـذاب المهين .. كل ذلك بما كانوا يكسبون من جرائم وموبقات!

(ولم تكن صــدفة تلك الصــواعق ، بل تنفيــذا لســنة إلهيّة جارية ، وأبسط الأدلّة على ذلـــك) أنّ الله ســبحانه أنقذ الـــذين آمنـــوا وكـــانوا يتّقـــون ، فلم يرتكبـــوا تلك الموبقات.

بينات من الآيات :

[13] إنّ ذلك العذاب الإلهي الذي نزل على قوم عـاد وثمود فساء صباحهم يمكن أن ينزل على أيّ قـوم كـافر ، إذ لم ينزل على الأمم صدفة بل ضمن سنّة إلهيّة ، وكذلك كلّ ما يعتبره الناس صدفة. إنّ عثرة الرجل في الطريق ، أو انتشار مكروب في جسم أحد الأشخاص دون صـاحبه ، وحوادث السـير والـزلازل والـبراكين والسـيول والحـروب وما الى ذلك ، قد يتصور الإنسان أنّها مجرّد صـدفة ، بينما ليس في هذا الكـون بأكمله شـيء بلا سـبب ، بلى. هنـاك حوادث نعرف أسبابها وقوانينها ، وأخرى لا نعرف فنرميها بالصدفة.

ونحن بصفتنا مؤمـنين نعتقد بـأنّ كـلّ حادثة كبـيرة أو صغيرة ، تجري ضمن سنّة إلهيّة ، ولهذا نعتقد أنّ الصـدقة تدفع البلاء ، وأنّ الدعاء يردّ القضاء وقد أبرم إبراما ،

وأنّ صلة الرحم تزيد في العمر ، وأنّ الإحسان يرفع البلاء ، كما ونعتقد أنّ من يمارس الأعمال الشرّيرة يصاب بتلك الحوادث التي نسمّيها صدفا ، وما هي بصـدف ، وقد قـال ربّنا : (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**) [1]

لذلك أخبرنا الربّ بأنّ إعراض العرب ـ لو تمّ ـ يـوم دعـاهم الرسـول الى القـرآن لا يختلف عن إعـراض عـاد وثمود ، فإن العاقبة واحدة لأنّ السنة الإلهيّة واحدة.

(**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ**)

إنّ العـــرب ينقســـمون الى ثلاث طوائف : العـــرب العربـاء (عـرب اليمن) والعـرب المسـتعربة (العـرب من نسل إسماعيل (ع) والعرب البائدة (كقـوم عـاد وثمـود) ، والسـؤال : هل بـادت عـاد وثمـود صـدفة أم لأسـباب ومـبرّرات ، وهي تتجـدّد (السـنّة) فيما لو تجـدّدت تلك الأسباب والمبررات؟

بلى. إنها بادت لأسباب ومبرّرات.

[14] ويجمع كـلّ تلك الأسـباب والمـبرّرات الكفر ، وفي الآية الكريمة التالية توضيح لذلك :

(**إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ**)

كانت تلاحقهم من كلّ جانب ، وتـأتيهم بكـلّ طريقة ، وتحاول هدايتهم بكلّ كلمة بليغة ، وبكـلّ أسـلوب سـليم ، كـانت تـأتيهم «**مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ**» أي تقـول لهم قبل الانحـراف : لا تنحرفـوا ، «**وَمِنْ خَلْفِهِمْ**» أي تقـول لهم بعد الانحراف : لماذا انحرفتهم؟ دعوا الانحراف.

---

(1) الفرقان / (2) .

لقد جـاءوهم ودعـوهم الى تلك الحقيقة الهامة الـتي هي خلاصة رسالات الأنبياء جميعا ، وهي :

(**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ**)

ولكن ، ماذا كان جوابهم؟

لقد زعمـوا أنّ الله ينبغي أن يبعث ملكا رسـولا ، أمّا أن يكون رسولهم واحدا منهم يأكل الطعـام ، ويمشي في الأسواق ، ولا يملك خزائن الأرض فلا ..

(**قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ**)

فكفـروا بالرسـالة لاعتمـادهم على منهج مـادي بحت لمعرفة الحق ، فهم كفـروا بما أرسل به الأنبيـاء قبل أن ينظروا فيه ، بل لمجرّد أنّ المبعوث به ليس ملكا.

[15] ماذا كانت عاقبة كفر أولئك النـاس من أسـلاف العرب؟

(**فَأَمَّا عادٌ**)

تلك الحضـارة القوية ، الـتي هلكت في عـزّ شـبابها ، وعنفوان قوّتها.

(**فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ**)

كـانوا يسـتكبرون ، أي يحسـبون أنفسـهم كبـارا فيظلمون الناس ، ويغصـبون حقـوقهم لمجـرّد أنّهم أوتـوا قدرا من القوة.

(**وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**)

ولكن من لا يسـتطيع أن يمنع عن نفسه عاديـات الطبيعة ، كعادية الريح

والبركـان ، كيف يسـمح لنفسه بـأن يتعـالى على الله ربّ الـريح والبركـان؟! كيف يسـتطيع أن يتكـبر على النظـام الذي يسيّر كلّ جزء جزء من كيانه ، شاء أم أبى؟!

(**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللـهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**)

أو لم يعرفـوا هـذه الحقيقة الواضـحة؟ بلى. ولكنّهم جحدوا بها برغم توافر الآيات عليها.

(**وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ**)

وهـذا الجحـود كـان نتيجة للاسـتكبار ، لأنّ الاسـتكبار يصبح حجابا سميكا بين الإنسان وبين الحقيقة.

[16] ولكن هذا الجحود ، وذلك الاسـتكبار ، سـبّبا في إرســال العــذاب المهين عليهم ، متمثلا في ريح عاصــفة ذات صوت وصرير ..

(**فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً**)

وتلك هي المعادلة الحاكمة في الخلق ، من لم يسـتجب طوعا لرسـول الرحمة والإنـذار ، يسـتجيب كرها لرسل العذاب والعاصفة ..

(**فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ**)

لم يكن فيها ذرّة من السعد ..

(**لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ**)

هكذا كان العذاب في الدنيا مخزيا مهينا ، لأنّهم كـانوا يستكبرون ويتجبّرون ، وأمّا العذاب في الآخرة فهو أعظم خزيا ، وأبقى ألما.

وإنّ شـدة عـذاب الله في الـدنيا ، وهـول وقعة على الكافرين ، تهدينا إلى أمرين : أوّلا : هـول عـذاب الله في الآخرة ، وتناهي شدّته بما لا يمكننا تصوّره ، ثانيا : صرامة سنن الله وكيف تـدمّر الـذين يكفـرون بالله شـرّ تـدمير ، بلى. لقد جاءت السماء والأرض لربّها طوعا قبل أن يـؤتى بهما كرها ، فهلّا نـأتي ربّنا طـائعين من قبل أن تـذهب بنا ريح صرصر عاتية؟!

[17] (**وَأَمَّا ثَمُودُ**)

فقد بعث الله إليهم الأنبياء ، وزوّدهم بالآيات المبصرة ، ومنّ عليهم بالهداية ..

(**فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى**)

لقد بعث الله إليهم صالحا فآمنوا به ، ولكنّهم انحرفوا بعدئذ عن طريق الرشاد.

بلى. إنّ الطريق كـان واضـحا أمـامهم ، والحقيقة ظـاهرة كالشـمس في كبد السـماء ، ولكنّهم أغمضـوا أعينهم ، وقالوا : نحن لا نرى ، فما ذا كان مصـير كفـرهم بعد الإيمان؟

(**فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ**)

نزلت عليهم ـ كما نزلت على عاد ـ صاعقة العـذاب ، المشبعة بالخزي والإهانة ، والسبب واضح :

(**بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

لا لضـآلة في مغفـرة الله ، لأنّها أعظم من ذنـوبهم ، ولا لضـيق في رحمته ، لأنّها وسـعت كـلّ شـيء ، ولكن لأنّهم أبعـدوا أنفسـهم عن الـربّ الـرؤوف الـرحيم بما اجترحوه من سيئات.

ونستوحي من هذه الآية أنّ كفر ثمود يختلف عن كفر عاد ، فعـاد كفـروا بكـلّ شـيء ، رأسا ، وأمّا ثمـود فـآمنوا بالرسـول والرسـالة ، ولكنهم فعلـوا ما يتناسب والكفر ، من عقر الناقة ، ومخالفة أوامر الرسـول فيما يتعلق بها ، فما كسبوه كان خاطئا.

ولهـذا يقـول الله سـبحانه : «فهـديناهم» أي اهتـدوا فكريا ونظريا «**فَاسْـتَحَبُّوا الْعَمى**» أي انحرفـوا عمليا وسـلوكيا ، وهـذا يعتـبر عمى ، كالـذي زوده الله بالبصر ، ولكنه لا ينتفع به فيقع في الحفرة.

ومن هنا نعرف أنّ عذاب الله يقصم ظهر من يخـالف سـننه في الخليقة والـتي نكشـفها أحكامه في الشـريعة ، سـواء آمن بها وخالفها ، أم كفر بها رأسا ، فالـذي ينـاطح الصخرة ينفلق رأسه سواء آمن بهذه الحقيقة أو كفر بها.

وفي ذلك تحذير لأمة النبي محمد (ص) أنّ مخـالفتهم لرسالته نظريا أو عمليا تجرّ إليهم الويلات.

[18] وبين هؤلاء المنحرفين ـ الكافرين عمليا ـ كـانت هناك مجموعة من المؤمنين الصـادقين ، أنجـاهم الـربّ ، وكـان سـبب نجـاتهم هو تقـواهم واجتنـابهم ما ارتكبه الآخرون من الجريمة والفحشاء.

(**وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ**)

ويذكر الـرواة في تفسـير هـذه الآية قصة مفيـدة هي مثلما أخرج ابن إسحاق وابن

المنذر والبيهقي في الدلائل وابن عساكر قال : حدث أنّ عتبة بن ربيعة وكان أشد قريش حلما قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله (ص) جالس وحده في المسجد : يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلّمه فأعرض عليه أمورا لعلّه أن يقبل منها بعضه ويكفّ عنا ، قالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقام عتبة حتى جلس الى رسول الله (ص) فذكر الحديث ، فيما قال له عتبة ، وفيما عرض عليه من المال والملك وغير ذلك ، حتى إذا فرغ عتبة قال رسول الله (ص) : أفرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : أفعل ، فقال رسول الله (ص): (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) ، فلمّا سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله (ص) الى المسجد فسجد فيها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد؟ قال : سمعت ، قال : أنت وذاك ، فقام عتبة إلي أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلمّا جلس إليهم قالوا : ما وراؤك يا أبا الوليد؟ قال : والله إنّي قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، والله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ [1]

[19] وأمّا العذاب في الآخرة فهو الأكبر والآلم ، والأشدّ والأبقى ، وما أصاب الكافرين من عذاب في الدنيا ، لا يقاس بذرة من عذاب الآخرة إطلاقا ، لأنّها تحمل عنصري الشدة والبقاء ، (**وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى**) . [2]

من تطوّف في المستشفيات وبالذات التي تأوي الحالات الصعبة ، أو زار ساحات القتال وشاهد المناظر الرهيبة ، ثم دار على المناطق المنكوبة ببركان تفجّر

---

(1) الدر المنثور للسيوطي / ج (5) ص (364) .

(2) سورة طه / (127) .

فسـال لعابه النحيس على القـرى المحيطة فأذابها ، أو بسيول عارمة اقتلعت في طريقها الأشجار ودمّرت القرى .. أقـول مثل هـذا الإنسـان يعي ـ بعض الشـيء ـ معـنى العذاب في الدنيا ، وفظاعته ، وبشاعة مناظرة ..

ولكن كلّ ذلك العذاب ، وكلّ تلك الـويلات والمآسي ، تعتبر تافهة إذا ما قيست بعذاب الآخرة ، وهـول ما يجـري فيها ، ودوامه.

بلى. إنّ عـذاب الـدنيا يهـدينا الى وجـود العـذاب الأخروي ، وجانبا من حقيقته ..

الحمّى وآلامها الـتي قد تعـتري الجسم فتحوّله الى خرقة بالية! ليست سوى لفحة من نار جهنم.

وهذه النار التي تذيب الحديد ، صورة مخفّضة سبعين مرة عن نار جهنم.

ولعلّه حـتى الحـرارة الـتي يولّـدها تفجـير قنبلة ذرية هائلة فتحـوّل الصـخور دخانا خلال أقل من ثانية ليست سـوى لهيب من نـار جهنم ، الـتي هي أشـدّ حـرّا مما نتصوره في الدنيا .. وحـتى الحـرارة الموجـودة في مركز الشمس المتناهية الشـدة لا تقـاس بنـار جهنم. أو لا نقـرأ في النصـوص أنّ الشـمس تلقى في جهنّم فتصـرخ من حرّها؟!

فهل تتحمّل العظـام الناعمة ، والأجسـام الترفه ، والجلـود الرقيقة ، والأعصـاب الحسّاسة ، ذلك العـذاب الرهيب الذي يحول ساكنيه الى شعلة متقدة؟!!

نعم هكـذا يفعل العـذاب بالكـافرين ، فهم لا يموتـون فيها ولا يحيون ، يقول تعالى : (**إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمـاً فَـإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لا يَمُـوتُ فِيها وَلا يَحْـيى**) كما وأنّه لا يغمى عليهم ، كما يحـدث للمعـذّب أو المصـاب بـآلام في الدنيا ، ولا يعطون إجازات

يتخلّصــون فيها من عسر البلاء ، ولا تجــري لهم عمليــات جراحية ليتماثلوا للشـفاء من أمـراض العـذاب ، ولا تقـدّم لهم مهدّئات لتسكن نفوسهم ويكفّوا عن الصراخ.

(**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ**)

آنئذ سيلاقون العذاب الأكبر.

(**فَهُمْ يُوزَعُونَ**)

يتقسّـــمون ، ويلقى كـــلّ واحد منهم في ســـجنه المخصّص له.

[20] كــلّ ذلك العــذاب الغليظ المهين ينتظر أولئك الـذين عـادوا ربّهم ، فلم يتبعـوا رسـله ، وخـالفوا أوامـره وسـننه ، وتجـاوزوا حـدوده ، في الـوقت الـذي أطـاعت الكائنات جميعا ربّها ، واتبعت سننه التي قدّرها فيها.

وحتى أعضاء جسد الإنسـان تتبع سـنن ربه ، لو لا أنّه قد سخّرت له بعض الأيام في الـدنيا لينظر كيف يعمل بها ، وفي يوم القيامة حيث يسلب منه هذه الحرية المحدودة تنقلب عليه أعضاء جسده فتكون شاهدة عليه على شفير جهنم.

(**حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَـــهِدَ عَلَيْهِمْ سَـــمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

إنّ من الــذنوب ما تــرتكب بــالأذن ، كســماع الغيبة والغنـاء ، وما تـرتكب بـالعين ، كـالنظر الى المحرمـات ، وقــراءة كتب الضــلال ، وما تــرتكب عن طريق الجلد ، كالزنا ، وهذه الجوارح ستشهد على الإنسان يوم القيامة.

[21] يا لهول المفاجئة ، ويا لصدق الشاهد!

(**وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا**)

كيف تشـهدون علينـا؟! كيف ونحن حملنـاكم مـدى حياتنـا؟! كيف ونحن نلبس الملابس الناعمة من أجلكم؟! كيف ونحن كنا نحميكم من شـدة الـبرد في الليـالي القارصة؟! كيف ونحن كنا نقيكم الحر؟!

(**قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**)

ومن هـذا المقطع في الآية يتّضح أنّ لكـلّ شـيء شـعورا ــ كما قلنا ــ وإذا شـاء الله أعطـاه القـدرة على النطق بلغة الإنسان حتى يفهم ، والا فهو يملك شعورا.

(**وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

وَما كُنْتُمْ تَسْــتَتِرُونَ أَنْ يَشْــهَدَ عَلَيْكُمْ سَــمْعُكُمْ وَلا أَبْصــارُكُمْ وَلا جُلُــودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّــهَ لا يَعْلَمُ كَثِــيراً مِمَّا تَعْمَلُــونَ (22) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِـرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْـبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِـرِينَ (23) فَـإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْـتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ فِي أُمَمٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كــــــــــانُوا خاسِرِينَ (25) وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَسْـمَعُوا لِهـذَا الْقُرْآنِ

---

23 [أرداكم] : أهلككم.

24 [يستعتبوا] : يطلبوا العتبى «رضا الله» ، والإعتاب الإرضـاء ، وأصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ، ثمّ أستعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الألفة.

وَالْغَــوْا فِيــهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُــونَ (26) فَلَنُــذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا عَـذاباً شَـدِيداً وَلَنَجْـزِيَنَّهُمْ أَسْـوَأَ الَّذِي كـانُوا يَعْمَلُـونَ (27) ذلِـكَ جَـزاءُ أَعْـداءِ اللـهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28) وَقــالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ

هدى من الآيات :

أفضل بـاعث للإنسـان الى التقـوى تحسّسه بـأنّ الله يسمعه ويراه ، وأنّه أقـرب إليه من حبل الوريد ، ثم رؤيته بحقيقة الإيمان ، والحضور في مقام قربه ، ومقعد الصدق عنده ، وبالتالي تلمّس شهوده وشهادته على كـلّ شـيء ، وأنه بحوله يكـون كـلّ حـول ، وبقوّته تقـوم كـلّ قـوّة ، وبحياته كلّ شيء حي.

ولقد ذكّرتنا فاتحة هـذا الـدرس بهـذه البصـيرة ، وأنّ الردى الذي هوى إليه أولئك الخاسرون كان بسـبب ظنّهم السـيء بـربّهم فلم يقـدّروه حق قـدره ، ولم يعرفـوه كما ينبغي ، وأنّه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصـــدور ، وأنّه غفّار لمن تاب وآمن ثم اهتدى.

والآن لا يجديهم الصبر راحة ، ولا العقـاب خلاصا ، بل النار مثواهم أبدا.

وبـــذلك الظن قيّض الله لهم قرنـــاء الســـوء من الشياطين ، من الأمام والخلف

يزينون لهم سوء أعمالهم ، حتى لا يهتدوا أبدا.

ذلك لأنّهم تركوا الاعتصام بحبل الله المتين ، وقالوا لبعضهم : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه (بإحداث أصوات مزعجة) لكي لا يسمعه الآخرون فتغلبون الرسالة.

(وحين يفرغ القلب من ذكر الله تهجم عليه الشياطين) ، وهكذا يذيق الله الذين كفروا عذابا شديدا ، ويجزيهم أسوء عمل عملوه (حين تتمثّل السيئات بألوان من العذاب) وذلك جزاؤهم بما عادوا ربّهم أنّهم يدخلون النار خالدين فيها ، لأنّهم جحدوا بآيات الله (بعد أن استيقنتها أنفسهم) .

وفي الدنيا تراهم يطيعون قرناء السوء من الجن والإنس ، بينما هم في الآخرة يبحثون عنهم ليجعلوهم تحت أقدامهم ليكونوا من الأسفلين (لشدة غضبهم عليهم وبرائتهم منهم) .

بينات من الآيات :

[22] لم يكن الكافرون يخافون ـ حين عصيانهم ـ من شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم ، بل إنّهم لم يكونوا يتصوّرون شهادتها عليهم ، إذ كيف تشهد عليهم هذه العين المطيعة لأوامرهم ، وتلك الأذن والجلود التي راعوها وحافظوا عليها؟! بلى.

إنّها لن تسمع أوامرهم في الآخرة ، بل وستشهد عليهم شهادة الحق.

ثم إنّهم حتى ولو عرفوا في الدنيا بشهادة الجوارح عليهم لا يقدرون على التخلّص من رقابتها ، لأنّ الإنسان يتمكن من ستر أعماله وحجب تصرفاته حتى عن أمّه وأبيه ، ولكن كيف يسترها عن عينه أو يده أو جلده؟

من هنا : إذا كانت شهود الله على الإنسان أعضـاؤه ، فلا بد أن يخاف مقامه ، ويتّقيه على نفسه.

(**وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ**)

يبـدو أنّ معنـاه : إنكم لم تسـتتروا ، ولا كنتم قـادرين على أن تستتروا.

ولنفترض جدلا : أنّ الأعين والآذان والجلود لن تشـهد على الإنسان أثنـاء الحسـاب ، فهل يعقل أن لا يكـون الله شهيدا؟!

كلّا .. فالله محيط علما بالبشر ، ومطّلع على خفيّاته التي ليس لأحد سبيل الى معرفتها سواه سبحانه.

إنّ الله سميع بصير ، عليم خبير .. ولو شعرنا بـذلك ، وأنّه يحصي أنفاسنا ، ويعلم خطرات قلوبنا ، وأنّ كلّ كبير وصـغير مسـتطر ، لما ارتكبنا السـيئات .. وإنّما فلت من شرك الفاحشة ذلك المخلص الصّدّيق يوسف بن يعقوب ـ عليهما السـلام ـ حينما تحسّـس رقابة الله عليه ، وعلم يقينا أنّه عـزّ وجل أقـرب إليه من حبل الوريد ، فعن أبي عبد الله (ص) قال :

«**لما همّت به وهمّ بها ، قالت : كما أنت ، قال : ولم؟ قالت : حتى أغطّي وجه الصنم لا يرانا ، فذكر الله عند ذلك ، وقد علم أنّ الله يراه ففرّ منها**» [1]

ينبغي أن نتـذكّر شـهادة الله حـتى نفـوز برقابة ذاتية على أنفسنا فلا تنحرف.

وأمّا الكـافرون فهم بعيـدون عن هـذه الحقيقة ، فهم يظنّون بربّهم ظنّ السوء ،

---

(1) بحار الأنوار / ج (12) ص (300) .

فمثلا قد يظنّـون أنّ الله يعلم فقط ظـاهرا من أقـوالهم وأعمـالهم فـيزعمون أنّهم قـادرون على تـبرير سـيئات أفعالهم وفـاحش أقـوالهم أمـام ربّهم، بـأن يقـول الواحد منهم : إنّـني كنت مجبـورا ، أو مضـطّرا الى السـيئة ، أو عملتها من دون وعيي وإرادتي.

كذلك يبرّر المجرمون قبل ارتكاب الموبقات سيئاتهم لأنفسهم ، ويختلقون الأعذار التي يزعمون أنّها تغنيهم عن العقـاب أو الجـزاء ، ولو عرفـوا أنّ الناقد بصـير ، وأنّه لا تخفى عليه خافية ، لارتدعوا.

وما دام الإنسـان يعلم أنّ تـبرير عمله للنـاس ليس بحق لأنّ الله يعلم به ، فهو يـرجى صـلاحه ، لأنّ في قلبه لا تـزال مسـافة بين الحق والباطل ، وأمّا إذا وصل الى مستوى يختلط في قلبه الحق والباطل ، وأنّ التبرير الذي يختلقه للنـاس يسـتطيع أن يخـدع به ربّه ، فقد هـوى ولا أمل في نجاته.

ومثل هـذا الصـنف كثـير ، وإنّهم ليـأتون يـوم القيامة ربّهم ، فيوقفهم للحساب ، فيشرعون في طرح أعـذارهم التي تشبّثوا بها في الـدنيا ، بعضـهم يقـول : كنت مكرها ، ويقول الآخر : كنت مستضـعفا ، ويقـول ثـالث : لم أرد إلّا الخير ، وهكذا ، ومن الناس من ينكر كـلّ أفعاله السـيئة ، ويحلف على ذلك بالأيمـان ، يقـول الـرب : (**وَيَـوْمَ نَحْشُـرُهُمْ جَمِيعـاً ثُمَّ نَقُـولُ لِلَّذِينَ أَشْـرَكُوا أَيْنَ شُـرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُـونَ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قـالُوا وَاللـهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْـرِكِينَ**) [1] وعن المبرّرين يقـول : (**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظـالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قـالُوا كُنَّا مُسْتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللـهِ واسِـعَةً فَتُهـاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً**) [2]

---

(1) الانعام / (22 ـ 23) .
(2) النساء / (97) .

(**وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ**)

لعلّ مـرادهم أنّ الله لا يعلم السـرّ والخفيّـات ، وإنّما يرى ظـاهر أعمـالهم ، وقد ذكر المفسّـرون أنّ فريقا من الكفّـار اجتمعـوا عند الكعبة ، فقـال بعضـهم : أتظنّـون أنّ الله يســـمعنا؟ فقــال الآخرّ : بلى. إذا رفعتم أصـــواتكم ســمعكم ، وقــال الثـالث : إنّ من يســمع النــداء يســمع النجوى ، فنزلت الآية.

وتحتمل الآية تفســيرا آخر هو عـــدم اهتمـــام أولئك القوم بشهادة الله عليهم ، فمن لا يأبه بشيء كان كمن لا يؤمن به.

[23] ولكن تلك الظنــون أمطــرت عليهم الــويلات ، ودفعت بهم إلى أسفل الهاوية.

(**وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِـــــــــرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

شخصـــية الإنســـان تصـــاغ حسب ظنّه بربه ، فمن أحسن به ظنّا حسنت سـريرته ، وطـاب سـلوكه ، وصـلح عمله ، ومن أســاء بربّه الظن ســاءت ســريرته ، وخبث سلوكه ، وفسد عمله ..

وهكـذا ينبغي أن يحسن العبد ظنّه بربه ما اسـتطاع ، فقد روي عن الإمام الصـادق ـ عليه السـلام ـ أنّه قـال : قال رسول الله (ص) :

«**إنّ آخر عبد يـــؤمر به الى النـــار فـــإذا أمر به التفت ، فيقول الجبّار جـلّ جلاله : ردّوه ، فيردّونه ، فيقول له : لم التفت اليّ؟ فيقــول : يا ربّ لم يكن ظنّي بك هذا ، فيقول : وما كان ظنّك بي؟ فيقول : كـــان ظنّي بك أن تغفر لي خطيئـــتي ، وتســـكنني جنتك!**

قـال : فيقـول الجبّـار : يا ملائكـتي لا وعـزتي وجلالي وآلائي وعلـوّي وارتفـاع مكـاني ما ظن بي عبدي هذا سـاعة من خـير قط ، ولو ظن بي سـاعة من خير ما روّعته بالنار ، أجيزوا له كذبه ، وأدخلــوه الجنة»

ثم قال : قال رسول الله (ص) :

«**ليس من عبد يظنّ بالله عزّ وجلّ خيرا إلّا كـان عند ظنّه**» [1]

[24] (**فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ**)

إنّ صبرهم في الآخرة يختلف عن صبرهم في الدنيا ، فصـبرهم في الـدنيا على الطاعـات وعن المعاصي يعقبه الفرج والجزاء الحسن ، ولكن حتى وإن صبروا في الآخرة فإنّ النار هي مثواهم للأبد.

(**وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ**)

وإن يتوبــوا الى الله لا تقبل تــوبتهم ، بعكس الــدنيا حيث توفّرت لهم فرصة التوبة.

[25] عوامل الانحـراف عديـدة ، وتختلف من إنسـان لآخر ، وفي حيـــاة الشـــخص الواحد تختلف من مرحلة لأخــرى ، ففي مرحلة الطفولة يســتهوي الإنســان عامل واحد اللعب ، أمّا في مرحلة الشباب فإنّ أصـدقاء السـوء من أشـدّ عوامل الانحـراف تـأثيرا على النفس ، بينما في مرحلة الرجولة يتـدرّج البشر عـبر عوامل المـال والبـنين والتفاخر.

وهنا يشير القرآن الى أصدقاء السوء الذين يحيطــون بمن ابتعد عن هدى ربه

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ـ ص (543) .

فيزيّنون له سوء عمله ، حتى لا يكاد يجد سبيلا للهداية.

إنّ الضـلالة ـ كما الهداية ـ تبـدأ من اختيـار الإنسـان نفسه ، ولكنها تخرج تقريبا عن حدود سيطرة الإنسان بعد ذلك ، إذ تتكـاثف حوله عوامل الانحـراف وأغلال الضـلال حـتى يكـاد يصـبح عـاجزا عن الانفلات منها ، فـترى قلبه يقسو مع اسـتمرار ارتكـاب الفـواحش ، ومحيطه الاجتمـاعي يخلو من الصـالحين الـذين كـانوا ينصـحونه ، ويتمحض في قرنـاء السـوء ، ويكـون مثله مثل دودة القز يختنق في شرنقته التي صنعها لنفسه!

وقرناء السوء نوعان :

نـوع ظـاهر ، وهو الصـديق السـيء الـذي يصـاحب الإنسـان ويرافقه ، وحين ينحـرف الإنسـان يجد نفسه في جماعة المنحرفين ، وإنّ الطيور على أشكالها تقع.

نوع باطن ، وهو الشيطان الذي يزيّن له السيئات.

(**وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ**)

قالوا : أصل كلمة «القيض» بمعنى القشرة المحيطة بالبيضة ، وأنّ ايحـاء «قيّض» التسـلط الكامل ، والإحاطة التامة ، ولكن يبـدو لي أنّ معـنى قيّض انتخـاب الشـيء المناسب ، فإنّ حجم قشرة البيض مناسبة لذات البيضة ، كذلك يتم اختيار القرين المتناسب للشخص.

(**فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**)

من أعمال الفساد التي لم يرتكبوها.

(**وَما خَلْفَهُمْ**)

من الأعمال التي ارتكبوها. وقالوا : ما بين أيديهم الدنيا ، وما خلفهم الآخرة ، وقيل العكس.

ولكن يبقى سؤال : لماذا يقيّض الله قرناء السوء لهؤلاء؟ الجواب : لأنّ الله قد غضب عليهم ، وفرض عليهم الضلالة بسوء اختيارهم أوّلا ، كما فعل بأسلافهم من الأمم السابقة ، ويا لسوء العاقبة إنّ الربّ الرحمن الرحيم الذي هو السبب الوحيد للهداية يريد إضلالهم وتعذيبهم!

(**وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ**)

ولعلّ المراد من الجن هنا الشياطين الذين يقيّض الله منهم قرناء للخاسرين.

[26] (**وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**)

والغوا فيه : أي أثيروا اللغو حينما يقرأ القرآن لصرف النظر عن أفكاره الحقة. وفي كلّ عصر ومصر هناك محاولات خاصّة للغو في القرآن ، ففي بدء الدعوة الإسلامية كانوا يحضرون القصّاص بجانب الرسول ليرووا للناس القصص التاريخية الخيالية ، وكان هناك من لا يفرّق بين القرآن وتلك القصص التافهة ، فيجلس عند القصّاص ليستمع إليها ، ويدع الرسول (ص) ورسالته الحضارية ، وفي بعض الأحيان كان يقوم أحدهم بالتصفيق عند تلاوته أو التصفير .. وكلّ ذلك بهدف جذب انتباه الناس لكي لا يفهموا حقائق الرسالة ، وأمّا في هذا العصر فقد تطوّرت أساليب اللغو الذي يثيره الكفّار في القرآن ، إذ أنّ عشرات الألوف من الصحف المأجورة ، والإذاعات ، ومحطّات التلفاز ، ومراكز صناعة الأفلام ، تمثّل اليوم ظاهرة اللغو الذي يثيره الكفّار بين الناس لمنعهم من الاستماع الى القرآن.

والهدف من كل ذلك اللغو الجـاهلي الأول وهـذا اللغو الجـاهلي العـريض هو التغلّب على السـاحة ، والاسـتكبار في الأرض بغير الحق ، ممّا يعني أنّ بنـاء الكفّـار الثقـافي قائم على أساس اللغو والتشويش على بصائر الحق.

ونستوحي من الآية عدّة حقائق :

أولا : إنّ كـــلّ ما يبثّه الطغـــاة من خلال أجهـــزتهم الدعائية ضلالة ولغو ، وإنّما الحق ما يبيّنه الوحي الإلهي.

ثانيا : إنّ البنـاء الثقـافي للطغـاة قـائم على أسـاس مواجهة الحق ، والتشـويش عليه ، أو ليست الضـلالة هي الانحراف عن الهـدى ، فهي ليست أصلا أو محـورا أو بنـاء متكـاملا ، وهكـذا فضح القـرآن أهم اسـتراتيجيّات الدعاية الكـافرة ، وهي معاكسة الاعلام الحق ، وإثـارة الضوضـاء والصخب من أجل صرف الانظار عنه.

ثالثا : من خلال الهـدف الـذي يتوخّـاه الفـرد نعـرف طبيعة عمله ، أو ليست الأعمـــال بالنيـــات؟ وإنّ هـــدف أجهزة الدعاية الكـافرة هو الاسـتكبار في الأرض ، والغلبة في الصراع مع الحق ، ومن كان هـذا هدفه كيف يسـتطيع أن يهـدي النـاس الى الحـق؟! إنّ الهـدف هو الـذي يحـدّد مسيرة العمل ، واستراتيجية التحرك ، بل كيف يهـدي الى الحق من لم يهتد بنفسه اليه.

وحين يكون هـذا هـدف مجمل التحـرك الـدعائي عند الكافرين ، فإنّه ينعكس على أدوات هذا التحرك ، والأفراد المشاركين فيه ، فكلّ فـرد من العـاملين في هـذا الجهـاز يسعى نحو هدف مصـلحيّ خـاص به ، فـترى الواحد يحلم في الشـهرة ، والثـاني يبحث عن الـثروة ، والثـالث يتمنّى ان يكون ذا حظوة عند السلطان ، وكيف تهدي أقلام هذه الشراذم الى الحق؟!

[27] بلى. إنّهم يضلّون الناس عن الحق ، ويمنعـونهم عن بلوغ الحقائق ، ويحجبـون عنهم النـور الإلهي ، وبحجم الخسارة التي يلحقونها بالناس يكـون حجم العـذاب الـذي ينتظرهم.

(**فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً**)

ولعلّ هذا هو عذابهم في الدنيا.

(**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ**)

لعلّ جزاءهم أسوء من أعمالهم باعتبار تحدّيهم لـربّ العـزة ، أو تحمّلهم لعـذر الآخـرين. ولعـلّ المعـنى أنّهم يجازون بأسوء أعمالهم فيكون بـالطبع جـزاء سـيئا ، والله العالم.

[28] لمـاذا هـذا الجـزاء الشـديد؟ لأنهم أعـداء الله ، وليس هيّنا عـداوة هـذا المخلـوق الضـعيف لخالقه القـوي العزيز.

(**ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ**)

يا له من عـذاب عظيم ، النـار أبـدا سـاءت مسـتقرا ومقامـا! ونتسـاءل : كيف أنّهم أضـحوا أعـداء اللـه؟ بلى. حين عادوا رسالاته ، وألغـوا في القـرآن ، فقد عـادوا الله عزّ وجل.

(**جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ**)

إنّ الكفر بالرسـالة بعد أن اسـتيقنتها أنفسـهم يـدل على عداوتهم لربّهم.

[29] وفي نهاية المطـاف يكفر هـؤلاء بقرنـاء السـوء الذين أضلّوهم عن سبيل الله ،

سـواء كـانوا من الإنس الظـاهرين (كأصـدقاء السـوء) أو الجن (كالشياطين والذين زيّنوا لهم سوء أعمالهم) .

(**وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَـلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْـــــدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ**)

ولكن ماذا ينفعهم لو جعلوهما تحت أقدامهم في ذلك اليوم بينما جعلوهما قدوة لهم في الدنيا؟!

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْـتَقامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَفِي الْآخِـرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْـتَهِي أَنْفُسُـكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَــدَّعُونَ (31) نُــزُلاً مِنْ غَفُــورٍ رَحِيمٍ (32) وَمَنْ أَحْسَنُ قَـوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللـهِ وَعَمِـلَ صـالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَــنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ فَـإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَــهُ عَــداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها

إِلاَّ ذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّـيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

---

37 [نـزغ] : الـنزغ هو النخس بما يـدعو إلى الفسـاد ، فـإنّ الشـيطان ينخس الإنسان ويهيّجه للباطل خصوصا عند الخصام وفي المعركة.

قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا

هدى من الآيات :

في آيات مضت بيّن القرآن نموذجا من الناس تحــدّوا سـلطان الـرب ، فقيّض لهم قرنـاء السـوء ، واختـار لهم أسـوء المصـير. وهنا يـبيّن النمـوذج المعـاكس له تماما ، وهم الرجــال الــذين تحــدّوا القــوى الاجتماعية وأعلنــوا إيمانهم بالله (ودعوا الناس الى ذلك) ثم اسـتقاموا ، حيث يـنزل الله عليهم الملائكة تـنزيلا ، يزيلـون عنهم الخـوف والحزن ، ويبشّرونهم بالجنة ، ويطمأنونهم بأنّهم أوليـاؤهم ، يؤيـدونهم في الـدنيا ، ويسـعدونهم في الآخـرة ، هنالك حيث يتـوفر ما يشـتهونه أو يتمنونه ، في تلك الـدار الـتي يستضيفهم الربّ الغفور الرحيم.

بلى. إنّ أحسن القـول هو الـدعوة الى الله المقرونة بالعمل الصــالح والتســليم ، والمقرونة كــذلك بــالخلق العظيم الذي يختار صاحبه أحسن السبل فإذا بالعدو يصبح وليّا حميما.

وإنّها لـذروة الفضـيلة لا يبلغها إلّا الصـابرون من ذوي الحظوظ العظيمة! وقد يدفع الشيطان أحدهم الى الـوراء قليلا ، ولكنّهم يسـتعيذون بالله من شـرّه فيسـتجيب الله دعاءهم.

بينات من الآيات :

[30] كما يمكن أن يتسـافل الإنسـان الى الحضـيض حيث يقيّض له الله سـبحانه قرنـاء يزينـون له سـوء عمله فلا يهتـدي أبـدا الى السـبيل ، كـذلك يسـتطيع أن يسـمو ويسمو حـتى يصـبح فـؤاده مـأوى لملائكة الله ، فئة تهبط وفئة تعـرج مـتى؟ حين يكفر بالطـاغوت ، ويعلن توحيـده على الملأ ، ويقــول : ربي الله ، لا الأصــنام لا الأنــداد لا المجتمع الفاسد لا السلطة الطاغية.

إنّه لا يكتفي بالإيمان في قلبه بربّه ، بل يعلنه متحـدّيا القـوى المادية ، وبـذلك يشـقّ للنّـاس طريق التوحيد بين أوغال الشرك.

(**إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ**)

إنّهم قالوا ذلك ، والقول بذاته تحدي ، والتحدي بدوره دعــوة. إنّه دعــوة بكسر حــاجز الصــمت ، والخــوف ، ومقاومة حالة اليأس والسلبية.

إنّنا أمرنا بـأن نعلن الـبراءة من المشــركين ، وممّا يشركون به ، أفلا نتلـوا سـورة الإخلاص : (**قُلْ هُـوَ اللـهُ أَحَدٌ**)؟! إنّ المطلوب منّا أن نقول كلمة التوحيد بما تحمل من مخـاطر الـرفض والتمـرّد والثـورة ، وهي حقّا أعظم كلمة في عـــالم الإنســـان ، لأنّها مفـــترق الطريق بين العبودية والتحرّر ، بين الذلّة والعزّة ، بين النار والجنة.

(**ثُمَّ اسْتَقامُوا**)

ومـــاذا تعــني كلمة التوحيد من دون الاســـتقامة؟ أو ليس التوحيد بمعنى رفض الأنداد ، رفض سلطة الطغـاة ، والمـترفين ، وحمـير الأسـفار ، فـإذا عـاد الإنسـان وخضع لهؤلاء الأنداد فإنّه ينفي أصل التوحيد.

ويبدو أنّ الله سبحانه يهدي العبد الى معرفته ، ويدلّه على ذاته بذاته ، ثم يبتليه بـألوان الفتن ، تـارة في ماله ، وأخرى في جسده ، وثالثة بتسليط الجبابرة عليه ، وهكـذا ليمتحن إيمانه ، فـــإذا أنهـــار وكّله الى نفسه ، وأمّا إذا استقام نزّل عليه ملائكته ليثبّتوه.

وهكذا تـتركّز صـعوبات الاسـتقامة في أيّامها الأولى ، حيث لا تتنزّل الملائكة ، وحيث يتسـاوى النـاس في درجة الضغط الذي يتعرضون له لامتحان قـوة إيمـانهم ، أمّا في المرحلة التالية فـإنّ من اســتقام تهــون عليه الضــغوط لنزول الملائكة عليه بالسكينة والتأييد.

(**تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا**)

من المسـتقبل وما يحمله لكم من آلام ، وهكـذا يزيل الملائكة عن قلب المسـتقيم أثر أمضى سـلاح تسـتخدمه قوى الشرك وهو سلاح الإرهـاب. وحين نسـير في الأرض نرى الخـوف أعظم دعامة لحكم الطغـاة والمسـتكبرين ، فإذا تجاوز إنسان أو شعب حـاجز الخـوف اسـتعاد حقوقه وحريّته واستقلاله.

(**وَلا تَحْزَنُوا**)

على ما مضى من الخسـار ، فلا تـدع الملائكة قلـوب أولي الاســتقامة عرضة لأمــواج التشــكيك الــتي يبثّها الشياطين فيها ، قـائلين : إلى مـتى نقـدّم التضـحيات؟ ألا تـرى سـائر الشـعوب كيف تنعم بالهـدوء؟ أو لا تنظر إلى صاحبك قد أضحى غنيّا ،

وزميلك بالدراسة أضحى اليوم أكبر خبير ، وجـارك أصـبح وزيـــرا؟ أفلا يكفي؟ إلى مـــتى تعيش الغربة والهجـــرة والحرمان؟ إنّ هذا النوع من الكلام يولّد الحزن ، وبالتالي يسبّب تـراكم السـلبيات ، ويـوهن عـزائم العـاملين ، لو لا تدخّل الملائكة لإزالته ، ولكن كيف؟

إنّ الملائكة يزيلـون أثر الخـوف والحـزن من أفئـدة المستقيمين بأن يبشّروهم بالجنة ونعيمها.

(**وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**)

ولأنّ المؤمـــنين يتعرّضـــون لضـــغوط مختلفة ، حيث يجـرّب الطـاغوت وأعوانه من المـترفين والمضـلّلين كـلّ وسائل الضغط عليهم ، فإنّ الملائكة لا تزال تتـنزّل عليهم (ولا تنزل مـرّة واحـدة) فكلّما تعرّضـوا لنـوع من الضـغط بشّـــرهم الملائكة بما يقابله من النعمة عند الله ، حـــتى يـزول أثر الضـغط ولعـلّ الإمـام أمـير المؤمـنين ــ عليه السلام ـ يشير إلى ذلك حين يقول :

«**ومن اشـــتاق إلى الجنّة سلا عن الشـــهوات ، ومن أشفق من النـار رجع عن الحرمـات ، ومن زهد في الـــدنيا هـــانت عليه المصـــيبات ، ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات**» [1]

فكلّ إغـراء أو ضـغط أو إرهـاب في الـدنيا يقابله من شـؤون الآخـرة ما يعاكسه ، ويزيل أثـره النفسي ، حـتى يستقيم المؤمن تماما.

وجـاء في الحـديث عن النـبي (صـلّى الله عليه وآلـه) وهو يأمر بالاستقامة ، ويفسّر

---

(1) تحف العقول / ص (110) في حديث مفصّل حول الإيمان ودعائمه ، في أثناء الحديث عن دعائم الصبر.

الآية الكريمة :

«**قد قالها نـــاس ثم كفر أكـــثرهم ، فمن قالها حتى يموت فهو ممّن استقام عليها**» [1]

وأبـــرز مظـــاهر الاســـتقامة الولاية ، واتبـــاع الخط السياسي المستقيم في ظلّ القيـادة الشـرعية ، ذلك لأنّ أعظم ما يتصـــارع عليه أبنـــاء آدم هو قيـــادة المجتمع السياســية ، وللمؤمــنين خطهم السياسي الواضح الــذي يدعون إليه ، والمتمثّل في قيادة الصـالحين ، والاسـتقامة على هـذا الخط تعـني محاربة كـلّ قـوى الشـرك والجهل والنفـاق في المجتمع ، والـتي تـتركّز عـادة في اتبـاع نهج أئمة الكفر والضـلال ، وكـذلك حين يـأتي أحد المجاهـدين من أتبــاع أهل بيت الرســول إلى الإمــام الرضا ـــ عليه السلام ـ ويسأله عن الآية يقول له الإمام

«**هي والله ما أنتم عليه**»

كذلك يقول الإمام الباقر ــ عليه السـلام ــ لرجل من شيعته الأبرار. [2]

[31] من ارتقى ذروة الإيمــان عــاش هنالك وحــده ، ويخشى عليه وحشة الانفراد ، فها هم أصـدقاؤه يتفرّقـون عنه لأنّه يستقيم على الحق ، وهم يتساقطون تحت وطأة الضغوط ، حتى يقول مثلما قال إمام المتقين :

«**ما ترك الحقّ لي من صديق**»

وها هم أسرته يتخلّون عنه ، ويقولــون له لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ..

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ـ ص (547) .
(2) المصدر.

وها هو المجتمع الفاسد أو اللّامســئول يواجهه ، أو لا أقل يتخلّى عنه في ســاعة المواجهة ، حــتى لتكـاد الـدنيا تضيق به على رحبها ..

هنالك تتـــنزّل عليه ملائكة الله ليعلنـــوا ولاءهم له ومساندتهم إيّاه.

ومن عاش مع الملائكة الموكّلين بشـؤون الكائنـات لا يبقى غريبا. إنّه يمشي في الاتجاه الصحيح مع كلّ الخليقة ، إنّما أعـداء الحق هم الغربـاء ، لأنّهم يعيشـون ضد سـنن الله في خلقه ، وفي الاتجاه المضاد لحركة الكائنات.

(**نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**)

لقد عاش إبراهيم (ع) وحــده في ذروة التوحيد ، فهل كـــان غريبـــا؟ وكيف يكـــون غريبا يتـــنزّل عليه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل؟

وحين وضع في المنجنيق ليرمي به في النار ، هرعت إليه سـائر الملائكة المـوكّلين بشـؤون الطبيعة ، وعرضـوا عليه دعمهم له ، فلم يقبل ، إنّما ســلّم أمــره الى الله ، فجعل الله النار بردا وسلاما عليه.

(**وَفِي الْآخِرَةِ**)

عند ما تبلغ النفس الـــــتراقي ، وتهبط على ابن آدم كربة الموت ، ويقف أحبّاؤه حياله عـاجزين عن تقـديم أيّ عون له ، هنالك تهبط ملائكة السلام على من استقام من المؤمــنين فيبشّــرونه بالجنــة. الله أكــبر ، ما أحلاها من بشارة ، وما أعظمها من نعمة.

وعند ما يوضع الإنسان في لحده ، ويتفرّق عنه أبناؤه وأحبّـاؤه ، وقد تركــوه تحت الــتراب وحيــدا غريبا ، تهبط ملائكة الله بالبشرى على المؤمن ، ويزيلون وحشته ،

ويرافقونه حتى النشور ، وعند ما يبعث الناس الى ربهم في صحراء المحشر (**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**) ، (**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها**) ، (**لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**) ، هنالك يتقدم ملائكة الرحمة لمرافقة المؤمنين الى ربّهم.

(**وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ**)

لقد زهدوا في الدنيا وشهواتها ، فعوّضهم الله بنعيم الآخرة ، وإذا كانت شهوات الدنيا مشوبة بالآلام ، ومشحونة بالمصائب والنكبات ، وهي سريعة الزوال ، فإنّ نعيم الآخرة التي تشتهيها نفوسهم صافية لا زوال لها.

بلى. إنّ الدنيا والآخرة ضرّتان ، فمن رغب في الآخرة زهد في الدنيا ، ومن أذهب طيّباته في هذه الحياة الزائلة ، فسوف لا يجد نعيما في تلك الحياة الأبديّة.

لقد رئي على إمام المتقين عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ إزار خلق مرقّع ، فقيل له في ذلك ، فقال :

«**يخشع له القلب ، وتذلّ به النفس ، ويقتدي به المؤمنون ، إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان ، وسبيلان مختلفان ، فمن أحبّ الدنيا وتولّاها ، أبغض الآخرة وعاداها ، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما ، كلّما قرب من واحد بعد من الآخر وهما بعد ضرّتان**» [1]

(**وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ**)

الدنيا دار السعي ، والآخرة دار الجزاء ، وفي الدنيا لا يمكن أن تتحقّق كلّ أماني

---

(1) نهج البلاغة / خطبة (130) .

البشر ، ولا يمكن أن يرضي أحد أحـدا ، لأنّ ادعـاءات ابن آدم أكبر من حجم الدنيا نفسـها ، وتمنيّاته أوسع من حياته على الأرض ، فكيف تتحقّق جميعـــا؟ بينما الآخــــرة دار واسـعة ، أكـبر من طموحـات البشر وتطلّعاته ، وهكـذا تتحقّق أماني المؤمنين بلا جهد أو سعي.

جاء في حديث مأثور رواه الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله 74 ـ :

«وليس من مؤمن في الجنة إلّا وله جنات كثيرة ، معروشـات وغـير معروشـات ، وأنهـار من خمر ، وأنهار من ماء غـير آسن ، وأنهـار من لبن ، وأنهـار من عسل ، فـــــــإذا دعا وليّ الله بغذائه أتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغـذاء من غـير أن يسـمّي شهوته» [1]

[32] وأعظم النعم لأهل الجنة أنّهم في ضــــــيافة الرحمن ربّ السموات والأرض ربّ العرش العظيم ..

(**نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ**)

[33] ومثلما الإيمـان بالله ذروة الكمـال وسـبيل كـلّ خير ، فإن الدعوة إليه أحسن المقال ، وطريق كلّ صـلاح وإصلاح ، ولأنّ الدعاء الى الله خير الأعمال فقد اجتـبى له الـــربّ خـــير خلقه ، وهم الرسل ثمّ الأمثل فالأمثل من عباده الصالحين.

وحين يرفع الإنسان صوته بالـدعوة تتسـاقط الأوهـام الـتي يبثّها الشـيطان في روع البشر ، كما تهـتزّ الأصـنام التي يصنعها في المجتمع!!

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ـ ص (548) .

الدعاء إلى الله يعـني محاربة الجبت وعبـادة الـذات ، كما يعني مواجهة الطاغوت وعبادة أولي القوة والثروة.

الدعاء إلى الله ينطـوي على تزييف الـدعوات الكاذبة إلى القومية والعنصــرية والإقليمية وما إليها من ضــلالات الشرك.

الـدعاء الى الله يســتدعي زكـاة النفس ألّا تسترسل مع الشهوات ، ولا تستفز بهمزات الغضب الشيطانية.

(**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ**)

أحسن قـولا : لأنّ محتـوى قوله الـدعوة الى الغفـور الرحيم.

وأحسن قـــولا : لأنّ أســـلوب دعوته ســـليم ، فلأنّها مجردة عن ذاته لا تتأثّر بالمصالح الشخصية ، أو بالظروف المتغيّرة ، فيختار أفضل السبل للدعوة ، يتواضع للنـاس ، ويحسن إليهم ، ولا يتجبّر عليهم ولا يبحث في دعوته عن شهرة أو سمعة ، ولا يتأثّر بعصبيّة.

إنّ دعوته بـذاتها خـير عظيم حظي به فهو يحمد الله أبـدا على هـذا التوفيق ، فلا يطلب على دعوته أجـرا من الناس أو شكرا ، وإذا واجه إعراضا أو كفـورا لا يلويه ذلك عن سـبيل الـدعوة ، لأنّ دعوته مدفوعة الثمن سـلفا من عند ربّه.

ثم إنّ دعوته ليست مجـرّدة عن سـلوكه. إنّه يسـارع إلى تنفيذ شرائع الله ، والعمل الصالح ، والتسليم للقيـادة الشـرعية ، والرضا بها ، ممّا يشـهد بصـدقه في دعوته ، كما يشهد على صـدق دعوته ، فمن دعا الى الله حقّا فقد عـرف ربّه ، ومن عـرف ربّه صـلحت أفعاله ، ولم يطلب علوّا في الأرض ولا فسادا ، بل سلّم الأمر لله ولأولى

الناس برسول الله.

(وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فهو أوّل من يسلم وجهه لربّه ، ويعلن عن ذلك ، ويتحدّى ـ بدعوته ـ الطغاة والجبابرة ، كما ويجابه بها شيطان نفسه النزّاعة الى الرئاسة والسلطة.

وهكذا تبصّرنا الآية ـ بكلمات وجيزة بليغة ـ بشواهد الصدق في الدعاة ، وكيف أنّهم الأحسن قولا ، والأسبق إلى تهذيب النفس من شوائب الهوى في الدعوة ، وتهذيب أسلوب الدعوة من الرعونة والخشونة والكلمات النابية ..

إنّ من الناس من يدعو الى الله ، ويختار وسيلة معيّنة لهذه الدعوة ، مثلا ينتمي الى تنظيم رسالي ، أو ينخرط في سلك العلماء والخطباء ، أو يصدر صحيفة ، أو يفتح دارا للنشر .. ويقف الشيطان له بالمرصاد فيضلّه عن السبيل فيحرف اهتمامه من الله إلى تلك الوسيلة التي اختارها ، فإذا به يجعل تنظيمه أو جماعته أو مؤسسته محور دعوته ، ويصارع من أجلها سائر الدعاة الى الله ، وبدل أن يذوّب نفسه في بوتقة الدعوة تراه يذوّب دعوته في بوتقة نفسه ، ويضلّ ضلالا بعيدا.

ولعلّ خاتمة الآية تعالج هذه الحالة ، إذ الإسلام هو التسليم ، والتسليم يتنافى والصراعات المصلحية عند الدعاة يقول أمير المؤمنين الامام علي ـ عليه السلام ـ :

«**لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي ، الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل**» [1]

---

(1) نهج البلاغة / الخطبة (125) .

[34] الذي يـدعو إلى الله يختـار أحسن القـول ، فما هو الأحسن؟ هناك الحسنة والسيئة والفارق بينهما كبـير ، ولكن للحسنة درجات متصـاعدة ، كما أنّ للسـيئة دركـات متسـافلة ، والـداعي الى الله يختـار الأحسن بين درجـات الحسنة ..

(**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ**)

قــال الشــيخ الطبرسي : والمعــنى : أنّ الحســنة والسـيئة متفاوتتـان في أنفسـهما ، فلا تسـتوي الأعمـال الحسنة والأعمال السيئة ، فخذ بالحسنة الـتي هي أحسن من أختها إذا إعترضتك حسنتان. [1]

(**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**)

وحسب هـذا التفسـير ، معنـاه : اخـتر من الحسـنات أفضلها ، ومن الوسائل أبلغها أثرا.

(**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**)

إنّ الـداعي إلى الله يـدلّ النـاس إلى ذروة الكمـال ، ولا يوفّق لهدفه إلّا إذا اكتملت نفسه أوّلا ، واســـتطاع أن يتعـالى على غضـبه ومصـالحه ، فـإذا كـانت بينه وبين أحد من الناس عداوة لا يستغل مركــزه لتحطيمه ، بل يسـعى إليه ليهديه حبّا له ، وحبّا لدعوته ، إذ أنّ وجــود حــزازات بين النـاس وصـاحب الـدعوة تـؤثّر سـلبيّا على الـدعوة ، ولكن ماذا يملك الداعية في هذا السـبيل؟ إنّه يملك نفسه فيسـخو بها لربّه ولدعوته ، فــإذا به يتنــازل عن حقوقه ، وعمّا يســمّى عند النــاس بالكرامة الشخصــية ، ويطفق بالإحسان الى أعدائه.

---

(1) جوامع الجامع / ج (2) ـ ص (482) .

ثم يستخدم حكمته في اختيار السـبيل الأحسن ، ذلك أنّ التـدبير وحسن الإدارة في الـدعوة إلى الله ذوا أهمية كبيرة ، بالرغم من صعوبتهما البالغة ، إذ أنّ حسن الإدارة بحاجة إلى علم غزير ، وتفكّر مستمر ، ومقدرة فائقة في تنفيذ المهام ، مثلا يسـتدعي التـدبير ــ عـادة ــ الكتمـان ، واتباع السبل الخفيّة في العمل على ما نحمل من مشـاق كبيرة ، ولكن أنّى كانت الصعاب فإنّ الكتمان وسيلة هامّة لإنجاح مهام الدعوة. أو لم يقل الرسول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ :

«**استعينوا في أعمالكم بالصبر والكتمان**»؟

وهنا نعرف عمق تفسير أهل البيت ـ عليهم السّـلام – حيث جاء في الحديث المأثور عن الإمـام الصـادق ــ عليه السّلام ـ :

«**إنّ الحسنة التقيّة ، والسيئة الإذاعة**» [1]

ثم إنّ طمـوح الداعية عـال حيث لا يسـعى الى تجنّب أذى العـدو ، بل إلى جعله وليّا حميما لـه. إنّه يسـعى أبـدا لكسب الناس لدعوته.

[35] إنّها القمّة الســـــــامقة في الخلق الرفيع ، لن يبلغها إلّا من تميّز بأمرين : الصبر والحلم.

(**وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا**)

فمن تجرّع مرارة الصبر أوتي الخلق الرفيـع. والصـبر في جملة معانيه التطلّع الى المسـتقبل ، ومعايشة أحداثه ، بتجاوز اللحظة الراهنة.

وهنـاك علاقة قريبة بين الصـبر والعلم ، فمن أحـاط معرفة بالمستقبل ، وطبيعة سير

---

(1) مجمع البيان / ج (5) ـ ص (13) .

الأحـداث ، لم يسـتبدّ به الحـدث الحاضر ومؤثّراته ، ولعلّه لذلك قال ربّنا سبحانه :

(**وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**)

فمن كـــــان حظّه عظيما من اليقين والحكمة حسن خلقه ، وصبر على المكاره.

والآية تشير إلى أنّ من يردّ الإساءة بالإحسـان يكـون مجمل حظّه عظيما (حيث جـــاءت الكلمة مطلقـــة) ممّا يعني أنّه ينتصر في صراعه مع منافســيه وأعدائه ، ويتمتّع بالتقدم والرقي في كافّة الحقول.

[36] لأنّ الاستقامة ، وردّ الإسائة بالإحسان ، والصبر ، صعب مستصعب ، فـإنّ الإنسـان الـذي خلق من ضـعف قد يسقط تحت الضغوط ، فلا ينبغي اليـأس والاسترسـال في الهبـوط ، بل لا بـدّ من تجديد العـزم ، وتجـاوز حالة الضعف ، والاعتصام بحبل الله ، والاستعاذة به.

(**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ**)

أي دفعك الشـيطان دفعا إلى الانحـراف في حالة من حالات الضعف الذي يعتري البشر عادة ..

(**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

ذلك أنّ ضـعف البشر لا يجـبره سـوى قـوّة الـرب ، فحين تــذكر ربّك ، وتتّجه إليه بقلبك ، يصــلك المــدد من الملائكة الـذين يثبّت الله بهم أقـدام المؤمـنين عند مظنّة الزلل.

إنّ الشــــيطان الغــــوي يجنّد لمحاربتك جنـــوده ، ويوسوس إليك بأمانيه وغروره ،

والـريب واليـأس ، ولكن إذا أقبلت إلى ربّك ، وذكرته في سرّك ، هرب إبليس وجنوده ، وخرجت منتصرا.

وكلمة أخيرة :

إنّ سياق الآيات في هذا الدرس يهدي إلى أنّها تعـالج وضع الــدعاة في أشــدّ الظــروف ، حيث يحتــاجون الى الاستقامة ، وردّ الإسـائة بالإحسـان والصـبر ، ولا ريب أنّ الــدرع الحصــين لهم هو التقية ، وهي بحاجة الى أنـــاة وحكمة ، وصبر عظيم ، وإنّ كثيرا من الحركات الرســالية فشلت في صراعها ضد الطغاة بسبب فقـدان بند أو أكـثر من هذا البرنامج في حيـاتهم ، وذهبت تضـحياتهم الكبـيرة سدى ، فعلينا ألّا نستهين ولا بواحدة من هذه الوصايا ، بل نتمسّك بها جميعا وبقوة حتى يأذن الله لنا بالنصر.

وَمِنْ آياتِــهِ اللَّيْــلُ وَالنَّهــارُ وَالشَّــمْسُ وَالْقَمَــرُ لا تَسْــجُدُوا لِلشَّــمْسِ وَلا لِلْقَمَــرِ وَاسْــجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُــدُونَ (37) فَــإِنِ اسْــتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْــلِ وَالنَّهــارِ وَهُمْ لا يَسْــأَمُونَ (38) وَمِنْ آياتِــهِ أَنَّكَ تَــرَى الْأَرْضَ خاشِــعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَــزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ

---

38 [لا يسـئمون] : من سـأم بمعـنى تعب ، أي لا يتعبـون عن التسـبيح والعبادة.

39 [اهـتزّت] : تحـرّكت ، فـإنّ المــاء ينشّ الأرض ويحرّكها بالانتفــاخ وتعلية الأملاح.

[وربت] : ارتفعت لدخول الماء والهواء خلالها.

قَــدِيرٌ (39) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِــدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَــوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْــرٌ أَمْ مَنْ يَــأْتِي آمِنــاً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِــيرٌ (40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالـذِّكْرِ لَمَّا جـاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتـابٌ عَزِيــزٌ (41) لا يَأْتِيــهِ الْباطِــلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْــهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُـلِ مِنْ قَبْلِـكَ إِنَّ رَبَّكَ لَـذُو مَغْفِـرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَـوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْـهُ مُـرِيبٍ (45)

لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ

هدى من الآيات :

من المحـاور الرئيسـية لسـورة فصّـلت بيـان الصـلة السـليمة بين البشر والخليقة من حوله ، المتمثّلة في أنّهما جميعا خلق الله ، وخاضـعان طوعا أو كرها لمشـيئته ، فلا ينبغي أن يتخذ الإنسان آيات الله أنـدادا من دون الله ، فيسجد للشـمس أو للقمر ، إنّما السـجود (والتعبّـد) لله وحـده. أليس هو الخـالق للكائنـات جميعا ، وهكـذا تسـبّح ملائكة الله ومن هم عند الله لربّ العالمين ليلا ونهـارا بلا سأم أو ملل.

كذلك الأرض تراها خاشـعة (كأنّها في حالة تعبّد لربّها وانتظار لبركاته المتمثّلة في الغيث) فـإذا أنـزل الله عليها المـاء اهـتزّت وربت ، وكـان في إحيائها بعد موتها شـهادة حق على إحياء الموتى للنشـور ، وأنّ ربّنا على كل شـيء قدير.

(كلّ ذلك من آيات الله ، ولكن ماذا عمّن يلحد فيها؟) .

إنّ الملحدين لا يخفون على الله (وهم لا يسـتوون مع من يستجيب لها بالتصديق

والعمل) (**أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنـاً يَوْمَ الْقِيامَةِ**) (ولا يعني تــأخير العقوبة جهلا وتهاونا ، كلّا) فليعملوا ما شاؤوا فإنّ الله بصير بهم.

(من هم الملحـــدون في آيـــات اللـــه؟) إنّهم الـــذين يكفرون بذكرهم (المتمثّل في القـرآن) لمّا جـاءهم ، بينما هو كتـاب عزيز يسـتمدّ قوته من ربّه ، وإنّه كتـاب حـقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفــه. أو ليس قد أنزله الحكيم الحميد ، فكيف يأتيه الباطل؟

(وما يجادلون به حول آيات الله وذكره باطل) .

ولا يقال للرسول إلّا ما قد قيل للرسل السابقين ..

(فاخذهم الله بأليم عقابه ، بعد أن أمهلهم بمغفرته) .

(**إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ**) .

(وكـــان بين ما قـــالوا أنّ من يعلّم الرســـول (ص) أعجمي ، بينما القرآن عربيّ مــبين) ولو جعله الله أعجميّا لطـالبوا بـأن يكـون عربيّا مبينا قد فصّـلت آياته تفصـيلا ، ولكن هل هـــذا هو مقيـــاس الحق والباطل ، والهـــدى والضـــلال؟ (كلّا .. إنّ المقيـــاس هو الإيمـــان) فمن آمن بالقرآن كان له هدى وشفاء ، بينما الـذين لا يؤمنـون كـان في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، كمن ينادى من بعيد.

(والله ســـبحانه لا يعـــاجلهم بالعقوبة ، كما لم يفعل بــالأمم الســالفة) فقد آتى موسى الكتــاب فــاختلف فيه فمنهم من آمن ومنهم من كفر (ولكنّ الله أمهلهم ليبتليهم) ولو لا أنّه قدّر الابتلاء في الدنيا لقضي بينهم.

(إلّا أنّ تأجيل القضـاء لا يـدلّ على إلغائه بل الإنسـان مسئول عن أفعاله) (**مَنْ**

عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها) .

بينات من الآيات :

[37] بين البشر وسائر الخليقة أكثر من صلة ، وحين يكتشف الإنسان آماد هذه الصلة لا يزداد وعيا بما حوله فقط ، ولا يزداد قدرة على تسخير الطبيعة فحسب ، بل ويزداد إيمانا بربّه ، ومعرفة بأسمائه الحسنى التي تتجلّى في السموات والأرض.

فإذا نظرنا إلى الليل والنهار والشمس والقمر راعتنا عظمتها وكبر حجمها ودقّة نظمها ، ولكن حين نجد أنّها مسخّرات بأمر الله ، وخاشعة لمشيئته ، محاطة بعلمه وقدرته ، هنالك يهتدي المؤمنون الى ربّهم ، ويعرفون شيئا من عظمته ، فيخرّون ساجدين لله وحده الذي له الحمد والمجد والكبرياء والعظمة.

(**وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**)

اختلاف الليل والنهار بما فيه من دقّة التدبير وحسن النظم شاهد على عظمة مقدّرهما ومدبّرهما ، كما أنّ حركة الشمس ذات الأبعاد الثلاث المتناهية في الدقة ، ودورات القمر المتصلة ذات الأثر البالغ في مقدّرات الأرض ، كل ذلك آية من آيات قدرة الله ، فمن الضلالة تقديس الشمس والقمر من دون بارئهما!

(**لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ**)

وكانت من عادات الجاهلية ، والتي لا تزال شائعة عند بعض الأمم ، ولعلّها ناشئة من النظرة السطحية الى آيات الخليقة التي لا تنفذ الى ما ورائها من حقائق الغيب.

(**وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**)

وكـان بعضـهم يـزعم أنّ السـجود للشـمس والقمر وللأصـنام الـتي تنحت كرمز لهما ولغيرهما من مظـاهر القـوة والجمـال في الخلق يعتـبر عبـادة لله أو ليس كـلّ أولئك من خلق الله ، ومن مظاهر قوّته وجماله؟ فنهـرهم الربّ بـأنّ عبـادة الله لا تتمّ إلّا بالسـجود له وحـده ، فـإن كـانوا يريـدون الله فليعبـدوه وحـده ، ذلك أنّ السـجود للشمس وللقمر ولكلّ مظهر من مظاهر القدرة والجمال يبهر البشر وبالتـالي الاستسـلام للسـلطة والـثروة ، وما إليهما من زينة الحيـاة الـدنيا. كـلّ ذلك أصل الفسـاد في حياة الإنسان ، وإنّ من عبادة الله تحصين البشر من هـذا الفساد الكبير.

وبعضهم أخذ يفلسف هـذا الفسـاد ، ويـزعم أنّ آيـات الله هي عين ذاته ، وأنّ الوجـود والموجـود واحد ، وأنّ الخـالق والمخلـوق واحد ، وأنّ الطـرق الى الله بعـدد أنفاس الخلائق.

كلّا .. لا تعـايش عند الله بين عبـادة الله والسـجود للشمس والقمر ، فمن سجد لهما خـرج عن إطـار عبـادة الله.

[38] ولكن لماذا يترك الإنسان عبادة الله إلى عبـادة مخلوقاته؟

لأنّ في عبـادة الخـالق استشـعار الذلّة والصـغار ، والتحسّـس بالمخلوقية والعبودية ، وبالتـالي الالـتزام برسـالات الله وما فيها من قيم وشـرائع ، واتقـاء شـحّ النفس ، ومخالفة أهوائها ، والتحلّق في سـماء العقل ، والعبور من واقع الشهود الى حقائق الغيب ، وما إلى ذلك من الكمال الرفيع الذي يستصعب على البشر فتراه يتكبر ، فكيف يشـافي المنهج القـرآني حالة الاسـتكبار؟ بتـذكير البشر بـأنّ الملائكة وهم أفضل منه ، وأقـرب الى ربّهم ، وأعظم قـوّة وسـلطانا ، يتعبّـدون الله وحـده ، ويقدّسـونه من الشـركاء الموهـومين ، وأنّ المقـرّبين من عبـاد الله الصالحين الذين يحظون بقرب الله يسبّحونه ، وأنّ طريق التعـالي هو الخضـوع ، وأنه لا يتسـامى البشر من دون كسر حاجز

الاستكبار في نفسه.

(**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا**)

وأخـذوا يشـركون بالله خلقه ، ويسـجدون للشـمس والقمر ، ويخضعون لزينة الحياة الدنيا ، ويزعمون أنّ ذلك طريق الكمال ، تكريسا للأنانيّة ، وإبقـاء للجهل والجهالة ، فليعلموا أنّهم لم يهتدوا الى سبيل التقرّب الى الله.

(**فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ**)

من الملائكة والمقرّبين ، ولعـلّ هنـاك خلق غيرهما لا نعلمه ، هؤلاء الذين لاحظـوا بمقـام القـرب من الله حـتى صاروا عنده ، ويحتمل أن يشمل المقرّبين وهم أحيـاء في الـدنيا ، لأنّهم عند ربّهم بـأرواحهم وقلـوبهم ، وليس لربنا مكان محدّد ، فالقرب منه قرب معنوي.

(**يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ**)

فآيات الله لا تستبدّ بمشاعرهم ، بل تـذكّرهم بعظمة ربّهم. أو ليس الليل يـزول ، والله دائم لا يـزال؟ أو ليس النهـار ينسـلخ ، والله حيّ قيـوم؟ فهم ينظـرون الى الجـوانب السـلبية في الخليقة فيـنزّهون بارئها منها ، كما أنّهم ينظرون الى الجـوانب الإيجابية فـيزدادون حبّا لـربّهم وشوقا ، وهذا المنهج في النظر الى الليل والنهـار يلهمهم المزيد من معرفة الله باختلاف الليل والنهـار ، فلا يتعبـون من تسبيحه ، لأنّ النظر الإيماني يعطيهم الطاقة والنشاط في كلّ ساعة.

(**وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ**)

تـرى المؤمـنين يسـتقبلون يـومهم بمثل هـذا الـدعاء الذي يعكس بصيرتهم التي

ينظرون من خلالها الى ظواهر الخليقة ، يقولون :

«**اللهم يا من دلع لسـان الصـباح بنطق تبلّجه ، وسـرّح قطع الليل المظلم بغيـاهب تلجلجه ، وأتقن صـنع الفلك الـدوّار في مقـادير تبرّجه ، وشعشع ضياء الشمس بنور تأجّجه**» [1]

فالطبيعة تجلّيـات لأسـماء الله ، والنظر إليها يهـديهم الى تلك الأسماء.

ويعكس دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة هـذه المنهجية في تفكير أولياء الله حين يقول :

«**الهي علمت باختلاف الآثار ، وتنقّلات الأطـوار ، أنّ مـرادك منّي أن تتعـرّف إليّ في كـلّ شـيء ، حتى لا أجهلك في شيء**» [2]

وإذا أشرق نور معرفة الله على قلب مؤمن انسـحب منه ظلام الأغيار ، فلا شيء ولا شخص يشارك الـربّ في القلب.

يقول الإمام الحسين (ع) في ذات الدعاء :

«**أنت الـذي أشـرقت الأنـوار في قلـوب أوليائك حـتى عرفـوك ووحّـدوك ، وأنت الـذي أزلت الأغيـار عن قلوب أحبّائك حتى لم يحبّوا سواك ، ولم يلجئوا الى غـيرك ، أنت المـونس لهم حيث أوحشـتهم العـوالم ، وأنت الـذي هـديتهم حيث اسـتبانت لهم المعالم ، مـاذا وجد من فقـدك ، وما الـذي فقد من وجدك**» [3]

---

(1) فاتحة دعـاء الصـباح المـأثور عن أمـير المؤمـنين (ع) في مفـاتيح الجنان.
(2) المصدر / ص (272) .
(3) المصدر / ص (273) .

وكلمة أخيرة :

اختلفت المذاهب في موضع السجدة في هذا السياق بعد اتفاقهم على وجوبها ، وأنّها من العزائم ، فقال فقهـاء الشـافعية والمالكية : تجب السـجدة عند قوله تعـالى : (**وَهُمْ لا يَسْـأَمُونَ**) ، بينما قـال الحنفيّة والحنابلة : إنّ موضع السـجود الـواجب عند قوله : (**تَعْبُدُونَ**) ، وذهب الشـيعة الى هـذا الـرأي تبعا لروايـات أهل البيت (ع) .

ولا يجب ذكر مخصوص في السـجود ، ولكن يسـتحبّ أن يقول ما ذكر في راوية «من لا يحضره الفقيه» قال :

وروي أنّه يقول في سجدة العزائم :

«**لا إله إلّا الله حقّا حقّا ، لا إله إلّا الله إيمانا وتصديقا ، لا إله إلّا الله عبودية ورقّا ، سجدت لك يا ربّ تعبّـدا ورقّا ، لا مسـتنكفا ولا مسـتكبرا ، بل أنا عبد ذليل خائف مستجير**» [1]

[39] القرآن بصيرة لا بصر ، ورؤية لا نظـر. إنّه منهج تفكـير لمن يعقل ، وهـدى وعـبرة لمن يعي ويعتـبر. إنّه يقول لك كيف تصـبح متعلّما في مدرسة الحيـاة وفيها من معارف الرب ، ومعالم الحق ، ومشـاهد النفس ما يكفيك حكمة وعلما.

ولو اتخـذنا آيـات القـرآن بصـيرة للنظر الى ما حولنا لنطقت الطبيعة بألف درس ودرس ، وبأكثر من لغة ، لغة العواطف والأحاسيس ، لغة العلم والحكمة ، لغة الضـمير والوجدان ، وفوق كل ذلك لغة الشهود والإيمان.

أنظر الى الأرض. أو لا تـرى خشـوعها لربّها ، وكيف تتعطّش حبّات التراب

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (551) .

للغيث ، وكأنها تناجي ربّها طالبة إحياءها؟!

(**وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً**)

لا مســتكبرة ولا متجبّــرة ، وحــقّ لها أن تخشع لربها الجبّار ، ومن دون خشوعها لا يمكن أن تنتفع ببركـات ربّها ، وكذلك القلب الخاشع يهبط عليه نور ربّه العظيم فيحييه بالمعرفة والإيمان.

(**فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ**)

وكذلك القلوب الطاهرة تهتزّ لآيات ربّها.

(**وَرَبَتْ**)

لقد تنامى عليها الزرع والورق والثمر فإذا بالأرض قد علت عن مستواها الأوّل ، وكذلك كـلّ من تواضع لله يعلو ، ومن يخشع يربو ، ومن تزكّى ينمو.

(**إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى**)

وهكــذا بهــذه البســاطة يحــلّ القــرآن أعقد لغز حيّر البشر أو ليست العقول تقف على شاطئ الحياة متسائلة : ما هي؟ كيف وجدت؟ وكيف تعود حين تذهب؟

بلى. إنّك إن سمحت لنظراتك أن تعبر حـاجز الظـاهر الى حقيقة السنن فإنّها تغور في ألغاز الخليقة.

لا بد أن تلامس رافد الحقيقة عن كثب ، أمّا إذا وقفت على الشــاطئ باســطا كفّيك إليه ليبلغ فــاك فلن يبلغه ، خض البحر حــتى تحظى بــالجوهر ، ألق الحجــاب عن عينك ترى قدرة الله تتجلّى في البساط الأخضر الذي يفرشه الربيع ـ بإذن الله ـ

على الأرض من ملايين النباتات المفعمة بأسرار الحياة.

إنّ تنوّع النباتات ، وسرعة التهاب الحياة في جنباتها ، وانسـياب القـدرة من أطرافها ، يهـدينا كـلّ ذلك الى أنّ إحياء الموتى على الله يسير ، والبشر بدوره كنبتة واحـدة بين ملايين النباتات.

بل يهدينا ذلك الى أنّ القدرة الإلهية لا تحد ، لأنّ شـدّ التنوّع ، وكثافة الخلق ، وعظمة التدبير ، وسرعة التطـوير ، لا يدع كلّ ذلك مجـالا للشك في أنّ الله واسع القـدرة ، ولا شيء يعجزه أبدا.

(**إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

جاء علي بن فضّال إلى الإمام الرضا (ع) يسـأله : لم خلق الله الخلق على أنواع شتّى ، ولم يخلقه نوعا واحدا؟ فأجابه قائلا :

«لئلّا يقع في الأوهـام أنّه عـاجز ، فلا تقع صـورة في وهم ملحد إلّا وقد خلق الله عــزّ وجـــلّ عليها خلقا ، ولا يقول قائل : هل يقدر الله أن يخلق على صورة كذا وكـذا ، إلّا وجد ذلك في خلقه تبارك وتعالى ، فيعلم بـالنظر الى أنواع خلقه أنّه على كلّ شيء قدير» [1]

[40] قلب البشر كـالأرض ، إذا خشع لربّه واسـتجاب لآيات الله أحياه الله بالإيمان أمّا إذا اسـتكبر ولم يسـتجب لآيات الله كان كالصخرة الصمّاء التي لا تهتز للغيث.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (551) .

وبما أنّ الخليقة تفيض بآيات الله فإنّ الكفّار يسـعون جاهــدين التخلص من آثارها على نفوسـهم ، فـتراهم يلحـدون فيها ، ويحرّفونها عن مواضـعها ، ويبحثـون لأنفسـهم عن تـبريرات لكي لا يؤمنـوا بها ، ولكن هل تنطلي تـبريراتهم وخـدعهم على ربّهم؟ كيف وهو الـذي خلقهم وأحاط بهم علما؟

إنّهم سـوف يلقـون في نـار جهنّم يـوم القيامة ، لقد فـرّوا من مسـئوليات الإيمـان الى ظـلّ الإلحـاد (التـبرير) زاعمين أنّه ينجيهم من العقـاب ، بينما النجـاة كـانت في التسليم لآيات الله ، وتقبّل مسئولياتهم.

(**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا**)

جاءت هذه الآية بعد ذكر الآيـات ، لأنّ كـثرة الآيـات لا تنفع من يتهرّب من التأثّر بها ، وقال فريق من المفسّرين : إنّ معـنى الإلحـاد هو ما كـانوا يفعلونه من المكـاء والتصدية ، وكـأنّهم نظـروا الى ظـاهر كلمة الإلحـاد الـذي يـدلّ على الفعل المتعـدّي الى الغـير ، ويعـني حـرف الآخرين عن الإيمان كمن يحـرّف آيـات الله ، وقـالوا : إنّ الآية نزلت في أبي جهل ، بينما ذهب مفسّرون آخرون أنّ المعـنى : الـذين يميلـون عن آياتنا ، ويبـدو هـذا المعـنى أقرب الى السياق.

(**لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا**)

بـالرغم من أنّ الملحد يتشـبّث بـالتمحّلات البعيـدة ، ويحاول إخفـاء رفضه للآيـات بابتـداع نظريّـات وفلسـفات وأفكار باطلة وتخرّصات واهية ، إلا أنّ كـلّ ذلك قد يخـدع الناس ، وقد يخدعهم أنفسهم ، ولكنّه لا يخفى على الله ، لأنّ الله محيط علما بنيّـاتهم الخبيثة ، ويجـازيهم عليها بالنار.

(**أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

ميزة الإنسان عن سـائر الأحيـاء تطلّعه الى مسـتقبل أفضـل. ألا تـرى كيف تبحث البشـرية اليـوم إلى التقـدّم الحضاري؟ لماذا؟ لأنّهم يريـدون أمن المسـتقبل ، ولكنّهم يغفلـون عن أعظم أمن لا بد أن يسـعوا إليه ، وهو أمنهم يوم القيامة ، الذي لا يتوفّر إلّا لمن ألقى السمع إلى آيات ربّه ، واستجاب لها بخشوع.

ولأنّ الاستجابة لآيات الله تتمّ بوعي وشـدّة عـزم من قبل المؤمنين فإنّهم يـأتون بأنفسـهم الى سـاحة المحشر آمنين ، بينما الإلحاد يتمّ استسلاما للهـوى فـإنّ الملحـدين يلقى بهم في نار جهنّم إلقاء.

(**اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

لقد سـمح الله لعبـاده بقـدر محـدود من الحرية في الـدنيا ليتحمّلـوا مسـئولياتهم كاملة يـوم القيامة ، ولكنّه حـذّرهم من مغبّة الإلحـاد ، والالتـواء ، والتـبرير ، وخـداع الـذات ، لأنّه بصـير بما يعملـون ، فيعلم فعلهم ، ولمـاذا يفعلون.

[41] الكتـاب الـذي أنزله الله لعبـاده يعكس آياته المبثوثة في الخليقة ، فمن أعـرض عنه فقد أعـرض عن حظّه ، لأنّ الكتاب ذكر يستثير ما نسيه البشر من حقـائق هامة.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ**)

إنّهم هم الملحـدون في آيـات الله ، وإنّ مصـيرهم الدمار ، لأنّهم أعرضوا عن كتاب مقتدر.

(**وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ**)

وكيف لا يكون عزيزا وقد وعد ربّ العزّة أن يحفظه ، وينصر من ينصره ، وإنّه

ليعكس سنن الله التي تنتقم ممّن خالفها بشدة ، وقد أنبأ الرسول (ص) عن عزّة الكتاب حيث قال عنه :

«**من جعله أمامه قـــــاده إلى الجنّة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار**»

وقال المفسرون : إنّ خبر المبتدأ هنا محـذوف لدلالة السياق ، كما لو قلنا : إنّ من يعادي زيدا وإنّ زيدا لقوي ، أي أنّه لا يفلح لأنّ من يعاديه قوي.

[42] وعزّة القـرآن تتجلّى أيضا في أنّه حق ، والحـقّ منتصر.

(**لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ**)

فلا إخباره عمّا مضى يشـوبه الباطل ، ولا إنبـاؤه عمّا يأتي. إنّه كتاب العصور جميعا. أو ليس يبيّن محض السنن ، ولبـاب الحقـائق ، وعـبر القصص ، وهي لا تختلف من عصر لعصر ، كما قال الإمام الرضا (ع) عنه :

«**هو حبل الله المـــــتين ، وعروته الـــــوثقى وطريقته المثلى ، المؤدي الى الجنة ، والمنجي من النار ، لا يخلق على الأزمنة ، ولا ينعت على الألسنة ، لأنّه لم يجعل لزمـــان دون زمـــان ، بل جعل دليل البرهان ، والحجة على كلّ إنسان**» [1]

(**تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**)

الله الـذي شـهدت آفـاق الخليقة بحكمته البالغة هو الـذي نـزّل الكتـاب ، فهو النـاطق عن تلك الحكمة الـتي نراها في خلقه سبحانه.

وهو الحميد الذي نشرت محامده على كلّ أفق مـبين ، لأنّ رحمته وسعت كلّ

---

(1) المصدر / ص (554) .

شيء ، وقد بعث آخر الأنبياء رحمة للعالمين ، وأنـزل معه كتاب رحمته.

[43] إنّ طبيعة النفس البشرية واحدة عـبر التـاريخ ، وتبريرات الملحدين في آيات الله والمعرضين عن ذكرهم اليوم هي ذاتها التي قالوها للرسل من قبل ، كما أنّ سنة الله في إمهالهم برحمته الى أجل ثم أخذهم إن لم يتوبـوا بعقاب أليم جارية فيمن يأتي كما جرت فيمن مضى.

(**ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ**)

فلا تحزن عليهم. إنّها عادة الملحدين الـذين يعرضـون عن الــذكر ، ويتقوّلــون على الرسل تــبريرا لإلحــادهم وإعراضهم.

(**إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ**)

فعلى الرسـول ومن يتبعه أن يوسع صـدره ، ويتعامل مع خلق الله برفق.

(**وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ**)

فلو أعرضوا فإنّ لهم عـذابا أليما أعـدّه الله لهم ، فلا يستعجل الداعية العذاب ، ولا يحمل همّ إنكارهم.

[44] القـرآن ذكر ، وقد تـوافرت فيه شـروط الهداية لو لا أنّهم أعرضــوا عنه ، ولو جعله الله أعجميّا لــبرّروا إعراضهم بأنّه غـير مفهـوم ، أو قـالوا : كيف يتحـدّث نـبي عربيّ بقرآن أعجمي؟!

(**وَلَوْ جَعَلْنـاهُ قُرْآنـاً أَعْجَمِيًّا لَقـالُوا لَـوْ لا فُصِّـلَتْ آياتُهُ**)

ويحتمل أن يكـون المـراد من الأعجمي الكتـاب غـير المبين ، كما لو كانت آياته

كلّها فوق مستوى عقولهم فلم يستوعبوه ، هنالك كانوا يطالبون بأن يكون واضحا قد بيّنت آياته.

وينهرهم القرآن أنّ القضية ليست في أن يكون عربيّا أو أعجميّا ، بل في أن يكون القلب مستعدّا لتقبّله.

(**ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**)

وقال المفسرون : إنّ هذا الكلام تكميل لقوله «**لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ**» ، أي يكون الكتاب أعجميّا بينما الرسول عربي ، أو يكون الكتاب مختلطا بين العربي والأعجمي.

(**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ**)

يهديهم الى الحق ، ويشفي قلوبهم من أمراضها ، أمّا المعرضون عنه فإنّهم لا ينتفعون بالكتاب. إنّ في آذانهم وقرا من الأفكار الباطلة ، والمسبقات الذهنية الخاطئة.

(**وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**)

قالوا : معناه أنّهم محجوبون عنه حتى صاروا بالنسبة إليه كالأعمى ، ولعلّ معناه أنّهم يزدادون به ضلالا وطغيانا كما قال ربّنا : (**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً**) .

(**أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**)

ذلك أنّ المسافة واسعة بين القرآن وهداه وشفائه وقلوبهم المغلقة التي غلّفتها الشهوات والكبر والأحقاد.

[45] وقصة الجحـود طويلة ، فلقد أنـزل الله التـوراة على موسى فــاختلف فيها النــاس على الــرغم من أنّها كانت هدى ونورا.

وأمهلهم الله حـــــتى يمتحنهم ، ولو لا أنّه قد قـــــدّر امتحــان البشر في الــدنيا لقضي بينهم ، وأخذ الجاحــدين أخذا شديدا ، لأنّهم قد جـاؤوا إفكا مبينا ، ولا يـزال البعض يشكّ في التوراة شكّا مقلقا.

(**وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ**)

فـــاختلافهم في القـــرآن ليس دليلا على نقص فيه ، حاشا لله! إنّما هو بسـبب وقر آذانهم ، وعمى أبصـارهم ، وكما أنّ الله لم يعجّل على أولئك بالعــذاب ، بــالرغم من عظيم إفكهم ، كـذلك لم يعجّل العـذاب على هـؤلاء. كـلّ ذلك لأنّ الله قد قدّر الدنيا دارا للفتنة والبلاء.

(**وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**)

ونزل عليهم العذاب ، ولكنّ الله قد سـبقت كلمته أن يمهل الجاحـدين الى أجل مسـمّى فلا يغـرّهم المهل ، ولا يتّخذ البعض ذلك دليلا على أنّ الله لا يعـزّ كتابه أو لا ينصر رسله.

(**وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**)

قــالوا : المعـنى أنّ العــرب لا يزالــون في شك من القرآن ، وقال البعض : بل اليهـود لا يزالـون في شك من التـوراة ، ويبـدو أنّ هـذا أقـرب الى السـياق والـذي فيه تسـلية للرسـول ليتّسق المعـنى ، هكـذا : لا يحزنك ــ يا رسـول الله ــ شك قومك في القـرآن فبنـوا إسـرائيل لا يزالون في شك من التوراة.

وقالوا : الريب هو أفظع الشك ، فالمعنى ـ على هـذا ـ أنّهم في شك فظيع.

وقالوا : الريب هو الشك المقرون بسوء الظن.

ويحتمل أن يكـون معـنى الـريب هو الشك المفـزع ، فقد جـــــاء في اللغة : أراب خلافا أقلقه وأزعجه ، وفي حديث فاطمة : «يريبني ما يريبها» [1] .

ولعلّ الفارق بين الشك المريب وغـيره : أنّ من يهتّم بــأمر يشك فيه يريبه الشك ويزعجه ، بينما الــذي لا يهتم بأمر لا يزعجه الشك فيه.

---

(1) المعجم الوسيط / ج (1) ص (384) .

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48) لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى

---

47 [أكمامها] : أكمام جمع كم وهو الغلاف ، يقال تكمّم الرجل بثوبه إذا تلفّف به.
[آذنّاك] : أعلمناك ، والمعنى نعلمك ونعترف لك.

رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَـذابٍ غَلِيـظٍ (50) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْـرَضَ وَنَـأى بِجانِبِـهِ وَإِذا مَسَّـهُ الشَّـرُّ فَذُو دُعاءٍ عَـرِيضٍ (51) قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كـانَ مِنْ عِنْـدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَـةٍ مِنْ لِقـاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54))

---

51 [نئا] : بعد بجانبه عن الاعتراف بالله وشكره.

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ

هدى من الآيات :

إنّ المنهج القــرآني يربط بين ما في الطبيعة وما في النفس البشرية ، والآية ما قبل الأخيرة من هـذه السـورة تؤكّد هذه العلاقة الوثيقة ، وكلّما ازداد الإنسان وعيا بآفاق الطبيعة ازداد معرفة بأعمـــاق النفس ، أو ليست النفس عالم كبير في حجم محدود ، وسـواء اهتـدى الإنسـان الى غيب الطبيعة الـذي هو الحق ، أو اهتـدى الى غيب النفس الـذي هو الحق أيضا ، فإنّه سـيهتدي بـإذن الله إلى خـالق الطبيعة والنفس معا ، وهو الله عزّ وجل.

وفي الـدرس تـذكرة بالغة للإنسـان بنفسه الـتي هي الأقـــرب إليه ، ولكنّه يغفل عن آمادها الـــتي لو انتبه إليها أحسّ بعمق العبودية الـتي اركـزت فيهـا. أو لا تـرى كيف تجـــزع إنّ مسّـــها شـــيء من الســـوء ، وتفقد توازنها إن أصـابها شـيء من الخـير؟ أو لا تـرى حرصـها على النعم الـذي يمنعها من العطـاء ، وشـدة يأسـها وقنوطهـا؟ إنّ أطوار النفس وتغيّراتها شاهدة على أنّها مخلوقة مـدبّرة ، وتلك آية من آيات الله في الخليقة.

بينات من الآيات :

[46] (**مَنْ عَمِـلَ صـالِحاً فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسـاءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**)

تبيّن الآية المسؤولية الإنسـانية : أنّ من عمل صـالحا فإنّما لنفسه يعمل ، ويلقى جزاءه الحسن وافيا ، وأنّ من عمل سيئا فإنّما على نفسه ، ويجد جزاءه كاملا.

وكلمة ظلّام تــــدل على المبالغة في الظلم ، وربّنا ليس فقط لا يظلم كثيرا عبيـده ، بل أيضا لا يظلمهم قليلا ، إذا فلما ذا ينفي الـربّ ظلمه بصـيغة المبالغة فيقـول : «**وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**»؟

وسبب هذا التساؤل هو التشابه الـذي سـيحدث بنفي المبالغة ، فلو قلت : فلان لا يأكل ، فهذا يعـني أنّه لا يأكل كثــيرا ولا قليلا ، وأمّا لو قلت : وما فلان بــأكول ، فهــذا يعــــني أنّه لا يأكل كثــــيرا ، ولكنّه قد يأكل قليلا ، فنفي المبالغة نفي للكثرة فقط.

والجـواب ـ فيما يبـدو لي ـ لو لم يربط ربّنا سـبحانه بين عمل الإنســـان وبين واقعه ، بين ســـعيه وبين جزائه لكـان ظلّاما ، أو ليس من الظلم أن يصـبح شـخص رئيسا تهــــدى إليه خــــيرات الأرض وبركاتها ، ويصــــبح ويمسي شـــخص آخر وهو لا يجد ما يقتاتــــه؟! بلى. إنّه ظلم ، بل ظلم كبير.

وأيّ ظلم أكــبر من أن يــدع الله ســبحانه وتعــالى الشـعب الألمـاني ـ مثلا ـ تحت أقـدام هتلر ، أو الشـعب الروسي تحت سلطة عتاة الشيوعية ، أو الشعب العــربي تحت عنجهية الصهاينة والطغاة؟!

وحيث نعـرف أنّ الله الـذي خلق السـماوات والأرض وما فيهنّ وما بينهنّ بالحكمة البالغة ، والتقـــدير العـــادل المـــوزون ، ووضع كل شـــيء موضـــعه المناسب ، ليس بظلام ، نعرف يقينا أنّ درجات الإنسان في الدنيا والآخـرة مقدّرة حسب حكمة بالغة ، ترتبط باختياره وسعيه ، و(**إِنَّ اللـهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِـهِمْ**) [1] (**إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَـيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ**) [2]

فربّنا لم يسـلّط هتلر على الشـعب الألمـاني أبـدا ، ولكنّهم هم الـــذين ســـوّدوه على أنفســـهم ، بجهـــالتهم وبتركهم مسئولياتهم ، وهكذا بالنسبة لسائر الشعوب.

[47] وهناك تساؤل آخر تجيب عنه الآية التالية ، هو : إنّنا في كثير من الأوقـات لا نكتشف الأسـباب في حـدوث الأشـياء ، فنقـول مثلا : من الـذي جعل الطغـاة يحكمـون البلاد؟! ما الذي أمرض ولماذا عوّق هـذا وقتل في حـادث السيارة ذاك؟!

بلى. إنّك تجهل العلاقة بين حـدوث الأمر الفظيع وبين الفعل ، ولكنّ العلاقة قائمة ، والله ســـبحانه هو الـــذي قدّرها ، وهو الذي يجريها.

(**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ**)

مـتى تقـوم قيامة هـذا الكـون؟! لا أحد يـدري ، فهـذا غيب غائر في المجهول ، وحـتى الأنبيـاء لا يعلمـون ذلك ، فعند الله علم الساعة يقرّرها مـتى يشـاء ، وكيف يشـاء ، وقد تقوم غدا ، أو بعد غد ، وفي بعض النصـوص : أنّ الله لم يقدّر للساعة وقتا ، وإنّما جعل لنفسه فيها البداء.

---

(1) الرعد / (11) .

(2) يونس / (44) .

(**وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها**)

فهو المحيط علما بما في أكمام الثمرات من فواكه.

قف على شـجرة قبل ان تظهر ثمراتها ، إنّك سـترى زهورا كثيرة ، ولكن كم تحمل من ثمرة؟ وكم زهـرة منها ستسـقط وتتلاشـى؟ وكم ثمـرة ستسـقط قبل النضـوج؟ وكم ثمـرة ستواصل الرحلة الى الأخـير؟ إنّك لا تعلم ، ولا أحد يعلم ، ويبقى الله هو العـالم بخفايا الأمـور ، وخبايا الطبيعة ، ممّا يشكل رزق البشر الأساسـي. أمّا عن أبنائه فالله هو المحيط علما بهم.

(**وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ**)

هل تحمل هـذه الأنـثى أم لا ، ومـاذا تحمـل؟ أنـثى أم ذكر؟ وهل يولد حمله سـويّا ، وما هي انعكاسـات الطبيعة على جسده ونفسه؟ كل ذلك يردّ علمه الى الله.

إنّ الآية السـابقة بيّنت مسـئولية البشر عن أفعاله ، وأنّ الله ليس بظلّام لعبيده ، وقد جـاءت هـذه الآية لتأكيد المسـؤولية ، أوّلا : بـأنّ الله محيط علما بواقع البشر ، فإليه يردّ علم الساعة عند ما يقوم للحسـاب ، وهو عـالم برزقه ، وعالم بأبنائه ، ثانيا : بنفي الشـركاء الـذين يـزعم البشر أنّ التوسّـل بهم يبعـده عن عـذاب ربّه ، فيؤكد القرآن أنّ الإنسان يضحى يوم القيامة متبرّأ من الشـركاء لأنّهم لم يغنوا عنه شيئا.

(**وَيَوْمَ يُنـادِيهِمْ أَيْنَ شُـرَكائِي قـالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ**)

يقـول لهم الله : أين الشـركاء الـذين كنتم تزعمـون؟ فيعلنون له إعلانا : والله لا ندري أين الشركاء ، ولا نـدري أين ولّوا.

[48] (**وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ**)

عرفوا أنّه ليس للشركاء المزعومين دخل في الأمر.

(**وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ**)

المحيص هي تلك الحفــرة الصــغيرة الــتي يحفرها الطـير ـ كالقطا مثلا ـ بجوئجئته أي بصـدره في الأرض ، وهــؤلاء المشــركون يظنّــون أي يعلمــون يقينا أنّهم لا يقدرون على التزحزح عن مسئولياتهم ولا بهـذا المقـدار ، ولعل الظن بمعـنى التصـوّر ، وهو هنا يقع معـنى تجسّـد الحقيقة أمام أعينهم.

[49] في أعمـاق نفس البشر آيـات بـاهرة تهديه الى ربه ، ولو تــدبّر الإنســان في ذاته ، وكيف تطــرأ عليه الحــالات المختلفة من طمع لا يحد ، ويــأس لا يوصف ، لعــرف حاجته الى الخــالق ، وأنّه قد أركس في العجز والفقر والمسكنة إركاسا.

إنّ البشر حين ينازع ربه رداء كبريائه يحتجب عن نور الله ، لأنّه قد جهل نفسه ، ولم يعــرف آمــاد عجزها وضـعفها ، وشـدة فقرها وفاقتها ، أمّا حين يتصـوّر حالاته المختلفة يعرف نفسه ، ومن ثمّ يعرف ربه.

وربنا يرينا آياته في أنفسنا فيقول :

(**لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ**)

إنّه عميق الإحســاس بالحاجة الى الخـير من الغـنى والعافية والأولاد ، وســواء دعا ربّه أم دعا الشــركاء فهو محتاج ، والمحتاج فقير ذليل عاجز ، وهو بالتالي ليس بإله ولا نصف إله. إنّه محض. عبد ، صفر اليدين. إنّه يتوب الى ربه الغـني ، ويعلم بفطرته أنّه غنـاه ، والتقـرّب اليه منـاه حقّا ، وأنّه قد ضــلّ الطريق ، وأنّ حرصه على الــدنيا لا يشبع طموحه ، ولا يشـفي غليله ، إنّما الأوبة الى ربه غاية تطلّعه ، ونهاية

منيته.

يقول الإمام السجّاد (ع) وهو يناجي ربه :

«إليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، وإلى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي ، وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي ، وكشف كربتي (الى أن يقول :) ولا تبعدني عنك ، يا نعيمي وجنتي ، ويا دنياي وآخرتي» [1]

وهذه النفس الواسعة التي تتطلّع الى امتلاك الدنيا وتزيد قد تضيق بها الآفاق حتى يطبق عليها اليأس من أطرافها. أو ليس ذلك دليلا على فقر البشر ، وشدّة حاجته ، وسفاهة تكبّره على ربه.

(**وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ**)

ولعلّ اليأس هو قطع الأمل قلبيّا ، بينما القنوط هو التوقّف عن السعي بسبب اليأس ، والكلمتان مثل لفظتي الليل والنهار إذا اجتمعتا تفرّقتا ، وإن تفرّقتا اجتمعتا ، فلو استخدمنا لفظة اليأس فقط أعطت معنى القنوط ، وهكذا العكس ، ولكن حينما نستخدمهما فإنّ لكل واحدة منهما معنى.

وقال البعض : يئوس شدة اليأس من الخير ، وقنوط من الرحمة ، وقال : اليؤوس من إجابة الدعاء ، قنوط يسيء الظن بربه. [2]

[50] ومن تسوّلات النفس في الهروب من المسؤولية والإعراض عن آيات الله هو الغرور بالنعم ، ممّا يعالجه القرآن هنا ..

(1 ، 2) مناجات المريدين / مفاتيح الجنان ص (124) .

(**وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى**)

من عادة المخرجين للأفلام ومؤلفي الروايات تصـوير أبطالهم في حالات نفسية متناقضة ، فيصوّرون مثلا : أحد المجـرمين في لحظة جريمته ، يعيش قمة الغـرور ، فيقع فجأة في الفخ ، أو يصـوّرون : أحد المغـرورين يتصـوّر أنه يمتلك الشـمس بيمينه والقمر بيسـاره ، وإذا به يبصر ، يرى شرطيّا أمامه فيصبح كالخرقة البالية.

وهذا التصوير يساعد في كشف خبايا النفس ، وأبعـاد الخداع الـذاتي الـذي يعيشه الإنسـان ، وإنّما يكتشف عـبر الظروف المتغيّرة التي يعيشها.

والقرآن ـ هنا ـ يصوّر لنا الحالة النفسـية الأولى الـتي يعيشها المفتون ، حيث يتذوّق رحمة الـرب ونعمته بعد أن عـاش ظرفا صـعبا ، وضـيقا وشـدة ، وتعبـيرا عن فرحته يبـادر قـائلا : «هـذا لي» كالطفل الـذي يشـتري له والـده لعبة جديـدة ، فيـذهب مسـرعا الى أترابه قـائلا : (عنـدي لعبة جديدة ، هذه لي ، ...) مأخوذا بنشوة الغـرور ، وهـذا ما تفعله جدة النعم بصاحبها ، فهي هاوية يجب الحـذر من السـقوط فيها ، تسـبب في تغيّر حالة الإنسـان النفسـية ، ولهذا كان الإمام الصادق (ع) ينبّه داود الرقيّ قائلا :

«**يا داود! لان تـدخل يـدك في فم التنّين الى المرفق خـير لك من طلب الحـوائج ممن لم يكن فكان**» [1]

ثم إنّ ذلك المغـرور المفتـون لا يقتصر على الزهو والفخر الذي يغمره ، بل ويتصوّر

(1) الإختصاص / ص (232) .

الحياة متلخّصة في تلك اللحظة الـتي يعيشـها ، وفي ذلك المكـان الـذي يتنعّم فيه ، ثم بعد ذلك يخطر على باله أن لو كانت هناك ساعة وجزاؤه كان له عند ربه الحسنى ، أو ليس الله قد أنعم عليه في الدنيا ، فهو لا بد أن ينعم عليه في الآخرة!

وهكذا يزعم السلاطين والأغنياء والرأسماليون ، إنّهم يتصوّرون أنّ الله إنّما فتح عليهم أبـواب النعم الـدنيا لحبّه إيـــاهم ، أو لأنّهم عبـــاده الــذين اختـــارهم (وهـــذه هي العنصـــــرية) في حين أنّ الله إنّما أعطـــــاهم تلك النعم ليمتحنهم ، ويبلوهم أيّهم أحسن عملا ، أو حتى يستدرجهم ، كما قـال سـبحانه : (**وَلا يَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْـرٌ لِأَنْفُسِـهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَـزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**) [1]

(**فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا**)

وأمّا ربّنا سـبحانه فلا يحاسب النـاس على أسـاس فقرهم وغنـاهم ، وكـبرهم وصـغرهم ، وإنّما على أسـاس كفـرهم أو إيمـانهم ، كفـرانهم أو شـكرهم ، وبالتـالي أعمالهم ، إن خيرا فخير وإن شرّا فشر.

(**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ**)

وسوف يكون العذاب غليظا بقـدر التـأثيرات السـلبية للنعمة في نفسه وآثار تلك السيئة على سلوكه.

[51] تقـدّم أطـور نفس الإنسـان دليلا وجـدانيّا على عجـزه وحاجته الى الخـالق والى الرسـالة الـتي تربّيه وتزكّيه ، ولو عاد الإنسان الى حرم نفسه لشـاهد فيها من آيـات الله ما يراها في آفـاق السـماء والأرض. ومن تلك الأطـوار مـدى تـأثّره بحالة الغـنى والفقر ، والعافية والمرض.

---

(1) آل عمران (178) .

(**وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ**)

إنّه في حالة الرخـــاء والنعمة يعـــرض عن ذكر الله ، ويتجنّب الـــداعين الى الله ، بجعل جانبه مواجها لهم ، ثم يتولّى عنهم.

(**وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ**)

وأمّا إذا أصــابه شــرّ فإنّه يعتكف في المســجد ليبــدأ مرحلة التبتّل والدعاء ، وهـذا التوجّه الى الـدعاء العـريض من بعد ذلك الإعراض دليل ضعفه عن مواجهة المشاكل ، ومعرفته بأنّ الله هو المتفضّل بالنعمة عليه ، ولكنّه لضيق نفسه ومحدودية اســتيعابه تــاه في غـــرور النعمة ، وفقد سيطرته عليها ، وجعلها حجابا بينه وبين الله.

وهذا الإنسان الذي تتحـدّث الآية عنه قد يكــون هو أنا وأنت ونحن ، لــــذلك لا بد أن نعي ونتنبه ، لا بد أن نعقل ونحذر.

[52] بعد أن ألقى الســياق الضــوء على مــدى العجز والفاقة والمسكنة التي أركست فيها نفس الإنســان حــتى تراها تتأثّر حتى التطرّف بــالمؤثّرات الخارجية ، ممّا يهديه على سفاهة الكبر ويحسّسه بضــرورة العــودة الى فطرته في التسليم لربها ، بعدئذ أخذ يذكّره بضرورة أخذ الحيطة لنفسه ، وقال :

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ ثُمَّ كَفَـرْتُمْ بِـهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ**)

أي لو كــان القــرآن حقّا ثم كفــرتم به ، ولم تقومــوا بالاحتياط الكافي لأنفسـكم ، فـإنّكم سـوف تصـبحون في ضلال بعيد عن جادّة الحق.

إنّ الإنســـان يبحث فطريّا عن الأمن ، ولو لا الكـــبر الذي انطوت نفسه عليه

والغـرور والحجب لاسـتمع الى إنـذار الرسل ، وقـال في نفسه : لو كـان هـذا الإنـذار صـحيحا لـوجب أخذ الحيطة لنفسي بالاستماع الى شواهد المنـذرين وآيـات الله الـتي تتجلّى على أيديهم ، ولو فعل ذلك وألقى السـمع من دون وقر الكبر والعجب اهتدى الى الحق.

ثم إنّ عقل الإنسان يهديه بضرورة أخذ الحيطة حـتى بمجرد افـتراض صـحة ما يقوله الرسل ، بهـذا ذكّر الإمـام الصادق (ع) أحد الملحدين الـذي طـال جداله في الـدين ، فبعد أن رأى عبد الكريم ابن أبي العوجاء الامام في الحج ، وطلب منه العودة الى النقـاش ، رفض الإمـام قـائلا : لا جدال في الحج ، ثم قال له :

«**إن يكن الأمر كما تقـول ــ وليس كما تقـول ــ نجونا ونجوت ، وإن كان الأمر كما نقـول ــ وهو كما نقول ـ نجونا وهلكت**»

وهبطت كلمة الإمام كالصاعقة على قلبه ، فقال لمن حوله : وجدت في قلبي حزازة ، فردّوني ، فردوه ، فمات [1] .

[53] وأمّا الطريق الى الحقيقة فهو بـــــــديع الخلق وحقائق النفس.

لقد حملنا السـياق القـرآني ومنذ فاتحة السـورة الى آفاق السموات والأرض ، وأرانا آيـات الله فيها ، من بـديع الصنع ، وعظيم الخلق ، ولطيف التدبير ، وحسن التقدير ، ثم ذكّرنا بأعمـاق النفس الـتي لو خضـنا غمارها لـرجعت النفس تائبة الى فطـــــرة العبوديــــة. أرأيت جزعها حين يمسّـها سـوء؟ هل وجـدت يأسـها وقنوطها بعد حرصـها وطمعهـا؟ إذا لم تكن هــذه شــواهد العبودية فما هي إذا شواهدها؟!

لقد أشار القرآن الى بعض هذه الشواهد التي يجـدها كلّ واحد منّا في نفسه

---

(1) تفســير نمونه / ج (20) ص (326) نقلا عن الكــافي / ج (1) ص (61) .

وجدانا ، ثم قـال مشـيرا إليها والى آياته في الآفـاق الـتي ذكرت من قبل :

(**سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ**)

ومن هــذه الآية نســتوحي بــأنّ الله ســبحانه يتجلّى للإنسان في آفاق الخلق حينا وحقائق النفس حينا بـالرغم من الحجب السميكة الـتي يغلف بها قلبه ، ولو في لحظة من لحظــات عمــره ، لكي تتمّ الحجة عليه ، وحــتى أئمة الكفر والطغيان والفسـاد في الأرض يتمّ الله حجته عليهم ، ويبيّن لهم الحق بشـكل لا يسـعهم الإنكـار ، فـإذا كفـروا بعد ذلك أخـذهم بعـذاب بـئيس ، إذ أنّ كفـرهم ليس عن غفلة ، إنّما عن جحود.

(**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)

فالله سبحانه وتعالى لا يحتاج الى شـهادة شـيء ، بل هو الشاهد على كلّ شيء.

فبنوره أشـرقت السـموات والأرض ، وبضـيائه عـرف الخلائق أنفســــهم ، وبذاته دلّ من يشـــــاء على ذاته ، سبحانك يا رب :

«كيف يســتدل عليك بما هو في وجــوده مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حــتى يكـون هو المظهر لـك؟ مـتى غبت حـتى تحتـاج الى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثـار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك عليها رقيبا» (1)

[54] ولكنّ العمى في الكفّـــار هو الـــذي يجعلهم لا يرون الله عزّ وجل ، وسبب

---

(1) من دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة ، مفاتيح الجنان / ص (272) .

العمى هو الكفر بالبعث ، ونكران النشور.

إنّ الـريب في يـوم الآخـرة وبالتـالي في المسـؤولية يــبرّر للنفس التهــاون ، وإذا اســتبدّ بها التهــاون لم يهتم بالحق ، ولم يستمع الى داعية ، ولم ينتفع بآيات الله التي تتجلّى في الآفاق والأنفس.

(**أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَـةٍ مِنْ لِقـاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُـلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**)

إنّهم يشكّون في يوم القيامة وساعة الحسـاب ، بينما الــربّ يحيط بهم إحاطة كاملة ، وســوف لا يفلتــون من قبضــــــته ، لأنّه لا منجى منه إلّا إليه ، ولا مهــــــرب من سطواته.

سورة الشّورى

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

روي عن أبي عبد الله (الإمام الصـادق عليه السـلام) أنّه قال :

«من قـرأ (حم عســق) بعثه الله يــوم القيامة وجهه كـالثلج أو كالشـمس حـتى يقف بين يـدي الله عـزّ وجل ، فيقـول : عبـدي أدمنت قـراءة (حم عســق) ولم تــدر ما ثوابها ، أما لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت قراءتها ، ولكن سأجزيك جزاءك ، أدخلوه الجنّة ، وله فيها قصر من ياقوتة حمراء أبوابها وشـرفها ودرجها منها ، يـرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، وألف غلام من الغلمان المخلّدين الذين وصفهم الله عزّ وجل» [1]

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (559) .

الإطار العام

في الوقت الذي تختصّ كلّ سورة في القرآن بمحـور يفردها عن بقية الســور فإنّها كلّها تلتقي حــول محــور مشـترك واحد ، لـذلك فـإنّ من الصـعب على المتـدبّر أن يميّز بينها ، لأنّها جميعا تنطلق من قاعــدة واحــدة لتنتهي إلى هـــــدف واحد ، تنطلق من معرفة الله ، وتنتهي إلى الإيمــان به وعبادته ، فآياتها متشــابهة كما يصف القــرآن نفسه بذلك ، إلّا أنّ المتدبّر يجد لكلّ سـورة محـورا يتميّز بما يلي :

أوّلا : إنّ كـلّ القضـايا المتعلقة واقعيّا بـذلك المحـور تكون مبحوثة في السورة ، بالرغم من أنّها ـ وبالـذات في السـور الطويلة ــ تبـدو مختلفة أو حـتى متباينة إلّا أنّها ما دامت تمتّ بــذلك المحــور تبحث في الســورة ، لأنّ المعالجة القرآنية للمحـاور هي معالجة شـاملة تسع جميع جوانب القضية.

ثانيا : إنّ القرآن لا يعالج القضــايا معالجة نظرية ، بل يودع ضمن آياته الكريمة القـوة التنفيذية اللازمة لعلاجها ، فهو لا يكتفي ببيــان القــانون العلمي أو الحكم الشــرعي للقضــية مجــرّدا ، بل يشــفعه بتوجيه الإنســان وتذكرته ، مستخدما من أجل

ذلك شتّى الوسائل ، ومن أبرزها التذكرة بالله وبـالآخرة ، وإثـارة العقل ، والـترهيب ، والـترغيب ، وحتّى التصـوير الفـني ، الـتي تـدعو قـارئ القـرآن الى تطـبيق أوامـره وتعاليمه.

ونجد محور هذه السورة معالجة الخلافات البشرية .. لمـاذا يختلف النـاس؟ وما هي حـدود الاختلافـات الطبيعية بين البشـــــر؟ وما هو جـــــذور الخلاف؟ ثم ما هو علاج الخلاف؟

وإنّما سمّيت هـذه السـورة بالشـورى ، لأنّ الشـورى تعتبر بعد الوحي أفضل علاج للاختلاف.

والقرآن لا يبـدأ السـورة بالحـديث عن الشـورى ، بل يبدأها بالحديث عن الوحي ، لأنّ الوحي هو محور المجتمع الإســلامي ، وأســاس وحدته ، ذلك لأنّ أيّ مجتمع يقــوم على أساسين :

الأوّل : وجـود شـريعة ، أو كتـاب ، أو منهج متكامل ، وفي أمتنا الإسلامية يجسّد القرآن هذا الأساس.

الثـاني : وجـود القيـادة الصـالحة الـتي تحـدّد معـاني الكتـاب ، وتسـتنبط الأحكـام منه ، وترسم المنهج السـليم للحياة به.

وهذا ما يفسّر ابتـداء السـورة بـذكر القـرآن وانتهائها الى ذكر الرسول ، وبين هذا المبتدأ وذلك المنتهى تبصّـرنا آياته بلطـــائف القيم المباركة في الوحـــدة ، وفيما يلي نستوحي تفصيلا لهذا الموجز :

فاتحة السورة تذكّرنا بـالوحي الـذي يلقيه الله العزيز الحكيم مليك السموات

والأرض العليّ العظيم ، وكفي بـــــــــــالوحي عظمة أنّ السموات والأرض يكدن يتفطّرن من فــوقهنّ (من عظمة ربّهن أو من كلماتـــه) . أمّا الملائكة فهم يســبّحون بحمد ربّهم ، ويشفقون على من في الأرض (بالـذات المؤمـنين منهم) فيســـتغفرون لهم (لأنّهم يـــرون جانبا من عظمة ربّهم) والله غفور رحيم (1) .

وهـذه الفاتحة تنسـجم مع خاتمة السـورة الـتي تـبيّن صفات الـوحي حيث لا يتلقّـاه البشر إلّا إلهاما أو من وراء حجــاب أو عــبر رســول من عند الله ، وأنّه قد هبط الى الرسول الـروح ومن قبل لم يكن النـبيّ يـدري ما الكتـاب ولا الإيمان ، أمّا اليوم فعنده نـور يهـدي به الله من يشـاء الى صــراط مسـتقيم ، وهو صــراط الله الـذي إليه ترجع الأمور (51) .

وبين هــذه الفاتحة وتلك الخاتمة اللـتين تتحـدّثان عن محور المجتمع الإسـلامي وصـبغته الأساسـية وهو الـوحي تجري آيات الذكر في تبـيين أسس الوحـدة في الأمّة ، بل ويرسي هذه الأسس ببصائره ونذره وبشائره.

كيف؟

ألف : تقسّــم الآية (8) النــاس فــريقين : من هــداه وأدخله في رحمته ، والظالمين الــذين ما لهم من وليّ ولا نصير.

وبعد أن يحدّد الصفة الرئيسية للظالمين وهي الشرك بالله (والذي يعتبر جذر كلّ فساد) يثبت مبدأ التحــاكم الى الله في الاختلاف (وبالـذات الى وحي الله ومن نـزل عليه الوحي أو استوعبه) والإنابة إليه ، والتوكّل عليه (9) .

باء : ويـذكّرنا السـياق ـ بعدئذ ـ بـأنّ الله الـذي فطر الســموات والأرض خلق النــاس والأحيــاء أزواجا ليكــون نسل الناس بذلك (فالاختلاف حقيقة واقعة ، وهو في

حدود التكامل مفيد) .

كما أنّه سبحانه بسط الرزق بين الناس بقدر ما يشاء حسب حكمته (فلا يجــوز أن نســعى للتســاوي المطلق بينهم) (11) .

جيم : والدّين محور الوحدة ، ولكن بشرط ألّا نتفــرّق فيه ، وهذه وصية النبيّين أولي العزم نوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السّــلام) . أمّا ســبب الاختلاف فليس هو الــدّين بل أهـواؤهم الـتي تـنزع نحو البغي (وما أعظم جريمة تــنزل نقمة الــرب لو لا أنّه أخّرها الى أجل مســمّى) ويبقى الرســول (ومن بعــده خلفــاؤه) محــورا للوحدة ، وعليه أن يستقيم على الحق بعيـدا عن أهـوائهم المختلفة ، مؤمنا بكــلّ الكتب ، وعــادلا في الحكم بينهم ، (وألّا يكرههم بل يلزمهم بما ألزموا أنفسهم به) (13) .

دال : (**الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آيـاتِ اللـهِ**) (ويرفضـون أحكامــه) من بعد ما اســتجاب المؤمنــون له (وأقــاموا المجتمع المسلم) فإنّ حجّتهم داحضة ، وعليهم غضب من الله ، ولهم عـذاب شـديد (وتطـالهم العقوبـات إذ رفضـوا أحكام الله) أو ليس قد رفضـوا الكتـاب الـذي أنزله الله ، والميزان الذي جعله سـبيلا للعدالة (وهو الإمـام أو أحكـام القضاء أو قيم العقل أو هي جميعا)؟

وبعد أن يحــذّرهم الله الســاعة الــتي يشــفق منها المؤمنون ، ويقـول : بـأنّ الشـاكّين فيها في ضـلال مـبين يــذكر بــأنّ الله هو الــرزّاق (وأنّ مخالفة الحق لا تجلب رزقا) وأنّ من يـترك الحـرام من الـدنيا (ولا يثـير الصـراع من أجل لقمة الحرام) يعوّضه الله في الآخــرة كما يرزقه في الدنيا ، بينما الآخر لا نصيب له في الآخرة (وربما يفقد الدنيا أيضا) .

وهكذا عالج السياق جذرا أساسيا للخلاف الاجتمـاعي (16) .

هـــاء : (ولأنّ من النـــاس من يشـــرّع بأهوائه ، وهو يسبّب الاختلاف الكبير) أنذر الله أولئك الـذين اتخـذوا من دون الله شركاء يزعمون أنّهم يشـرّعون من الـدّين ما لم يأذن به الله (ويسـنّون القـوانين الوضـعيّة) بأنّه لو لا كلمة الفصل لقضي بينهم ، وأنّ لهم بالتــالي عــذابا أليما يـــوم القيامة ، حيث تـرى الظـالمين مشـفقين مما كسـبوا دون أن تجـــديهم الشـــفقة نفعا ، لأنّه واقع بهم ، بينما تـــرى المؤمنين في روضات الجنّات.

واو : ويرسم القرآن الخط المستقيم في الأمّة بالأمر الناجز بمودّة أولي القربى التي هي الحسـنة الكـبرى (لأنّ بمودّتهم يتكرّس الخط القياديّ السليم) .

(ولأنّ القضية القياديّة أهمّ قضـية وأكـثر قضـية إثـارة للخلاف) اتهمـوا الرسـول بـالافتراء في الـوحي ، وأدحض الله فـريتهم بـأنّ الله لو شـاء لختم على قلب الرسـول ، وأنّه يمحو الباطل ، ويحـــــــــقّ الحق بكلماته .. وبيّن أنّه سبحانه يقبل التوبة عن عبـاده (لأنّ الانحـراف عن الخـطّ القيادي كثيرا ما يقع فلو لا قبول التوبة هلك خلق كثير) .

وبيّن السياق أخيرا بأنّ الذين آمنـوا يسـتجيبون (لهـذا الأمر) بينما الكفّار (الذين لا يستجيبون) لهم عذاب شـــديد (21) .

زاء : (ولأنّ حبّ الـــدنيا والتكـــاثر من متعها يعـــدّ أحد الجـــذور الرئيســـية للاختلاف ـــ بعد الاختلاف الطـــبيعي المشروع ، والتفرّق في الدين ، والتشريع بغير إذن الله ـــ فقد عالجته عـــدّة آيـــات بيّنت حكمة تحديد الـــرزق ، فلو بسط الله الـرزق بسـطا لبغى النـاس في الأرض فقـدره تقـديرا حكيما يتناسب ومقـدرة النـاس على الإسـتيعاب ، والرزق بيد الله (ولا يجوز الاختلاف عليه) فهو الـذي يـنزّل الغيث من بعد ما قنطوا (ومن أسـباب التقتـير في الـرزق الذنوب) .

وما أصــاب النــاس من مصـيبة فبما كسـبت أيــديهم (ولعلّ من الذنوب

الاختلاف الذي يمنع الـرزق) وإذا قـدّر الله العـذاب لأمّة لا يقدر أحد على دفعه عنها.

(ومظهر آخر لــرزق الله الريــاح الــتي تنقل ســفن التجارة) فهذه الجوار في البحر كأنّهنّ الجبال إن يشأ الله يسكن الريح فيظللنّ رواكد أو يهلكهنّ بذنوبهم .. كـلّ ذلك ليعلم الذين يجـادلون في آيـات الله (وينكـرون هيمنة الله أو عذابه) أنّه لا مفرّ لهم من عذابه.

وبعد كــلّ ذلك ، ما هي الــدنيا؟! إنّ هي إلّا متــاع إذا قيست بما عند الله للمؤمنين في الآخـرة الـذي هو أفضل وأدوم (27) .

حــاء : (وفي هــذا المنعطف يبلغ الســياق المحــور الأساسي في الســورة المتمثّل فيما يبــدو في الشــورى التي تكثّف التجارب البشرية ، ويبيّنه القرآن ضمن صفات مختلفة للمؤمـــنين) (**الَّذِينَ يَجْتَنِبُـــونَ كَبَـــائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَـواحِشَ**) ، ويغفــرون حين الغضب ، وقد اســتجابوا لربّهم (بالتسـليم للقيـادة الشـرعيّة) (**وَأَقامُوا الصَّـلاةَ ، وَأَمْـرُهُمْ شُـورى بَيْنَهُمْ**) (يتبـادلون بها خـبراتهم) ومما رزقناهم ينفقون.

طاء : (تلك كانت طائفة من صـفات المؤمـنين تتعلّق بعلاقـــاتهم بينهم ، وهنـــاك طائفة أخـــرى منها تتصل بمواقفهم من أعـدائهم) فهم الـذين إذا أصـابهم البغي هم ينتصـرون (ولا يخضـعون للبغـاة بل يحـاربونهم) ولكنّهم لا يعتدون على الناس بل جزاء سيئة سيئة مثلها عندهم.

(ويـبيّن القـرآن هنا فضـيلة التعـافي عند ما لا يكـون مضـرّا ، ويـدحض اتهـام مرضى القلـوب والسـلطات لمن ينتصر للحق بأنّهم مسئولون عن ويلات الحرب ، ويقول :) لا سـبيل على من ينتصر بعد ما يظلم ، إنّما السـبيل على الظالم.

ثم يأمر بالصبر والغفر ، ويقـول بأنّه من عـزم الأمـور (الـذي يسـتدعي عزيمة شـديدة) ويسـوق الحـديث في عاقبة الظلم ، وأوّلها : الضلالة ، ويقول : ومن يضـلل الله فماله من ولي (والثانية : العـذاب الشـديد حيث) يقـول الظالمون لمّا رأوا العذاب هل نستطيع أن نعود الى الدنيا (لنعمل صـالحا) هنالك تـراهم خاشـعين من الـذّل حين يعرضـون على النـار ، وقد خسـروا أنفسـهم وأهليهم ، وليس لهم (من الذين أضلّوهم) أولياء ينصرونهم (38)

ياء : وفي خاتمة السـورة يأمرنا القـرآن مـرة أخـرى بالمبادرة بالاستجابة لله (والتسليم للقيـادة) من قبل يـوم القيامة حيث لا مـــرد له من الله ولا ملجأ يومئذ ولا من ينكر.

ويـبيّن أنّ مسـئولية البحث عن الإمـام الحق تقع على عـاتق الإنسـان نفسه ، وأنّهم إن أعرضـوا فما أرسل الله نبيّه عليهم حفيظا إنّ عليه إلّا البلاغ.

(ثم يـبيّن مـدى ضـعف البشر وحاجته الى هـدى ربّه والقيادة الربّانية ، ويقول) إنّا إذا أذقنا الإنسان رحمة فـرح بها (وخرج عن طوره ، وأصابه الغرور) وإن تصـبهم سـيئة بـذنوبهم يكفـرون بنعمة الله ، وإنّ لله ملك السـموات والأرض (وهو الـذي يهب أو يمنع حسب حكمتـه) فـيرزق من يشـاء ذكـورا ومن يشـاء إناثا أو يهب الـذكور والإنـاث معا بينما يجعل البعض عقيما. إنّه عليم قدير.

ثم ينهي القـرآن السـورة بالحـديث عن الـوحي كما افتتح به. أو ليس الوحي أساس وجود الأمّة؟

سورة الشّورى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(حم (1) عسق (2) كَـــذلِكَ يُـــوحِي إِلَيْـــكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكَ اللـهُ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (3) لَـهُ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُــوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكـــادُ السَّـــماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَــوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَــةُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَيَسْـتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْـذِرَ أُمَّ الْقُـرى وَمَنْ

---

5 [يتفطّرن] : يتشقّقن.

7 [أمّ القرى] : مكّة.

حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيـقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا

هدى من الآيات :

تفتتح ســـورة الشـــورى ـــ الـــتي تنظّم العلاقة بين المسلمين لكي لا يخوضـوا في صـراعات داخلية عقيمة ــ بذكر القرآن الذي هو مرجع كلّ خلاف ، فهو الوحي الــذي يكمل الرسالات الـتي أوحى بها الله العزيز الحكيم (بعزته عزّة الوحي ، ومن حكمته أنّه الحق المبين) .

إنّه المالك لما في الســـــموات وما في الأرض (فله الحاكمية الـتي تتجلّى في حاكمية رسـالاته ورسـله) ، وهو العليّ العظيم ، (ومن آيات مجده ، وشــواهد عظمتـه) أنّ الســموات تكــاد تتفطّر من فــوقهنّ. أمّا الملائكة (فهم لا يشاركونه في الألوهية بل) يسبّحون بحمـده (أن يكـون له شــريك) وتــراهم يســتغفرون لمن في الأرض (وبالــذات المؤمــنين منهم ، دون أن يقــدروا على دفع الضر عنهم ، بلى. استغفارهم ينفع الناس) فالله هو الغفور الرحيم.

أمّا الــذين اتخــذوا من دونه أوليــاء (ويحســبون أنّهم ينقذونهم من مسئولية أعمــالهم فهم في ضـلال مـبين إذ) أنّ الله حفيظ عليهم (فهو يحفظ عليهم أعمــــــالهم) وما أنت عليهم بوكيل (فهم وحـــدهم يتحمّلـــون مســئولية أعمالهم وما عليك سوى إبلاغهم الرسالة وإنذارهم بها) .

وهكذا أوحى الله إليك القرآن العربي لإنذار أمّ القرى ومن حولها (ومن ثمّ العرب ثمّ العـالمين) إنـذارهم جميعا بيوم الجمع حيث الخلائق كلّهم قائمون عند ربّهم للحساب لا ريب فيه ، وهنالك ينقسم النــاس فــريقين : أصــحاب الجنة ، وأصحاب النار.

كـذلك بيّن القـرآن في فاتحة سـورة الشـورى عظمة الـــوحي ومقـــام الرســـالة ، وتبعا لها مقـــام من يبلّغها ويجسّدها ويحكم باسمها لتكـون الرسـالة محـور المجتمع الذي إليه يردون خلافاتهم ومنه ينطلقون نحو تطلّعاتهم.

بيّنات من الآيات :

[1 ـ 2] (**حم* عسق**)

راجع تفسير الأحـرف المقطّعة في السـور السـابقة. وممّا ذكر فيها أنّ الحروف هذه تشـير إلى ذات السـورة ، أو أنّها إشارة إلى أسماء الله الحسـنى ، أو أنّها تشـير الى مفاهيم معيّنة في السورة وعموما تشـير كلمة كـذلك الى هذه الأحرف ، وكأنّه يقـال : هكـذا الـوحي من خلال هـذه الأحرف ، وما تشير إليه من معاني عظيمة.

[3] (**كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

مهما اختلفت الأمم الــذين تتــنزّل عليهم الرســالات الإلهية أو تفاوتت سمات

الــذين يبلّغونها فإنّها تشــترك في منهجها وأهــدافها ، كما تلتقي على نقطة مركزية واحــــدة وهي أنّها كلّها من عند الله ، وليست من صــناعة البشر حــتى تتــأثّر بطبائعه أو ميزات بيئته أو متغيّرات حياته.

والرسالة الإسلامية تـأتي ضـمن سلسـلة متكاملة من الرســالات ، فهي تكمل المســيرة المتصــاعدة للبشــرية المستجيبة لربها ، وهي كأيّة سنّة إلهيّة لا بد من التصــديق بها حينما تتكرّر ضمن إطار محدّد ، وهي بالتــالي مفروضة على النــاس ، لأنّ الــذي أوحى بها هو الله العزيز المطلق في قوّته مما يجعل وحيه نافذا شاء الناس أم رفضوا ذلك ، والحكيم الذي أتقن الرسالة فجعلها مرآة أهداف الحيــاة وسنن الخليقة.

[4] ويحــــــدّثنا ربّنا عن نفسه ، في إطــــــار تذكرته برسالته. لماذا؟ لأنّ معرفته تعالى هي أساس كـلّ معرفة ، وتســبق في الأولوية الإيمــان بكـلّ الحقــائق. ومن هــذا المنهج يستوحي الإمام علي (ع) بصيرته حين يقول :

«**أوّل الـدّين معرفته ، وكمـال معرفته التصـديق به ، وكمـال التصـديق به توحيـده ، وكمـال توحيـده الإخلاص له**» [1]

فمن دون معرفة الله ، وهيمنته على كل شــــــــيء وإحاطته به ، وملكه للدنيا والآخــرة ، لا يسـتطيع الإنســان أن يؤمن بالوحي الذي هو سنّة إلهيّة خارقة للمــألوف عند البشر ، وليس تكاملا يبلغه الإنسان بعبقريّة.

ولقد أشارت الآية السابقة الى اســمي العزيز الحكيم لربّ العالمين ، لأنّ العزّة تعني القدرة الفاعلة أو انعكاس القــدرة على الخلق ، وهو يسـتدعي بعث الرسل ليكونــوا مظاهر قدرة الله وهيمنته وعزّته وحاكميته ، كما قـال ربّنا عنهم : (**وَما أَرْسَلْنا مِنْ**

(1) نهج البلاغة / خ (1) ص (39) .

رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللـهِ) أمّا الحكمة فهي انعكـاس العلم على الفعل ، ولأنّ ربّنا حكيم فهو لا يــترك النـــاس سدى ، وتتجلّى عزّة الله في الوحي القرآني الـذي يهـدينا الى أســـــباب القـــــوة ، كما تتجلّى حكمته في مناهجه الرشيدة.

ثم يشــير ربّنا هنا الى حاكمية الــربّ في الســموات والأرض ، مما تســــتوجب فطريّا حاكميته على النــــاس بالوحي ، فيقول :

(**لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

ومن يشك في رســـالة النـــبي محمد (ص) فهو لم يعــرف ربّه حقّا ، إذ أنّه لو عــرف عزّته وحكمته ومالكيته الـتي يهيمن بها على الحيـاة لما شك في وحيه ورسـالته ، ذلك أنّ خـالق الكـون هو نفسه الـذي خلق المنهج الـذي يهدينا الى تسخيره في صالحنا.

ولأن الســبب في كفر الإنســان بــالبعث وبكثــير من الحقـائق الأخـرى الـتي يهتف بها الـوحي ، هو عـدم إيمانه بقدرة الله حيث يشك في عودة رميم العظام بشرا سـويّا ، يؤكّد القرآن صفات الله الحسنى فور حديثه عن الـوحي أو البعث أو .. أو .. ، ذلك أنّنا إذا آمنا بقــدرة الله وحكمته وعلمه فسوف نؤمن بكلّ ما يصدر عنه وما يـأمر به إيمانا واعيا ، ونعمل به بلا تكلّف ، لأنّنا آنئذ نعــرف عظمتــه. أو ليس قد أوحى به العظيم ، وإنّ فيه صــلاحنا؟ أو ليس قد أنزله ربّنا الحكيم ونزداد يقينا بصدق أنبائه ، مما يبعث فينا العزيمة والأمل ، ونسـتعد للـدفاع عنه بأموالنا وأنفسـنا ، لأنّه هبط من عند ربّنا القدّوس.؟

وهكــذا ينبغي أن نســلك الى معرفة الــوحي طريق معرفة الخالق حتى نجعله في مقامه الأسمى ، ولا نقيسه بســائر الكلام أبــدا ، ولا نرضى بــأن يتخذ البعض مصــدر تشــريعاتهم من غــيره ، أو يتحــاكموا الى قــانون بشــري ناقص ، كلّا .. إنّ ربّنا مليك

السـموات والأرض ، ووحيه تجـلّ لحاكميته التامة علينا ، وأيّ تنكّب عن ذلك شقاق وضلال.

(**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**)

ما معنى العلو؟ وما معنى العظمة؟

العلي المرتفع في المكـان ، فهل الله موجـود في أعلى قمة في الكـون؟ كلّا .. تعـالى ربنا عن الحلـول في مكان ، وهو شاهد حاضر (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ**) [1] ، والعظيم في اللغة مشـتقة من العظم ، وصـاحب العظم الغليظ يسمّى عظيما ، فهل لله عظم سبحانه وتعالى؟!

عند تفسير هذه الألفاظ القرآنية ، وهكذا سائر أسماء الله يجب أن نأخذ الغايـات ونـترك المبـادئ ، ذلك أنّ لكل لفظة مبـدأ يكسـها مـدلولا حسـيّا ماديّا ، وغاية تعطيها مدلولا معنويّا وقدسيّا بالنسبة الى الله ، فـإذا كـانت كلمة العلي تـدل على علـوّ المكـان حسـيّا ، فهو يشـير الى السـيطرة والتمكّن ، وربّنا عليّ بهـذا المعـنى ، كما أنّه عظيم بمعنى القوة والشدة والهيبـة. وإنّما نسـتخدم هـذه الألفاظ عند الحديث عن الله لسببين :

الأول : عدم وجود ألفاظ بديلة تدلّنا على تلك الغايات ، وحيث يريد القرآن تقريب تلك المعـاني المطلقة لأذهاننا المحدودة التي عجزت حتى عن الإحاطة بالخلق اسـتخدم هذه الألفاظ.

الثاني : لكي لا ننبهر بمخلوق حاز شـيئا من القـوة أو الهيبة أو .. أو .. فنعبـده من دون الله ، فـإذا بنا نخضع لفلان لأنّه صاحب ثروة أو قوة أو جمال أو هيبة ، بل

---

(1) سورة الحديد / (4) .

نتذكّر صــاحب الملك والعظمة و.. و.. الحقيقي ، وهو الله عزّ وجل الذي خلقه من بعد العدم فنسلم له أكثر فـأكثر ، وبتعبير آخر لا بد أن ننطلق في تقييمنا للحياة من الإيمــان بالله ، لأنّ كل ما فيها مخلــوق له ســبحانه ، وإذا اشــتمل على شـــيء من الحسن فهو قبس صـــغير من أســـمائه الحسنى.

[5] (**تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ**)

ربما يتصوّر البشر أنّ أقـوى وأكـبر شـيء في الكـون هو السموات بعلوّها وقصـور علمه عنها ، حـتى أنّ علمـاء الفلك كلما أجهدوا أنفسهم في اختراع أنواع المناظر ذات القــوة الهائلة اكتشــفوا المزيد من الكــواكب والمجــرّات حــتى انتهى بعضــهم الى النظرية القائلة بتوسّــع الكــون المستمر .. والقرآن هنا يهدينا الى أنّ هــذه الســماء الـتي هي أعظم شيء في نظرنا تكاد تتفطّر من خشية الله.

ومع أنّ الســموات جمع مـؤنث لغـير العاقل ، والـذي يناسبها هو كلمة «تتفطّر» ، نجد الآية هنا تعبّر عنها كما لو كانت من ذوي العقول : «يتفطّـرن» ذلك للدلالة على أنّها في مقــام العبودية لله والخضــوع له شــأنها شــأن ســائر العقلاء ، فهي تخشاه.

وكيف لا تتفطر الســـموات إذا تجلّى الـــربّ لها أو اخترقها وحي الله ، وهي مشـفقة من السـاعة ، منتظـرة لأمر الله لطويها كطيّ السجلّ للكتب ، ولا تـزال زجـرات ملائكة الله تلاحق الأجـرام السـابحة فيها ألّا تحيد عن أمر ربّها قيد شعرة.

أعرفتم ماذا يعني وحي الله ، وما هي عظمة رسالات الله ، وأيّ مقام كريم ينبغي أن نجعلها فيه؟

سبحانك اللهم افتق عقولنا بنـورك حـتى نعـرف قـدر وحيك ، ولا نخسر الـــدنيا والآخـــرة بـــالإعراض عنه أو الاستهانة بأحكامه ..

وقال المفسّرون : إنّ تفطّر السموات بسبب هبوط الوحي عبرها ، كما قال ربنا : (**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**)

وقال بعضهم : بل بسبب صعود أنباء شرك الناس من خلالها ، كما قال ربّنا : (**تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً**)

ويبدو لي أنّ الأهم من كلّ ذلك عظمة الله وخشية عقابه ، فهي التي تكاد السموات يتفطّرن منها ، وتسبّح بحمده وتعبده ، وإن كنّا لا نرى ذلك أو نسمعه.

(**وَالْمَلائِكَةُ**)

وهم القوى العاقلة التي تشرف على جميع الأجرام السماوية والأنظمة والسنن الكونية تراهم يخشعون أمام جبروت الله وعزّته ، ويقدّسونه وينزّهونه عما لا يليق به ، ويتمّ التسبيح بما أعطاهم الله من نعمة الهداية ومن التوفيق للتسبيح ، ولعلّ هذا أحد معاني «بحمده» فإنّ معرفة الله لا تكون إلّا بذاته ، وكمال معرفته تنزيهه عن الشريك والشبيه ، وهو معنى التسبيح الذي لا يبلغه العبد إلّا بحمد الله ، أي بما يوجب الحمد من نعم الرب ، وتوفيقه ، ويعطي هذا التركيب «بحمده» معنى المقارنة أيضا ، لأنّ ربّنا تعالى هو كما جاء في الدعاء :

«**يا من هو في شرفه عزيز ، يا من هو في عزّه عظيم ، يا من هو في عظمته مجيد ، يا من هو في مجده حميد**» [1]

فهو في عين علوّ مقامه وقدسه ومجده وغناه حميد له الحمد كلّه والمحامد جميعا ، لأنّه تعالى شأنه لم يترك الخلق وشأنهم بل تعهّدهم بفواضل نعمائه وسوابغ آلائه ،

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء الجوشن الكبير / ص (91) .

فكان له الحمد كما كان له المجد.

(**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**)

هذه علاقتهم بالله ، أمّا علاقتهم بمن في الأرض فهي الاستغفار لهم عند الـرب ، حيث تـرى الملائكة أنّ سـكان الأرض لا يقدرون الله حقّ قدره بما يعصون ويذنبون.

(**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ**)

إيمانا منهم بسعة رحمة الله.

(**أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)

ولو لم يكن كذلك لما تـرك على وجه الأرض من دابة بما عصـوا الله ، ولعل الآية تـبين حقيقة هامّة هي أنّ الله هو الذي يغفر ويرحم من يشاء ومتى أراد ، وخطأ الإعتقاد بألوهيّة الملائكة أو أنّها أنصـاف آلهة ، بينما لا يعـدو دورها الاستغفار للمؤمنين عند ربّهم الذي يقرّر قبول توبة أولئك وشـفاعة هـؤلاء أو لا يقبل حسب مشـيئته الـتي لا يسـأل عنها وهم يسألون.

[6] وعجيب أمر البشر. إنّهم لا يســتفيدون من واسع رحمة الله ، بل يتخــذون الشــركاء من دونه ، ويــزدادون بعـدا عنه كلّما تـوالت نعمه عليهم! وربنا يتوعّد هـؤلاء بأنّه يكتب كل ما تعمله أيديهم وجوارحهم ليعاقبهم عليه عـاجلا أو آجلا.

(**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ**)

يعتقـدون أنّهم هم الـذين يرزقـونهم ، ويمنعـون عنهم الأخطار ، ويخطئون لأنّ الله هو الذي يرعاهم ويحفظهم.

(**اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ**)

يحفظهم برحمته الواسـعة الـتي تشـمل العاصي والمطيع ، ويحفظ عليهم كـلّ ما يصـدر منهم ، وهم وحدهم يتحمّلون مسئولية أعمالهم.

(**وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ**)

فما على الرسول إلّا البلاغ.

[7] إنّما تتلخّص مسـئولية الرسـول وكل مصـلح في تبليغ رسالته للناس بإيصال صـوت الـوحي الى أكـبر عـدد ممكن منهم.

(**وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا**)

وهـذا من رحمة الله ورأفته أن يبعث للنـاس نـذيرا بالوحي من أجل هدايتهم للحق.

ونقف قليلا عند لفظة «عربيّا» لنتسـاءل. لمـاذا يؤكّد القرآن في كثير من المواضع على عربيته؟

والجـواب : إنّما يؤكّد الله على عربية القـرآن ليقيم الحجة على الذين كفـروا به حينما جـاءهم الرسـول يتلـوه عليهم ، وذلك ببيـان أنّ كفـرهم لم يكن لغمـوض في الـوحي فهو بلغتهم. وتعبـير «عربيّـا» لا يـدلّ على لغة القـرآن وحسب بل على وضـوحه أيضا ، كما تـدل كلمة أعجمي في البلاغة على الغموض.

ثانيا : لأنّ اللغة الوحيدة التي يمكنها أن تتسع لمعـاني القرآن أكثر من غيرها هي اللغة العربية ، بعمقها ومرونتها ، ومن هنا يجب أن نعلم بأنّ السبيل الأفضل

لإيصال معاني القرآن لغـير العـرب ليس ترجمة القـرآن ، لأنّها تضيق بمعانيها ، وإنّما تعليمهم اللغة العربية.

(**لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها**)

وإنّما يختار الله عواصم البلدان محلّا لتبليغ الرسـالة ، لأنّها من الناحية الإعلامية أكثر وأشمل تأثيرا ، حيث تعتـبر المركز لسائر الناس ، فأيّ حدث أو حديث يقع فيها يكون خـبره أكـثر شـياعا مما لو وقع في غيرها ، ثم إنّها تحتل مركزا سياسـيا واجتماعيا هامّا بين القـرى الأخـرى ، ففتح العاصمة يؤدّي في الأغلب الى فتح سائر القـرى والمواقع الأخرى ، بالـذات إذا كـانت كمكّة في عهد الرسـول (ص) مركـزا لتجمّع القـوى الدينية والسياسـية والعسـكرية والاقتصادية ، التي تسـيطر عليها آنـذاك قـريش ، وتتحكّم من خلالها في شبه الجزيرة.

وتدل الآية على أنّ الرسالة الإلهية كـانت ذات أمـواج متلاحقة ، فقد إفتتحت بـأمر الرسـول بـالقراءة : (**اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ**) ، ثم أمرته بإنـذار الأقـربين : (**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**) ، وتوسّعت الى قومه ـ صلّى الله عليه وآله ـ بقوله سـبحانه : (**وَإِنَّهُ لَـذِكْرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ**) وتواصلت حـتى شـملت العـالمين فقـال ربنا سبحانه : (**تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً**) .

ومع أنّ الرسالة كانت منذ البـدء عالمية إلّا أنّها كـانت واقعية أيضا تسعى نحو العـالم عـبر موجـات متلاحقة بين النـاس ، الأقـرب فـالأقرب ، واحـقّ النـاس بها وبحمل مسئولياتها الرسول وأهل بيته الذين نزلت في بيوتهم.

(**وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ**)

وفي الأثنـاء لا بد للرسـالي أن يسـتوعب الحيـاة بواقعياتها ، فلا ينتظر من الناس أن

يؤمنــوا جمعيهم برســالته ، فــإذا ما كفــروا بخع نفسه ، وشـكّك في جهـوده ورسـالته ، فـذلك من طبيعة البشر ، إنّهم بالتالي ينقسمون الى مؤمنين وكافرين.

(**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ**)

وهم الذين يؤمنون بالرسالة ، ويعملون بمضامينها.

(**وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**)

وهم الكافرون والعاصون.

وفي هــذه الجملة «**فَرِيــقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيــقٌ فِي السَّعِيرِ**» إشارة الى الخلاف البشري الذي يقســمهم الى خطّين : خط الحق ، وخط الباطل .. وسوف تـبيّن الآيـات القادمة هــذه النقطة ، وتميّزها عن الاختلاف في الــرؤى ووجهـات النظر بين أهل الحق أنفسـهم ، والـذي يجب ألّا يبلغ حدّ الصراع بينهم.

وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَلكِنْ يُـدْخِلُ مَنْ يَشـــاءُ فِي رَحْمَتِـــهِ وَالظّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْـوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ (9) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَـيْءٍ فَحُكْمُـهُ إِلَى اللـهِ ذلِكُمُ اللـهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10) فـاطِرُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجـاً وَمِنَ الْأَنْعـامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ (11) لَـهُ مَقالِيـدُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُـطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

---

11 [يـذرؤكم] : ذرء بمعـنى أوجد أي يخلقكم أنتم والأنعـام «فيـه» أي في هـذا الجعل ، فـإنّ امتـداد نسل الإنســان والحيـوان إنّما هو بجعل الأزواج ، ولذا ينقطع من لا زوج له.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِـهِ نُوحـاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ وَما وَصَّـيْنا بِـهِ إِبْـراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيـهِ كَبُـرَ عَلَى الْمُشْـرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْـهِ اللـهُ يَجْتَبِي إِلَيْـهِ مَنْ يَشـاءُ وَيَهْـدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه

هدى من الآيات :

ما هي علّة اختلاف النـاس؟ وكيف ينبغي أن نعالجـه؟ ومن هو الوليّ حقّا يردّ اليه ما اختلف الناس فيه؟

هـذه محـاور الـدرس من هـذه السـورة الـتي تعـالج الخلافات الاجتماعية.

كـان من الممكن أن يخلق الله البشر بصـورة واحـدة لا اختلاف بينهم ، وأن يجعلهم كلّهم من أصـــحاب الجنة ، ولكنّه تعـالى تـرك الإنسـان يختـار مصـيره بإرادته بعد أن أوضح له سبيل الغي ، وهداه الى سبيل الرشاد.

وهكذا يؤكّد القرآن مبـدأ الحرية التكوينية الـتي جعلها الله للبشر ، والتي صبغت حياتهم بصـبغة الصـراع الأبـدي بين الحق والباطل.

فبينما يتبع فريق منهم ولاية الله ، يتبع الفريق الآخر الظـالم لنفسه ولاية الشـركاء المزعـومين ، فالسـبب الرئيسي لضلالة البشر وما يثير بينهم الخلاف من

الحروب التي تنتهي الى الـدمار والتخلف هو تـركهم ولاية الله ، وتشبّثهم بالأولياء من دونه.

أمّا الخلافات الخارجة عن إطار صـراع الحق والباطل ـ كالخلاف بين أهل الحق أنفسهم ـ فهي غـير مشـروعة ، إذ لا بد من حلّها بالعودة الى قيم الرسالة ومن يمثّل ولاية الله في الأرض ، ومن النــاس من يــدّعي الإيمــان ولكنّه يتولّى غـير الله ، وإنّما آية إيمـان المـرء أن يـردّ ما تنـازع فيه الى الله (والى رسالته ورسله) ثم يتحـدّى الضـغوط ، ويتوكّل على الله ، ويتضرّع إليه (ويتعــوذ بحوله وقوته من شياطين الإنس والجن الذين ينزغونه في الاتجاه الخاطئ) .

(وولاية الله في المجتمع تجــلّ لولايته في الكائنــات) فهو الــذي فطر الســموات والأرض ، وخلق البشر أزواجا وكــذلك الأنعــام بهــدف تكثــير الخلق وانتشــارهم ، وهو المحيط بهم علمــا! وبيــده مفــاتيح الــرزق ، فيبسط لمن يشاء ، ويقـدر على من يشـاء (إنّما بحكمته البالغة ، لأنّـه) بكلّ شيء عليم.

بينات من الآيات :

[8] الاختلاف بين أهل الحق وأهل الباطل جــــزء من ســنة الله في الحيــاة ، ليس لأنّه تعــالى يريد أن يكــون بعضهم من أصحاب النار والبعض الآخر من أصحاب الجنة ، بل لأنّه أعطاهم حرية الإختيار ، ومقتضى هذه الحرية أن يتبع البشر أحد الخيارين.

(**وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً**)

وهذا لا يتفق مع طبيعة الحياة ، وهدف الخلق.

(**وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ**)

وهم المؤمنـــون الـــذين يأخـــذون بأســـباب الهداية فيوفّقهم الله لبلوغها ، والآية تحذّرنا من الاغـترار بإيماننا ، وذلك بالتأكيد على كونه من عند الله وبتوفيقه.

كما تبيّن لنا الآية بأنّ الآخر الذي يختـار طريق النـار ، إنّما يدخلها بإرادته ، وبإيكـال الله له الى نفسه حيث يمنع عنه توفيقه ، فلا يحفظه من نـــوازع الشـــيطان ، ولا من ضغوط الحياة ، كما هو شأنه مع المؤمـنين فـإذا به ينقلب على عقبيه.

وهذا الإنسان قبل اختيـاره لطريق السـعير كـأيّ بشر فيه الخير والشر ، ولكنه بهذا الإختيـار الخاسر يسـلب منه عون الله وتوفيقه فيتمحّض في الشر ، ولهذا تـرى أوليـاء الله المخلصين يلحّون على الله بأن لا يكلهم الى أنفسهم ، ولا يقطع عنهم توفيقاته.

يقـول ابن أبي يعفـور : سـمعت أبا عبد الله (الإمـام الصـادق (ع) يقـول وهو رافع يـده الى السـماء : «رب لا تكلني الى نفسي طرفة عين أبـدا» لا أقـلّ ولا أكـثر ، فما كـان بأسـرع من أن تحـدر الـدموع من جـوانب لحيته ، ثم أقبل عليّ فقال : «يا ابن أبي يعفـور! إنّ يـونس ابن متّى وكله الله عزّ وجل الى نفسه أقلّ من طرفة عين فأحدث ذلك الظن» قلت : فبلغ به كفـرا أصـلحك اللـه؟ قـال : لا ولكنّ الموت على تلك الحال هلاك [1]

(**وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍ**)

يشفع لهم ، ويخلّصهم من العذاب ..

(**وَلا نَصِيرٍ**)

يعينهم ، ولعـلّ في هـذا المقطع من الآية إشـارة الى حقيقة هامّة : أنّ الظالم

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج (14) ص (387) .

لا يضـــرّ بنفسه فقط عند ما يتخذ من دون الله أوليـــاء ، ويتبع الجبابرة ، بل ويظلم الآخرين أيضا ، ذلك لأنّه باتباعه الجبـار (بل بمحض السـكوت عنـه) يسـاهم في سـيطرته على الآخرين.

ولعـــلّ الآية تهـــدي أيضا ــــ عند ما اســتخدم كلمة الظـالمين ـــ ألّا عدالة في غـير ولاية الله ، وألّا نجـاة من الظلم إلّا بالعودة إليها ، فما للظـالمين من وليّ ولا نصـير .. فمن رضي بحكومة الظـــالمين اكتـــوى بنـــارهم ، ولا يستجاب دعاؤه في الخلاص منها.

وبـــالرغم من أنّ لفظة الظـــالم قد يتسع مـــدلولها ليشمل كلّ منحرف إلّا أنّ انتخابها متناسب والسياق الذي يحــدّثنا عن الولاية ، وحسب تعبيرنا القيـادة وما تتبعه من فضّ الصراعات إمّا بعدالة أو بظلم.

[9] بلى. إنّ الكافرين والمشركين اتخـذوا أوليـاء من دون الله ، ولم يدركوا بأنّه وحده الوليّ الحقيقي للإنسـان ، وصاحب القدرة المطلقة.

(**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُ**)

لأنّ إليه مصيرنا ، وهو القاهر علينا.

(**وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

أمّا الأوليـاء والأنصـار المزعومـون فـإنّهم لا يقـدرون على شيء إلّا بقـدر ما يريـده الله لهم ، فهم محـدودون ، والأولى بالعاقل أن ينتمي الى صـاحب القـدرة المطلقة ، فعنده تتحقّق طموحاته ، ويصل الى أهدافه.

[10] ويـبيّن ربّنا معـنى الانتمـاء الحقيقي لولاية الله ، بأنّه ليس مجـــرّد الادّعـــاء ، والتمنّي في القلب ، وحـــتى طاعة الله في الأمور الاعتيادية التي لا تكلّف الإنسان

جهدا ولا مصلحة ولا تنازلا ، إنّما التسليم لهـذه الولاية في كـلّ شـأن ، وبالـذات عند الصـراع ، حيث يتشـبّث الواحد بفكرته وموقفه ، وتثار فيه ذاتيّاته وعصبيّاته.

(**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ**)

أنّى كـان هـذا الشـيء ، وفي أيّ جـانب من جـوانب الحياة ..

(**فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ**)

يسـتوحى من كتـاب الله ، ومن أودع قلبه علمه من أئمة الهدى ـ عليهم السلام ـ وأتبـاعهم الفقهـاء ، العلمـاء بالله الأمناء على حلاله وحرامه.

ثم يقول القرآن عن لسان الرسول وكل مؤمن يسلّم لآياته :

(**ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**)

وهـذا تأكيد لانتمائه الى ولاية الله في مقابل اتخـاذ أولئك الأولياء من دونه ، إذن فهو على عكسـهم يسـتجيب لحكم الله ، ونتساءل : لماذا يؤكّد القرآن ضـرورة التوكّل على الربّ هنا؟

والجواب : لأنّ الكثير من الناس يزعمون بأنّهم حينما يتنـازلون للآخـرين عند الاختلاف اسـتجابة لحكم الله وأوليائه ، فإنّهم يعرضون أنفسهم للمخاطر ، لأن الطـرف الآخر عنـدها سـوف يتصـرّف من موقع صـاحب الحق ، ويسـتغل انتهـاء الخلاف في صـالحه لضـربهم. إنّ هـذا الشـعور من وسـاوس الشـيطان الـذي يريد من خلالها تضـخيم الاختلافـات الاجتماعية ، وتفـتيت الأمة الواحـدة ، وكم من مظلوم أصبح أكـثر جـورا من ظالمة بسـبب هـذا الشعور الذي يثير في الإنسان ذاتيّاته السلبية!

ولكي يقـاوم الإنسـان هـذا الضـغط يحتـاج الى قـوة نفسية كبيرة حتى لا يخشى من المستقبل بتطبيق الحق ، وهــذه القـــوة يســـتمدّها المـــؤمن من التوكّل على الله والعودة إليه.

ثم إنّ التسليم لولاية الله يقتضي مواجهة الحكومـات الظالمة ، وهي بـدورها بحاجة الى اسـتقامة عـبر التوكّل على الله.

[11] ويعالج القـرآن الاختلاف من زاوية أخـرى حينما يذكّرنا بأنّه من طبيعة الحيـاة ، الـتي تـأبى اللـون الواحد ، الأمر الـذي يجعل الإنسـان غـير قـادر على صـبغها كلّها لمزاجه وطبيعته الخاصة ، ولكنّه عبثا يسـعى لبلـوغ هـذه الغاية ، فـترى البعض يريد التحـدّث لكـلّ النـاس بلغته القومية ، أو أن يقلّـدوا عاداته ، فـإذا لم يسـتجيبوا له أبغضهم ، فالرومان صـاروا يسـمّون غـيرهم بـالبرابرة أي المتوحشّـين ، واليهـود اعتـبروا أنفسـهم الشـعب القـارئ بينما اعتبروا الآخرين أمّيّين لا يفقهـون شـيئا ، أمّا مـدّعي الحضارة الحديثة فإنّهم يعتقـدون بوحشـية الشـعوب غـير الآريّة.

هـــذه من طبيعة الإنســـان فهو يريد العـــالم كلّه لونا واحـدا هو لـون شخصـيته وتطلّعاته ، والقـرآن يؤكّد هنا الاختلاف الطبيعي في الحياة ، ويذكّر الإنسان بعجـزه عن رفع أقرب الاختلافات إليه ، وهو اختلافه مع زوجته.

ولكنّ القرآن الكريم يقـرّر مبـدأ الاختلاف بين حقـائق الخلق ، وعلينا الاعـتراف به ، والتعـرّف على حكمة الله فيه ، والسـعي وراء تلك الحكمة ، وحكمة الاختلاف التكامل ، وليس الصـراع ، فلقد جعل الله البشر شـعوبا وقبائل بهدف التعارف (وليس التـدابر والتبـاغض) ، وخلق الـزوجين الـذكر والأنـثى ليتكـاملا ، ولعـلّ هـذا أبـرز أمثلة الاختلافات الفطرية.

(**فـاطِرُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً**)

وهـذا في صـالح الإنسـان ، وبيـان القـرآن لانشـطار الأنثى من نفس الذكر ، جاء لضرب الأفكار الجاهلية الـتي تزعم بأنّ الأنثى ذات روح حيوانية ، فبهذا الاختلاف يكـون التنـامي والتناسل ، ولكن لو تحـوّل هـذا الاختلاف الى خلاف بين الطرفين ، وانتهى بالتالي الى الطلاق والعـداء. أفلا تنقرض البشرية من على وجه الأرض؟!

بلى. وهكـذا لو اختلفت القبائل والشـعوب ، وسـعت لفرض عاداتها وطبائعها على الآخـرين ، لأنّ الله خلق كـلّ مجموعة بشـرية لتحقّق هـدفا خاصّـا في الحيـاة ، أمّا لو تصـارع الجميع لفـرض شخصـيتهم على بعضـهم فسـوف ينتفي التعارف والتعاون والتكامل مما يجعل الحياة جحيما لا تطاق.

(**يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**)

أي يجعل تكاثركم وانتشـاركم بسـبب هـذا الاختلاف ، ولعلّ من الحكم الأخرى للاختلاف إشعار الإنسـان بعجـزه الذي تـدل عليه حاجته للآخـرين ، والـتي هي بـدورها تـدل على حاجته الى الله ، لأنّه الصـمد الـذي لا كفو له ولا شريك ولا شبيه.

(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)

ونتساءل : لماذا أضيف كـاف التشـبيه على «مثـل» ، في الوقت الذي كـان يكفي أن يقـال : ليس مثله شـيء؟ هل الكاف هنا زائدة كما قال المفسّرون؟ أم في المعـنى لطفا بـديعا! نحن نميل ألّا ننسب الزيـادة الى كلام ربّنـا. اللهمّ إلّا التي نكون للتأكيد ، ولا معـنى ظـاهر للتأكيد هنا ، فنعـود ونتسـاءل : إذا ما معـنى الكـاف؟ التفت بعض المفسرين الى معنى المثل الـذي يختلف ظلاله عن كلمة (ند) أو شبه ومساوي وشكل ، حيث أنّ ظلال كلمة المثل توحي بجانب القيم

والصفات والأسـماء ، بينما ظلال الند تـوحي بالتشـابه في الجوهر ، وظلال (الشبه) تـوحي بالتماثل في الكيفية ، أمّا كلمة (المسـاوي) فتـوحي بالتشـابه في الكميّة ، وإيحـاء (الشكل) هو التماثل في المساحة. [1]

فـإذا قلنا : «ليس كمثلـه» أي لا يشـابه صـفاته وأسماءه أحد ، فالكـاف بمعـنى التشـبيه ، والمثل بمعـنى مجمل الصفات والأسماء ، والله العالم.

(**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**)

فلا يـزعم أحد أنّه ما دام ربّنا لا شـبيه له ولا كفو فهو بعيد عنّا لا يسـمع ولا يـرى ، كلّا .. إنّ تعاليه لا يتنـافى وقربه الى درجة أنّه يسـمع ما نقـول ، ويبصر ما نفعل ، فهو رفيع الدرجات وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

[12] وهو الـذي يـرزق من يشـاء ما يشـاء ، فيعطي لشـعب الطاقـات والمعـادن ، ولآخر العلم والإرادة ، فـإذا بالنـاس يختلف بعضـهم عن بعض لتتعـاون البشـرية مع بعضها ، كما أنّ ربّنا يفتح للبشرية أبوابا متعدّدة من الرزق ، وإذا ما نفذ شـيء منه تلطّف عليهم بـآخر يحـلّ محلّه ، فإذا بالآفاق الواسعة تتفتّح بقدرة الله أمام البشرية لتجدّد الطاقات البديلة عن النفط الذي بات مهدّدا بالانتهـاء. وما يـدرينا لعلّهم يهتـدون الى تحويل المـاء الى طاقة محرّكة كما اهتدوا من قبل الى تفكيكه بقدرته تعالى!

(**لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ**)

فلما ذا يحسد النـاس بعضـهم ، ويسـعى كـلّ واحد للتفـرّد بـالنعم ، وربّنا العليم يـنزل من القـدرات على من يشاء من البشر بقدر ، حسب حكمته البالغة؟

---

(1) تفسير نمونه / ج (20) ص (372) ، نقلا عن مفردات الراغب.

(**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

وبالتالي فهو يبسط الرزق للناس ، ويعلم ما يحتاجون ممّا يقوّم حياتهم. ويختلف الرزق عن الكسب بأنّ الأوّل هو ما يتفضّل به الله على الإنسان ، بينما الثاني هو ما يسعى إليه بنفسه ، وهو تعالى يهب لكلّ واحد نوعا من الرزق ، وعلى الإنسان أن يسعى (ويكسب) ليجلب رزقه ، فالأرض والأنهار والنشاط والعقل كلّها رزق من الله ، أمّا الكسب فهو تسخير هذا الرزق ليتحوّل إلى حقول مزروعة.

وما يتفاضل به الناس ليس الرزق بل الكسب ، لأنّ الله رزقهم بصورة عادلة فهو إذا سلب من أحد رزقا أعطاه رزقا آخر يتفضّل به على غيره ، فشبه الجزيرة العربية التي جعلها الرب حارّة رطبة أودع فيها (80 خ) من احتياطي النفط في العالم ، بينما جعل استراليا الفاقدة للنفط بلادا زراعية فإذا بها تغطّي قدرا كبيرا من احتياجات العالم ، وهكذا قسّم الموارد الزراعية والطبيعية بين البشر ، وعليهم أن يسعوا لتسخيرها لمصلحتهم!

[13] ولكنّ الناس حوّلوا اختلافاتهم الى خلاف وصراع لا يكتسب شيئا من الشرعية ، لأنّ رسالات الله كلّها واحدة ، وجاءت لتحلّ مشاكل الناس ، ومن أهمّها مشكلة الخلاف ، وربّنا إنّما بعث الأنبياء لتوحيد البشرية على أساس المبادئ.

(**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى**)

في الأحاديث المأثورة بعض التفصيل في شريعة الله التي نزلت على الرسل ، وفي الدين الذي أمرنا بإقامته ، ونختار منها حديثا مأثورا عن السيد عبد العظيم الحسني أنّه قال

دخلت على سيدي علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسـين ابن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام ـ فلمّا بصر بي قال لي : مرحبا بك يا أبا القاسم أنت وليّنا حقّا ، قـــــال : فقلت له : يا بن رسـول الله إني أريد أن أعـرض عليك ديـني ، فـإن كـان مرضيّا ثبتّ عليه حتى ألقى الله عزّ وجلّ ، فقال : هاتها يا أبا القاسم ، فقلت : إنّي أقــول : إنّ الله تبــارك وتعــالى واحد ليس كمثله شيء ، خـارج من الحـدّين حـدّ الإبطـال وحدّ التشـبيه ، وإنّه ليس بجسم ولا صـورة ولا عـرض ولا جوهر ، بل هو مجسّم الأجسام ، ومصوّر الصـور ، وخـالق الأعــراض والجــواهر ، وربّ كــلّ شــيء ومالكه ، جاعله ومحدثه ، وإنّ محمدا عبده ورسوله ، خاتم النبيين فلا نبيّ بعده الى يوم القيامة ، وأقول : إنّ الإمـام والخليفة ووليّ الأمر بعــده أمــير المؤمــنين علي بن أبي طــالب (ع) ثمّ الحسن ثمّ الحســـين ثمّ علي بن الحســـين ثمّ محمّد بن علي ثمّ جعفر بن محمد ثمّ موسى بن جعفر ثمّ علي بن موسى ثمّ محمد بن علي ثم أنت يا مــولاي ، فقــال عليه السلام : ومن بعدي الحسن ابني ، فكيف النـاس بـالخلف من بعده قال : فقلت : وكيف ذاك يا مولاي؟ قال : لأنّه لا يرى شخصه ، ولا يحـلّ ذكـره باسـمه حـتى يخـرج ، فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ، قال : فقلت : أقررت ، وأقول : إنّ وليّهم وليّ الله ، وعدوّهم عدوّ الله ، وطاعتهم طاعة الله ، ومعصيتهم معصية الله ، وأقــول : إنّ المعـراج حق ، والمسـائلة في القـبر حق ، وإنّ الجنة حق ، والمــيزان حق ، وإنّ السـاعة آتية لا ريب فيها ، إنّ الله يبعث من في القبـور ، وأقـول : إنّ الفـرائض الواجبة بعد الولاية الصــــلاة والزكــــاة والحج والجهــــاد والأمر بــالمعروف والنهي عن المنكــر. فقــال عليّ بن محمد ــ عليهما السـلام ــ : يا أبا القاسم هـذا والله دين الله الـذي ارتضاه لعباده ، فـاثبت عليه ثبّتك الله بـالقول الثـابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة

(**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ**)

لأنّ إقامته بتطـبيق أحكامه تماما كفيلة بتنظيم حيـاة النـاس وإسـعادهم ، ثم نهى ربّنا عن التفـرّق في الـدين بسبب الأهواء والشهوات فقال :

(**وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**)

لأنّنا لو أقمنا الدين حقّا فلن يكون هناك مجال للتفرّق ، فالـدين كلّه واحد وإن اختلفت الرسـالات في صـياغتها ، وهذه من أعظم وصايا الأنبياء للأمم وللبشرية جمعاء.

جـاء في الحـديث عن الإمـام الرضا (ع) عن آبائه عن النبي (ص) أنّه قال :

قــــال الله جــــلّ جلاله : ما آمن بي من فسر برأيه كلامي ، وما عرفـني من شـبهني بخلقي ، وما على ديـني من استعمل القياس في ديني [1]

(**كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**)

ولو تـدبّرنا عميقا في هـذا المقطع لاكتشـفنا مـدى علاقته بـالمقطع السـابق من الآية ، فهو يـبيّن لنا بـأنّ اختلاف الـديانات السـماوية ناشئ من تسـرّب ثقافـات الشـرك المحيطة بها إليها ، فجـوهر الـدين واحد ولكنّ الرواسب والأفكـار الغربية الـتي دخلت إليه هي الـتي أسست الخلاف بين رسالة وأخرى ، وهذه القاعدة تنطبق حتى على الرسالة الواحدة ، فـالقرآن مثلا واحد وكلّه حق ، ولكن لمـاذا صـار كل فريق من المسـلمين يـدّعي أنّه وحده يمثّل القرآن؟ لأنّ بعضهم أضـاف اليه إضـافات من أفكاره ومن الثقافـات الغريبة عليه فلم يقم الـدين ، ولأنّ هـذه الأفكـار والشـهوات تختلف من فريق لفريق بل من شـخص لآخر دبّ الخلاف بينهم ، بل بـدى القـرآن نفسه مختلفا للناس.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (565) .

ثم إنّ التحــدّي الكبــير الــذي يعيشه المؤمنــون في مواجهتهم لقـوى الشـرك يـدعوهم للوحـدة بينهم ، لكي لا يجد الأعداء ثغرة للتسـلل الى صـفوفهم ، والإفسـاد بينهم من الداخل.

وفي ظــروف التحــدي تحتــاج الأمة إلى المزيد من الاسـتقامة على طريق الـدين (وإقامة الـدّين كلّه دون أن يختلفـوا فيـه) ، والسـبب هو أنّ الشـيطان قد يوسـوس إليهم بأن يتنازلوا عن بعض بنود الــدّين لكسب المزيد من الأنصار ، بناء على سـلّم الأولويـات أو التـدرّج في تطـبيق الشريعة ، وقد يؤدّي ذلك الى الانحراف في الدّين ، مثلما حصل عند النصـــارى في التـــاريخ حيث كـــانت الديانة المسيحية نقية طاهرة فلما رأى الأحبار قلّة المنتمين إليها صمّموا على الاقتباس من أفكار الفلسفة القديمة الرائجة يوم ذاك ليـؤمن النـاس ، ومن بين ما أدخلـوه عليها بعض الأفكـــــــار المقتبسة من الفلســــــــفة المعروفة ب (النيوافلوطينيـة) ، فصـارت الديانة الـتي عليها كثـير من النصارى اليوم مشوبة بها.

واليــــوم نجد النــــاس يضـــيفون الثقافة القومية أو الوطنية أو الاشتراكية أو الرأسـمالية الى الفكر الإسـلامي ، وما هي ســـوى ألـــوان من الشـــرك إذا عرفنا جوهرها المتمثل في التسليم لغير الله.

إذا يجب علينا أن نـــدعو الى الـــدين الخــالص بلا أيّ إضافة ، فإن استجاب النـاس وإلّا فواجبنا بـذل المزيد من الجهد ، وبدل أن نـنزل ديننا الى مسـتوى النـاس يجب أن نــرفعهم الى مســتواه ، وليس علينا بعد الــدعوة والتبليغ مسئولية الهداية ، لأنّ الهداية من عند الله.

(**اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ**)

من رســله ، كالــذين ســبق ذكــرهم من أولي العــزم الــذين فضّــلهم الله على ســائر أنبيائه ، وهم نــوح شــيخ المرسلين الذي قدّمه السـياق لأنّه أوّل نـبي عقد عزمـات قلبه على إبلاغ رسالة التوحيد ، بتلك الصعوبات المعروفة وعـــــبر (950) عاما ، وذكر بعــــده نبيّنا محمد (ص) لأنّه الأعظم من بين أولي العــزم ، ثم جــاء ذكر الأنبيــاء الثلاثة بــالترتيب الزمــني إبــراهيم ثم موسى ثم عيسى (عليهم السلام) .

(**وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ**)

من سائر عباده.

وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْـدِ ما جـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِـرْتَ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـواءَهُمْ وَقُـلْ آمَنْتُ بِما أَنْـزَلَ اللـهُ مِنْ كِتـابٍ وَأُمِــرْتُ لِأَعْــدِلَ بَيْنَكُمُ اللــهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمـالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللـهُ يَجْمَـعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْـدِ ما اسْـتُجِيبَ لَـهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَـةٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَــبٌ وَلَهُمْ عَــذابٌ شَــدِيدٌ (16) اللــهُ الَّذِي أَنْــزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ

لَعَــلَّ السَّــاعَةَ قَــرِيبٌ (17) يَسْــتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُـوا مُشْـفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُـونَ أَنَّهَا الْحَــقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمــارُونَ فِي السَّــاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18)

---

18 [يمارون] : يجادلون ، من المراء أي الجدال.

وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ

هدى من الآيات :

انطلاقا من محور الوحدة يبيّن لنا هـذا الـدرس سـبب الخلاف بين البشر ، وهو ظلم الإنســـان للآخـــرين ممّا يسمّيه القـرآن بـالبغي ، حيث يبـدأ بسـلب حقـوقهم الأمر الـذي يجـرّ الى تنـامي الصـراعات ، وبـالرغم من أنّ كـلّ ظــالم يغلّف بغيه بمختلف التــبريرات ، بل يصــنع لنفسه ثقافة (ودينا) يزعم أنّه يدافع عنها ويذبّ عن قدسيتها ، إلّا أنّه كذّاب ، لأنّ الاختلاف لا يكـون من أجل القيم ، فـالقيم لا اختلاف فيها ، وإنّما الاختلاف نتيجة للبغي والسعي وراء حطام الدنيا.

وعند ما يجد الإنسان الخلافات الاجتماعية ، يكاد ينكر هيمنة الخالق على الخلق ، ويظنّ أنّه تعالى فوّض الأمــور إليهم ، ويتسـاءل : إذن لمـاذا لا يحكم الـربّ بين عبـاده ، ويفضّ الخلافات؟ ولماذا لا ينصر أصحاب الحق؟

وما هي إلّا وسوسة شيطانية لفصل الخلق عن هيمنة الله ، إذ أنّها تدفع الإنسان

لاختيــار وســائله الكفيلة بتحقيق مصــالحه ، ولا يهمّه بعد ذلك لو تـرك الـدين جانبا ، والآية الأولى من هـذا الـدرس تؤكّد أنّه قد ســـــــبقت كلمة تقضي بتأجيل الحسم في الخلافـات ، وأنّ ذلك لا يـدل على التفـويض أو الإهمـال ، من قبل الله! بل مجرّد إعطـاء فرصة للابتلاء ، ولو لا ذلك لكان يأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر.

ويعتمد الاختلاف على أرضـية الشك بـالقيم الحقيقية المتمثّلة في الكتــاب ، ولــذلك لا تختلف الأمم حين تعتمد الكتـاب محـورا لوحـدتها ، ومرجعا لخلافاتها وصـراعاتها ، ولكنّها حينما تفقد الإيمان بالكتـاب ، وتبحث عن مصـالحها على حسـاب الآخـرين ، تتنـامى صـراعاتها ، لأنّ الضـمانة الـتي تحجز عن دفع الصـراعات نحو التطـرّف هو الإيمـان بـالقيم والاعتصـام بحبل الله ، وإلّا فما أسـرع تـأثّر البشر بالأحـداث الاجتماعية والسياسـية من حوله ، فهو وبسـبب نفسه الأمّارة بالسوء يسـعى للتطـرّف في الـردّ على من يخطئ عليه أو يقصّـــر تجاهه ، وفي قوله تعـــالى : (**وَلا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْـدِلُوا اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى**) إشارة صريحة لهذه الطبيعة في الإنسان ، وإنّما يســتطيع أن يتجاوزها بــاليقين والاســتقامة ، فلا تدفعه الأهـــــواء ولا الـــــدعايات الضـــــالة الى المواقف المتطرّفة تجــاه الآخــرين ، وهــذا أمر صـعب أن يقــول الإنسان الحق سـواء كـان معه أو ضـدّه ، وهـذا ما أمر به الله نبيّه (ص) أن يعدل بين الناس ، لأنّ العـدل ينتهي في الأخير الى صالح الإنسان ، ثم إنّ كـلّ فـرد مسـئول أمـام الله عن أعماله في الحيـــاة ، فلا داعي إذن لفـــرض أحد آرائه على أحد ، فالكل يتحمّل مســــئولية عمله ، ويتلقّى جزاءه.

ثم يؤكّد القرآن بأنّ الله لا يهمل الصـراعات الى الأبد ، وإن كـان سـبحانه لا يتـدخل فيها بصـورة مباشـرة ، فيد الغيب تتـــدخّل الى جـــانب الحق في الـــوقت المناسب لتدحض حجة الباطل ، ولكن متى يكون ذلك؟ حينما تهبط الرسـالة يـؤمن بها مجموعة من النـاس ، ويلتفّـون حـول صاحبها ، بينما يخالفهم فريق آخر

وبحجج واهية ، فينصر الله المؤمــنين على أعــدائهم ، ولا شك أنّ الرســالة وحــدها لا تنتصر ، إنّما تنتصر الرســالة التي يلتفّ حولها الناس ويدافعون عنها.

إنّ البعض يســتعجل فضّ الخلافــات ، ويريد ذلك في أسرع وقت ، ولذلك يبيّن القرآن هنا فكـرة سـبق أن بيّنها في أكـثر من موقع ، وهي عـدم اسـتبعاد السـاعة ، وإنّما توقّعها في كل حين.

بينات من الآيات :

[14] إنّ العامل الأقوى في اختلاف النـاس وتفـرّقهم ليس هو الجهل بـالحق ، لأنّ الحق غالبا ما يكـون واضـحا بيّنا ، وإنّما يختلفــون بســبب شــهواتهم وأهــوائهم الــتي تقــــودهم للبغي على بعضــــهم ، فهم المســــؤولون عن الخلافــات الــتي بينهم. أو ليس قد جــاءهم من الله العلم حتى يقضي عليها؟

(**وَما تَفَرَّقُـوا إِلَّا مِنْ بَعْـدِ ما جــاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيــاً بَيْنَهُمْ**)

وربّنا يمهل النــاس في تفــرّقهم ، ولكنّه لا يهملهم إذ سبقت منه كلمة أن يعطيهم الفرصة لاختبار إرادتهم ، ولو لا ذلك لكان ينهي الصـراعات الى صـالح الحق في أسـرع وقت ، ويهلك أهل الباطل بلا إمهال.

(**وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَـبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**)

ومن أسباب تفـرّق النـاس أيضا : ابتعـادهم عن القيم التي تمثّل ضمان الوحدة ..

(**وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْـدِهِمْ لَفِي شَـكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**)

فبينما كــان الكتــاب وســيلة للوحــدة عند الأجيــال الملتزمة التي آمنت به وعملت

بآياته ، أصـــبح الشك فيه عـــاملا خطـــيرا في التمـــزّق والتفرقة.

وهكذا أوصت الآية بالعلاج الجذري للخلافات البشـرية التي تنبعث من اتباع الأهواء والظلم على بعضـهم (البغي) ذلك هو روح اليقين في الكتاب ، والابتعاد عن حالة الشك والـتردّد فيه ، كما أشـارت الى سـنة الـتراخي عن اليقين بسـبب طـول الأمد ، حيث يختلف الالـتزام بالكتـاب بين الجيل الذي هبط فيه الكتاب ، وبين الذين أورثوا الكتاب ، والشك المريب هو الشك المتعلّق الذي يثير الاضطراب.

[15] وحيث قضى الله ســبحانه في كتابه بـــالحق ، يجب على الرســول وعلى كــلّ مــؤمن أن يــدعو إليه ، ويسـتقيم على نهجه بالتحصّـن ضد الأهـواء والصـراعات ، لأنّه لو زاغ المؤمن الى جانب من جـوانب الصـراع لانتهى دوره في الهيمنة على الخلافات الاجتماعية.

(**فَلِــذلِكَ فَــادْعُ وَاسْــتَقِمْ كَما أُمِــرْتَ وَلا تَتَّبِــعْ أَهْواءَهُمْ**)

إنّما اتبع الهــدى المــوحى إليك من ربّك ، بعيــدا عن الضغوط والدعايات.

هنا يأمر القرآن الرسول ومن خلاله كل من اتبعه أوّلا : بالـــــدعوة ، وإعلان الكلمة الصـــــادقة (ومن ثمّ إعلان المواجهة مع الكفر) .

ثانيا : بالاستقامة ، بالصبر على الأذى الذي يلحقه من جرّاء الدعوة.

ثالثا : بجعل القرآن منهاجا للعمل.

رابعا : عدم التنازل عن الدعوة تحت ضغوط الآخرين الذين يتبعون أهواءهم ، لكي يبقى الدّين خالصا لله.

(**وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ**)

لأنّ الميزان هو الوحي ، وكما أوحى الله الكتاب على نبيّه محمد (ص) فقد أوحى الى موسى وعيسى عليهما السـلام ، وإعلان الرسـول أنّه مـؤمن بسـائر الرسـالات الإلهيّة شـاهد على أنّ دعوته لا تشـوبها ذرّة من الذاتية ، إنّما هي دعوة خالصة الى الله والى كتبه ورسـالاته جميعا ، وهكذا ينبغي أن يكون محـور الإنسـان هو الحق ، سـواء كان متمثّلا فيما عنده أو عند الآخرين.

(**وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**)

على ضوء منهاج الكتـاب ، لأنّ العدالة وحـدها الكفيلة برفع أنـواع الخلافـات فيـه. أليس البغي جـذر كـلّ خلاف؟ كذلك العدل أرضية الوحدة ، وحين لا يكون العدل يتهـاوى عرش التجمّع على أطرافه! يقول الإمام علي (ع) :

«**وإنّ أفضل قـرّة عين الـولاة اسـتقامة العـدل في البلاد**» (1)

(**اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ**)

وما دمنا متسـاوون أمـام الله لأنّنا خلقه وهو ربّنا ، فإنّنا متسـاوون أمـام القـانون وهو كتابه عـزّ وجل ، ومن هذا المنطلق ترتكز العدالة على تحمّل كـلّ إنسـان جـزاء عمله لا الآخرين.

(**لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ**)

فكـلّ واحد يتحمّل تبعة عمله ، دون أن يقـدر على إلقائها على الآخرين بعذر أو بآخر. وهذه البصـيرة ذات أثر عظيم في إثارة وتحريك الفكر ، ووقف حالة

---

(1) نهج / كتاب (53) .

الاسترسال.

(**لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ**)

لا جـدال ولا خصـومة فقد بـان الحق وظهر أمر الله ، ولسنا نريد أن نكرهكم على قبول الحق ، لأنّ قبول الحق ينفعكم قبل أن ينفعنا ، ورفضه يضرّكم ولا يضرّنا.

وتـوحي الآية بأنّه لا يمكن للإنسـان إخضـاع الآخـرين بالجدل لأفكاره.

(**اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا**)

غدا عند الميزان الحق ، ويفصل بين الخلافات.

(**وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**)

فيجازي المسيء ، ويثيب المحسن.

فعلى المؤمن أن يبلّغ رسالته الى الناس دون جـبر أو إكـراه ، فـإن قبلـوا اهتـدوا ، وإن رفضـوا وكفـروا فـإنّهم جميعا سوف يحضـرون يـوم القيامة للحسـاب حيث يقـرّر الربّ مصير الجميع.

[16] ولكي لا يتصـوّر البعض أنّ تـرك الجـدال الـذي أمر به في خاتمة الآية السابقة يعـني أن الجميع على حق ، بيّن السـياق عاقبة المجـادلين بالباطل ، ليـدحض هـذه الفكرة الفاسـدة الـتي وجد لها أنصـار في التـاريخ ، حيث زعموا صـواب كـلّ القضـاة الـذين يحكمـون في موضـوع واحد بفتـاوى مختلفة ، وقد فنّد الإمـام علي (ع) هـذه الفكرة حيث قال :

«**ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكـام فيحكم فيها برأيه ، ثمّ ترد**

تلك القضـية على غــيره فيحكم فيها بخلاف قوله ، ثمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضـاهم فيصـــوّب آراءهم جميعا ، وإلههم واحـــد! ونـــبيّهم واحـــد! وكتـــابهم واحــد! أفــأمرهم الله ســبحانه بالاختلاف فأطاعوه! أم نهاهم عنه فعصوه؟!» [1]

إنّ للحق والباطل مقاييس ثابتة وواضـحة ، والله عـزّ وجل ينصر الحق عند ما يحين الأجل المسمّى عنده.

(**وَالَّذِينَ يُحَـاجُّونَ فِي اللـهِ مِنْ بَعْـدِ ما اسْـتُجِيبَ لَهُ**)

أي يحـــاجّون الرســـول (ص) في مناهجه ورســـالاته الإلهية وقد تبيّن لهم أنّه على الحق بعد استجابة الله له.

(**حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**)

يدحضها بالمقاييس والسنن الثابتة ، وبإرادته المطلقة منطقيّا وعمليّا ، حيث ينتقم منهم في الدنيا والآخرة.

(**وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ**)

لقد تجلّى الحق على يد الرســول بــأظهر شـــواهده وأســـنى آياته ، ولقد بـــادر أصـــحاب القلـــوب الزكيّة الى الاســـتجابة للرســـالة ، واســـتجاب الله دعواته الخالصة بالنصـر. ألم يعـدهم بـذلك حين قـال : (**إِنْ تَنْصُرُوا اللـهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**) .

فما بقي عــذر لهــؤلاء الــذين يحــاجّون في الله ، ولا يسلّمون أمرهم لرسوله ، وحان

---

(1) نهج / خطبة (18) ص (60) .

ميعـــادهم ، فحجتهم داحضة ، ليس فقط لأنّها باطلة ، بل وأيضا لأنّ الاستجابة للرسالة هيّأت أرضـية نصر الله لها .. وسـوف تتـوالى عليهم الهـزائم الفكرية (بـدحض حجتهم) والدنيوية والسياســـية (بـــأنّ عليهم الغضب المتمثّل في الفشل) والأخروية (بأنّ لهم العذاب الشديد) .

ومن هنا نعرف أنّه حين يستجيب فريق للرسـالة فإنّه يقترب ميعاد نصرها من عند الله ، وتكون حجة المعانـدين داحضة ، وسعيهم في ضلال.

[17] ومن المقـاييس الـتي يعـرف الحق بها القـرآن بآياته البيّنة الواضحة ثمّ الميزان.

(**اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ**)

جملة الحقـائق ، ابتـداء من التـذكرة بالله وأسـمائه الحســـنى وآياته في الأنفس والآفـــاق ، واســـتمرارا مع تبصـرة الإنسـان بنفسه وشـفاء أدوائه ، وانتهـاء بالأحكـام التي تفصل بين الناس بالعدل.

(**وَالْمِيزانَ**)

وقد أنزله الله علينا حين هـــدانا اليه لنطبّق العـــدل بيننا.

وقد اختلف المفسـرون في معـنى المـيزان ، فقـال البعض : إنّه مجمل الأحكــام الشــرعية الــتي جــاءت بها الرســالات. أو ليست تفصل بين العبــاد ، وتحــدّد حقــوق وواجبات كلّ واحد بالنسبة الى الآخـرين ، وإنّ المعـنى إنّ الله أنزل الميزان في الكتـاب ، الـذي ليس فقط يشـتمل على الحق بل ويفصّله ضمن موازين أي أنظمة عادلة.

وقال أكثر المفسّرين : إنّه العدل ، ولكن لم يذكروا كيف أنزله الله.

وقال البعض : إنّه هذا الميزان الذي يقيس به الناس أشياءهم ، ولم يحدّد هو الآخر كيف أنزله الله.

ولكن يبدو لي أنّ الميزان ـ هنا ـ شيء آخر أنزله الله الى جانب الكتاب ، ويشهد على ذلك أنّه لم يعطف كلمة الميزان إلى الحق بأن يقول : أنزل الكتاب بالحق وبالميزان.

وقد قال ربّنا في سورة الحديد : (**وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**) [(1)]

وقال سبحانه في سورة الرحمن : (**وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ**) [(2)]

وقال تعالى في سورة الأعراف : (**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ**) [(3)]

فالميزان ـ إذا ـ قيم الكتاب ، وأوضح معانيه هذا الذي يتعارف الناس عليه في قياس سلعهم ، وفي تحديد حقوق بعضهم على البعض ، ويبقى السؤال : كيف أنزله الله؟

الجواب : إنّ الله أنزل على الإنسان العقل ، وضمّنه مقاييس ثابتة ، وعلّمه

---

(1) الحديد / (25) .

(2) الرحمن / (7 ـ 8) .

(3) الأعراف / (85) .

كيف يعكس هـذه المقـاييس العقلية على أجهـزة وأدوات وقـوانين وتشـريعات يقيس بها الأشـياء ، وأمر في كتابه الناس الى الالتزام بما تعارفوا عليه بعقولهم.

وإنّما بعث الرسل ليوقظوا العقل من سباته ، ويفكّوه من أغلاله ، ويفتحـوا عن عقـول النـاس أقفالها ، ويرفعـوا حجبها.

وحين توافق الكتـاب والمـيزان ، عـرف النـاس بما لـديهم من مـيزان إلهي (وهو العقـل) صـدق الرسـالة ، وعلمـوا بهداية عقـولهم أنّ دعـوة الرسل صـادقة ، لأنّها تتناغم وما يجدونه بنور عقولهم.

والرسل عليهم السلام وأوصياؤهم الصادقون يمثّلـون بحق هـذا المـيزان في الشـؤون الحياتية ، لأنّهم يهـدون بـالحق ، ويسـعون الى الخـير ، ويـأمرون بـالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويخالفون أهواءهم ، ويلـتزمون بدقة متناهية بالأحكام الـتي يـأمرون النـاس بها ، فهم المـيزان الصـادق بين الحق والباطل ، وهم القضـاء العـدول بين الناس ، وهم القسطاس المستقيم في المعارف الإلهية.

ومن هنا قال بعض المفسـرين : إنّ المـراد بـالميزان النبي محمد (ص) [1] .

ولعلّ التفسير الشـائع بين المفسـرين يعـود الى هـذا المعـنى حيث قـالوا أنّ المـيزان هو العـدل ، إلّا أنّهم لم يذكروا كيف يقام العـدل. أو ليس بحـاكم عـادل يـأمر الله باتّباعه ، والتحـاكم إليه ، والتسـليم لقضـائه ، كما قـال سـبحانه : (**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيما شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِـدُوا فِي أَنْفُسِـهِمْ حَرَجـاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**) [2]

(1) فتح القدير / ج (4) ص (531) .
(2) النساء / (65) .

كما أنّ ذكر الميزان في سياق سـورة الشـورى الـتي تمحـورت حـول فضّ الخلافـات يـدلّ على أهميّة القيـادة العادلة في القضاء على الصراعات الاجتماعية.

ولا تتمّ معرفة الله إلّا بالعقل ، جـــاء في الحـــديث المأثور عن الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ :

إن الله جل وعز أكمل للنـــاس الحجج بـــالعقول ، وأفضى إليهم بالبيان ، ودلهم على ربوبيته بالأدلة [1]

كما لا تتمّ معرفة الإمام الصادق (ع) النـاطق عن الله إلّا بالعقل أي بتلك المـوازين الثابتة الـتي أودعها الله في ضمير كلّ واحد من أبناء البشر.

جاء في الحديث عن الإمام الكاظم (ع) :

«**نصب الخلق لطاعة الله ، ولا نجـاة إلّا بالطاعة ، والطاعة بالعلم ، والعلم بـالتعلّم ، والتعلّم بالعقل يعتقد ، ولا علم إلّا من عالم ربّاني ، ومعرفة العـالم بالعقل**» [2]

إنّ الكتـاب والرسـول حجة الله الظـاهرة ، ولا يمكن الاهتـــداء إليها إلا بالعقل ، الـــذي هو حجة الله الباطنة ، والى ذلك أشار الحديث المروي عن الإمام الكاظم (ع) :

«**إنّ لله على النـــاس حجـــتين : حجة ظـــاهرة ، وحجة باطنة ، فأمّا الظـــاهرة فالرسل والأنبيـــاء والأئمة ، وأمّا الباطنة فالعقول**» [3]

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج (1) ص (132) .
(2) المصدر / ص (128) .
(3) المصدر / ص (137) .

أنى ذهبت وأيّ شــخص ســألت فســوف تجد ذات المقـاييس العقلية عنـده ، والـتي يـؤمن بها جميع البشر ، وهي الحجة القائمة بينهم ، الصــدق والشــجاعة والوفــاء والإيثــار والعـدل والعفو والإحســان إنّها فضـائل لا يختلف فيها النــاس .. وذلك هو المـيزان الـذي أنزله الله للنـاس ليقومـوا بالقسط ، وبهـذه المقـاييس الثابتة يختـار النـاس إمـامهم العـادل ليطبّق العدالة بينهم ، ففي حـوار مفصّـل بين ابن الســكّيت (إمــام اللغة المعــروف) وبين الإمــام الرضا (ع) يســأل ابن الســكّيت : فما الحجة على الخلق اليوم؟ فقال الرضا (ع) : «العقل تعـرف به الصـادق على الله فتصــدقه ، والكــاذب على الله فتكذّبــه» ، فقــال ابن السكّيت : هذا هو والله الجواب [1] .

ولكن تبقى مشكلة البشر الغفلة وعصيان ما تـأمر به العقول ، ولعلاج هذه الحالة لا بد من إيقاظ العقل بالإنذار .. وهكـذا ذكّر السـياق بالسـاعة بعد ما بيّن المـيزان ، لأنّ تذكّر الساعة حيث يفصل الله بين عباده ، وحيث أخّر الله الموازين القسط إليها ، يهزّ أعماق البشر.

وأعظم ما في الساعة إخفاؤها. متى تقـوم السـاعة؟ ومتى تقوم قيامة كلّ واحد منّا بالموت الذي لا يفصله عن الســاعة شــيء؟ ألا تـرى كيف يتســاءل النـاس في يـوم البعث : كم لبثتم؟ فإذا بهم يقولـون : يوما أو بعض يـوم ، وهم قد لبثوا الى يوم البعث؟!

وما دام يوم البعث خفيّا عنا فلا بد من الاجتهاد أبدا.

(**وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**)

وكفى بالموت الذي يزور البشر في أيّة لحظة واعظا ، وهذا من أهمّ أهداف ستر

---

(1) المصدر / ص (105) .

الأجل عن الإنسان ، وفي الحديث قال الإمام علي (ع) :

«ما أنـزل المـوت حـقّ منزلته من عـدّ غـدا من أجله» [1]

[18] ولو تـدبّر الإنسـان في السـاعة أصـلح نفسه ، بينما لا تعني شيئا بالنسبة للآخر الضّال ، بل يـزداد بسـبب ذكر الآخرة ضلالا ، لأنّه لا يعي حقيقة الساعة.

(**يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُـوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُ**)

فترتعد فرائصـــهم من خـــوف هولها ، بينما تتعمّق عقيـــدتهم في الحق وبصـــيرتهم في الحيـــاة بـــذكرها ، والخشـية مـيزان العقل ففي وصـفه للمتقين يؤكّد الإمـام علي (ع) على عمق خوفهم من الله إذ يقول :

«وإذ مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسـامع قلوبهم ، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حـانون على أوسـاطهم ، مفترشـون لجبـاههم وأكفّهم وركبهم ، وأطـراف أقـدامهم ، يطلبون الى الله تعالى في فكاك رقابهم»

هذا عن بعض حالهم في الليل.

«وأمّا النهار فحلمـاء علمـاء ، أبـرار أتقيـاء ، قد بـراهم الخـوف بـري القـداح ، ينظر إليهم النـاظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ويقول : لقد خولطوا» [2]

هذا هو حال المؤمنين ، وهذا هو خوفهم من الساعة ، وهو يكفي لنا مقياسا لمعرفة

---

(1) المصدر / ج (6) ص (130) .

(2) نهج / خطبة (193) ص (304) .

مدى ضلال الكـافرين والمشـركين وغـيرهم ممن لا يتعظ بذكر القيامة ، بل ويتخذ الحياة لعبا ولهوا.

(**أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمـارُونَ فِي السَّـاعَةِ لَفِي ضَـلالٍ بَعِيدٍ**)

وهذا بسبب شكّهم في القيامة والجزاء ، وكلّ إنسـان يشك في جــزاء أعماله لا يتحمّل المســؤولية تجاهها ، بل ويعيش متهاونا في حياته ممّا يعمّق الضلالة عنـده ، حـتى يصل الى حـدّ بعيد في الضـلال لا يمكنه معه الاهتـداء الى أدنى مراتب الحق.

اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22)

---

20 [حرث الآخرة] : أي زرعه ، فكأنّ العمل بذر يعطي هناك ثماره.

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ

هدى من الآيات :

خشـية الإنسـان من أن يفوته رزقه ، وبالتـالي سـعيه من أجل الحصول عليه ، وكـذلك اتباعه الشـرائع البشـرية الضـــالة ، هما من العوامل الأساســـية الـــتي تفـــرّق المجتمعات عن الدين الحق ، وإذ يـبيّن القـرآن خطورتهما يعالج مرض النفس ببعث الاطمئنان فيها عـبر التأكيد على ضمان الله للرزق ، كما أنّه يداوي مرض الحرص بالتحذير من أهوال الساعة ، والترغيب في نعيم الآخرة.

بينات من الآيات :

[19] لقد تكفّل ربنا بـالرزق لعبـاده بما وفّر لهم من وســائل العيش في الحيــاة ، ولو تــدبّرنا في رزق البشر لعرفنا لطف ربنا ، وحسن تدبيره.

(**اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ**)

قـالوا : اللطيف العـالم بخفيّـات الأمـور والغيـوب ، والمراد به هنا : الموصل المنافع

الى العبـاد من وجه يـدقّ إدراكه ، وذلك في الأرزاق الـتي قسّــمها الله لعبــاده ، وحــرف الآفــات عنهم ، وإيصــال السرور والملاذّ إليهم ، وتمكينهم بالقدرة والآلات.[1]

ويبـدو لي أنّ معـنى اللطيف أنّه تعـالى يـدبّر شـؤون خلقه بدقّة ويسر وتنوّع حكيم الى حـدّ قد يسـير الإنسـان في تطبيقها بدوافع لا تبدو واضـحة له ، كما أشـار القـرآن الى ذلك بقوله : (**وَما تَـدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِــبُ غَـداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**)[2]

والكثير من الناس يخطّطـون لأنفسـهم ، ولكنهم عند تطبيق ما رسموه يكتشفون عقبات جديدة لم يحتسبوها ، بينما يـأتيهم ما تمنّـوه سـعيا من حيث لم يحتسـبوا ، مما يدلّ على أنّ ما يدبّره الربّ من شـؤونهم أكـبر بكثـير مما خوّل إليهم منها.

وهذا من آيات لطف الله في تدبير الأمر ، وإليه أشار الإمام علي (ع) :

«**عــرفت الله ســبحانه بفسخ العــزائم ، وحــلّ العقود ، ونقض الهمم**»[3]

ومن تــدبّر حيــاة النــاس وجد الكثــير ممن يتمنّــون مسـتقبلا معيّنا ينتهـون الى غـيره ، فالـذي قـدّر أن يصـبح مهندسا أضحى عالما بالـدين أو تـاجرا ، لأنّ الله لم يجعل رزقه إلّا في هــذه المهنة أو تلك ، فلما ذا يختلف النــاس إذن ، ويشــعلون نـــار الصـــراعات بينهم من أجل لقمة العيش التي يقدّرها الله؟!

(**يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ**)

وما دام الرزق مضمونا من عند الله فلما ذا اكتسـاب الموبقات ، وابتداع المذاهب

---

(1) مجمع البيان / ج (9) ص (27) .
(2) لقمان / (34) .
(3) نهج / حكمة (250) ص (511) .

الباطلة ، والشرك بالله عبر تأييد السلطات الظالمة؟

إنّ دوافع الشـــرك كثـــيرة ، ولكن من أبرزها طلب الرزق ، والحديث المأثور التالي يقصّ علينا حياة واحد من الذين أشركوا بربّهم طلبا للرزق الحرام ، وكـانت نهـايتهم السوئى ، وفيه عبرة مؤثرة :

قال الإمام الصادق (ع) :

«كـان رجل في الـزمن الأوّل طلب الـدنيا من حلال فلم يقدر عليها ، وطلبها من حرام فلم يقـدر عليها ، فأتـاه الشـيطان فقـال له : يا هـذا إنّك قد طلبت الـدنيا من حلال فلم تقـدر عليها ، وطلبتها من حـرام فلم تقـدر عليها ، أفلا أدلّك على شـيء تكثر به دنياك ، ويكثر به تبعـك؟ قـال : بلى ، قـال : تبتدع دينا ، وتـدعو اليه النـاس ، ففعل ، فاسـتجاب له النـاس ، وأطـاعوه ، وأصـاب من الـدنيا ، ثم فكّر فقال : ما صنعت؟ ابتدعت دينا ، ودعوت النـاس! ما أرى لي توبة إلّا أن آتي من دعوته اليه فـأردّه عنه ، فجعل يأتي أصحابه الـذين أجـابوه فيقـول لهم : إنّ الـذي دعـوتكم إليه باطل ، وإنّما ابتدعته ، فجعلـوا يقولون : كذبت وهو الحق ، ولكنّك شككت في دينك فـــرجعت عنه ، فلمّا رأى ذلك عمد الى سلســلة فوتـدها وتـدا ثم جعلها في عنقه ، وقـال : لا أحلّها حتى يتوب الله عزّ وجلّ علي ، فأوحى الله عزّ وجلّ الى نـــبيّ من الأنبيـــاء : قل لفلان ، وعـــزّتي لو دعوتني حتى تنقطع أوصالك ما استجبت لك ، حـتى تردّ من مات الى ما دعوته اليه فيرجع عنه» [1]

ولو أنّ الإنسان اتبع منهاج الرسالة لرزقه الله بصورة أو بـــأخرى ، قـــال الله :

(**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**) . [2]

---

(1) بح / ج (72) ص (219) .

(2) الطلاق / (2 ـ 3) .

(**وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**)

العزيز هو المهيمن ، والسلطان المقتدر الذي يفـرض أمره على الناس.

[20] ولكي يهذب القرآن دوافع الكسب عند الإنسان حتى لا يبعثه نحو الشرك بالله والصراع مع أقرانه ، يقارن بين ما يكتسـبه الإنسـان لـدنياه وما يسـعى اليه لآخرته ، فيقول :

(**مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**)

حيث يبارك الله له في سعيه الأخروي ، ويضـاعف له الجزاء عند الحسـاب ، فـإذا بعمله يتنـامى من حين قيامه به حـــتى يجـــزى عليه ، أو لم يقل ربّنا : (**مَثَـــلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْـوالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ كَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَـهُ يُضـاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**) . [1]

ولكن الذي يريد الدنيا بسـعيه فإنّه لا يحصل على كـلّ أمانيه وإنّما يحصل على جزء منها ، ثم إنّه يعدم أيّ نصيب له في الآخرة.

(**وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ**)

إذن فعليه أن يسـعى من أجل الآخـرة عـبر القـرآن الـــذي ليس فقط يهـــدي الى العلاج السـليم بل وأيضا يتضـمّن العلاج بذاته ، وهنا يعـالج حـرص النفس البشـرية على الدنيا بإيصال فكر الإنسان بالآخرة من خلال التـذكير بها ، وحثّه على أن لا يجعلها همّه الأكـبر فيختلف بسـببها مع الآخرين ، أو يتصوّرها محور الحياة الذي

---

(1) البقرة / (261) .

يـؤوّل الأمـور على ضـوئه ، كما فعل مـاركس حين اعتـبر الإقتصاد والطبقية أساس الصراع.

إنّه لا يمكن علاج مشـــاكل الإنســـان السياســـية والاجتماعية وغيرها إلّا إذا ترفّع عن التبعية المطلقة للدنيا ولشهواتها ، ولو تساءلنا عن علّة نمـوّ الرأسـمالية في أيّ بلد ، الذي ينتهي الى تسلّط الأغنياء على الأمم ، لوجـدناه حبّ المال الذي يجعل الناس عبيدا وأصـحاب الـثروة آلهة مزيّفة.

ومن جهة أخـــرى يمهّد للحكم الطـــاغوتي ، فـــإذا بمجموعة من النـــاس يتســلّطون على النـــاس من خلال سـيطرتهم على خـيرات الشـعوب ومواردها الاقتصـادية ، الأمر الذي ينتهي الى الفساد السياسي ، ولو فكّرنا عميقا في عوامل الفسـاد السياسي في السياسة ، لرأينا الطمع والخـوف والجهل من أبـرز هـذه العوامـل. ولعـلّ عامل الطمع الناشئ من حبّ الـدنيا في رأس القائمة ، لا فـرق في ذلك بين النظام الرأسمالي والاشتراكي ، فبينما يــدير أصـحاب الـثروة ك (روكفلـر) من خلال شـركاتهم الـتي تحتكر الموارد الاقتصادية الأمريكية بصورة غير مباشـرة ، نجد الحـزب في أيّ بلد شـيوعي يـدير السياسة من خلال سيطرته على المـوارد الاقتصـادية أيضا ، وبالتـالي السـيد الحقيقي هنا وهناك واحد وهو المال ، بـالرغم من اختلاف طريقة الحصـول عليه ، ففي النظـام الرأسـمالي يحتكر أصحاب الثروة (وهم في الواقع أرباب السلطة الحقيقيـة) المـــال باسم الملكية الفردية ، بينما نجد في النظـــام الشيوعي يحتكر أصحاب السلطة الـثروة (وهم في الواقع الرأسماليّون الجدد) باسم الملكية الجماعية ، وهنا وهنـاك المال.

وحتى سـبب خضـوع الشـعب واحد وهو حبّه للمـال ، سواء كان هذا المال بيد الدولة أو كان بيد أصحاب الثروة.

فمن أجل تلافي معظم الصـراعات البشـرية لا بد من معالجة نقطة الضعف الرئيسية عندهم وهي عبادة الـثروة لكي لا تصبح أداة السلطة الفاسدة ، وسببا للحروب الـتي أفنت لحــدّ الآن أضـعاف ما أفنته سـائر أسـباب الوفـاة كالمجاعـات والأمـراض ، والكـوارث الطبيعية ، ولو حاولنا التقرّب الى هذه الفكرة أكثر يجب أن نعرف بأنّ مصطلح المصـالح الأمريكية ، أو المصـالح الروسـية أو ما إلى ذلك هو التعبير الواضح عن اللهث وراء الدنيا ، أو لم تدفع هذه المصـــــالح الإدارة الاميركية لقتل الملايين في فيتنـــــام وكمبوديا والسلفادور و.. و..؟ أو لم تـدعوا هـذه المصـالح الحـزب الشـيوعي الروسي لقتل الملايين في أفغانسـتان وغيرها؟!

[21] ثم هل يكتفي الإنســان بخــوض الصــراعات ، وإفساد البلاد والعبـاد ، وحسـب؟ كلّا .. بل يسـعى لتـبرير تصـــرفاته ومواقفه من خلال دين يصـــطنعه لنفسه ، ولو درسـنا الواقع الثقـافي والإعلامي في عـالم اليـوم لانتهينا الى نتيجة واحـدة ، هي أنّ أكـثر الأيـديلوجيات والثقافـات منتزعة من الواقع المصـلحي للإنسـان ، فمن أجل حماية مصالحهم تجد هذه الدولة أو ذلك الحزب يبتدعون الأفكار والنظريـات المختلفة ، فـإذا بالصـعاليك يؤسّسـون نظرية الصراع الطبقي ، بينما يبتدع المترفون إديولوجية النخبة ، والقـرآن يسـتنكر هـذا النهج ويعتـبره صـورة من صـور الشرك.

(**أَمْ لَهُمْ شُــرَكاءُ شَــرَعُوا لَهُمْ مِنَ الــدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ**)

إنَّ الشريعة التي ينبغي للإنسان اتباعها والخضـوع لها هي الموحاة من الله وحده ، أمّا الشرائع والقـوانين الـتي يبتدعها البشر ولا يرتضيها الرب فإنّ اتباعها شـرك به عـزّ وجل ، والتدبر العميق في هـذه الآية يهـدينا الى أنّ الـذي يشرّع قانونا مخالفا لشــرع الله إنّما ينصب نفسه إلها من دونه ، والــذي يســمّى في القــرآن دينا ليس القــوانين الفيزيائية والكيميائية ، إنّما القــــــوانين السياســــــية والاجتماعية والاقتصادية و.. و..

التي تحكم الناس ، وهذه لا يجوز لأحد أن يسنّ منها شـيئا إلّا على ضوء شرع الله ، ومن خلال رسالته.

وبعد أن يهدّد القرآن ـ في آية سبقت ـ الذين يثـيرون الصراعات السلبية ، أو يشرّعون القوانين ، يتوعّـدهم ربنا في هـــذه الآية بعذابه الأليم ، محـــذرا لهم من أنّ تأجيل العـــذاب ليس دليلا على الإهمـــال ، إنّما لأنّه وعـــدهم بإعطائهم الفرصة لبيـان طـبيعتهم ، والـتي لولاها لأخـذهم بالعذاب فور المعصية.

(**وَلَـــوْ لا كَلِمَـــةُ الْفَصْـــلِ لَقُضِـــيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

وتكـاد تتميّز هـذه الكلمـات إنـذارا ، فلو لا عهد الله على نفسه بإعطـــاء الفرصة لهم لكفت هـــذه الجريمة (ابتداع نظرية في غير إطار الشريعة) سببا للقضاء عليهم قضـاء تاما ، ولكنّ تلك الكلمة وذلك العهد يؤجّل العـذاب العظيم ولا يرفعه أبدا ، وإنّ الشرك ظلم بذاته وهو ينتهي الى الظلم أيضا ، إذ لا يمكن للنظـام الشـركي أن يكـون عـادلا أبـدا ، ونسـتوحي هـذه البصـيرة من تبـديل كلمة المشركين بالظالمين.

[22] وفي يـوم القيامة حيث تنصب المـوازين الحق للجـزاء يخـاف الظـالمون من أعمـالهم السـيئة الـتي اجترحوها في الدنيا ، فهي حينئذ تصير ألوانا من العـذاب ، ولكن هل يمنع هذا الخوف عنهم شيئا؟ كلّا .. بلى. لو أنّهم خافوا من ارتكاب المعاصي في الدنيا لنفعهم خـوفهم لأنّه حينذاك يصير سببا للتقوى ، أمّا يوم القيامة فلا ..

(**تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِـعٌ بِهِمْ**)

أي ينزل عليهم سواء أشفقوا أم لم يشفقوا.

ويأخذنا القـرآن في المقابل الى منظر منـاقض آخر ، هو منظر المؤمنين الذين تحـوّل إيمـانهم وعملهم الصـالح الى جنة ورضوان من الله.

(**وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ فِي رَوْضـاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشـاؤُنَ عِنْـدَ رَبِّهِمْ ذلِـكَ هُـوَ الْفَضْـلُ الْكَبِيرُ**)

وأيّ ريـاض هـذه الـتي يرزقها المؤمنـون؟! دعنا هنا نقرأ شيئا من كلام أمير المؤمنين عنها ..

يقول (ع) :

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الـدنيا من شـهواتها ولـــذّاتها ، وزخـــارف مناظرها ، ولـــذهلت بـــالفكر في اصـطفاق أشـجار ، غيّبت عروقها في كثبـان المسك على سـواحل أنهارها ، وفي تعليق كبـائس اللؤلؤ الـرطب في عسـاليجها وأفنانها ، وطلـوع تلك الثمـار مختلفة في غلف أكمامها ، تجنى من غـير تكلّف فتـأتي على منية مجتنيها ، ويطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصـفقّة ، والخمـور المروّقة ، قـوم لم تـزل الكرامة تتمـادى بهم حتى حلّوا دار القرار ، وأمنـوا نقلة الأسـفار ، فلو شـغلت قلبك أيّها المسـتمع بالوصـول الى ما يهجم عليك من تلك المنـاظر المونقة ، لـزهقت نفسك شـوقا إليها ، ولتحمّلت من مجلسي هـذا الى مجـاورة أهل القبـور اسـتعجالا بها ، جعلنا الله وإيـاكم ممّن يسـعى بقلبه الى منـازل الأبـرار برحمته» [1]

---

(1) نهج / خطبة (165) ص (239) .

ذلِـكَ الَّذِي يُبَشِّـرُ اللـهُ عِبـادَهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِلاَّ الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَـرِفْ حَسَـنَةً نَـزِدْ لَـهُ فِيها حُسْـناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) أَمْ يَقُولُونَ افْتَـرى عَلَى اللـهِ كَـذِباً فَـإِنْ يَشَـإِ اللـهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِـكَ وَيَمْحُ اللـهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَـلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبـادِهِ وَيَعْفُـوا عَنِ السَّـيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُـونَ (25) وَيَسْـتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ وَيَزِيـدُهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26)

لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً

إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى

هدى من الآيات :

في إطـــار معالجة القـــرآن الحكيم للاختلاف معالجة شاملة ، وبعد أن يردع من اتباع الشـركاء الـذين لم يـأذن الله لهم بالتشريع ، يأتي السياق ليبين :

أوّلا : جزاء الصالحين الذين يجتنبون الطاغوت.

ثانيا : القيـادة الشـرعية البديلة المتمثّلة في أقــرب النـاس الى الرسـول نهجا ونسـبا ، ويبشّـر الـربّ الـذين يقترفون حبّ آل الرسول بزيادة في الأجر ، وأن يشملهم بمغفرته الواسعة وشكره الجزيل.

ثم يــبيّن القــرآن الحكيم لنا بــأنّ طاعة الله ومــودة القربى سوف تجلب للإنسان حسنات في الدنيا والآخرة ، وبعد أن يحــدّثنا ربنا عن مقالة افتراها الكفّــار في شــأن الرسول يبيّن بأنّ هـذا الكلام فاشل وباطل ، والسـبب أنّ الله سـبحانه وتعـالى هو لـذي بعث بالرسـالة ، ولو شـاء لمحى هذه الآية وجاء بآية أخرى ، فالله هو صاحب

لرسالة وليس الرسول.

ثم يــبيّن طائفة من أســماء الله ســبحانه وتعــالى وصــفاته الحســنى ، منها : قبــول التوبة ، والعفو عن السيئات ، والعلم بأعمال الناس ونواياهم القلبية.

بينات من الآيات :

[23] من العوامل الأساسـية الـتي تـؤدي الى الفرقة بين أبنـاء المجتمع ، هو مـرض الحـرص على الـدنيا الـذي يعالجه القرآن في هـذه السـورة الكريمة بطـرق شـتى .. ومنها أنّه يعظّم في نفوس المؤمـنين الآخـرة وما فيها من نعم وخلود حتى يسلّون عن طعام الدنيا.

ونتسـاءل : لمـاذا القـرآن الحكيم كلّما عـالج انحرافا في حياة الإنسان بيّن حقائق عن الآخرة؟

يجيب عن ذلك حـديث كـريم مـروي عن الإمـام زين العابـــــدين (ع) يعكس العلاقة بين معالجة النفس وبين التذكرة بالآخرة ، فيقول :

«**حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة**»

وبالمقابل يكون استصـغار الـدنيا وتهوينها رمـزا لكـلّ فضيلة ، ومدخلا لكل خير.

كما أنّ طريق الســيطرة على الــدنيا والهيمنة عليها وعلى ما فيها من خـيرات ، هو الاسـتهانة بهـا. إنّك مثلا لا تستطيع أن تسيطر على سـيارة تخشى منها ، وكـذلك إذا خفت من سلطان ظالم فإنّك لن تتمكّن من القضـاء عليه ، فالهيبة قرنت بالخيبة ، وقـرن الخـوف بالفشل ، وهكـذا الدنيا حينما نخشاها ، ونـدور في فلكها ، فإنّنا لن نسـتطيع السيطرة والهيمنة عليها.

أمّا إذا عكســنا الأمر ، واســتهنا بالــدنيا ، وهوّناها في أنفسنا ، وعظّمنا في المقابل

أنفسـنا وأكرمناها ، فآنئذ نسـتطيع أن نسـيطر عليهما من دون إسراف أو طغيان.

(**ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحاتِ**)

يبشّرنا الله بفضل كبـير ، وبجنـات فيها كـلّ ما نريد ، وأكرم به وعـدا صـادقا ، وفضلا كبـيرا ، ولكن هـذا الفضل الكبـير مقـترن بعمل كبـير هو المـودة في القـربى الـتي جعلت بمثابة أجر على الرسالة ، فقال ربنا :

(**قُــلْ لا أَسْــئَلُكُمْ عَلَيْــهِ أَجْــراً إِلَّا الْمَــوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**)

ونتساءل :

1 ـ ما هو المفهوم من كلمة القربى؟

2 ـ لماذا جـاء هـذا الموضـوع في سـياق موضـوعات الوحدة في القرآن الحكيم؟

3 ـ لمـاذا لم يـأمر القـرآن بطاعة ذوي القـربى بل بمودتهم؟

أولا : من هم القربى؟

وقد استفاضت الأحـاديث حـول هـذه الآية وتفسـيرها وكيف نزلت ، وبالرغم من أنّها تعالج قضـية القيـادة الـتي كانت ولا تزال محورا لخلافات المسـلمين ، إلّا أنّ تفسـير الآية حظي بقـدر كبـير من الاتفـاق بين علمـاء المسـلمين حسب النصــوص التالية الــتي ننقلها من تفســير (الــدرّ المنثــور في التفســير بالمــأثور) للعلّامة الســيوطي ، ولأهميتها البالغة نفيض في بيانها مفصّلا :

أخــــرج ابن جرير وابن أبي حـــاتم وابن مردويه من طريق مقسّــم عن ابن عبــاس رضي الله عنهما قــال :

«قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخروا ، فقال ابن

عبـــــاس رضي الله عنهما : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فأتـاهم في مجالسـهم فقـال : يا معشر الأنصـار! ألم تكونـوا أذلّة فـأعزّكم اللـه؟ قـالوا : بلى. يا رسـول الله ، قـال : أفلا تجيبـوني؟ قـالوا : ما نقـول يا رسول الله؟ قال : ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك. أو لم يكـذّبوك فصـدّقناك. أو لم يخـذلوك فنصـرناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله ، فنزلت : (**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْـراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**) .

وأخـــرج الطـــبراني في الأوسط وابن مردويه بســـند ضعيف من طريق سـعيد بن جبـير قـال : «قـالت الأنصـار فيما بينهم لو لا جمعنا لرسول الله (ص) مالا يبسط يده لا يحـول بينه وبينه أحد ، فقـالوا : يا رسـول الله إنّا أردنا أن نجمع لك من أموالنا ، فـــــــــــــــــــــأنزل الله : (**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُـرْبى**) فخرجوا مختلفين ، فقالوا : لمن ترون ما قال رسول الله (ص)؟ فقـال بعضـهم : إنّما قـال هـذا لنقاتل عن أهل بيته وننصرهم ، فأنزل الله : (**أَمْ يَقُولُونَ افْتَـرى عَلَى اللـهِ كَذِباً**) ... الى قوله (**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ**) فعــرض لهم بالتوبة الى قوله : (**وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**) هم الذين قالوا هذا أن يتوبوا الى الله ويستغفرونه» .

وأخــرج أبو نعيم والـديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله (ص) :

لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى أن تحفظوني في أهل بيتي وتودّوهم بي

وأخــرج ابن المنــذر وابن أبي حــاتم والطــبراني وابن مردويه بسـند ضـعيف من طريق سـعيد بن جبـير عن ابن عباس قال : لمّا نزلت هذه الآية : (**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ**

عَلَيْهِ أَجْـراً إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُـرْبى) قـالوا : يا رسـول الله من قرابتك هؤلاء الـذين وجبت مـودّتهم؟ قـال : علي وفاطمة وولداها.

وأخــرج سـعيد بن منصــور عن سـعيد بن جبـير (**إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**) قال : قربى رسول الله (ص) .

وأخــرج ابن جرير عن أبي الـديلم قــال : «لمّا جيء بعليّ بن الحسـين رضي الله عنه أسـيرا فـأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم ، فقال له علي ابن الحسين رضي الله عنه : أقرأت القـرآن؟ قـال : نعم. قـال : أقـرأت آل حم؟ قال : لا. قال : أما قرأت : (**قُلْ لا أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**)؟ قال : فـإنّكم لأنتم هم؟ قـال : نعم» .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : «**وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَـنَةً**» قـال : المـودة لآل محمد (ص) ، وأخــرج أحمد والترمـذي وصـححه والنسـائي والحـاكم عن المطلب بن ربيعة رضي الله عنه قال : دخل العباس على رسـول الله (ص) فقـال : إنّا لنخـرج فـنرى قريشا تحـدّث فـإذا رأونا سـكتوا ، فغضب رسـول الله (ص) ودرّ عـرق بين عينيه ، ثم قال :

«**والله لا يـدخل قلب امـرئ مسـلم إيمـان حـتى يحبكم لله ولقرابتي**»

وأخرج مسلم والترمذي والنسـائي عن زيد بن أرقم : ان رسول الله (ص) قال :

«**أذكركم الله في أهل بيتي**»

وأخرج الترمذي وحسّنه وابن الأنباري في المصــاحف عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قــال : قــال رســول الله (ص) :

«**إنّي تــارك فيكم ما إن تمسّــكتم به لن تضــلّوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من الســماء الى الأرض ، وعــترتي أهل بيــتي ولن يتفرّقا حــتى يــردا عليّ الحــوض ، فــانظروا كيف تخلّفوني فيهما**»

وأخرج الترمذي وحسّنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشــعب عن ابن عبــاس : قــال : قــال رســول الله (ص) :

أحبّـوا الله لما يغـذوكم به من نعمه ، وأحبّـوني لحبّ الله ، وأحبّوا أهل بيتي لحبي

وأخرج البخــاري عن أبي بكر الصــديق رضي الله عنه قــال ارقبــوا محمد (ص) في أهل بيته ، واخــرج ابن عــدي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (ص) :

«**من أبغضنا أهل البيت فهو منافق**»

وأخــرج الطــبراني عن الحسن بن علي قــال : قــال رسول الله (ص) :

«**لا يبغضــنا أحد ولا يحســدنا أحد إلّا ذيد يــوم القيامة بسياط من نار**»

وأخرج أحمد وابن حبات والحاكم عن أبي سـعيد قـال : قال رسول الله (ص) :

«**والذي نفسي بيـده لا يبغضـنا أهل الـبيت رجل إلّا أدخله الله النار**»

وأخــرج الطــبراني والخطيب من طريق ابن الضــحى عن ابن عباس قـال : جـاء العبـاس إلى رسـول الله (ص) فقال : إنّك قد تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذي صنعت ، فقال النبي (ص):

«**لا يبلغوا الخير أو الإيمان حتى يحبّوكم**»

وأخرج الخطيب عن طريق أبي الضحى عن مسـروق عن عائشة رضي الله عنها قــالت : أتى العبــاس بن عبد المطلب رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله إنّا لنعرف الضغائن في أناس من قومنا من وقائع أوقعناها ، فقال :

«**أما والله إنّهم لن يبلغـوا خـيرا حـتى يحبّـوكم لقرابتي. ترجو سـليم شـفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب**؟!» [1]

ويتســـــاءل البعض : كيف طلب رســـــول الله على رسالته أجرا ، أفلم تكن له أسـوة بسـائر الأنبيـاء ـ عليهم السـلام ـــ الـذين اتفقت كلمتهم على ألّا يطـالبوا أممهم بأجر ، قال الله سبحانه على لسـان أكـثر من نـبي : (**وَما أَسْــئَلُكُمْ عَلَيْــهِ مِنْ أَجْــرٍ إِنْ أَجْــرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ**) . [2]

وقد حـدى هـذا الاعـتراض ببعض الـرواة الى تغيـير التفسير السابق الى تفاسير أخرى ، بعضها بعيدة عن قيم الرسالات الإلهية.

ولكن إذا عرفنا أنّ الإسلام هو آخر تجلّ لنور الرسالة ، وأنّه كـــان بحاجة الى قيــادة شـــرعية نابعة من قيمه الربّانية ، تحافظ عليه من زيغ المترفين ، وإلحاد الطغـاة ، وضلالة الجـاهلين ، وأنّ الله الـذي أحكم تـدبيره في خلقه قد اختـــار لرســـالته من يحمل مشـــعلها من أهل بيت الرسول كما اجتبى من آل إبراهيم وآل يعقـوب من يحمل مشعل الرسالة من بعدهما ..

إذا عرفنا كـــلّ ذلك فإنّنا نهتـــدي الى الحكمة البالغة وراء جعل المودة في القربى أجرا للرسالة ، إذ أنّ الهدف منها ولاء القيادة الشرعية الـتي تحمل مشـعل الرسـالة ، فمن أراد أن يشـكر رسـول الله على الأذى الكبـير الـذي يتحمّله من أجل تبليغ الرسالة

---

(1) الدر المنثور في التفسير بالمأثور / ج (6) ص (7) .

(2) نجد ذات الآية مكرّرة في سـورة الشـعراء ، في الآيـات : (149 ، 127 ، 145 ، 164 ، 180) .

حتى قال (ص) :

«ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت»

فلا شكر أفضل من محبة أهل بيته الذين يحملون ذات الرسالة ويبلّغونها للناس .. وهكذا يكون أجر الرسالة في مصلحة الناس أنفسهم ، ولهذا قال ربّنا سبحانه : (**قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ**) .

ولأنّ البعض لم يستوعبوا هذه الحكمة تكلّفوا في تفسير الآية بما لا يتناسب وسياقها ، فقالوا : لأنّ نبيّنا (ص) كان من أوسط قريش نسبا ، وكانت له قرابة في أكثر قبائلها ، فقد سألهم أن يودّوه لأجل قرابته معهم ، وقد نقل هذا التفسير عن ابن عباس في الحديث التالي :

«إنّ رسول الله (ص) كان واسط النسب في قريش ، ليس بطن من بطونهم إلّا وقد ولدوه فقال الله : (**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً**) على ما أدعوكم اليه (**إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**) تودّوني لقرابتي منكم ، وتحفظوني بها» [1]

وعندي أنّ هذه النصوص لا تصلح تفسيرا للقرآن للأسباب التالية :

1 ـ إنّ الآية من محكمات الذكر التي لا تدع شكّا في معناها لمن تدبّر فيها وفي سياقها من الآيات ، والمحكم لا ريب فيه ، ولا يجوز أن نتحوّل عنه اعتمادا على الحديث.

2 ـ إنّ دعوة الرسول كانت خالصة لله وطاهرة من كلّ قيمة مادية وعصبية عشائرية فكيف يدعو قومه لاتباعه باسم العصبية ولأنّه ينتسب إليهم ، فهل تصلح

---

(1) المصدر / ص (6) .

لداعية من سائر الدعاة اليوم أن يدعو ابنه إلى اتباعه لأنّه أبـوه مثلا ، أو يـدعو عشـيرته لقبـول الإسـلام لأنّه قـريب نسبيّا إليهم ، وأكثر الأنبياء كانوا من بني قــومهم ، فلما ذا لا نجد مثل هـــــــذا الكلام من أيّ واحد منهم ، وإنّما نجد الجميع يؤكّدون بأنّهم لا يطالبون من قومهم أجرا.

3 ـ إنّ الجملة (**قُـلْ لا أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِلَّا الْمَــوَدَّةَ فِي الْقُــرْبى**) حسب تلك النصــوص لا تبــدو متناسـقة ، فما هي العلاقة بين أجر الرسـالة وبين قبـول الدعوة بسبب المودة في القربى ، أليس هذا يشـابه كلام من يـأمر بالصـلاة ويقـول : لا أسـألكم أجـرا إلّا أن تصـلّوا لأنّي أخوكم؟!

ولعـدم تناسق المعـنى نجد الـذين يـذهبون الى هـذا الـرأي يختـارون في كيفية ربط معـنى الأجر بفكـرة قرابة الرسول مع قريش.

4 ـ وأخيرا إنّ الأحـاديث الـتي رويت في تفسـير الآية بمودة آل بيت الرسول أكثر عـددا ، وأقـوى سـندا ، وأشد تماسكا ، لو قسناها بالروايات الأخرى التي لا تماسك بينها ، إذ أنّها مختلفة اختلافا كبــيرا ، بينما تفسّــر الآية بهــذا المعـنى ، أو بـأنّ الرسـول طـالبهم بطاعة الله (علينا أن نبحث إذا عن كيفية اســتفادة ذلك من كلمة المــودة في القــربى) أو فسّــرها بــأن تـودّوا الله ، وأن تتقرّبــوا إليه بطاعته. [1]

وبتفصيل أكثر :

الروايـات الـتي وردت عـبر مختلف الفـرق الإسـلامية حول تفسير هذه الآية بآل البيت تبلغ أكثر من (44) حـديثا ، روي زهــاء (19) منها عن طريق أهل الــبيت (ع) وفي كتب شـــيعتهم [2] وروي (26) حــــديثا من ســـائر كتب الحديث.

---

(1) المصدر.

(2) راجع تفسير نور الثقلين / ج (4) ص (570 ـ 576) .

بينما يبلغ مجمل الروايـات المعارضة لها (6) أحـاديث فقط ، وفيها اختلاف كبــير ، بل نجد في رواية منها ينسب الى ســعيد بن جبــير الــرأي المشــهور المخــالف لتلك النصوص.

فهل يجوز ضرب (44) حديثا موحّدا في المعـنى ب (6) أحــــاديث مختلفة فيما بينها أشـــدّ الاختلاف؟ على أنّ كلمة «القـــربى» وردت في (15) موضـــعا من القـــرآن بمعــنى أقــارب الفــرد ، ممّا يؤيّد ذات المعـنى هنا أيضا ، على أنّ هـذه الأحـاديث ليست نصـوص شـرعية ، لأنها لم تــرو عن رســول الله (ص) ، وإنّما هي اجتهــادات الجيل الأوّل من المفسّـرين ، بينما الطائفة الأولى من النصـوص مروية في الأغلب عن شـخص رسـول الله ، ومن هنا نجد المفسّر المعروف الشوكاني يقول في تقرير هذا المعـنى : ولكنه يشدّ من عضد هذا. إنّه تفسير مرفوع الى رسـول الله (ص) وإسـناده عند أحمد في المســند هكـذا : حـدّثنا حسن بن موسى حدثنا قزعة بن سـويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عبــاس : أنّ النــبي (ص) .. فــذكره ، ورواه ابن أبي حـاتم عن أبيه عن مســلم بن إبــراهيم عن قزعة به ، وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنـذر وابن أبي حـاتم والطـبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشـعب. (1)

وتساءل الإمام الرازي كيف يجوز للرســول أن يطلب الأجر من أمّته على تبليغ الرسـالة ، أفلا اقتـدى نهج إخوته من المرسلين؟ فأجاب قائلا :

الجـواب عنه من وجهين : (الأوّل) : إنّ هـذا من بـاب قوله

ولا عيب فيهم غــــــير أنّ سـيوفهم ... بها من قـــراع الـــدار عين فلـــول

المعنى أنا لا أطلب منكم إلّا هـذا ، وهـذا في الحقيقة ليس أجرا لأنّ حصول

(1) تفسير فتح القدير / ج (4) ص (537) .

المــــودة بين المســـــلمين أمر واجب ، قــــال تعــــالى :
(**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيـاءُ بَعْضٍ**) وقـال (ص) :

«**المؤمنون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضا**» .

والآيـات والأخبـار في هـذا البـاب كثـيرة ، وإذا كـان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبا فحصـولها في حـقّ أشـرف المسـلمين وأكـابرهم أولى ، وقوله تعـالى : (**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُـرْبى**) تقديره والمودة القـربى ليست أجـرا ، فرجع الحاصل الى أنّه لا أجر البتة (والوجه الثــاني) في الجـــواب : أنّ هـــذا استثناء منقطع ، وتمّ الكلام عند قوله : (**قُـلْ لا أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً**) ثم قال : «**إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**» أي لكن أذكّركم قرابتي منكم ، وكأنّه في اللفظ أجر وليس بأجر.

ومضى المفسّـر المعـروف قـدما في تقرير الجـواب وقال : نقل صاحب الكشّاف عن النبي (ص) أنّه قال :

«من مات على حبّ آل محمد (ص) مات شـهيدا ، ألا ومن مات على حبّ آل محمد (ص) مـات مغفـورا له ، ألا ومن مــات على حبّ آل محمد (ص) مــات تائبا ، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مـات مؤمنا مسـتكمل الإيمـان ، ألا ومن مـــات على حبّ آل محمد بشّـــره ملك المـــوت بالجنة ثم منكر ونكـير ، ألا ومن مـات على حبّ آل محمد يــزف الى الجنة كما يـزف العـروس الى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حبّ آل محمد فتح له في قبره بابـــان الى الجنة ، ألا ومن مـات على حبّ آل محمد جعل الله قـبره مــزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مــات على حبّ آل محمد مات على السـنّة والجماعة ، ألا ومن مـات على بغض آل محمد جــاء يــوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مـات على بغض آل محمد مـات كـافرا ، ألا ومن مات

على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة»

هـذا هو الـذي رواه صـاحب الكشّـاف ، وأنا أقـول آل محمد (ص) هم الذين يـؤول أمـرهم إليه ، فكـلّ من كـان أمـــرهم اليه أشـــدّ وأكمل كـــانوا هم الآل ، ولا شك أنّ فاطمة وعليّا والحسن والحسـين كـان التعلّق بينهم وبين رسول الله (ص) أشدّ التعلّقـات ، وهـذا كـالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونـوا هم الآل ، وأيضا اختلف النـاس في الآل فقيل هم الأقـارب وقيل هم أمّته ، فـإن حملنـاه على القرابة فهم الآل ، وان حملنـــاه على الامة الـــذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل ، فثبت أنّ على جميع التقديرات هم الآل ، وأمّا غـــيرهم فهل يـــدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه ، وروى صاحب الكشاف : أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل : يا رسـول الله من قرابتك هـؤلاء الـذين وجبت علينا مــودّتهم؟ فقــال : علي وفاطمة وابناهما ، فثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النـبي (ص) ، وإذا ثبت هـذا وجب أن يكونـوا مخصوصـين بمزيد التعظيم ، ويـدلّ عليه وجـوه : (الأول) : قوله تعالى : (**إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**) ، ووجه الاستدلال به ما سـبق ، (الثـاني) : لا شك أنّ النـبي (ص) كان يحبّ فاطمة عليها السلام ، قال (ص) :

«**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها**» .

وثبت بالنقل المتــواتر عن محمد (ص) أنّه كـان يحبّ عليّا والحسن والحســــين ، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله : (**وَاتَّبِعُـــوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَـــدُونَ**) ولقوله تعـالى : (**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخـالِفُونَ عَنْ أَمْـرِهِ**) ولقوله : (**قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللـهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللـهُ**) ولقوله سبحانه : (**لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ**) (الثـاني) أنّ الـدعاء للآل منصب عظيم ، ولـذلك جعل هـذا الـدعاء خاتمة التشـهد في الصـلاة ، وهو قوله : اللهم صــــــلّ على محمد وآل محمد ، وارحم محمد وآل محمد ، وهـذا التعظيم لم يوجد في حـقّ غـير الآل ، فكـلّ ذلك يدل على أنّ حبّ آل محمد واجب ، وقال

الشافعي رضي الله عنه :

يا راكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا إذا فاض الحجيج الى منى ... فيضا كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضا حبّ آل محمد ... فليشهد الثقلان أنّي رافضي [1]

ثانيا : مودة القربى في سياق الوحدة :

لماذا أمرنا بمودة القربى في هذا السياق الذي يحدّثنا عن نبذ الخلاف ، والتمسّك بالوحدة؟

حين نتدبر في مجمل آيات الذكر نجد سياقها لا يذكّرنا بالداء إلّا ويشفعه ببيان الدواء ، فإذا كان داء الاختلاف ناشئا من التشريع البشري ، كما قال ربنا : (**أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ**) فإنّ دواء الاختلاف هو مودّة القربى الذين هم امتداد قيادة الرسول ، فأفضل الناس أقربهم الى الرسول منهجا وعملا (وهم أهل بيته ثم العلماء من أمته الأمثل فالأمثل) وهم البديل الإلهي للشركاء الذين يشرّعون بغير إذن الله.

فمن اتبع القيادة الشرعية التي أمر الله باتباعها كان كمن ركب سفينة نوح أمن ونجى ، ومن خالفها فقد تخلّف عن السفينة فغرق في طوفان الشرك والهوى.

ونجد هذا المنهج في قول ربّنا سبحانه في سورة آل عمران : (**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا**) .

فلا بد إذا من حبل الله نعتصم به حتى نوحّد صفوفنا ، وهو قيادة الرسل

(1) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي / ج (27) ص (165 ـ 166) .

وأوصــيائهم ، ثمّ الأمثل فالأمثل من شــيعتهم والتــابعين لنهجهم.

ومن هنا نعـرف أنّ المـودة هنا هي ضـمان الطاعة ، فلو لا حبّ الله ما تيسّـــــــرت للعبد طاعته ، ولو لا حبّ الرسول ما سـهل على المسـلمين اتباعه ، ولو لا حبّ آل الرسول ما تسنّى للمؤمنين التمسّك بهم ، ذلك لأنّ الحب هو ذلك الانسـجام النفسي الـذي يحـدث بين شخصـين ، وهو يقتضي الطاعة للحـبيب بشـوق وبلا تكلّف ، يقـول الشعر الحكيم :

تعصي الإله وأنت تــــزعم حبّه	هــذا لعمــرك في الفعــال بــــــــــــــــديع
لو كان حبّك صادقا لأطعته	إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع) :

«**وهل الدين إلّا الحب**» .

وكثـيرة آيـات الـذكر وأحـاديث الرسـول الـتي تـأمر بطاعة القيادة الشـرعية المتمثّلة في أهل الـبيت ـ عليهم السلام ـ كقوله تعالى : (**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**) ، وقوله سـبحانه : (**وَلَـوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُــولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْــرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَــهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**) .

وقول الرسول (ص) :

«**النجـوم أمـان لأهل الأرض من الغـرق ، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف في الدين**» [1] .

---

(1) تفسير نمونه نقلا عن الحاتم في المستدرك ص (149) حيث عقّب عليه هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه (أي البخاري ومسلم) .

ومثل حديث الثقلين المجمع عليه :

«إنّي تـارك فيكم الثقلين كتـاب الله ، وعـترتي أهل بيتي»

إلّا أنّ النصـــوص الـــتي استفاضت بها كتب التفســـير والحديث والتاريخ هي التي تبيّن فضـيلة حبّ أهل الـبيت ، لأنّ الحب أعظم درجة من الطاعة ، فقد تطيع شخصا مكرها ، ولكن إذا أحببته فـــــإنّ طاعتك له تكـــــون أيسر وأسـمى ، ألا تـرى كيف أنّ الله يصف أفضل عبـاده (وهم حزبه المفلحـون) بـأنّهم يحبّـون الله ويحبّهم الله فيقـول : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ**) .

بلى. حبّ الله أسمى درجات الإيمان ، وحبّ الرسول وأهل بيته أسـمى درجـات التسـليم للحق والتمسك بحبل الله ، وبالتالي أفضل ضمان للوحدة.

ثالثا : لماذا المودّة بالذات؟

ويستدرجنا السياق الى السـؤال الثـالث : لمـاذا أمرنا السـياق هنا بـالمودة للقـربى بينما كلمة الطاعة أكــثر صراحة وأقرب الى حسم الخلاف؟ ولعلّ الإجابة الصحيحة تلخّص في أمرين :

أوّلا : لأنّ جذر الاختلاف بين الناس كامن في القلب ، وأعظم أســـــبابه الحب والبغض ، فـــــالكبر والحسد والعصبيات القبلية والقومية والسياسية والأحقاد المتوارثة والجهـالات العقيمة هي وراء أكـثر الاختلافـات ، وإذا لم تـزكّ القلـوب من آثارها فـإنّ الخلاف لا يقضى عليه حـتى في إطار الأهداف الواحدة والمصالح المشتركة.

وممّا يساهم في تصفية جزء كبير من أمـراض القلب حبّ أوليـاء الله حيث يغمر نـوره القلـوب فيفيض حـتى يشمل طائفة المحبّين جميعا.

إنّ حبّ الرسـول يجعلنا نحب كـلّ تابعيه ، وحبّ أهل بيته يسـري الى محبّيهم حـتى يصـبحوا حزبا إلهيّا واحـدا ، ويتحـابّوا في الله ، ويـتزاوروا في الله ، ويتعـارفوا في سبيل الله.

هكذا شبّه الرسول حبّهم بسفينة نوح التي وحّدت بين راكبيها ، كما حملتهم الى برّ الأمان.

إنّهم الحبل الذي يشدّ أزر المتمسّكين ببعضهم ، إنّهم النجوم التي توحّد مسيرة المهتدين بهم.

ولأنّ طاعة أهل البيت ، والتمسّك بالقيـادة الشـرعية الرائـدة ، تقتضي جهـاد المشـركين ، ومقاومة الطغـاة والمـترفين ، وتحـدي تيّـار الفسـاد والضـلال ، وبالتـالي تقتضي هذه الطاعة الجهاد والإيثـار والشـهادة ، فقد جعل الله منطلقه الحب الذي به يسهل كلّ صـعب ، بل ويتلـذّذ الحـبيب بما يبذله في سـبيل من يحب. ألم تر كيف يصـبر المجاهدون في سجون الطغاة على أقسى ألوان التعذيب ، ثم يقولون كما قال حبيبهم محمد (ص) :

«**إلهي إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى**»

ألم يأتك نبأ أهل الإيثـار في سـوح القتـال ، كيف استسـاغوا شـراب المـوت ، وكـان عنـدهم أشـهى من العسل ، لأنّهم اتبعوا نهج إمامهم الحسـين (ع) الـذي قـال وهو يعـالج سـكرات المـوت تحت ركـام من السـيوف والخنـاجر والسـهام والحجـارة ، وقد اشـتد به العطش ، ووتر بأفضل أهل بيت وأبرّ أصحاب ، قال :

«**إلهي رضا برضاك ، لا معبود سواك**»

وقالوا على لسانه :

تـــركت الخلق طـــرا في هـــــــــــــــــــواك | وأيتمت العيـــال لكي أراك
فلو قطّعتـــني بـــالحبّ إربا | لما مال الفؤاد إلى سـواك

ثانيا : الطاعة الحقيقية هي لله وأمّا المـــــــودّة ففي القـــربى ، نحن لا نطيع القيـــادة لـــذاتها أنّى كـــانت ، إنّما نطيعها لأنّها امتداد لولاية الله سبحانه وتعالى.

الطاعة ليست إلّا لله ولمن أمر الله ، وهـــذا يتناسب وأجر الرســالة ، لأنّ أجر الرســول هو أن يســتمر نهجه ، حيث كان يتطلّع نحو بقاء خطّه الرسالي في الأمّة ، وهـذا كان أهمّ أجر تقدّمه الأمة الإسلامية لرسـول الله الـذي ما ونى لحظة عن تبليغ رســالات ربه ، ولا ادّخر وسـعا حـتى أمـره الله بـألّا يهلك نفسه حزنا عليهم ، وقـال : (**فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَـدِيثِ أَسَفاً**) وقال : (**طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى**) .

وإنّي أعتقد بـأنّ كثـيرا من أبنـاء الأمّة الإسـلامية قد أقـرّوا عيـني رسـول الله (ص) ، فالـذين استشـهدوا في صفّين مع الإمام علي (ع) ، والذين استشهدوا في كــربلاء مع الإمام الحسين (ع) ، والذين دافعوا عن خـطّ الرســالة على امتـــداد التـــاريخ وخلال (14) قرنا وحـــتى اليـــوم .. والمعـذّبون في السـجون ، وشـهداء الحق ، والمجاهـدون في كل حقل ، هم شـــهود على ما أقـــول. إنّهم قـــدّموا لرســـــول الله الأجر ، وليس من الصـــــحيح أن ننظر الى الجـــانب الســـلبي من التـــاريخ ، فليس من المنطقي أن نفتّش في الليل عن الظلام فكل العالم ظلام ، ولكن يبهر أبصارنا فيه نور القمر ، ويلفت انتباهنا ضياء النجوم.

(**وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً**)

توجد في هـــذه الجملة لفتة فنية بالغة اللطف والدقّة تتركز في كلمة «يقترف» ،

فهذه الكلمة عادة ما تأتي مقارنة للسيئة وليس للحسنة ، حـتى قـالت العـرب (الاعـتراف يزيل الاقـتراف) ، فما هو السر في استعمالها هنا؟

إنّ الاقـتراف معنـاه السـعي المكثّف للقيـام بشـيء صعب ، وأصل الكلمة نزع لحى الأشجار أو الجلد الإضافي من الجسم ، ولعلّها استخدمت هنا لأنّ السياق يهـدي الى طاعة أولي القربى ومودتهم وهي حسنة بالغة الصـعوبة ، فمن أجل تطـــبيق هـــذه الآية الكريمة أريقت دمـــاء ، وأطيحت برؤوس ، فليس كـلّ إنسـان أهلا لأن يكـون من أصحاب المودّة.

(**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**)

أي أنّ الله سوف يقدّر هذا العمل البطولي الشجاع ، ويغفر لصاحبه ذنوبه.

وهكذا روي عن الإمام الحسن المجتبى (ع) أنّه قال :

«**فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت**» [1] .

كما روي عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال :

«**إنّما نــزلت فينا خاصّــة أهل الــبيت في علي وفاطمة والحسن والحسين وأصحاب الكسـاء عليهم السلام**» [2] .

وروي مثل ذلك عن ابن عباس.

وكلمة أخيرة : لمـاذا اختـار الله أولي القـربى لقيـادة الأمة؟ هل لأنّهم من صلب الرسـول ، وقد أراد ربّنا إكـرام نبيّه العظيم بذلك ، وإيتاء بعض أجره في الدنيا ،

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (573) .

(2) المصدر / ص (572) .

ليبقى ذكـــره العطر فوّاحا في كـــلّ عصر ، ولكي يتحقّق بالتالي ما بشّر ربّنا به الرسول حين قال : (**إِنَّا أَعْطَيْنـاكَ الْكَوْثَرَ**) ، ونهر أعداءه حين قال : (**إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**) ، فهذه سلالة الرسول تـزيّن مجـالس المسـلمين في كـلّ عصر.

بلى. ولكن ليس هذا سبب اختيارهم قـادة ، لأنّه ليس كـلّ من انتسب الى الرســول (ص) يصــلح للإمامة ، إنّما كـان أشـخاص معيّنـون بالصـفات والأمثـال اجتبـاهم الله لإمامة المســلمين ، وأشــارت إليهم الآيــات ، وذكــرتهم النصــوص ، وكــانوا هم الأقربــون الى رســول الله نهجا وسلوكا ، قبل أن يكونوا الأقربين إليه نسبا وصــهرا ، وهم علي وفاطمة والحسن والحســين عليهم الســلام ، وحين نستقرأ كتب التـاريخ والحـديث لمختلف الفـرق الإسـلامية نجدها تؤكّد بأنّ أقرب الناس خلقا وخلقا وعلما وعملا الى رســول الله (ص) هم أهل بيته الــذين نــزلت فيهم الآية ، وسمّاهم الرسول اســما اســما ، كما سـبق في النصـوص المتقدّمة ، وليس كل من انتسب الى رســول الله بنسب الدم والقرابة.

فإذا أكرمنا الصّدّيقة فاطمة الزهراء فليس فقط لأنّها بنت رســول الله (وللبنت كرامتهـــا) وإنّما القيمة المثلى فيها هي أنّها الصّدّيقة الكبرى التي جسّـدت رسـالة النـبي في حياتها ، وكـــذلك الإمـــام علي (ع) ، فنحن لا نكـــرم العبـاس عمّ النـبي بقـدر ما نكـرم ابن عمّه عليّ بن أبي طالب لأنه الأقرب إليه نهجا وسلوكا.

وكذلك أولاد علي عليه السلام ، فله سبعة عشر ولـدا نكـرم بينهم الإمـامين الحسن والحسـين ليس فقط لأنّهما سبطي رسول الله وابني فاطمة الزهراء ، بل لأنّهما سيّدا شباب أهل الجنة بما قدّماه للإسلام من عطـاء .. ومن هنا ننطلق الى الحلقة الثانية وهم الأقــرب الى خط الرســول (ص) من أصحابه ، والأقرب الى خط الإمـام علي (ع) من أصــحابه ، والأقــرب الى خط الحسن والحســين وفاطمة الزهراء والأئمة

عليهم الصلاة والسلام من أصحابهم ، ثم الأقرب الى خطّهم في التاريخ ، ومن هنا جاء في الحديث المعروف :

«**العلماء ورثة الأنبياء**»

من هم العلماء الذين يشير إليهم هذا الحديث؟ إنّهم أولئك الذين يسيرون في خط رسول الله وأهل بيته ، لأنّ القرآن يقول : (**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا**) فأولى الناس بإبراهيم ليس أبناء إبراهيم ، وإنّما هم الذين اتبعوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وكذلك أولى الناس بمحمّد وآله هم الذين اتبعوهم واتخذوهم قدوة لهم ، ومن هنا

جاء في الحديث المأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) :

«**ولايتي لمحمّد أحبّ إليّ من ولادتي منه**» .

بلى. حين يريد الله أن يجعل رسالته في ذريّة طيّبة بعضها من بعض ، يختار ذريّة الرسول أكرم الخلق عنده ، وأفضلهم لديه ، فيطهّرهم من الدنس ، ويذهب عنهم الرجس ، ويصطفيهم لدينه ، كما اصطفى آل إبراهيم وآل عمران شخصا شخصا.

وهكذا اجتبى ربّنا أئمة هذه الأمّة من آل الرسول (ص) .

[24] كلّما ذكّرنا ربّنا بأمر عظيم نهر المكذّبين بالقرآن الذين اتهموا رسوله بالافتراء ، لماذا؟ لأنّ التبرير الشائع الذي يلتجئ إليه مرضى القلوب للهروب من مسئوليات قبول أوامر الرسالة المستصعبة هو التكذيب بها ، وهكذا حين جاء الأمر بأداء أجر الرسالة في المحافظة عليها عبر مودّة القربى ثارت عصبية البعض ، وقالوا : إنّما قال هذا لنقاتل عن أهل بيته وننصرهم ، فأنزل الله : (**أَمْ يَقُولُونَ**) [1] .

---

(1) الدرّ المنثور / ج (6) ص (6) .

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً**)

إنّه لقـــول عظيم ، كيف ينســـبون الى رســـول الله الصادق الأمين الكـذب ، وبالـذات حين يتمثّل في الافـتراء على الله ، وهم يعرفون مدى تفانيه في الله؟

ثم هل من المعقول أن يدع الله رسوله الذي اختــاره بعلم ، وأسبغ عليه نعمة الرســالة ، وأولاه بالنصر ، وأظهر علي يــده الآيــات ، هل يدعه يتقــوّل عليــه؟! كلّا .. إنّه إن يشأ يعاقبه ، وأبسط العقاب هو ســلب رســالته منه ، بــأن يختم على قلبه فلا يكاد يعرف شيئا.

(**فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ**)

ونســتوحي من الاية : إنّ من يفــتري على الله يعاقبه الله بـــالختم على قلبه ، فيســـلبه حلاوة مناجاته ، ولـــذّة التقرّب إليه.

ومن ســنن الله في الحيــاة إزهــاق الباطل ، وإحقــاق الحق .. وهـــذا دليل على أنّ رســـالة الله حق ، ورســـوله صادق أمين.

(**وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ**)

إنّ من أدلّة صحة الرسالة أنّ كلمات الله في القــرآن ليست من أجل الرســول أو من أجل قومه وعشــيرته أو مصــــالحه ، أو مصــــالح فئة معيّنة ، إنّما من أجل الحق ، تتطــابق مع الســنن الجارية في الخلق ، فهي باقية ، بينما الثقافات الأخرى تنتهي حينما تزول عوامل نشــوئها ، فــإذا كــانت ناشــئة الطبقية أو العنصــرية أو القومية زالت حين تتبـــدّل الدولة الحاكمة ، وإذا كـــانت ناشـــئة الخرافـــات والجهالات والعصبيّات زالت بزوالها ، وهكــذا تــرى كلمــات الله في القرآن لا تؤثّر فيها المتغيّرات أنّى كانت ،

لأنّها ناشـئة الحق الـذي لا يتغيّر ، مما يـدلّ على أنّ هـذا القرآن هو الصحيح ، وأنّ تلك الثقافات هي الباطلة.

(**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

إنَّ الله يعلم ما في صدورنا لذلك فهو يعالج الجـوانب السـلبية ممّا في صـدورنا بـالجوانب الإيجابية ، يعـالج شـهواتنا وأهواءنا بما أركـزه في قلوبنا من العقل والمعرفة.

[25] مهما كـان الإنسـان حـذرا فإنّه لا يمكنه اتقـاء السـقطات ، وهـذا دليل على أنّ الإنسـان ليس بإله ، وأنّ الضـعف طبيعة فيه ، لـذلك فـإنّ الله يقبل التوبة عن عباده. أو ليس هو الخالق ويعلم تكوين الإنسان الجسـمي والنفسي ، وأنّه ضعيف أمام أمـواج الشـهوات ، وضـغوط الحيـاة؟ ولكنّ المؤمـنين هم الـذين يسـتعيدون إيمـانهم بسـرعة ، وينهضـون من سـقطتهم ، بالتوبة الى الله ، لما يعرفونه من عظيم مغفرته ، وواسع رحمته.

(**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ**)

فإذا عادوا إليه استقبلهم بترحاب.

(**وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ**)

فحينما تفعل سـيئة بعد سـيئة فـإنّ السـيئات تـتراكم على ذهنك ، ويكـون لها آثـار سـلبية على واقعك ، ولكن رحمة الله الواسعة تأتي لتطهّر قلبك منها.

(**وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ**)

فأنت بين التوبة الى ربك أو انتظار عقابه لأنّه يعلم ما تفعل فلا تستطيع كتمانه.

[26] (**وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**)

ماذا يستجيب لهم؟ السياق يوحي بأنّ المؤمنين بولاية الله والمسلّمين لإمامة الحق يتعرّضون لضغوط هائلة ، فإذا انهاروا ثم تابوا قبل الله التوبة منهم ، وعفى عن سيئاتهم ، وإذا طلبوا من ربّهم النصر انتصر لهم ، وزادهم من فضله.

وهذا أحد مصاديق الآية ، إلّا أنّ الآية تسع كلّ دعوات المؤمنين ، وبالذات حين تكون لبعضهم البعض ، وقد وردت رواية بذلك حيث فسّرت الآية بالشفاعة فيما بين المؤمنين ، ولا ريب أنّ دعاء المؤمنين لبعضهم نوع من الشفاعة ، بل هو الشفاعة.

فقد روي عن الإمام الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) في قوله : (**وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**) :

«**الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن أحسن إليهم في الدنيا**» [1] .

ويحفّزنا هذا التفسير على المزيد من التعاون بين بعضنا البعض ، لأنّ آثار التعاون تمتدّ من الدنيا حتى الآخرة ، ولعل الواحد منا قد استحق النار بعمله إلّا أنّ ربّنا يغفر له بدعاء إخوانه.

أمّا أولئك الذين لم يستجيبوا لنداء الله ودعوة الحق فليس لا يستجيب الله دعاءهم فحسب ، وإنّما هم يعرّضون أنفسهم أيضا لعقاب الله وعذابه الأليم.

(**وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ**)

---

(1) مجمع البيان / ج (9) ص (30) .

وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبـادِهِ لَبَغَـوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُـوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْـدِ ما قَنَطُـوا وَيَنْشُـرُ رَحْمَتَـهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28) وَمِنْ آياتِـهِ خَلْـقُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُـــوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشـاءُ قَـدِيرٌ (29) وَما أَصـابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ فَبِما كَسَــبَتْ أَيْــدِيكُمْ وَيَعْفُــوا عَنْ كَثِــيرٍ (30) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (31) وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَـالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَــأْ يُسْــكِنِ الــرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِــدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

---

32 [الجوار] : جمع جارية وهي السفينة سمّيت بها لجريها في الماء.
[كالأعلام] : جمع علم وهو الجبل الطويل.

(33) أَوْ يُـوبِقْهُنَّ بِما كَسَـبُوا وَيَعْـفُ عَنْ كَثِـيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجـادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَمَتـاعُ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَما عِنْـــدَ اللـــهِ خَيْـــرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)

---

34 [أو يوبقهنّ] : أي يهلك السفن بأن يجعل الريح عاصفة حتى تغرقها ، والإيباق الإتلاف والإهلاك.

وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ

لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ

هدى من الآيات :

لتطهــير القلب من درن الحــرص والكــبر ، ولاقتلاع جذور البغي والخلاف ، يذكّرنا ربّنا ـ في هذه الآيات ــ بـأنّ الله إنّما ينزّل الرزق بقدر لأنّ الناس يبغـون على بعضـهم لو بسط الله لهم الــرزق ، (فتقــدير الــرزق من الله ، ولا داعي للحرص ، ولا للصــراع من أجله ، وتحديـده من أجل مصلحة البشر) .

(وحــريّ بالإنســان التوكّل على اللــه. ألا يــرى كيف يرزقه؟) .

وهو الـذي يـنزّل عليه الغيث في أوقـات المحنة حيث يستبدّ به القنوط ، فهو الـوليّ الحميد (ولا بـدّ من الـنزوع عن الحرص ، وتفويض الأمور اليه) .

(وكلّما عظم الخــالق في قلب الإنســان تضــاءل ما سواه في عينه ، وتواضع للحق أكثر فأكثر. أنظر الى آثــار عظمة ربّك) وهو الذي خلق السموات والأرض ونشر

فيهما أنواعا لا تحصى من المخلوقـــات المتحرّكة ، وحين يشاء يجمعهم بقدرته.

(ورزق الإنسان كما سائر جوانب حياته يخضع لسـعيه ونوعية عمله) وما أصاب أحدا من مصيبة فبما كسبته يداه ، بينما يعفو عن كثير (فلو عاجلهم بذنوبهم لأفناهم جميعا) .

ولا أحد يقـــدر على منع الكـــوارث عن نفسه إذا أراد الله أن يأخـــذه بذنوبه ، ولا أحد يـــدافع عنه أو ينصـــره من دون الله.

وإنّ قدرة الله محيطة بالبشر ، فـإذا ركبـوا في البحر وجـرت الريـاح بهم الى أعـالي البحـار أرأيت لو شـاء الله وأســكن الــريح أليس تبقى ســفنهم هنالك دون حــراك؟! (إنّما يعي هــذه الحقيقة الــذي يتعــالى عن ضــغط النقمة وإغراء النعمة أي) الصبّار الشكور.

والله قـادر على أن يهلك النـاس بسـفنهم في عـرض البحر بسبب ذنوبهم ، ولكنّه يعفو عن كثير من خطاياهم.

(إذا لماذا الجدال في أمر الله وتحدّي أحكامه؟) .

إنّ كلّ ذلك يكفي آية لهؤلاء المجادلين في آيـات الله أنّهم لا يملكون عن ربّهم مهربا.

(ثم لماذا الحرص على الدنيا والصراع من أجلها وهي لا تسوى شـيئا؟!) فما أوتيتم من شـيء ليس سـوى متـاع الحيـاة الـدنيا الـتي لو قيست بـالآخرة لم تكن شـيئا ، لأنّ الآخــرة أفضل وأبقى للــذين آمنــوا وعلى ربّهم يتوكّلــون (فيــنزعون جلبــاب الكــبر ، ويتعــالون على الحــرص ، ولا يثيرون الخلاف من أجل الدنيا) .

بينات من الآيات :

[27] إذا كــان الــربّ يحبّ عبــاده فلما ذا لا ينشر رحمته عليهم أكــثر فــأكثر؟ لمــاذا لا يملأ الأرض رحمة ورخاء؟

ذلك لأنّه عالم بطبيعة البشر ، فلو أعطـاهم أكـثر من قدرتهم على الإستيعاب لبغـوا في الأرض ، وانحرفـوا عن الحق ، فمن رحمة الله على العبــاد أنّه لا يــرزقهم دفعة واحدة ، وإنّما يرزقهم بقدر حاجتهم واستيعابهم ..

(**وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**)

إنّ نفس الإنســان قبل ترويضــها بــالقيم الســامية جموحة ، وقد كبح الله جماحها بالحاجة الى الـــــــرزق ، ولولاها لـدفعها البغي الى الفسـاد والشـقاء ، كما نجـدها تطغى حين تحسّ بالاســتغناء ، حــتى وان كــان هــذا الإحســاس خاطئا ، حســبما قــال ربّنا : (**إِنَّ الْإِنْســانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**) [1] .

(**وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**)

ومن أخبر من الله بعباده ، الذين خلقهم حسبما شـاء ، وأركز في وجـودهم الغرائز كيفما أراد ، وهيمنته العلمية بالغة فهم على عينه وبصره سبحانه.

وكلّ فرد يجري له الـربّ الـرزق بقـدر لا يـدعوه الى الطغيان ، وقد جـاء عن أنس عن النـبي (ص) عن جبرئيل عن الله جلّ ذكره :

«**إنّ من عبـادي من لا يصـلحه إلّا السـقم ، ولـو صـحته لأفسـده ، وإنّ من عبـادي من لا يصـلحه إلّا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ، وإنّ من عبادي من**

---

(1) العلق / (6 ـ 7) .

لا يصلحه إلّا الفقر ، ولو أغنيته لأفسـده ، وذلك أنّي أدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم» [1]

وعن الإمام الحسن (ع) قال :

«**أرزاق الخلائق في السماء الرابعة تنزل بقدر ، وتبسط بقدر**» [2]

وقال الإمام الصادق (ع) :

«**وَلَـوْ بَسَـطَ اللـهُ الـرِّزْقَ لِعِبـادِهِ لَبَغَـوْا فِي الْأَرْضِ**» : لو فعل (أي بسط رزقه) لفعلوا (أي لبغـوا في الأرض) ولكن جعلهم محتـــاجين بعضـــهم الى بعض ، واستعبدهم بذلك ، ولو جعلهم أغنياء لبغـوا «**وَلكِنْ يُنَـزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ**» ممّا يعلم أنّه يصلحهم في دينهم ودنيـاهم «**إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**» [3]

[28] ومظهر آخر لحكمة الله في تدبير الحيـاة الغيث الـذي يمنعه عن العبـاد أو يرسـله إليهم حسب حـاجتهم واسـتحقاقهم واسـتيعابهم ، فبعد أن يجتـاحهم القنـوط ، وتكبح صفة الكبر من أنفسهم ، وتمنع عنهم صفة الطغيان ، لأنّهم لم يقـدروا على تحصـيل المـاء بطريقة أخـرى ، بعدئذ يرسل الغيث ، وينشر عليهم رحمته من خلال الغيث .. وهذه آية من آيات الهيمنة والحكمة.

(**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا**)

وختم اليـأس على أفئـدة النـاس جميعا (وهنا تتجلّى بوضـوح بلاغة القـرآن حيث تتـوازى فيه كلمة الغيث الـتي تعني فيما تعني الإغاثة مع كلمة القنوط الذي تثيره

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (579) .

(2) المصدر.

(3) المصدر.

شدّة الحاجة.

(**وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُ**)

الحاكم المطلق الذي يتولّى تدبير الخلق ..

(**الْحَمِيدُ**)

لا يفعل إلّا الفعل المحمـــود ، وإنّما ينشر الرحمة بعد القنـوط لكي ينبّه النـاس من غفلتهم وضـلالهم ، ولو أنّهم عرفـــوا رحمة الله (وهو وليّهم) بهم ، وحكمته البالغة في تدبيره لشـؤون الخلق ، لاكتشـفوا أسـباب انقطـاع الغيث عنهم الـتي قد تكـون بسـبب ذنـوبهم ، بل ولعرفـوا أيضا حكمة عودته إليهم ليعرفوا قدر ربّهم فيعبدونه لا يشركون به شيئا.

[29] وليست هذه الآية الوحيدة التي تهدينا الى الله ، وإنّما هي آية من بين الآيات التي لا تعدّ ولا تحصى ..

(**وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

على سعتهما ، ومتانتهما ، وعظمة خلقهما ..

(**وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ**)

كـالطيور والحيوانـات ومختلف الأحيـاء المتنـاثرة هنا وهناك.

(**وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ**)

لا يعجـزه شـيء لأنّ له مطلق الإرادة ، وإنّ الاختلاف في طبائعها وشرائع حياتها

وانتشارها في الكون لا يدلّ أبدا على تحرّرها من إرادة الله ، وخروجها عن المنهج الذي عيّنه الله لها ، أو السنن التي تحكم الخليقة ، فمتى ما شاء ربّنا جمعهم في صفّ واحد للحساب.

[30] ويؤكّد على الصلة بين سعي الإنسان وواقعه مرّتين ، مرّة عن طريق العوامل الماديّة الظاهرة التي تربط بين السعي والنتيجة ، فهو إذا سعى وناضل وصل إلى أهدافه ، فالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر ، والأمن بعد الخوف ، كلّ ذلك رهين سعيه في السبيل القويم الذي جعله الله ..

وهذا ما يؤكّده القرآن في آيات عديدة كقوله تعالى : (**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى**) [1] وقوله : (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**) [2]

ومرة عبر العوامل الغيبية غير الظاهرة ، حيث يؤكّد الإسلام أنّ أيّ عمل يقوم به الإنسان ينعكس على واقعه شاء أم أبى ، وليس بالضرورة أن يكتشف البشر كيفية ذلك ، بل كثيرا ما تكون العلاقة بين العمل والعاقبة غير معروفة ومثيرة للتساؤلات ، فما هي العلاقة بين صلة الرحم وطول العمر ، وبين انتشار الزنا وانتشار موت الفجأة ، وبين انحراف قوم لوط والصاعقة التي دمّرتهم ، وبين يقظة الإنسان بين الطلوعين وبين سعة رزقه ، وبين قيام الليل وطول العمر ، وبين الصدقة ودفع البلاء ، وبين الزكاة والنماء الاقتصادي ، وبين الصدق والأمانة وبين العزّة في المجتمع؟

كلّ هذه العلاقات قد تبقى مجهولة لدى الإنسان ، ولكنّها حقائق واقعة في

---

(1) النجم / (39) .

(2) الزلزلة / (7 ـ 8) .

الحياة عرفناها أو جهلنا بها.

من هنا بـــدل أن يـــدفعنا الحـــرص الى الصـــراعات الاجتماعية دعنا نطبّق المنـــاهج الإلهيّة فهي كفيلة بتحقيق طموحاتنا المشـــروعة ، ســـواء عرفنا حكمتها وبالتـــالي علاقتها بتلك الطموحـــات أم لم نعـــرف ، لأنّنا لا بـــدّ أن نعـــترف بعجزنا عن الإحاطة علما بـــدين الله ، أليس دين الله آية علمه ، فهل يـــزعم أحد بـــأن يبلغ بعلمه مســـتوى علم ربّه؟ ومن هنا جاء في الحديث :

«**إنّ دين الله لا يقاس بالعقول**»

وبهذه الرؤية العميقة والواقعية للحياة يتقدّم الإســـلام خطـــوة على المادية ، وخطـــوتين على القدرية ، فالقدرية تعتقد بانعـــدام العلاقة بين ســـعي الإنســـان وواقعه منكـــرة بذلك عقلائية الأنظمة الحاكمة على الكائنـــات ، أمّا المادية العمياء فتعتقد بأنّ نظام الكون عقلائي ، ولكنها لا تعـــترف إلّا بالعلاقات الظاهرة في هـــذا النظـــام ، منكـــرة العلاقـــات الخفيّة التي يكشفها الغيب.

بينما الإسلام بواقعيّته يـــؤمن بعلاقة أكيـــدة بين ســـعي الإنســـــــان وواقعه ، مـــــــرة عن طريق العوامل المادية الظـــــاهرة ، وأخـــــرى عن طريق العوامل الغيبية ، وذلك انطلاقا من الإعتقاد بـــأنّ كل ما يجـــري على الإنســـان ، بل كل ما يجري في الحياة ، إنّما هو بعلم الله وبإذنه ، وهو لا يمنع أو يأذن إلّا بحكمة بالغة يعلمها عزّ وجل ، وهو القائل : (**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**) [1]

وتؤكّد آيـــات القـــرآن هـــذه الحقيقة ببيـــان هيمنة الله على نظـــام الكـــون ، فالســـحب الـــتي تجمعها الأقـــدار ، والمطر الـــــذي يهطل على الأرض الجـــــرداء فيبعث فيها الحياة من

(1) الرعد / (11) .

بعد ما يقنط الإنسان ، كلّ ذلك لا يصـير عبثا ، إنّما بحكمة إلهية دقيقة ، فـإذا قـلّ الصـدق بين النـاس وتضـاءل تعـاطفهم على بعضـهم ، وإذا سـاد الظلم والضـلالة ، وإذا كثرت الذنوب والفواحش ، بعـدت رحمة الله المتمثّلة في الغيث ، كما أنّ لنجاة أصحاب السـفينة الـتي تمخر عبـاب البحر أو غـرقهم علاقة بركّابها ، فـإذا كـانوا أهل صـلاح وسعي ، ساقتهم الريح الطيبة الى سـبل السـلام ، أمّا إذا كانوا ظالمي أنفسهم وقد انتهى أجلهم ابتلعتهم العواصف الهوج.

هكـذا يـبيّن ربّنا العلاقة بين واقع الإنسـان وعمله فيقول :

(**وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**)

أيّا كان نوع هذه المصيبة وطبيعتها.

(**وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ**)

ولو لم يكن الله رحيما بعبـاده لانتهت بهم أعمـالهم الى الهلاك ، لأنّهم يكسبون كـلّ يـوم ما يسـتوجب غضـبه سبحانه.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق (ع) :

«**ليس من عـرق يضـرب ، ولا نكبة ، ولا صـداع ، ولا مرض ، إلّا بذنب**» [1]

وجاء في حديث آخر عنه (ع) :

«**إنّ الذنب يحرم العبد الرزق**» [2]

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (581) .

(2) المصدر / ص (583) .

وجاء في رواية مأثورة عن أبي الحسن (ع) :

«حق على الله ألّا يعصى في دار إلّا أضحاها للشمس حتى تطهّرها» [1]

فلكي لا تصيبك ألوان العذاب تجنّب الذنوب ، هكذا أوصانا أمير المؤمنين (ع) حين قال : «توقّوا الذنوب ، فما من نكبة ولا نقص رزق إلّا بذنب ، حتى الخدش والكبوة والمصيبة (ثم قرأ الآية وقال :) وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم فما زالت نعمة ولا نضارة عيش إلّا بذنوب اجترحوها. (**أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**) ، ولو أنّهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لما نزلت ، ولو أنّهم إذا نزلت بهم النقم ، وزالت عنهم النعم ، فزعوا الى الله عزّ وجلّ بصدق من نيّاتهم ، ولم يهنوا ولم يسرفوا ، لأصلح لهم كلّ فاسد ، ولردّ عليهم كلّ صالح» [2]

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق (ع) :

«تجنّبوا البوائق يمدّ لكم في الأعمار» [3]

وروي عن الإمام الباقر (ع) :

«إنّ العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق» [4]

وقال :

«إنّ العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها الى أجل قريب أو الى وقت بطيء ، فيذنب العبد ذنبا فيقول الله تبارك وتعالى للملك : لا تقضي حاجته

---

(1) المصدر.
(2) المصدر / ص (582) .
(3) المصدر.
(4) المصدر / ص (583) .

واحرمه إيّاها فإنّه تعــرّض لســخطي واســتوجب الحرمان منّي» [1]

[31 ـ 32 ـ 33] ويـذكّر الله النـاس بـأنّ عـدم أخـذه لهم على كثير من الذنوب ليس عن عجز ، وإنّما هو رحمة منه بعباده ..

(**وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**)

أي لو أراد أن يأخــذهم على ما تكسب أيــديهم ، لأنّه تعالى الوليّ الحقيقي للإنسان ولا وليّ غيره وهو ذو القوّة المطلقة ، فلا أحد يستطيع نصر نفسه أو الإنتصار للآخرين عليه ســبحانه. وهــذه هي الأخــرى من آيــات رحمة الله وقدرته :

(**وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ**)

وهي السفن الشراعية الـتي تجـري في البحـار بـدفع الرياح ، والتي لو شاء الله لأوقفها فلا تتحرك.

(**إِنْ يَشَــأْ يُسْــكِنِ الــرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِــدَ عَلى ظَهْرِهِ**)

أي على سطح البحر ..

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ**)

عند البلاء ، فلا ينحرف عن الحق والطاعة لله بســبب الضغوط السلبية في الحياة ..

(**شَكُورٍ**)

---

(1) المصدر.

يذكر الله ويحمده عند النعمة ، وعلى كل حال ، وهذا يخالف طبيعة الإنسان الـذي يجـزع عند البلاء ، ويكفر عند الرخاء ، بسبب علاقته الخاطئة بالحيـاة ، إذ يعيش لحظته الراهنة فقط ولا ينظر للمسـتقبل ، وهـذا الأمر هو الـذي يجعله ييـــأس ويستســـلم للواقع ، بينما ينظر المـــؤمن ببصـيرة ربّانيّة ثاقبة الى خلفيّـات الحـوادث ، ومسـتقبل الأمور ، فلا تبطره النعمة ، ولا يؤيسه البلاء.

[34] وإذا أراد الله أن يبتلي أحـــدا أو يـــنزل عليه العـذاب فهو قـادر على ذلك وبطـرق متعـدّدة ، فهو تـارة يوقف الرياح لتقف السفن التي نستقلّها ، أو ربما أرسـلها بشدّة فإذا بها تهيج أمواج البحر فتبتلع سفننا ، وإلى جانب هـذه القـدرة الإلهية توجد في الطـرف الآخر الأسـباب والمقوّمات لإنزال النقمة ، وهي ذنوبنا التي نكتسـبها كـلّ يوم ..

(**أَوْ يُوبِقْهُنَ**)

يغرقها ، ويهلك من فيها ..

(**بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ**)

برحمته ولطفه ، لذلك ينبغي المبـادرة الى الاسـتغفار ليل نهار حتى نأمن من سطوات الـربّ الجبّـار ، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام :

«**تعوّذوا بالله من سطوات الله بالليل والنهـار ، قـال : قلت : وما سـطوات اللـه؟ قـال : الأخذ على المعاصي**»

[35] ولا بدّ أن يعلم أولئك الذين يكذبون بآيات الله ، ويتشبّثون بثقافة الجدال والتـبرير من أجل ردّها والتهـرّب من مسئولية الإيمان بها ، أنّهم محاطون بعلم

الله وقدرته ، ومن ثمّ فــإنّ جـــدالهم فيها لن يرفع عنهم المسؤولية ..

(**وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجـــــــادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ**)

أي مهرب ومفزع من الله.

قـالوا : إنّ نصب «يعلم» جـاء لأنّه عطف على تعليل محذوف ، وكأنه قال : ينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون.

[36] وكخاتمة لهـذا الـدرس الـذي يحـدّثنا عن دور الحرص في الصراعات الاجتماعية كفكرة أساسية ، يصغّر القرآن الدنيا ويهوّنها في أعيننا وأنفسنا ، لكي لا تكون من المنزلة عنـــدنا بمكـــان تثيرنا نحو الصـــراع والبغي على بعضنا.

(**فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا**)

مهما كـان حجمه وقـدره فإنّه لا يعـدو كونه بسـيطا وضئيلا نسبة الى متعة الآخرة ونعيمها ..

(**وَما عِنْـدَ اللـهِ خَيْـرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**)

وأفضلية نعيم الآخـرة على متـاع الـدنيا من نـاحيتين : فهو أفضل في كيفيّته ، وأدوم في بقائه ومتعة الإنســـان به.

ولعـلّ خاتمة الآية تهـدينا الى أنّ التوكل على الله هي الصـفة المقابلة للحـرص على الـدنيا ، وإنّما لا يتسـامى القلب عن الانجـذاب الى الـدنيا لضـعفه ، والـذي ينجـبر بالتوكّل على الله سبحانه.

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُــونَ كَبــائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَــواحِشَ وَإِذا ما غَضِـبُوا هُمْ يَغْفِـرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْـتَجابُوا لِـرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُــــونَ (38) وَالَّذِينَ إِذا أَصــــابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِـرُونَ (39) وَجَـزاءُ سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَـأَجْرُهُ عَلَى اللـهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِـهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَـبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّــــبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُــــونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَـرَ إِنَّ ذلِـكَ لَمِنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ (43)

وأمرهم شورى بينهم

هدى من الآيات :

يتكلّم القــرآن في هــذا الــدرس عن المحــور الــذي سمّيت السورة باسمه وهو الشورى ، ولكنّه بعد أن يجعله في إطار الحديث عن أبعاد الشخصية الإيمانية. لماذا؟ لأنّ الصفات خيرها وشرها تنبع من حالة في شخصية المجتمع ، وتترادف مع بعضها ، فالصدق يستتبع الإحسان ، والأمانة تستتبع الوفاء ، وهكـذا ، لأنّ أصل صـفات الخـير البصـيرة والإيمــان ، كما أنّ الصــفات الرذيلة يلحق بعضــها بعضا ، لأنّ جذرها واحد ألا وهو مرض القلب.

وصفة الشورى الـتي يـتركّز حولها هـذا الـدرس تمثّل العلاقة الإيجابية بين أفـــراد الأمة على صـــعيد اتخـــاذ القرارات العامة.

ولا تتحقّق إلّا إذا كـــانت العلاقـــات الاجتماعية عـــبر مختلف الأصــعدة المتدرجة طــاهرة وإيجابية وبمســتوى التبادل الفكري ، إذ لا فائدة للشورى في مجتمع الظلم

والطبقة والعنصـــــرية ، ولا في المجتمع الــــذي لا يعتقد بالعقلائية والمنهجية العلمية في حياته ولا يبحث عما يثـــير عقله ويزيده علما ، والحـال إنّ الشـورى أحـوج ما تكـون لتـؤتي أكلها الى مجتمع فاضل يتحلّى بالصـفات النفسـية التي تدعم تطبيق المناهج العلمية التي تصدر على ضوئها.

ولعلّه لذلك بدأت هذه الآيات ببيان جـانب من صـفات المؤمنين كاجتناب كبائر الإثم والتجـاوز عن المسـيء قبل بيان صفة الشـورى ، ثم بعد بيانها يـذكّرنا القـرآن بجـانب آخر منها كالانتصار بعد الظلم ، والصبر الذي هو من عـزم الأمور.

بينات من الآيات :

[37] هناك بعض المجتمعـات تحصر الـدين في اتبـاع بعض الطقوس دون التوجّه الى القضـايا المصـيرية الهامة التي تكلّفهم الإيثار والجهاد والشهادة ، ففي الوقت الــذي يبنـون المسـاجد ودور العلم تـراهم لا يتورّعـون عن ظلم بعضهم ، ولا يدافعون عن أحكـام الله ، وإنّما يهتم القـرآن ببيـــان صـــفات المجتمع المســـلم في كثـــير من ســـوره وبصـــورة مجتمعة لكي يعطينا صـــورة متكاملة عنه نعيش بها مجتمعنا ، ونعرف مدى قربه وبعده من المجتمع الــذي يبشّر به القرآن.

ومن أبرز صفات المجتمع الإسلامي السـعي من أجل اجتنـــاب كبـــائر الإثم والفـــواحش ، حيث يجب أن يتنظّف المجتمع المســــــلم من الجاهلية بكـــــلّ أبعادها الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

(**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ**)

وهي ـ كما يبدو ـ الـذنوب الاجتماعية والاعتـداء على حقـوق النـاس ، وقيل بأنّها الشـرك ، ولا ريب أنّ الشـرك أفحش ظلم ، وأعظم ذنب ، وهذا التفسير نسب

الى ابن عبّـاس ، وقيل بأنّها البـدع والشـبهات ، وبالتـالي الضـلالة الثقافية ، وهي بـدورها من الـذنوب الاجتماعية ، وقــال البعض بأنّها مطلق الــذنوب الــتي أوعد الله عليها النار في القرآن أو ثبت بحجة قوية أنّها من كبائر الذنوب.

(**وَالْفَواحِشَ**)

وهي الذنوب الشخصـية ، كالزنا ، واللـواط ، وشـرب الخمر ، واجتنابها هذه من أهم الصفات الـتي يجب توفّرها في مجتمع المؤمنين الفاضل.

(**وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**)

إنّهم حينما يختلفــون مع بعضــهم أو مع الآخــرين ، وحينما يسيء أحد إليهم ، يؤثّر ذلك في نفوسهم ، ولكنّهم لا يحوّلون تلك الآثار الى صراع ، بل يعـودون الى القـرآن والى ســائر التعــاليم ، ليجعلــوا ذلك حكما فاصلا بينهم ، فتراهم بدل أن يختلفوا فيه يختلفون إليه.

ولعلّ من العوامل الأساسـية الـتي تجعلهم يتجـاوزون سورة الغضب الى سعة الصـدر وسـماحة الحلم أهـدافهم السـامية ، فهم يؤمنـون بـأنّ غضـبهم وحـدّتهم يجب أن يصــرفا في الصــراع مع العــدو ، بينما الــذين تتضــاءل أهـدافهم في أعينهم تـراهم يصـبّون جـام غضـبهم على أنفسهم ، ويساهمون في تحطيم مجتمعهم بأيديهم.

والعفو صفة سامية جـدا لأنّ هنـاك من لا يملك نفسه عند الغضب فتراه يتجاوز حدود الشرع والعقل والأعـراف ، ويهدم في لحظة ما بناه في عقد من الزمن.

والمــؤمن ليس فقط لا يخرجه رضــاه وغضــبه عن حدود الله بل ويتجاوز غضبه الى العفو.

جاء في الحديث المروي عن الإمام الباقر (ع) :

«من كظم غيظا وهو يقــدر على إمضــائه حشا الله قلبه أمنا وإيمانا يوم القيامة»

وقال :

«من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا غضب حرّم الله جسده على النار» [1]

وروي عن رسولنا الأكرم (ص) أنّه قال :

«ألا أخبركم بخير خلائق الـدنيا والآخـرة : العفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، والإحسان الى من أساء إليك ، وإعطاء من حرمك» [2]

[38] ومن صفات مجتمع الشورى إيمان أفراده بخطّ واحد ، فلا يسـمّى اجتمـاع خليط من المـذاهب المختلفة بمجلس شورى ، إذ كيف يشـترك من يكفر بإله الكـون أو يشــرك به مع من يــؤمن بالتوحيد وبالإســلام في مجلس واحد؟!

(**وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ**)

فهم يلتقـون في خـطّ واحد هو خـطّ الإمـام المطـاع بإذن الله.

(**وَأَقامُوا الصَّلاةَ**)

بطقوسـها وقيمها .. ثم يؤكّد ربّنا مباشـرة على صـفة التشاور كأبرز صفة للمؤمنين ..

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (582) .

(2) المصدر.

(**وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ**)

وإنّما تقـــدّم ذكر الاســـتجابة لله ، وإقامة الصــــلاة بشــروطها ، لأنّهما ضــرورتان لكي تكــون الشــورى ذات فاعلية إيجابية في المجتمع.

وهناك ثلاث نظريّات في الشورى :

الأولى : تقول بـأنّ الشـورى «حـق» ، والثانية : تـرى أنّها «واجب» ، وتجمع الثالثة بين النظريتين ، وبالذات في المسائل العامة التي تتعلق بمصير الأمة وشـؤونها ، فعلى ضوء هذه النظرية لا يجوز لحـاكم الشـرع ولو كـان الفقيه العادل أن يجـري الأمـور في إدارته للأمّة كما يريد ، وإنّما يجب عليه أن يستشـير الآخـرين ، ويجمع علمهم وعقلهم الى ما عنده ، ثم يتخذ القرار على أساس هذه المشورة ، كما يجب من جهة أخرى على الآخرين أن ينصـحوه ، ومن أبـرز الواجبـات الإسـلامية النصـيحة لـوليّ الأمر .. وهكـذا روي عن الرسول (ص) :

«**ما من رجل يشاور أحدا إلّا هدي الى الرشد**»

ولأنّ الشورى انعكاس لروح الإيمان فهي تتسع لسائر مرافق حياة الجماعة المؤمنة ، ابتداء من الأسرة ، وانتهاء بالدولة ، ومـــرورا بـــالمرافق الاجتماعية والاقتصـــادية ، والشــؤون البلدية والقرويــة. إنّها أكــثر من مجــرد نظــام سياسي ، بل تشــكّل جــوهر العلاقة بين المــؤمن وأخيه المؤمن ، لأنّها نابعة من احترام المؤمن ورأيه ثم التسـليم للحق ، والبحث عنه أنّى وجد.

وحين تكون الشورى صـبغة المجتمع المسـلم تضـمن حرية الرأي ، وحقّ الانتخاب ، وواجب المساهمة في صنع القرار السياسي ، بل وتكون كلّ هذه المفاهيم ذات هدف مقدّس.

ولقد رسم الدين منهج الحكم في قيـادة أولى النـاس بالنبي (ص) ، وهم الأكثر علما والأتقى عملا والأكفاء إدارة ، وجعل على النــاس واجب التعــرّف على هــذا القائد ، وانتخابه حاكما عليهم ، فــإذا فعلــوا وجبت طاعته ضــمن إطار المشورة.

فجاء في الحديث الشريف :

«**من كــان من الفقهــاء صــائنا لنفسه ، حافظا لدينه ، مخالفا لهــواه ، مطيعا لأمر مــولاه ، فعلى العوام أن يقلّدوه**»

«**أنظـــــروا الى رجل منكم قد روى حــــديثنا ، وعــرف حلالنا وحرامنا ، فــاجعلوه حكما فــإنّي قد جعلته حاكما**»

وبهـذا يتكفّل الإسـلام حرية الـرأي في انتخـاب أعلى قيـادة في الأمة (بـالطبع ضـمن الإطـار الـديني للمجتمـع) ولكن لا ينتهي دور الأمّة عند هـــــــذا الحد بل يجب على الإمـام آنئذ استشـارة الأمّة ، ثم العـزم على رأي والتوكّل على الله في تنفيـــــــــذه ، كما قــــــــــال ربّنا : (**وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**) [(1)]

وهكــذا كــان يفعل النــبي (ص) والأئمة من أهل بيته حسبما روى معمّر بن خلّاد عن الإمام الرضا (ع) قال :

«**هلك مـولى لأبي الحسن الرضا يقـال له سـعد فقــــال : أشر عليّ برجل له فضل وأمانة ، فقلت : أنا أشـير عليـك؟ فقـال شـبه المغضب : إنّ رسـول الله كــان يستشــير أصــحابه ثم يعــزم على ما يريد الله**» [(2)]

إنّ الرأي الأخير يكون للقائد المنتحب الذي يجتهد في سبيل استنباطه من قيم

---

(1) آل عمران / (159) .

(2) موسوعة بحار الأنوار / ج (72) ص (101) .

الدين ، ولكن لا يتعجّله بل يسعى إليه عبر مشورة الرجال ، يروي في ذلك علي بن مهزيار عن الإمام الجواد ويقــول : كتب إليّ أبو جعفر أنّ : سل خلافا يشــــير علي ويتخيّر لنفسه ، فهو يعلم ما يجـــــوز في بلـــــده ، وكيف يعامل الســلاطين ، فــإنّ المشــورة مباركة ، قــال الله لنبيّه في محكم كتابه : (**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشـاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**) فإن كان ما يقول ممّا يجوز كنت أصوّب رأيه ، وإن كان غير ذلك رجوت أن أضعه على الطريق الواضح إن شاء الله [1]

ومن خلال النصوص الإسلامية التي تـأمر بالاستشـارة نتبيّن أنّ أفضل الأنظمة الاقتصادية في الإسـلام هي الـتي تجمع أكــبر قــدر من صــفة الشــورى ، ولعلّها التعاونيـات الاقتصـادية الـتي نسـتوحي أهمّيتها أيضا من مجمل القيم الإيمانية كالتعاون والإحسان والإيثار وحرمة الترف وحرمة سيطرة الأغنياء على مقاليد السلطة.

وقد حــدّدت النصــوص معــالم الشــورى في الحيــاة الاجتماعية ، فقد روي عن رسول الله (ص) :

«**استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا**» [2]

وروي عن الإمام الصادق (ع) :

«**استشر في أمرك الذين يخشون ربّهم**» [3]

وقال رسول الله ، وهو يوصي أمير المؤمنين (ع):

---

(1) المصدر / ص (104) .
(2) المصدر / ص (100) .
(3) المصدر / ص (101) .

«يا علي لا تشـــــاور جبانا فإنّه يضـــــيّق عليك المخـــــرج ، ولا تشـــــاور البخيل فإنّه يقصد بك عن غايتك ، ولا تشــاور حريصا فإنّه يــزيّن لك شــرّهما ، واعلم يا علي أنّ الجبن والبخل والحـــرص غريـــزة واحدة يجمعها سوء الظن» [1]

ومثلما أمر الإسلام بالمشورة أمر المستشــار بالنصح ، فحرام أن يمحضك أخوك المؤمن ثقته ثم تخونه بــالرأي الباطل والرأي الفطير ..

قال الإمام الصادق (ع) فيما روي عنه :

«من استشــار أخــاه فلم ينصــحه محض الــرأي سلبه الله عزّ وجلّ رأيه» [2]

وبيّن الإســـلام كيف ينبغي أن يشـــير من يطلب منه الرأي ، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) :

«لا تكوننّ أوّل مشير ، وإيّاك والــرأي الفطــير (3) ، وتجنّب ارتجــال الكلام ، ولا تشر على مســتبد برأيه ، ولا على وغد (4) ، ولا على متلوّن ، ولا على لجوج ، وخف الله في موافقة هدى المستشير فــإنّ التماس موافقته لؤم ، وسوء الاستماع منه خيانة» [5]

وكلمة أخيرة : إنّنا نسـعى جميعا نحو رحـاب الحرية ، ونطالب أولي الأمر بهـا. أفلا نبـدأ بأنفسـنا ونشـبع أجواءنا بعبق الحرية ، ونبادل الرأي فيما بيننا؟ أفليس أحقّ الناس بالخير الدعاة إليه؟

---

(1) المصدر / ص (99) .
(2) المصدر / ص (102) .
(3) قالوا : الرأي قبل التروّي والتعمّق.
(4) الدني الضعيف رأيا وعقلا.
(5) المصدر / ص (104) .

أو ليس أقـرب السـبل الى الحرية جعلها واقعا يعيش بيننا؟ أو ليست الحرية سلاحا نستخدمه ضد من يصادرها ، وهي قوة تهاب ، وجمال يستهوي اللباب؟

دعنا إذا نبـدأ بأنفسـنا وداخل أطر التحـرك الـديني بالذات ، فنتشاور في سائر شـؤوننا ، ذلك لأنّ الحاجة الى المشـورة تـزداد عند ما تخـوض الأمة صـراعا حضـاريا مع الكفّار والمنافقين ..

فقد روي عن الإمام الصادق (ع) :

«ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلا عـاقلا له دين وورع؟ ثمّ قـال : أما إنّه إذا فعل ذلك لم يخذله الله ، بل يرفعه الله ورمـــاه بخير الأمور ، وأقربها الى الله» [1]

وقال الرسول (ص) :

«الحزم أن تستشير ذا الرأي وتطيع أمره» [2]

وقال الإمام علي (ع) :

«الاستشـــارة عين الهداية ، وقد خـــاطر من استغنى برأيه» [3]

ثمّ وبعد التعرّض للشورى يسـرد لنا القـرآن مجموعة أخرى من صفات المؤمنين الـتي تتكامل وصـفة الشـورى فيقول :

(**وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**)

---

(1) المصدر / ص (102) .
(2) المصدر / ص (105) .
(3) المصدر / ص (104) .

سـواء كـان رزقا ماديا كالمـال والـثروة ، أو معنويا كالحكمة والعلم ، فـإنّ المؤمـنين ينفقـون منه في سـبيل تقدّمهم جميعا ، ولا ريب أنّ المجتمع البخيل الـذي ينحصر أبنـاؤه في حـدود أنفسـهم ومصـالحهم لا يسـتفيد من الشـورى ، لأنّ تبـادل الأفكـار والمعلومـات والخـبرات يستدعي تبادل المنافع ، ودائما يكون وراء مبادلة الخبرات الـتي تنفع اقتصـاديا مبادلة للأفكـار ، إذ لو لا وجـود حالة العطاء والكرم ، وبالتالي الخروج عن نطـاق الـذات ، إذن لما أمكن الإنسان الجلوس والتفاوض مع الآخرين ، ولذلك جـاء لنا التأكيد القـرآني على الإنفـاق بعد الحـديث عن الشورى.

[39] وهناك مسـألة أخـرى تتصل بموضـوع الشـورى اتصالا متينا وهي قضية الكرامة في حياة المجتمع والفـرد ، والتي من خلالها يتحدّد مصـير الحرية ، ذلك أنّ تحسّـس الإنسان بكرامته هو الذي يدعوه للتحرّر ورفض الضيم.

والمجتمع الذي يبقى يدور في حدود المطالبة بالحرية زاعما بأنّها ستأتيه على طبق من الذهب لا يفلح أبدا ، لأنّه عند ما يسـتجديها ممّن سـلبها منه فإنّه يثبت له بأنّه ليس أهلا للحرية ولا للكرامة ، وإنّما أهل الحرية هم الـــذين يأخذون حريتهم بالقوة ، ويسـتعيدون كـرامتهم بـدمائهم ، ولـذلك أكّد القـرآن وفي هـذا المقطع بالـذات على فكـرة هامة هي أنّ الشـورى الـتي تعـدّ تعبـيرا عن الحرية والكرامة لا تعطى للمجتمع ، وإنّما يجب أن تؤخذ بالقوة ، وهذا يهدينا الى ضرورة الجهاد والتضحية من أجلها.

(**وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ**)

والضـمير المنفصل «هم» يـأتي هنا للتأكيد على أنّ المؤمـنين لا ينتظـرون أحـدا لينتصر لمظلمتهم ، وإنّما يسـعون بأنفسـهم لرفع البغي عن أنفسـهم ، وفي الآية فكرتـان : الأولى : إنّ هـؤلاء يقـاومون البغي ويسـتعيدون حقوقهم بالقوة ، والثانية :

إنّهم ينصر بعضـهم بعضا في هـذه المقاومة ، فـإذا سـعى الظالم للبغي عليهم وقهرهم وقفـوا جميعهم صـفّا واحـدا ضدّه .. ويتساءل البعض : لمـاذا أمرنا الله ــ إذا ــ بـالعفو في آيــات عديــدة؟ والجــواب : إنّ التعــافي إنّما هو بين المؤمـنين ، أمّا إذا كـان العفو سـببا لتمـادي الظـالم في ظلمه فإنّه لا يكون حسنا ، جـاء في الحـديث المـأثور عن الإمام زين العابدين (ص) :

«وحــــقّ من أســــاءك أن تعفو عنه ، وإن علمت أنّ العفو يضر انتصرت ، قال الله تعـالى :**وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْـدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ**» [1] .

[40] وحيث توجد بعض الجــوانب السـلبية في نفس الإنسان ، فإذا به وهو يجاهد لمقاومة الظالم يصــبح أظلم منه ، أو ينشر الفســاد والبغي تحت راية المقاومة ، أكــدّ القرآن على ضرورة التقـوى في المقاومة ، وأن لا يتعـدّى المؤمنون حـدود الله في جهـادهم للظلم والظـالمين ، بل ويدعوهم للعفو والإصلاح ما استطاعوا إليه سبيلا.

(**وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها**)

فالمقابلة مشـروعة ولكنّها محـدودة بالتماثل إذ قـال ربّنا : (**فَمَنِ اعْتَـدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ**) [2]

وهذا التأكيد من قبل الله على التماثل مهم جدا ، لأنّ النفس البشــــرية تزلزلها ردّات الفعل وتخرجها من حــــدّ المعقــول ، فــإذا بالضــربة الواحــدة تقابل عنــدها بعشر ضــربات مثلها تشـفيا وانتقاما وعلـوّا واسـتكبارا ، وهـذه المعادلة مرفوضة بتاتا في كتاب الله.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (585) .

(2) البقرة / (194) .

لذلك ينبغي ومن أجل الاحتياط وعـدم مخالفة قـانون التماثل في القصاص ، أن يأخذ الإنسان أقـلّ من حقّه ولو بقليل ، والمثل الذي يقول : (نردّ الصاع بصاعين) لا يصلح قاعــدة للقصــاص عند الإســلام ، وإنّما الصــاع ينبغي أن يقابل فقط بصـاع ، كما قـال القـرآن الحكيم في معـرض حديثه عن بــــني إســــرائيل : (**وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِـالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِـالْعَيْنِ وَالْأَنْــفَ بِـالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ**) [1]

ويرتفع الإسـلام بأتباعه الى قمة الفضـيلة والإحسـان بدعوته للعفو.

(**فَمَنْ عَفا وَأَصْـلَحَ فَـأَجْرُهُ عَلَى اللـهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**)

والــدعوة للعفو هنا لا تــدلّ على أنّ ربّنا يــأمر بغض النظر عن الظـالمين ، أو أنّه سـبحانه يـدافع عنهم ، كلّا .. فهو لا يحبّ الظالمين كما تشير الى ذلك خاتمة هـذه الآية الكريمة ، ولكنّ الإنســـــان لا يمكنه أن يحكم قطعيّا على الآخــرين بــالظلم من خلال تعامله اليــومي مع النــاس ، فـبرغم أنّ فلانا ظـالم اسـتنادا الى بعض ممارسـاته فيقع فيما وقع فيه الظالمون من البغي على الناس زعما بأنّهم إنّما يستردّون منهم حقوقهم المسلوبة فينبغي له أن يعفو عن الناس ما أمكنه ذلك ، وبالذات إنّ العفو في كثـير من الأحيـــان يكـــون نفسه دافعا قويّا للمســــيء نحو التوبة والاعتذار ، وبالتالي الإصـلاح ، وهـذا الأمر هو الـذي يجعل من العافي مصلحا ، حسبما تشير الآية إليه.

أمّا الــذين يتسـرّعون ويغضـبون لأتفه الأسـباب ، أو لمجـرّد بعض الأخبـار الـتي ينقلها المغرضـون ، فيثـيرون النزاع بين المؤمنين ، فإنّهم لا يقـاومون الظلم في الواقع ، لأنّهم لن يستأسـدون على الضـعفاء ، بينما يستسـلمون للأقوياء ، فهم كما قال الشاعر : أسد عليّ وفي الحـروب نعامة ، بينما المجتمع الفاضل هو الذي تسود

---

(1) المائدة / (45) .

علاقاته الداخلية فضـيلة التعـافي والإيثـار ، ويـدّخر قوّته وغضبه لمقاومة الظالمين والجبابرة.

وما أحوجنا اليـوم ونحن نعيش ظـروف الصـراع مع أعـداء الـدّين الى التعـافي بيننا ، ولو عرفنا ما في العفو من ثواب عظيم لاستصـغرت في أعيننا المكاسب الجزئية التي تـرتجى من صـراعنا الـداخلي أو انتصـارنا من بعضـنا البعض ، هكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) :

«**عليكم بالعفو ، فإنّ العفو لا يزيد العبد إلّا عـزّا ، فتعافوا يعزّكم الله**» [1]

ولعـلّ العـزّة تـأتي عـبر انتصـارهم على عـدوّهم بما يوفّره التعافي عن بعضـهم من التماسك الـداخلي ، وربما تشير الرواية التالية الى هذه الحقيقة ، إذ تقـول (نقلا عن الإمام أبي الحسن (ع)) :

«**ما التقت فئتـــــان قط إلّا نصر الله أعظمهما عفوا**» [2]

[41] وينقض القرآن جانبا من الأفكـار السـلبية الـتي ينشرها البعض في الأمّة ، من قبيل أنّ مقاومة الظـالمين والثورة ضدّ الانحراف هي السبب في اضـطّراب الأوضـاع وانحسـار الأمن ، بينما السـبب هو ظلم السـلطة الحاكمة وانحرافها ، فالظلم هو السـبب في انعـدام الأمن ، وليس ردّ الظلم من قبل المجاهدين.

(**وَلَمَنِ انْتَصَـرَ بَعْـدَ ظُلْمِـهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ**)

فلا يجوز إذن أن نلقي بـاللوم عليهم ، لأنّهم يطـالبون بحقوقهم المشروعة ، وبهذا

---

(1) المصدر.

(2) موسوعة بحار الأنوار / ج (68) ص (424) .

يقطع القـرآن الكـريم ألسـنة ضـعفاء النفـوس ومرضى القلوب الذين يقفون دائما مع القوي ضد الضعيف.

[42] إذن فعلى من يقع اللّـوم؟ ومن هو المســؤول عن الواقع الفاســد؟ إنّما المســؤول الأوّل عن مشــاكل الصراع هم الحكّام الظلمة الذين يريـدون السـيطرة على الناس ونشر الفساد.

(**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ**)

فـالقوى الاسـتكباريّة الـتي تسـعى لبسط سـلطانها الفاسد على الشــعوب وأنظمتها العميلة هي المســؤولة عن مشـاكل الشـعوب ومآسـيها ، أمّا دفـاع النـاس عن أنفسـهم وعن مصـالحهم فهو جهـاد مشـروع لاسـترداد الحقـوق الضـائعة .. والإرهـاب هو السياسة الـتي يقـوم بتطبيقها المســـــتكبرون والأنظمة الرجعيّة العميلة لهم ، وليس ما يضطرّ إليه المصلحون والمدافعون عن حقوقهم .. ويتوعّد ربّنا الطغاة بأشدّ العذاب.

(**أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

قد يرونه في الدنيا وربما يتأخّر الى الآخرة.

[43] وإذا كنّا نريد الإنتصار على هـؤلاء الظلمة فنحن بحاجة ماسّة الى الصبر ..

أوّلا : الصـبر والاسـتقامة أمـام إغـراءات العـدو ، فالظـــالم يبثّ في المجتمع ألوانا من الأحلام والأمـــاني وكلّها كاذبة ، ثانيا : الصـبر لتحـدي إرهـاب العـدو وقمعه ، ثالثا : الصـبر لمقاومة الاسـتعجال والارتجالية في أنفسـنا وعند أصدقائنا ، فما أحوجنا

لــذلك ونحن نســعى لتنظيم أنفســنا وأمورنا اســتعدادا لمحاربة العدو.

(**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**)

والعــزم في الأمــور هو أن لا يأخذ الإنســان الأمــور مأخــذا هيّنا دون التخطيط الــدقيق لها والســيطرة عليها ، بل الحسم والإرادة القوية لتحقيق الأهــداف المنشــودة ، بعيدا عن روح التشفّي ، وذلك لا يتأتّى إلّا بالصبر والحلم.

ويبدو أنّ هذه الآيـات وبالـذات الأخـيرة منها تهـدف ـ فيما تهدف ـ تربية نفـوس المؤمـنين على مقاومة الـترف والتعجّل وفــورات الغضب الــتي تصــيبهم في لحظــات الضعف فتذهب بحلمهم وأناتهم ورفقهم وتلطّفهم ، وربما كشفت عن واقعهم ، وأفسدت خططهم الرسالية.

بينما حاجة المؤمــنين الى الصــبر بانتظــار اللحظة المناســـبة حاجة مضــــاعفة ، من أجل ذلك أوصى أئمة الهـــدى المجاهـــدين ضد الطــــاغوت بكظمهم الغيظ ، واعتبروا ذلك من الحزم الذي يساهم في نجـاح المهمـات الصعبة.

قال الإمام الصادق (ع) :

«**كظم الغيظ من العدو في دولاتهم تقية (تقاة) حــزم لمن أخذ به ، وتحــرّز عن التعــرّض للبلاء في الدنيا ، ومعاندة الأعـداء في دولاتهم ، ومماـظتهم (1) في غــير تقية تــرك لأمر الله ، فجـاملوا النـاس يسمن ذلك لكم عندهم (2) ولا تعادوهم فتحملــوهم على رقابكم فتذلّوا**» [3]

---

(1) المماظة : شدة الخلق والمنازعة.

(2) اي ينمي قدركم عندهم.

(3) المصدر / ص (49) .

ويبلغ بالإمــام زين العابــدين التأكيد على كظم الغيظ تقية درجة يقول :

«**وددت أنّي افتــديت خصــلتين في الشــيعة لنا ببعض ساعدي : النزق وقلّة الكتمان**» [1]

وتزداد صفة العفو أهمية عند المقدرة ، وبالــذات عند ســيطرة فريق على آخر ، وما أحــوج حكّــام المســلمين اليــوم الى هــذه الصــفة الإيمانية الــتي كــانت رمز بقــاء الإسلام وانتشار نوره ، أفلا تأسّوا برسولهم الكــريم الــذي عفى عن قـــريش بعد أن شـــنّت عليه (17) حربا بكلمة واحدة قائلا : «**اذهبوا فأنتم الطلقــاء**» وعفى عن قاتل حمزة عمّه الكريم ، بالرغم من أنّ قتله أحدث في فــؤاده جرحا نازفا ، بل وعفى عن تلك المـــرأة اليهودية الـــتي ســمّته ، وســبّبت ـــ بالتــالي ـــ في وفاته حسب بعض النصوص!

ويــروي الإمــام البــاقر (ع) قصة عفــوه عن اليهودية هكذا :

«**إنّ رســـول الله أتى باليهودية الــتي ســمّت الشاة للنــبي فقــال لها : ما حملك على ما صــنعت؟ فقــالت : قلت : إن كــان نبيّا لم يضــرّه ، وإن كــان ملكا أرحت النـــاس منه ، قـــال : فعفا رســـول الله عنها**» [2]

إنّ خلق الرسول كان من أعظم أسـباب انتشــار نــور الإسلام وعزّة المسلمين ، وقد قال (ص) :

«**ما أعزّ الله بجهل قط ، ولا أذلّ بحلم قط**» [3]

---

(1) المصدر / ص (416) .
(2) المصدر / ص (402) .
(3) المصدر / ص (404) .

وَمَنْ يُضْـلِلِ اللـهُ فَما لَـهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْـدِهِ وَتَـرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَـرَدٍّ مِنْ سَـبِيلٍ (44) وَتَـراهُمْ يُعْرَضُـونَ عَلَيْها خاشِـعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ الْخاسِــرِينَ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنْفُسَــهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَــوْمَ الْقِيامَـةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَـذابٍ مُقِيمٍ (45) وَما كـانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيـاءَ يَنْصُـرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللـهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ

هدى من الآيات :

في إطـار بيـان مبـدأ «الشـورى» والـذي يتجلّى في النظام السياسي الكفيل باحترام الـرأي ، والتسـليم للحق ، وإتماما لما ذكر في الآيـات السـابقة من واجب مقاومة الظـالمين والإنتصـار منهم ، يبصـرنا السـياق بالعاقبة السـوئى للظلم. أو ليس الظلم أكـبر عقبة في طريق النظـام الشـوروي الصـالح والـتي لا بـدّ للمؤمـنين من تصفيتها؟

أولى السيئات التي تلحق الظـالمين الضـلالة «**وَاللـهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**» .

والثانية : النـدم البـالغ حينما يـرون العـذاب فـاذا بهم يتساءلون بذلّ : هل الى رجوع سبيل؟

والثالثة : خشوعهم الذليل عند ما يعرضون على النار ، حتى أنّهم ينظرون إليها من طرف خفي ذلّة وصغارا.

والرابعة : التبكيت الــذي يلاحقهم من عند المؤمــنين حيث يــذكّرونهم بــأنّهم خســروا أنفســهم وأهليهم يــوم القيامة.

والخامسة : خلودهم في العذاب.

ولقد فقدوا أنصارهم الـذين التفّـوا حـولهم في الـدنيا فلا أحد ينصرهم هنالك في الآخرة.

بينات من الآيات :

[44] في فاتحة الدرس وخاتمته نقرأ عن ضــلالة الله ، وأنّ من يضــلّه الله لا وليّ له ولا سـبيل أمامه ، ولا ريب أنّ فقد الهداية أعظم مصـيبة وأكـبر خسـارة ، وأنّ الله لا يضـلّ أحـدا إلّا بسـبب ارتكابه جريمة كبـيرة. أو ليس الله بــأرحم الــراحمين ، فكيف يحجب نــور هدايته عن البشر وهو لا يملك هاديا سواه؟

وهنا يطرح السؤال التالي : لمـاذا لا تكـون الهداية إلّا عبر النهج الإلهي؟

إنّ للهداية شروطا ثلاثة وهي :

أوّلا : وجــود نــور من عند الله يهــدي الإنســان الى الطريق.

ثانيا : وجـود إرادة عند البشر يتغلّب بها على شـهواته وسائر العقبات التي تمنعه من رؤية النور.

ثالثا : انعـدام الحجب الـتي تمنع النـور ، كما الرؤية لا تتمّ إلّا بضياء وبصر وألّا يكون بينهما حجاب ساتر.

ولا تتوفّر هـذه الشـروط لبشر إلّا بـإرادة الله تعـالى. دعنا نفصّل القول في ذلك ،

فعن الشـــرط الأوّل نقـــول : من الـــذي يهب لنا العقل والعلم؟ من الواضح أنّ العلم بوســـائله القديمة والحديثة عجز عن إصــلاح أليــاف المخ الــتي تتلف ، فكيف يعطي الإنســان نــورا؟ كما لا يــزال الجنــون لغــزا أمــام الطلب والعلم البشري إلّا بعض أنواعه البسيطة ..

كما أننّا نمرّ في حياتنا بعهود ثلاثة يتضح لنا من خلالها أنّ العقل والعلم من عند الله عـــــــزّ وجل ، ففي عهد الطفولة يولد الإنسان وهو لا يعلم شيئا (**وَاللـهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُــونِ أُمَّهــاتِكُمْ لا تَعْلَمُــونَ شَــيْئاً وَجَعَــلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) [1] ، وفي عهد القوة عند ما يكون المرء في عزّ شبابه ، وحيث قواه العقلية والجسمية والنفسية في أوج قوتها ، لا يكتشف إلّا بعض الأمـــور ، وقد يفقد علمه بالنســـيان وعقله بغلبة الغضب ، ثمّ يبدأ مسيرته المنتكسة علميّا وجسميّا ونفسيّا ، فـإذا به ينقص علمه (**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْـهُ فِي الْخَلْـقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ**) [2] .. ومن الأمور التي تتكرّر لكـلّ بشر في جانب العلم من حياته أنّه قد تبدو له بعض الأمـور واضـحة ولكنّ عقله يعجز عن اســـــتيعابها وإذا به يلهمها إلهاما ، وإلى هذه الحقيقة يشير أكـثر المفكّـرين والمبتكـرين في كلامهم عن كيفية وصـــولهم الى المعرفة ، وإن كـــانت مذاهبهم تختلف في تفسير ماهيّة الإلهام ومصدره.

وفي النصـــوص الإســـلامية نجد بيانا لحقيقة العلم ، ففي سورة العلق نقرأ : (**اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ* خَلَـقَ الْإِنْسـانَ مِنْ عَلَـقٍ* اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْـرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِـــالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْســـانَ ما لَمْ يَعْلَمْ**) [3] إذن فـالقراءة وهي إحـدى طـرق العلم والمعرفة لا تكـون إلّا بالله الـذي يتكـرّر ذكر اسـمه في أوّل كـلّ سـورة تـذكيرا بذلك ، والحديث

---

(1) النحل / (78) .
(2) يونس / (68) .
(3) العلق / (1 ـ 5) .

المأثور عن الإمام الصادق (ع) يقول :

«ليس العلم بالتعلّم ، إنّما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبـارك وتعـالى أن يهديه ، فـإن أردت العلم فـــــاطلب أوّلا في نفسك حقيقة العبوديّة ، واطلب العلم باستعماله ، واستفهم الله يفهمك» [1]

وحينما نعـود الى تجاربنا الشخصـية في الحيـاة والى وجداننا وفطرتنا نكتشف بـأنّ العلم ليس من ذات أنفسـنا ، كما أنّه ليس من ذات الأشياء ، وإنّما هو حالة في قلوبنا مستجدّة ، وبالرغم من وجود إثارات خارجية له إلّا أنّه غير تلك الإثارات ، بل مثله مثل العين التي تثيرها الأشـياء بما فيها من أنـــوار إلّا أنّنا لو لم نملك عينا لم تنفعنا إثـــارة الأشياء أبدا ، كذلك الإثارات التي تبدو عنـدنا أسـبابا للعلم فمن دون حالة العلم لما نفعتنا شـــيئا. إذا العلم من عند الله.

الشرط الثاني : من الذي جعل لكلّ شيء علامة تدلّ عليه ، أو ليس الله؟ كما العين تبصر ولكن بشـرط وجـود النـور المنعكس من الأشـياء عليها ، كـذلك العلم يكتشف الحقـائق بشـرط وجـود دلالة منها عليها ، والله هو الـذي جعل لكلّ شيء دلالة عليه.

وكـــلّ شـــيء يكشف عن نفسه من خلال أمـــارات وعلامات ظاهرة ، فآبار النفط ، وعيون الماء ، والمناجم ، جعل الله لها جميعا آية تـــدلّ عليها ، فمثلا قـــديما كـــانوا يكتشـفون الميـاه بواسـطة غصن أخضر يمشـون به في عرض الصحراء ، فإذا مال الى جهة مّا تأكّـدوا من وجـوده فيها. من الـذي جعل هـذه العلاقة بين الغصن والمـاء؟ إنّه (**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُـلَّ شَـيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدى**) [2] والإمارات والآيات التي أودعها

---

(1) بح / ج (1) ص (225) .

(2) طه / (50) .

الله في الخلق بمثابة النور الـذي يكشـفها للإنسـان ، وقد قال رسولنا الأكرم (ص) :

«**إنّ لكلّ حقّ حقيقة ، وعلى كلّ صواب نورا**»

ولو أخفى الله شـــــــــيئا ، ولم يجعل بينه وبين علم الإنسـان علاقة ، فمن الـذي يمكنه أن يهـدينا إليـه؟ وفعلا أخفى الله عن علم الإنسان أكثر ممّا أظهر.

الشـــرط الثـــالث : ولأنّ الإنســـان يفقد قدرته على الرؤية والتمييز في بعض الحـالات ، كالغضب الشـديد ، أو الاهتمـام بقضـية معينة ، أو عند الشـهوة ، إذ ينعـدم حينها شـــعوره الـــداخلي ، فهو بحاجة الى إرادة قوية يتغلّب بها على تلك الحـــــــــــــــــــــالات ، والإرادة من الله (**وَما تَشـاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشـاءَ اللـهُ**) كما أنّ قـوّة الإرادة وضـعفها بيد الله ، ولو لا تأييـده لخـارت أمـام الضـغوط ، وإذا لم يهتد أبدا.

(**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ**)

يستطيع هدايته أو إنقاذه من مصيره الأليم. فإذا كـان يسـتحقّ النجـاة فـإنّ الله أحـقّ بنجاته ، لأنّه خالقه وبارئه وأرحم به من كلّ شخص ، فمن لا يرحمه أرحم الراحمين ، ومن لا يسعه حلم الله الواسع وكرمه العظيم ، ترى هل من رحمة تسعه أو حلم أو كرم؟

ونقـرأ في سـورة الرعد : (**لَهُ دَعْـوَةُ الْحَـقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُـغَ فـاهُ وَما هُـوَ بِبالِغِـهِ وَما دُعـاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ**) [1] والـذي يتبع السـبل الأخـرى غـــير ســـبيل الله المتمثّل في رســـالاته وأوليائه ، فإنّه يكتشف خطـأه وضـلاله البعيد يـوم القيامة ، أو حـتى في الدنيا عند الجزاء.

---

(1) الرعد / (14) .

(**وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ**)

وقد انتهت الفرصة الـــتي أعطيت لهم ليجرّبـــوا بها إرادتهم.

(**يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ**)

إنّهم وقد انتهى بهم الظلم الى نـــار جهنم يتمنّـــون الكرّة ليختاروا هـدى الله على ضـلالات الشـيطان ، ولكن هيهات ، هل تعود عقارب الزمن الى الوراء ، هل الشـباب يردّ الى العجوزة المتهاوية ، أم تعـود نضـارة الطفولة الى من عركته السنين ، وبلغ من العمر عتيّا؟!

حقّا تثـــير هـــذه الحقيقة النفس من أعماقها ، فـــأيّ خسـارة كـبري تلحق بالظـالمين ، بل أيّ ثمن يسـوى في مقابل هذه الخسارة التي لا تعوّض؟!

[45] وتتواصل الآيات في بيان عاقبة الظالمين الذين لو تسنّى لهم لماتوا ملايين المـرّات حسـرة على التفريط في جنب الله ، وهم يتعذّبون نفسيّا وجسديّا ، نفسيّا لأنّهم يشـــعرون بالذلّة والمهانة بعد العلـــوّ والتكبّر في الـــدنيا ، وجسديّا لأنّهم سيصيرون حطبا لجهنم.

(**وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِ**)

إنّ أهمّ العقبات النفسية التي تعترض طريق الإنسان الى الهداية هو التكبّر ، الـذي أخـرج إبليس من الجنة ، ولا زال يخــرج به إبليس أبنــاء آدم من رحمة الله الى غضــبه وعذابه ، وعلى الإنسان أن يقاوم جموح النفس المتكبّــرة ، بتصــوّر تلك اللحظة الــتي يعــرض فيها المتكبّــرون على النار ، خاشعة نفوسهم من الذلّ.

وهذا الخشوع السلبي لا يتجاوزه الإنسـان إلّا بخشــوع الإيمان الإيجابي ، ولذلك

جاء في الدعاء :

«اللهمّ ارزقني خشوع الإيمان قبل خشوع الذلّ في النار»

وحيث تبلغ الذلّة بالظالمين ذروتها يوم القيامة فهم لا يستطيعون الالتفات الى من حولهم بكامل نظرهم وأعينهم ، وبالذات أولئك الذين أظهروا أنفسهم مظهر المؤمنين ، وخدعوا الناس في الدنيا ، ولذلك فإنّهم حينما يريدون الالتفات الى الناس ، أو حتى مجرّد رفع طرفهم نحو الآفاق ، يختلسون النظرات ذلّة ومهانة.

(**يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ**)

بحيث لا يرون أحدا ، وهذه من طبيعة المجرم ، أو الإنسان حينما يصعد عنده الشعور بالذّل.

وقال البعض : إنّ شدّة العذاب تمنعهم من النظر إلى النار ، ولكنّهم ينشدّون إليها خوفا منها وفرقا ، ولذلك تراهم ينظرون إليها من طرف خفي ، كالذي حكم عليه بالإعدام ينظر الى المشنقة نظرا خفيّا ، بعكس الذي ينظر الى روضة غنّاء فإنّه يملأ منها عينيه.

أمّا الصالحون فإنّهم يستفيدون من هذا الموقف موعظة وعبرة ..

(**وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

بسبب ظلمهم وضلالهم. لقد وفّر الله سبحانه فرصة عظيمة للإنسان حيث أعطاه قوى نفسه ، ومتعة بأهليه ، والظالمون يفقدون هذه الفرصة ، فلا يعملون بأنفسهم عملا صالحا حتى يستفيدوا من طاقاتهم يوم القيامة ، ولا يربّون أهليهم

على العمل الصـالح حـتى يسـتفيدوا من حسـنات ذريّتهم يومئذ ، وهكـذا تكـون خسـارتهم مضـاعفة في ذلك اليـوم الرهيب.

(**أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ**)

أي دائم لا يخرجون منه.

[46] كما أنّ الظالمين يخسرون أنصـارهم وأعـوانهم يـوم القيامة ، حيث تنقطع كـلّ العلاقـات والروابط الـتي منعتهم في الدنيا من الاستقامة على الطريق ..

(**وَما كـانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيـاءَ يَنْصُـرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**)

وهـذا المعـنى يتكـرّر عشـرات المـرّات في القـرآن ، ولكن لمـاذا تؤكد الآيـات على أنّ الـذين يعتمد عليهم الإنسان ويتوسّـل بهم ويعبـدهم ، كـالطواغيت ، وأصـحاب القـوة والمـال ، وأصـحاب العلم الضّـال والشـهرة لن ينفعـوه؟ لأنّ من أعظم عوامل الضـلالة أصـحاب السـوء الذين يغترّ بهم الظالم فيتوغّل في اغتصاب حقوق النـاس اعتمـادا عليهم. أفلا يتفكّر أنّهم لا ينفعونه شـيئا يـوم القيامة؟!

(**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ**)

إلى الهداية ، لأنّ السبيل الوحيد إليها هو سبيله.

وأخيرا :

نتسـاءل : ما هي علاقة هـذه المجموعة من الآيـات والأفكـار المسـتوحاة منها بموضـوع الوحـدة ومعالجة الاختلافات الاجتماعيّة؟

إنّ القـرآن الحكيم يسـعى لمعالجة جـذور الفسـاد والاختلاف ، ومن أهمّها

الضـــــلالة ، ذلك أنّ البعض يعـــــرف الحقيقة بينما يجهلها البعض الآخر ، الأمر الـــــذي ينتهي الى الخلاف في أغلب الأحيان ، والقرآن يعالج الضلالة البشريّة مؤكّدا بأنّ سـببها الابتعاد عن منهج السماء ، فإذا ما عاد الى الله واسـتجاب لدعوته اهتــدى الى الحق ، وابتعد عن التكــبر الــذي يقف بصورة أو بأخرى خلف الصراعات الاجتماعية.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَـهُ مِنَ اللـهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَـإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِـيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَـلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظـاً إِنْ عَلَيْـكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسـانَ مِنَّا رَحْمَـةً فَـرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ فَـإِنَّ الْإِنْسـانَ كَفُـورٌ (48) لِلَّهِ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُـقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الـذُّكُورَ (49) أَوْ يُـزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثـاً وَيَجْعَـلُ مَنْ يَشـاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَما كانَ

---

48 [وما لكم من نكير] : أي منكر ينصـركم ، أو إنكـار : بمعـنى إنكم لا تقـدرون على الاسـتنكار لشـدّة الهـول والفـزع أو لما تـرون من عـدم الفائدة في إنكاره.

لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللـهُ إِلاَّ وَحْيـاً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجـابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) وَكَـــذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْـــكَ رُوحـــاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْـدِي بِـــهِ مَنْ نَشـــاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْـدِي إِلى صِـــراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53))

جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ

هدى من الآيات :

تتواصل خاتمة آيــات الســورة لتطهــير الأفئــدة من غفلتها عن الرسالة ، واتكالها على الرسول ، وغرورها بما تملك ، وجزعها مما تفقد ، كيف.؟

يهــزّ مطلع الــدرس القلب هــزّا عنيفا بعد أن يــأمره بالاستجابة للرســالة فينــذره بيــوم عظيم لا يــردّه شــيء ، هنالك حيث لا ركن يلجــأون إليه ، ولا نصــير ينكر ما يفعل بهم.

ثم ينسف فكرة الاتكال في الهداية ، فحــتى الرســول لا يتحمّل المسؤولية إلّا بقدر تبليغ الرسالة.

ويحطّم غــرور الإنســان ، ويعريه على ضــعفه ، وكيف يهـــتزّ فرحا برحمته ، ولا يلبث أن يتميّز كفـــرا ويأسا إذا أصــابته ســيئة ، أفلا يهديه ذلك الى أنّه لا يملك من أمــره شـــيئا ، وأنّ لله ملك الســـموات والأرض ، وأنّه يخلق ما يشاء ، وأنّه الذي يقسم

رحمته بين عباده كيفما يشاء ، فيهب لهذا ذكرانا ، ولـذلك إناثا ، ويجعل الثالث عقيما؟

ويكــرم من يشــاء بــأعظم مكرمة وهي الــوحي ثم يمضي الســياق في بيــان حقــائق عن الــوحي ، فتكتمل الســورة الــتي تــبيّن جــوانب عن النظــام السياسي في المجتمع المسلم بالحديث عن الـوحي. أو ليس هو محـور هذا المجتمع ، وقيمة نظامه السياسي؟

بينات من الآيات :

[47] أعظم ما يعـاني منه البشر الغفلة ، حيث تحيط بهم مشــاكل يومية تنســيهم قضــاياهم الهامّة ، وعــادة تحجب الشجرة الناس عن رؤية الغابة المترامية .. ويعالج الذكر هذه الحالة بالإنذار الصاعق من يوم القيامة حيث لا يمكن الفرار من أهواله.

(**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ**)

بالاستماع الى داعيه ، والتسليم للحق الذي نـزل معه ، والطاعة للقيادة التي أمر بها.

(**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ**)

وهل يرد أحد ما يريده الله تعالى؟

(**ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ**)

فلا أحد ينصر أحدا.

(**وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ**)

[48] ويعالج القرآن ـ وفي أكثر من آية ـ عقبة نفسية أمام تحمل مسئولية

الايمــان ، حيث تــرى الإنســان ينتظر من يحمّله الإيمــان تحميلا ، ويزعم أنّه ما دام لا يوجد من يكرهه على الإيمان فهو معفي عنه وعن التزاماته.

كلّا .. الإيمــان مســئوليتك قبل أيّ شــخص آخــر. أو ليست فائدته لك ، وخسارته ـ إن خسرته ــ عليك ، فما ذا تنتظــر؟ إنّ الرســول ليس إلّا مبلّغ ، فــإن شــئت آمنت بحرّيّتك ، وإن شـئت اشـتريت العـذاب بما اخترته لنفسك من الكفر.

(**فَـإِنْ أَعْرَضُـوا فَما أَرْسَـلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظـاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ**)

وهذا دور كلّ قائد رسالي في أيّ مجتمع وأيّ زمـان ، وكفى بذلك مسئولية كبيرة يتحمّلها. وإذا ما أعرض الناس عمّا يدعوهم إليه فلا يدلّ ذلك على قصـور في الرسـالة ، ولا تقصير في القائد ، بمقـدار ما يـدلّ على ابتعـادهم عن ميزان العقل الثابت ، واتباعهم لطبائعهم المتقلّبة ، والـتي تتـأثّر بالضـغوط والعوامل الخارجية ، والـتي يستعرضـها السـياق هنا ليهـدي الإنسـان الى مراكز ضـعفه ، لكي لا يستبدّ به الغرور فيكفر.

إنّ ضعف الإنسان يتمثّل في تقلّب حالته النفسـيّة مع تقلّبـات الظـروف الخارجة عن إرادته ، فهل تكـون هـذه الحالة ميزانا صــالحا لتقـــييم الحق والباطل ، أو منهجا سليما للسلوك ، أم لا بد من اتباع الرسول.

(**وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها**)

وتوقّف عند حـدود النعمة دون التفكـير فيما يـترتّب عليها من مسـئولية ، وقد نهى الله عن الفـرح قـائلا : (**إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ الْفَـرِحِينَ**) [1] وقـال في موضع آخر : (**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَـوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَـدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ**

---

(1) القصص / (76) .

الْعَـذابِ) [1] والفــرح المنهيّ عنه هو حالة الإشــباع الــتي تــؤدّي الى الغــرور أو نفي المســؤولية والوصــول الى الكمال. وهذا الشعور يوقف مسيرة التقدّم عند الإنسان ، وعلى العكس من ذلك لو أشــــعر نفسه بــــأنّ أمامه مسـئوليّات أخـرى لم يؤدّها ، فإنه يستشـعر الحـزن في نفسه لاعتقاده بالتقصير في عمله.

وهكذا أوصانا الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام حين قال :

«**واعلمـوا عبـاد اللـه! إنّ المـؤمن لا يصـبح ولا يمسي إلّا ونفسه ظنون عنده ، فلا يزال زاريا عليها ، ومســـتزيدا لها ، فكونـــوا كالســـابقين قبلكم ، والماضـين أمـامكم ، قوّضـوا من الـدنيا تقـويض الراحل ، وطووها طيّ المنازل**» [2]

وأوصى الإمام الكاظم بعض ولده بذلك قائلا :

«**يا بـنيّ عليك بالجد ، لا تخـرجنّ نفسك عن حـدّ التقصير في عبادة الله وطاعته فإنّ الله لا يعبد حقّ عبادته**» [3]

وهنــاك جــانب آخر من طبيعة البشر هو اليــأس عند المصـــيبة والابتلاء ، حيث ينسى نعم الله عليه بســـبب مصيبة يتعرّض لها في حياته ، ممّا يدلّ على مدى ضعفه.

ولمـاذا يكفر بـالنعم؟ لأنّه فقد بعض المـال أو أصـابه شـيء من المـرض ، أفلا فكّر في سـائر نعم الله الـتي لا يـزال يتقلّب فيها ، ألا تـذكر أيّـام الرخـاء والراحة عند ما كان يفرح بالنعم ويحسب أنّها دائمة لا تزول عنه أبدا؟!

بلى. ينبغي أن يركّز المبتلى نظره في سـائر نعم الله عليه ، فيستعيد شخصيّته ،

---

(1) آل عمران / (188) .
(2) موسوعة بحار الأنوار / ج (68) ص (231) .
(3) المصدر / ص (235) .

ويثق بربّه ، ويسـرع في مقاومة البلاء بـروح إيجابية ، كما ينبغي أن يتـذكّر أبـدا نعم الله السـابقة عليه فـيزداد بالله أملا وله حمدا كثيرا ، كما فعلت امـرأة أيّـوب حيث حـاول إبليس إغواءها عند ما أحيط بها البلاء ، فنهرته واستقامت على صـبرها وتجلّـدها حـتى فـرّج الله عنها .. جـاء في الحـديث : إنّه جاءها ذات يـوم فقـال لها : ألست أخت يوسف الصديق (ع)! قالت : بلى. قـال : فما هـذا الجهـد؟ وما هذه البلية التي أراكم فيها؟ قـالت : هو الـذي فعل بنا ليؤجرنا بفضله علينا ، لأنّه أعطاه بفضله منعما ، ثمّ أخـذه ليبتلينا ، فهل رأيت منعما أفضل منـــه؟! فعلى إعطائه نشـكره ، وعلى ابتلائه نحمـده ، فقد جعل لنا الحسـنيين كلتيهما ، فابتلاه ليرى صبرنا ، ولا نجد على الصبر قـوة إلّا بمعونته وتوفيقه ، فله الحمد والمنة ما أولانا وابتلانا [1]

هكـذا يوجّه المؤمنـون الابتلاء والمصـيبة ، ويقـاومون وساوس الشيطان الـذي يحـاول تحريف مسـيرتهم ، بينما يكفر سائر النـاس بسـبب الابتلاءات الـتي يتعرّضـون لها ، والـتي لو درسـناها لوجـدنا أكثرها تحـلّ بهم لـذنوبهم وما قدّمته أيديهم من سيئات.

(**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ**)

يكفر بالنعم القديمة كما يكفر بسائر النعم التي تحيط به الآن ، فتظلم الـــدنيا في عينيه ، ويفقد القـــدرة على مقاومة البلاء والتمتّع بالرخاء.

[49] هذا ضـعف الإنسـان ، وخـور عزمه ، أفلا اتصل بالقوة التي لا تقهر ، وبالملك الذي لا يحد ، وبـالعزّة الـتي لا تغلب ، بالله القويّ العزيز؟

(**لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج (12) ص (352) .

ومن أوسع ملكا ممّن يملكهما ، ومن أنفذ ملكا ممّن خلقهمــا؟ أو ليست الســموات مطويّـات بيمينــه؟ ثم إنّ ملكه لا يحدّ بالسموات والأرض ، لأنّه :

(**يَخْلُقُ ما يَشاءُ**)

دون أن يحقّ لأحد الاعتراض عليه أو السؤال.

وتتجلّى هــذه المشـيئة في مختلف جــوانب الحيـاة ، ومن بينها تصــرّفه في أعظم ما خوّله للإنســان من الملك وهو الولد.

(**يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ**)

فلا الــذي يريد الله أن يكــون نســله كلّهم إناثا قــادرا على إنجاب الذكور ، ولا العكس. ولعلّ تقديم الإنـاث على الــذكور كــان للدلالة على أنّ البنت هي الأخــرى هبة من الله عظيمة ، أو لأنّ الجـاهليين كـانوا لا يحبّـون الإنـاث ، ولكن الله ـ بالرغم من ذلك ـ يهب الإنـاث ، فهو الـواهب لما يشـاء ، كيف يشـاء ، أفلا يـدلّ ذلك على سـعة ملكه ، وشدّة هيمنته؟

[50] (**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً**)

أي يجعل النسل من الجنسين الإناث والذكور.

(**وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً**)

فلا يهب له شـيئا ، وهـذه المشـيئة ليست اعتباطية ، وإنّما تدخل ضمن حكمة الله وإرادته المطلقة.

(**إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**)

ولو أنّه يعطي الناس كيفما أرادوا لربما فسد العالم ، فقد يتمنّى الجميع أو الأكثريّة الـــذكور أو العكس ، بينما لا بد من التنــوع والتــوازن للحفـاظ على الجنس البشــري ، ومن جـــانب آخر يجعل ربّنا البعض عقيما لحكمة يعلمها ، فربما يفسد العقيم لو أعطي ذريّة.

ومعرفة هـــذه الحقيقة تبعث الســـكينة في النفس ، فمن علم بـــأنّ الله هو الوهّـــاب لأفضل النعمة وأشـــدّها تأثيرا على النفس ، وهي نعمة الذرية التي تهشّ لها نفس كلّ حي ، لا يستبدّ به الفرح حتى يدخله في الغــرور ، كما أنّه لو فقد شيئا من النعمة لا يستبدّ به اليأس حـتى يدخله في الكفر بالنعم ، لأنّه يعلم بأنّ المقدّر لكــلّ ذلك هو الله الذي لا يظلم ولا يجور سبحانه وتعالى.

[51] وفي سـياق الحـديث عن آمـاد ضـعف البشر ، وأبعـاد حاجته ، وضـرورة اتصـاله بمعـدن القـوة ، وينبـوع الغنى برحمة الله الـذي له ملك السـموات والأرض يهـدينا الـربّ الى نعمة الرسـالة ، ويتصل الحـديث عن الرسـالة بالجوّ العام لسورة الشورى التي تختم بهذه الآيات اتصـالا متينا ، ذلك لأنّ الشـورى ــ كما أسـلفنا ــ متمّمة للنظـام السياسي للأمّة ، ومحور هذا النظام بل وأسـاس الأمّة هو الـوحي الـذي يضـفي على المجتمع المسـلم صـبغة الله ، ويحييه بكلمة التقــوى ، ويوحّــده حــول محــور القيــادة الرســالية المتمثّلة في الرســول (ص) وذوي القــربى من أهل بيته المعصـــــومين ومن اتبع نهجهم من الفقهـــــاء الصالحين!

ولم يمنّ الله على عبـــــاده بنعمة أعظم ولا أروع ولا أنفع من الـــوحي. إنّه التجلّي الأعظم لرحمة الله الـــتي وسعت كلّ شيء ، وأيّ تقـدير أو أيّ احـترام أكـبر من أن يتلقّى الإنســان كلمــات جبّـار الســموات والأرض.؟! وأيّ قلب عظيم هـــذا الـــذي يتلقّى هـــذا الأمر الثقيل فلا يتصدّع.؟! أيّ سماء تحلّق بها هذه النفس الكريمة

الـتي تسـتقبل كلمـات الله الـتي لو ألقيت على الجبـال لتصـدّعت ولو وجّهت الى المـوتى لتكلّمـوا أو الى الأرض لسارت سيرا.؟!

ولكن كيف ينزل الله كلماته على البشر؟ بواحـدة من السبل التالية :

(**وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً**)

ما هو الوحي؟ حسب اللغة ومـوارد اسـتخدام الكلمة أنّه قذف الحقيقة في القلب قذفا.

قال الشيخ المفيد : وأصل الـوحي هو الكلام الخفي ، ثم قد يطلق على كلّ شيء قصد به إفهام المخاطب على الستر له عن غيره والتخصيص له به دون من سواه ، وإذا أضـيف الى الله كـان فيما يخصّ به الرسل (صـلّى الله عليهم) خاصة دون سـواهم على عـرف الإسـلام وشـريعة النبي. [1]

وروي عن الإمـام أمـير المؤمـنين (ع) أنّه قـال في معاني الوحي :

«وأمّا تفسير وحي النبوة والرسالة فهو قوله تعـالى : (**إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُـوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْـدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْـراهِيمَ وَإِسْـماعِيلَ**) وأمّا وحي الإلهام فهو قوله عزّ وجلّ : (**وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ**) ومثله : (**وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِـعِيهِ فَـإِذا خِفْتِ عَلَيْـهِ فَأَلْقِيـهِ فِي الْيَمِ**) ، وأمّا وحي الإشـارة فقوله عـزّ وجل : (**فَخَـرَجَ عَلى قَوْمِـهِ مِنَ الْمِحْـرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**)» [2]

وما يجمع هـذه المعـاني وغيرها لكلمة الـوحي هو الإلقاء إشارة وبنحو من

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج (18) ص (249) .

(2) المصدر / ص (255) .

التخصيص والستر.

ونتساءل : كيف يتمّ الوحي من الله للبشر؟ قبل الإجابة لا بدّ أن نعرف أنّه لا ينبغي السؤال عن الكيفية في الجانب الالوهي ، لأنّ علمه محجوب عنا ، وقد ضلّ كثير من الناس حين تفكّروا في الذات الالوهية وما يتصل به سبحانه من حقائق ، بلى. يحقّ لنا أن نسأل عن الجانب الآخر حيث يتمّ التلقّي والاستجابة والأخذ ، والقضية هنا هيّنة إذ أنّ لها أمثلة : فنحن البشر لم نعلم شيئا حين خلقنا الله من بطون الأمهات ثمّ قذف في قلوبنا العلم ، كما أنّ كثيرا من البشر يقذف الله في أفئدتهم نور معرفته وروح الإيمان به ، وكلّ ذلك نظائر للوحي.

ولكن حين يكلّم الله أحدا بالوحي فإنّ ذلك لا يعني مجرّد قذف نور العلم بصورة مجملة ، بل وأيضا بيان تفاصيل العلم ، وبيّنات الهدى ، لأنّ القضية هنا قضية التكلّم ، والتكلّم يعني وجود كلمات ، والكلمات تعني المفصّلات من العلم.

ويبدو أنّ الوحي هو اتصال مباشر بين الربّ وعبده المنتجب ، ولعلّه أسمى درجات التكلّم ، وقد كان نبيّنا (صلّى الله عليه وآله) يعيش في لحظات التجلّي وضعا خاصّا كان يسمّيه المسلمون (برحاء الوحي) ..

سأل زرارة من الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ قائلا : جعلت فداك : الغشية التي كانت تصيب رسول الله (ص) إذا نزل عليه الوحي؟ فقال :

ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد ، ذاك إذا تجلى الله له [1]

وجاء في حديث آخر :

---

(1) المصدر / ص (256) .

كان جبرئيل إذا أتى النـبي قعد بين يديه قعـدة العبد ، وكان يدخل حتى يستأذنه [1]

من هنا فإنّ برحاء الوحي إنّما كانت تنتـاب النـبي عند ما يتمّ تجلّي الله له بالوحي المباشر ، وليس عند ما يبعث إليه رسولا من عنده (وهو جبرئيل عليه السلام) الذي كان يتمثّل في أجمل صورة وهو صورة دحية الكلبي المعروف بصباحة وجهه ، ولم ينزل عليه بصورته الأصليّة إلّا مرّتين ، حسب بعض النصـوص .. مـاذا كـانت برحـاء الـوحي ، ولماذا؟

روي أنّه كـان إذا نـزل عليه الـوحي يسـمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل.

وروي أنّه كـان يـنزل عليه الـوحي في اليـوم الشـديد البرد فيفصم عنه وانّ جبينه يتفصّد عرقا. [2]

وروي أنّه كان إذا نزل عليه كرب لذلك ، ويربـدّ وجهه ، ونكس وجهه ونكس أصحابه رؤوسهم منه. [3]

وفي الحديث أنّه أوحي اليه وهو على ناقته ، فـبركت ووضـعت جرانها [4] فما تسـتطيع أن تتحـرّك ، وأنّ عثمـان كان يكتب للنـبي (**لا يَسْـتَوِي الْقاعِـدُونَ**) ... الآية وفخذ النـبي على فخذ عثمـان فجـاء ابن أمّ مكتـوم ، فقـال يا رسول الله : إنّ بي من العذر ما تـرى ، فغشـيه الـوحي ، فثقلت فخذه على فخذ عثمـان ، حـتى قـال : خشـيت أن ترضّها فانزل الله سبحانه : (**غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**) [5]

---

(1) المصدر.
(2) أي إذا انتهى عنه الوحي تصبّب عرقا.
(3) المصدر / ص (261) .
(4) مقدّم العنق.
(5) المصدر / ص (464) .

وحقّ للنبي أن يتكأدّه ثقل الـوحي ، ولو لا توفيق الله لتصـدّع قلبه لتجلّيـات ربّـه. أو ليست السـموات يكـدن يتفطّرن من خشية الله؟

ما أعظم هـــذا القلب الـــذي يتحمّل كلمـــات الله ، ويتلقّى أمره مباشرة! إنه حقّا آية عظمي من آيات الله!

ولعـلّ توفيق الله وتسـديده للرسـول والـذي تكتمل مقدرته على احتمـال حالة الـوحي وتجلّي الله العظيم ثم احتمـــال علم الله وكلماته ، لعل هـــذا التوفيق يتمثّل في روح القـــدس الـــتي أنزلها الله على نبيّه ، فقد روي عن الإمـام الصـادق عليه السـلام قـال مفسّـرا قوله تعـالى : (**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**) :

«**خلق أعظم من من جبرئيل وميكائيل كـــان مع رسول الله وهو مع الأئمة ، وهو من الملكوت**» [1]

وقال في تفسير قوله تعالى : (**وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ رُوحـــاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَـــدْرِي مَا الْكِتـــابُ وَلَا الْإِيمانُ**) :

«**خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل كـان مع رسـول الله يخـبره ويسـدّده وهو مع الأئمة من بعده**» [2]

(**أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ**)

كما كلّم الله نبيّه موسى بن عمـــــــران (ع) تكليما ، ولكن دون أن يرى شـيئا ، ومـاذا تحتمل العين من عظمة الله ، أرأيت كيف تتلف أنسجة العين ، وتعطب أعصـابها ، لو تعرّضت لومضة شديدة من النـور الـذي خلقه الله ، أو يزعم أحد بأنّ الله

---

(1) المصدر / ص (215) .

(2) المصدر.

أقلّ نورا من تلك الومضة وقد أشرقت السموات والأرض بنور ربّها؟!

لقد تجلّى ربّك للجبل فجعله دكّا ، وخرّ موسى صـعقا ، فإذا لم يصبر موسى على تصدّع الجبل فهل كان يتحمّل تجلّي الله له مباشرة؟!

(**أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً**)

كما كـان ربّنا يبعث جبرئيل لرسـله ، ولكن كيف كـان يتلقّى جبرئيل وحي ربه؟

حسب رواية عن أمير المؤمنين ـ عليه السـلام ـ عن النبي (صلّى الله عليه وآله) أنّه :

«سـأل جبرئيل قـائلا : يا جبرئيل : هل رأيت ربّـك؟ فقـال جبرئيل : إنّ ربي لا يـرى ، فقـال رسـول الله : من أين تأخذ الوحي؟ فقال : آخذه من إسرافيل ، فقـال : من أين يأخـذه إسـرافيل؟ قـال : يأخـذه من ملك فوقه من الروحـانيّين ، قـال : فمن أين يأخـذه ذلك الملـك؟ قـال : يقذف في قلبه قذفا» [1]

(**فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ**)

ولا يحقّ لأحد يتلقّى الـوحي أن يتصـرّف فيه كثـيرا أو قليلا ، بل لا بـدّ أن يكـون الـوحي حسـبما أمر الله ، وفي الوقت الذي يأذن الله.

(**إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**)

ومن علـوّ مجـده تسـاميه من القلـوب المريضة ، والنفوس المليئة بالأحقاد والأغلال

(1) المصدر / ص (257) .

وآثـــار الـــذنوب ، إنّما الـــذين يصـــطفيهم الله لوحيه من طهرت أنسابهم وأحسـابهم ، وصـفت قلـوبهم ، وتسـامت نفوسهم ، فالله أعلم حيث يجعل رسـالته يختـار لها أكـرم خلقه ، وأشدهم تسليما وطاعة وإخلاصا.

من هنا لا ينبغي للناس أن يختاروا لقيـادتهم إلّا الأعلم الأتقى. أو ليس الله هو المخصـــوص بالطاعـــة؟ فلا بد أن يكون أقرب النـاس اليه هو الـذي يطـاع بين النـاس بـإذن الله.

[52] وهكذا عقد لواء القيادة في هذه الأمّة لرســولنا الأكرم لأنّه تلقّى الوحي من أمر الله ..

(**وَكَذلِكَ**)

بمثل هذه السبل الثلاث : بالوحي المباشر ، وبـالتكلّم من وراء الحجـــاب ، وببعث الرســـول ، تلقّى الرســـول كلمات ربّه.

(**أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا**)

ما هو ذا الروح الذي أوحى الله الى الرسول؟ قالوا : إنّه روح الحيـاة. أو ليس القـرآن حيـاة القلـوب ، وفيه ما يضـمن للبشر الحيـاة الأخروية ، وقد قـال ربّنا سـبحانه : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا اسْـــتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـــولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ**) . [1]

ولكن يبـــدو أنّ الـــروح في منطق الكتـــاب هو روح القدس ، وقد قال ربّنا سبحانه :

---

(1) الأنفال / (24) .

1) (**وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**) [1]
2) (**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا**) [2]
3) (**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ**) [3]
4) (**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا**) [4]

والروح ــ حسب الآية الأخيرة ــ غير الملائكة ، وهو يلقى على الرسل حسب الآية الثالثة ، وهو يحمل الرسالة حسب الآية الثانية ، ويؤيّد به الرسل حسب الاية الأولى.

وفي النصوص أنّه خلق أعظم من الملائكة ، وهو الذي ينزل في ليلة القدر ، ويصعد مع الملائكة في يوم القيامة كما ذكر في الآية الرابعة.

وهو بأمر الله ومن أمره ، فهو إذا من عالم الملكوت المهيمنة على المخلوقات ، وبتعبير آخر : إنّه من عالم الأنوار المتعالية عن عالم الأجسام اللطيفة كالملائكة أو الكثيفة كالبشر ، إنّه في أفق العلم والعقل والحياة والقدرة ، وبذلك فهو من عالم الأمر ، حيث ينزل منه القدر ، ويكون به القضاء.

ويكفينا أن نعرف من الروح هذا القليل الذي يشير الى آياته وعلائمه ومظاهر وجوده وليس الى ذاته ، كما في سائر الأنوار العالية التي لم نعرف علمها إلّا بقدر معرفة آثارها ، وقد قال ربّنا سبحانه : (**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**

---
(1) البقرة / (87) .
(2) النحل / (102) .
(3) غافر / (15) .
(4) النبأ / (38) .

وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

وهكذا يبدو أنّ الـروح ــ كما العقل والإرادة ــ هو نـور إلهي ينزله الله على قلب من يشــاء من عبــاده ، ليشــبع فيه سكينة الإيمان ، ونور اليقين ، وسداد التوفيق ، وكلمة التقوى والعصمة.

وقد أعطى ربّنا المؤمــنين من عبــاده درجة من هــذا الروح وهو روح الإيمـان والتقـوى ، بينما أكمل لنبيّه محمد وآله عليه وعليهم السـلام درجــات هــذا الــروح ، وأبلغهم درجة اليقين التامّ والعصمة.

ولو لا هذا الروح لم يكن يعرف الأنبياء أنّ ما ينقر في آذانهم أو يقذف في أفئدتهم أو تراه أبصــارهم هو من عند الله وليس من نزغات الشياطين أو أوهام النفس.

كما أنّه لو لا نور العقل لم يقدر الإنسان على التميـيز بين الحق والباطل ، بين ما تراه عينه من مـاء وما يـترائى له من سراب.

ولو لا روح القدس لم يهزم النبي الشيطان كليّا ، كما أنّه لو لا روح الإيمــان لم يتغلّب المــؤمن على الشــيطان في الأغلب.

وبتعبير آخر : بروح القـدس تتكامل نفس النـبي حـتى تســتعد لتلقّي وحي الله ، كما بالعقل تتكامل نفس ســائر البشر لتلقّي المعــارف والعلــوم. إنّه إذا الجــانب المتّصل بــالنبي من الــوحي ، بينما الرســالة هي الجــانب المتصل بــالحق الــذي يــوحى ، وكلاهما من الله ســبحانه ، ولهــذا جــاءت كلمة الــروح هنا بعد الــوحي ، وكأنّه أوحي به بينما هو من أمر الله ، وبه يسود النبي لتلقّي الوحي.

ونستوحي هذه الفكرة من بعض الأحاديث التي ذكرنا طائفة منها سابقا ، والتي تـبيّن أنّ الـروح خلق أعظم من الملائكة ، ونتلوا معا الطائفة الثانية :

روي عن زرارة قــال : قلت لأبي عبد الله (الإمــام الصــادق عليه الســلام): كيف لم يخف رســول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينـتزغ به الشـيطان؟ قال : فقال

«**إنّ الله إذا اتخذ عبدا رسولا أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله عزّ وجلّ مثل الـذي يراه بعينه**» [1]

وروي عن محمد بن مســلم ومحمد بن مــروان عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام) :

«**ما علم رسول الله أنّ جبرئيل من قبل الله إلّا بالتوفيق**» [2]

وفي تفسير هـذه الآية بالـذات سـبق وأن روينا حـديثا عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا أنّه قـال (عن الـروح في هذه الآية) :

«**خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل ، كان مع رسول الله يخـبره ويسـدّده وهو مع الأئمة من بعده**» [3]

وجـاء في تفسـير الآية (**يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُـلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**) [4] عن

---

(1) المصدر / ص (262) .
(2) المصدر / ص (257) .
(3) المصدر / ص (264) .
(4) الإسراء / (85) .

الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال :

«**أعظم من جبرئيل وميكائيل ، لم يكن مع أحد ممّن مضى غـــير محمّد وهو مع الأئمة يســـدّدهم ، وليس كلّ ما طلب وجد**» [1]

ولكي يـزداد الأنبيـاء يقينا بـأنّ الله يؤيّـدهم بـروح منه ويـزدادوا قربا منه بالإنابة إليه والتوبة فـإنّ الله يكلهم الى أنفسهم لحظات فتهتزّ قناعاتهم أو يرتكبون ما لا يليق بهم ، كما همّ يوسف بها لــولا أن رأى برهــان ربّه ، وكما دعا يــونس على قومه وكــان الأولى أن يصــبر عليهم ، وكما سارع داود بالقضاء فذكّرته الملائكة فأناب الى الله.

وقد جاء في حديثين يكمل الثـاني منهما الأوّل ما يلي :

عن أبي بصير عن أبي عبد الله (الإمـام الصـادق عليه الســلام) في قــول الله : (**حَتَّى إِذَا اسْــتَيْأَسَ الرُّسُــلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا**) مخفّفة قال :

«**ظنّت الرسل أنّ الشـــــياطين تمثّل لهم على صورة الملائكة**» [2]

وعن أبي شــعيب عن أبي عبد الله (الإمــام الصــادق عليه السلام) :

«**وكلهم الله الى أنفسهم أقلّ من طرفة عين**» [3]

هكـذا نعـرف أنّ نعمة الـروح الـذي يسـدّد به النـبي ويعصم من أن ينطق بهوى ليست بأقـلّ من نعمة الـوحي إن لم يكن أعظم.

---

(1) المصدر / ص (264) .
(2) المصدر / ص (261) .
(3) المصدر / ص (262) .

(**ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ**)

ذلك أن الكتــاب ليس من عبقرية محمّد (صــلّى الله عليه وآله) بل من وحي الله.

(**وَلَا الْإِيمانُ**)

فلو لا الوحي لم يكن النبي يدري شـيئا من كتـاب ربّه ، ولولا روح القدس لم يبلغ درجة الإيمان ، لأنّ الايمان يتمّ بروح منه.

ولا ريب أنّ الرسول كـان مؤمنا قبل الرسـالة ، ولكنّ هذا الإيمان كإيمان أيّ بشر آخر كان بالله وبروح منه. ألم يقل ربّنا سـبحانه : (**يَمُنُّونَ عَلَيْـكَ أَنْ أَسْـلَمُوا قُـلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَـلِ اللـهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَـداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**) [1]

أمّا الرســول محمد (ص) فقد سـدّده الله منذ نعومة أظفــاره بــروح القــدس ، حســبما يبــدو من كلام أمــير المؤمنين عليه السلام :

«**وقد قـرن الله به ـ صـلّى الله عليه وآله ـ من لدن أن كـان فطيما أعظم ملك من ملائكته ، يسـلك به طريق المكـــارم ، ومحاسن أخلاق العـــالم ، ليله ونهاره**» [2]

(**وَلكِنْ جَعَلْنــاهُ نُــوراً نَهْـدِي بِــهِ مَنْ نَشــاءُ مِنْ عِبادِنا**)

إنّه من الله ، ولأجل كلّ من يشاء الله هدايته ، وليس من الرسول أو خاصّا به فقط.

---

(1) الحجرات / (17) .

(2) عن نهج البلاغة / الخطبة (192) .

(**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

[53] فـالنور الـذي أوحى به الله يهـدي الى السـبيل المستقيم.

(**صِراطِ اللهِ الَّذِي لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**)

وهل صـــراط الله خـــالق الكـــون ومالكه أفضل ، أم صـراط الشـياطين والطـواغيت الـذين يشـرّعون منـاهج منحرفة تتنـــافى مع القـــوانين الطبيعية والســـنن الكونية فيضلّون ويضلّون؟!

وهل من تصـير إليه الأمـور أحـقّ بالطاعة والإتبـاع أم من لا يملكون شيئا حتى من أمور أنفسهم؟!

وقبل الختام نورد حديثا في فضل هذه الآية نقله جابر بن عبد الله (ع) عن الإمـام الصـادق (ع) ، قـال : سـمعته يقول :

«وقع مصحف في البحر فوجدوه وقد ذهب ما فيه إلّا هذه الآية : (**أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**)» [1]

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (591) .

سورة الزّخرف

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة :

عن أبي جعفر الباقر (ع) أنّه قال :

«**من أدمن قــراءة (حم) الزخــرف آمنه الله في قبره من هوام الأرض ، وضغطة القـبر ، حـتى يقف بين يدي الله عزّ وجل ، ثم جـاءت حـتى تدخله الجنة بأمر الله تبارك وتعالى**»

(تفسير نور الثقلين / ج 4 ص 590)

الإطار العام

لكي تستقبل أفئدتنا ضياء الايمان لا بدّ أن نطهّرها من طائفة من الأدران التي تترسّب عليها ، وآيات الذكر تذكّرنا بها ، وتشجّعنا على تزكية القلوب منها ، وتوصينا بكيفية ذلك ، ويبدو أنّ سورة الزخرف تجري في هذا السبيل .. كيف؟

إنّ هدف الكتاب المبين الذي جعله الله قرآنا عربيّا (بلغتهم ، ويفصح جليّا عن الحقائق) بلوغ العقل ، وهو أسمى وأدق تعبير عمّا في أمّ الكتاب (1) .

ثم تترى الآيات في تبصير الإنسان بالعقبات النفسية التي لا بدّ من تجاوزها (أو الأقفال التي يجب فكّها ، والأمراض التي يجب معالجتها ، والأدران التي يجب تطهير القلب منها ليستعدّ للإيمان) وهي :

أوّلا : الغرور بالمال ، وهل يضرب القرآن الذكر صفحا لأنّهم قوم مسرفون؟ أفلا ينذرون قبل أن يكسر غرورهم عذاب عقيم ، كما أهلك أشدّ منهم بطشا ، وتركهم أحاديث لمن يعتبر بهم؟ (5) .

ثانيا : الفصل بين ربّ السماء وربّ الأرض ، والإعتقاد بأنّ إله الحق لا شـأن له بـدنياهم ، وإذا سـئلوا عمّن خلق السـموات والأرض فلا منـاص لهم من الاعـتراف بالخـالق العزيز العليم ، وهكــذا الأرض ، فهو الــذي جعلها مهــدا ، وسلك فيها سبلا ، لعلّهم يهتدون الى مـآربهم ثم الى ربّهم الذي أتقن صنعه ، وحـتى تـدبير رزقهم فهو بـأمر اللـه. أو ليست حيـاتهم تعتمد على المـاء ، فمن ينزله من السـماء بقدر حاجتهم؟

أفلا يـــــرون كيف يحـــــيي به الله الأرض ، فلما ذا لا يهتـدون الى أنّه كـذلك يحـييهم بعد مـوتهم؟! ومن آيـات تدبيره خلق الأزواج ، وتوفـير وسـائل النقـل. أو ليس كـلّ ذلك يـدلّ على أنّ إله السـماء هو إله الأرض ، ويـدعوهم الى طاعته ، وشـكر نعمائه ، فـإذا اسـتقروا على ظهـور الأنعـام أو متن السـفن سـبّحوا الله على تسـخيرها لهم! ولم يكونوا بمستواها (9) ونقرأ في ختـام السـورة تـذكرة بهذه الحقيقة أيضا (84) .

ثالثا : تقديس الأشياء والأشخاص ، فـإذا بهم يجعلـون للرحمن من عباده جزء (يعطونه صفة التقـديس) وبـالغوا في كفــرهم حين زعمــوا أنّ الله اختــار لنفسه البنــات ، واصطفى لهم البنين.

ويتســـاءل : هل شــــهدوا خلقهم؟ كلّا .. ويقــــول إنّ كلامهم الباطل شــــهادة عليهم ، ســـوف تكتب وســـوف يسألون عنها ... وتراهم يبرّرون عبادة الآلهة بالجبر الإلهي ، بلا علم عنـــدهم ، بل بمجـــرد الخـــرص والتخمين ، ولا بكتاب إلهي يستمسكون به ، بل باتباع آبائهم.

ويعالج القرآن ابتاع الآباء بأنّ ذلك من عادة المترفين الذين ما أرسل الله الى قرية نـذيرا إلّا تشـبّثوا بتقاليـدهم البالية متحـدّين بها رسـالات ربّهم ، ولكن ألا ينظـرون الى عاقبة أولئك المترفين الذين انتقم الله منهم؟!

ويضـرب القـرآن مثلا على ذلك بقصة إبـراهيم (أوّلا : لأنّ أبرز ما في رسـالته تحدّيه لعـادات السـابقين ، ابتـداء من أبيه وانتهاء بقومه ، وثانيا : لأنّه من أولي العزم الـذين يـذكرون في هـذه السـورة باسـتثناء واحد منهم وهو نـوح (ع)) .

وإذا كـــانت الجاهلية العربية تعتمد على عقائد آبائها ، فإنّ أعظمهم إبـراهيم ، رائد التوحيد ومحطّم الأصـنام. ألا يتبعونه وقد جعل رسالة التوحيد كلمة باقية في عقبه؟ كلّا .. إنّهم يتبعون أهواءهم لا آبـاءهم ، وقد غـرّتهم متع الـدنيا عن اتباع الحق حـتى نسـبوا الرسـول (ص) الى السـحر (15) .

رابعا : تقييم الحقائق بالمقاييس المادية ، فقد قالوا : لو لا أنـزل الكتـاب على واحد من العظيمين في الطـائف ومكة؟ ونهـرهم الله : هل هم الـذين يقسـمون نعم اللـه؟ كلّا .. الله هو الـــذي قسم بينهم معيشــــتهم ، وجعلهم يتفاضلون في الأمور المادية ، لا لقيمة لهذا عنده أو هوان لــذاك ، بل لتنتظم الحيــاة الاجتماعية ، ويحتــاجون الى بعضـهم ، ويتعـاونون فيما بينهم ، أمّا النعمة الكـبرى فهي رحمة الله ، لا المال الذي يكدّسونه.

وما أتفه الـــدنيا عند الله ، فلو لا أن يصـــعب على المؤمـــنين لجعلها كلّها للكفّــار ، لأنّها بالتــالي متــاع. أمّا الآخرة التي هي الحيوان فهي للمتقين وحدهم.

خامسا : قرنـاء السـوء الـذين يزيّنـون للإنسـان سـوء عمله لـيراه حسـنا ، وإنّما يقيّض الله قـرين السـوء من الجنّ والإنس لمن يعش عن ذكر ربّه ، (أمّا من يتــــذكّر فإنّه يبصر الحقائق ، لأنّ الشـيطان يتهـرّب من ذكر اللـه) ويقوم الشيطان بصدّ التارك لذكر الله عن سبيل الهـدى ، وتزيين الضلالة له ، وإنّما ينتبه لدور الشيطان في إضـلاله حين يـأتي ربّه ، فيقــول له : (**يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَـكَ بُعْـدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَـرِينُ**) . ومـاذا ينفع التـبرّي منه يومئذ ، لأنّهما في العذاب مشتركين بسبب ظلمهما.

(وهكذا يعالج القرآن وسوسة الشيطان بذكر الله) .
وبعد أن ينذر القـرآن أولئك الجـاهلين بعـذاب إمّا في عهد الرسـول أو بعـده ، ويـأمر النـبي (والـذين اتبعـوه) بالتمسّك بالوحي الذي هو شـرف له ولقومه (دون المـال والجاه) لأنّهم يسـألون عنه ، يـأمره بـأن يسـأل السـابقين من الرسل (ويستقرئ سيرتهم) هل كانوا يدعون قط الى غـير الله (ويقدّسـون آلهة المـال والسـلطة كلا) ويضـرب مثلا من سيرة موسى وعيسى عليهما السلام (وهما نبيّان من أولي العزم ذكرا في هذه السورة مع إبـراهيم ومحمّد سلام الله عليهما) .
فحين أرسل الله موسى بالبينـات الى فرعـون وملئه إذا هم منه يضـحكون ، وكلّما أراهم ربّنا من آياته طلبـوا من موسى أن يـدعو ربّه ، وعهـدوا إليه بالإيمـان ، فلمّا كشف عنهم العـذاب نكثـوا عهـدهم (واعتمـدوا على قيمة الثروة والسلطة الزائلة) .
وأثـار فيهم فرعـون نخـوة العصـبية وشـهوة المـال والقوة ، واستخفّهم فأطاعوه ، فـانتقم الله منهم وتـركهم آية لمن بعدهم.
(وكذلك كان موقف الجـاهليين العـرب من عيسى بن مريم عليهما السلام) وحينما ضربه الله مثلا صـالحا جـادل فيه قـوم الرسـول قـائلين : أآلهتنا خـير أم هـو؟ (وكانوا يعرفون الحق ، ولكنّهم عاندوا ربما لأنّهم اعتمـدوا على قيمة الثروة والسلطة ، فقدّسـوا آلهتهم رمز الـثروة والسلطة ، واستخفّوا بابن مـريم الـذي كـان مثـال الطهر والزهـد) بلى. إنّه عبد أنعم الله عليه ، وجعله مثلا لبـني إسـرائيل (ولم يـأمرهم بعبادته أبـدا) وبعد أن ينـذر ربّنا أولئك المعانـدين بأنّه قـادر على أن يهلكهم ، ويجعل مكـانهم ملائكة في الأرض يعبدونه ، يـبيّن بعض جـوانب عظمة عيسى ـ عليه السلام ـ بأنّه من أشـراط السـاعة ، وأنّه قد جاء بالبينات والحكمة والقـول الفصل فيما اختلف فيه بنوا إسرائيل ، وأمرهم بتوحيد الله ربّه وربّهم جميعا ، بيد

أنّهم اختلفوا فيه (ظلما وبغيا) فويل للظـالمين من عـذاب يوم أليم (65) .

ويـذكّرنا الـربّ بـأنّ الأخلّاء أعـداء بعضـهم في يـوم القيامة إلّا المتقين (وهكـذا ينبغي أن نختـار من المتقين أصدقاءنا ، وقد أشارت آيات سـابقة الى مسـألة القـرين) ويصف نعيم الله في يوم البعث لعبـاد الله الـذين تتلقّـاهم الملائكة بالسلام والبشرى ، وتدعوهم الى الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين. كلّ ذلك جزاء لما عملوا (73) .

بينما المجرمـون خالـدون في جهنم ، دون أن يخفّف عنهم عذابها ، وهم آيسون فيها من روح الله بما ظلمـوا ، وحين ينـادون كبـير ملائكة العـذاب (مالـك) ليعـدمهم الله يجيبهم بأنّهم ثمّة ماكثون ، ويقـول : لقد جئنـاكم بـالحق ، وأنتم كنتم تكرهـون الحـق. وقد عانـدوا الحق فحكم الله عليهم بالعذاب الخالد (جزاء عنادهم) (79) .

وبهـذه البصـيرة يعـالج السـياق حالة العنـاد الـذي هو واحد من أبـرز العقبـات النفسـية في طريق الإيمـان ، ثم يعالج سائر الحالات التي تمنع المبادرة الى الإيمـان ، مثل التوهّم بأنّ الله لا يسـمع سـرّهم ونجـواهم ، ويـذكّرنا الله بأنّه يسمعهم ، وقد أحاط بهم ملائكته الكرام يسـجّلون ما ينطقون به (80) .

(ويعود الى معالجة حالة الشرك ، حيث يلتجأ الإنسان ــ عـادة ــ الى ظـلّ الشـرك فـرارا من ثقل المسـؤولية) ويقول : النبي ليس ولد الله ، بل هو أوّل العابدين لله.

(وينسف أسـاس الشـرك القـائم على الجهل بعظمة الله) ويقول : سبحان ربّ السموات والأرض أن يكـون له ولد مثلما يصـــفون. أو ليس هو ربّ العـــرش العظيم والهيمنة التامة ، فما ذا يفعل بالولد؟!

ويأمر الرسول (والرساليين) بأن يتركهم في خوضـهم يلتهـون ببـاطلهم ، ويلعبـون من دون هـدف معقـول في حياتهم حتى يلاقوا يوم الجزاء الذي يوعدون (وهكـذا ينـذر كلّ المشركين بالله بـأنّهم يفرغـون حيـاتهم من أيّ هـدف سليم ، كما يفرغون عقولهم من أيّ بصيرة حق) .

ويـــبيّن أنّ إله الســـماء هو إله الأرض ، وهو الحكيم العليم (فلا يجوز الفصل بين الـدين والسياسة ، بين عـالم الخلق وواقع الحكم) .

(وكيف نتخذ من الثروة والسلطة آلهة والله عنده كلّ خير؟!) أو ليس هو المالك للسـموات والأرض وما بينهما ، فهو الذي يبارك (أفلا ينبغي أن نعبده ليعطينا من بركاته؟) وعنده علم الساعة (أفلا نخشاه؟) واليه ترجعون.

(أمّا شركاء المال والجـاه و.. و.. فهم لا يملكـون أهمّ ما يحتاجه البشر وهو الخلاص من النـــار) ولا يملكـــــون الشـــفاعة عند الله ، وإنّما الشـــفاعة للحق ولأهله ، وفي الـوقت الـذي يعـترف الجميع بـأنّ الله هو خـالقهم تـراهم يؤفكـــون عنـــه! (ولكن لا ينبغي أن يهلك المـــؤمن نفسه حسـرة عليهم) وحين قـال الرسـول داعيا ربّه : إنّ هـؤلاء قوم لا يؤمنون ، أمره الله بالصفح عنهم (والإعراض) وأن يقـول لهم : سـلام (ولا يبـادرهم بـالحرب) لأنّهم سـوف يعلمون أيّ منقلب ينقلبون.

سورة الزّخرف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**حم (1) وَالْكِتـابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتـابِ لَـدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**

---

4 [أمّ الكتـاب] : هو اللـوح المحفـوظ ، وإنّما سـمّي بـذلك لأنّه أصل الكتب السماوية وغيرها.

5 [أفنضرب عنكم] : يقال ضربت عنه أضربت عنه أي تركته وأمسكت عنه.

[صـفحا] : وأصـله من ضـرب الحيـوان على صـفحة وجهه ليميل عن طريقه إلى ما يـراد به ، ثمّ اسـتعمل في كـلّ شـيء للتحريف عن الطريق.

(7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَـلُ الْأَوَّلِينَ (8) وَلَئِنْ سَـــأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـــقَ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيــزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُـبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً بِقَـدَرٍ فَأَنْشَـرْنا بِـهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11)

قرآنا عربيا لعلّكم تعقلون

هدى من الآيات :

في هـذا الـدرس يمهّد الـذكر الحـديث عن الموضـوع الأساسي في هــــذه الســـورة ، وهو كما قلنا : التكيّف السليم مع الحيـاة الـدنيا ، وذلك بالتـذكرة بحكمة الكتـاب المبين الـذي أنزله الله وجعله قرآنا عربيا ، والـتي تتلخّص في إيقاظ العقل من سباته ، وهو أعلى وأحكم نسـخة لأمّ الكتاب الذي عند الله ، وبعد بيان أنّ إسراف الجـاهليين لا يمنع رحمة الله عنهم بتذكيرهم يعـالج السـياق واحـدة من أبرز عقبات الإيمان ، والـتي يهتم القـرآن كثـيرا بها ، وهي حالة اللاّمبـــالاة والاسترســـال مع الواقع الفاسد ، الـــتي تنعكس في صــورة الاســتهزاء بالرســالة والســخرية من الرسول ، ويبدو أنّ منشأ هذه الحالة الرضا بالواقع القائم ، فما دام الباطل يحقّق أهـــدافي ومصـــالحي ، ويشـــبع طموحي ورغبتي ، لماذا الاستماع إذا الى داعي الله؟

ذلك لأنّ الباطل ضـار زاهق ، وإنّما الحق وحـده بـاق نــافع. أنظر مثلك الســابقين ، واعتــبر بعــاقبتهم ، فإنّك لا تملك حياتين تجرّب في أحدهما السبل الكفيلة

لسعادتك ، وتعمل في الثانية بتلك التجارب ، إنّما للإنسان فرصة واحدة ، وإذا مرّت فلن تعود أبدا ، وقد جـرت سـنة السابقين على أنّ من يتّبع الحق يسعد في الدنيا والآخـرة ، وأنّ من يتّبع الباطل تنتهي حياته بالبأســاء والضــرّاء ، ويحيط به في الآخرة عذاب أليم .. وإنّ هذا يعطينا حـافزا قويّا للبحث عن الحقيقة ، والنزوع عن حالة الاسترسال.

بينات من الآيات :

[1] (**حم**)

من الحروف المقطعة التي سبق أن فسّرناها.

[2] (**وَالْكِتابِ الْمُبِينِ**)

قسما بالكتاب الذي يحتوي على الحقائق ويبيّنها.

[3] (**إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا**)

لعلّ الله قد جعل كتابه المنبعث من اللـوح المحفـوظ عربيّا للأسباب التالية :

أوّلا : إنّ لغة الضّـاد أفضل لغـات البشر إفصـاحا عن الحقائق والضمائر ، واسمها (العربية) مشتق من الإعراب أي الإفصــاح ، ولــذلك فهي اللغة الأم عند الله الــتي بها نـزلت كتب الله أصلا إلّا أنّها تـرجمت عند الأنبيـاء بقـدرة الله الى ألسنة أممهم ، وقد جـاء في الحـديث عن الإمـام الباقر (ع) :

«**ما أنـزل الله تبـارك وتعـالى كتابا ولا وحيا إلّا بالعربية ، فكـان يقع في مسـامع الأنبيـاء بألسـنة قومهم ، وكان يقع في مسامع نبيّنا بالعربية**» [1]

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج (18) ص (263) .

ثانيا : لقد قــدّر الله بحكمته البالغة أن يحمل العــرب رسالته الى الأمم فأنزل الكتاب بلسانهم.

ثالثا : إنّ ربّنا يكرّر القـول بـأنّ الكتـاب قد نزّله عربيّا ليـدعو سـائر الأمم ــ كما يبـدو ــ لتعلّم هـذه اللغة ، حـتى يستوعبوا لطـائف كتـاب ربّهم ، والإشـارات البلاغية الـتي تعجز الترجمات عن بيانها.

وقد ألّف أحد المستشـــــــــرقين كتابا بالإنجليزية عن الإسلام فقال : لا أستطيع أن أبيّن لكم ـ أنتم أيّها الإنجلـيز ــ عذوبة آيـات القـرآن ، ولطافة معانيه ، وكيف يـؤثّر في العـربي .. ويضـيف قـائلا : إنّه لن يفهم القـرآن أحد حـتى يتعلّم العربيّة.

(**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)

هذا هـدف رسـالاته جميعا ، وكلمة «لعـلّ» تـدلّ على معـنى الرجــاء والهدفية أي إنّما جعلنا القــرآن عربيّا لكي تعقلــوا ، والعقل هو موهبة لا يختلف النــاس في أصــلها ، ولكنّهم يختلفون في مدى اسـتفادتهم منها ، لـذلك جـاءت الكلمة بصيغة الفعل أي تستفيدون من العقل.

[4] (**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**)

إنّ هـذا القــرآن هو انعكـاس للكتـاب الـذي عند الله سبحانه وهو أصل الكتاب.

والأم بمعنى الأصل والأسـاس ، والـذي اسـتوحيه من هـــذه الآية أنّ عند الله كتابا مكنونا هو أمّ الكتـــاب ، من نــوره يفيض على البشر كتبه ســبحانه ، فمنه أنــزل على نـــوح (ع) رســـالته ، وعلى إبـــراهيم (ع) كلماته ، وبعث موسى (ع) وعيسى (ع) بـــــالتوراة والإنجيل ، ومنه أيضا أتى محمدا (ص) القرآن.

وقياس كلّ كتـاب إلهي يتمّ بمـيزان أمّ الكتـاب الـذي يسـمّى ــ فيما يبـدو ــ بـاللّوح المحفـوظ ، وحينما يقـاس القرآن به يكون الأعلى رتبة ، والأحكم شـريعة ودينا ، فهو يعلو كلّ دين ، وينفع الناس بما فيه من حكمة وعلم.

[5] يزعم المسرفون الذين أترفـوا في الحيـاة الـدنيا أنّهم عباد الله المقرّبون. أو ليس قد أنعم عليهم بـالغنى ، فهو إذا يحبّهم ويكــرم مثــواهم ، ويقــودهم هــذا الــزعم الشــيطاني إلى وهم خطــير حيث يحتســبون أنّهم فــوق القانون ، وأعلى من الذكر.

ومن جهة أخرى : ما دام الإسراف ذنب عظيم يتـوهّم البعض أنّه يمنع عن المــترفين رحمة الرســالة ، كلّا .. فلا الإسراف خير يجعل المترفين فوق الإنـذار بالرسـالة ، ولا هو مانع من منّة ابتعاث الرسل.

(**أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً**)

نــترككم بــدون تــذكرة وبــدون رسل يــذكّرونكم ما نسـيتموه؟ وأصل الضـرب صـفحا كما قـالوا ضـرب وجه الدابة حتى تصرف وجهها جانبا.

(**أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ**)

أي بسبب إسرافكم؟

كلّا .. وقد جـرت سـنّة الله بإرسـال الرسل يـذكّرون الناس ، وقد بعث رسالاته الى المستهزئين رحمة بعباده.

ويبـدو أنّ الإسـراف رأس سلسـلة من الانحرافـات ، وهو بـــدوره ناشئ من جهل الإنســـان بحكمة الابتلاء في الدنيا ، ولماذا يحلم الله عن المذنبين ، ومن ضـعف إرادته في مقاومة الشهوات يسير فيها بلا حدود أو قيود.

ويتناسب ذكر الإسـراف والمحـور الرئيسي للسـورة وهو الالتزام بحدود معينة في الانتفاع بالحياة الدنيا.

[6 ـ 7] إنّ الرسـول كـالطبيب إنّما يـزور المرضى ، كذلك تزداد فرص ابتعاث الأنبياء بالرسـالات عند انحـراف الناس واتخاذهم شريعة الإسراف سبيلا.

هكـذا بعث الله الأنبيـاء الى النـاس سـابقا ، وهكـذا مضت سنته.

(**وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ**)

إلّا أنّهم كانوا يواجهـون بالاسـتهزاء ، ولعل الاسـتهزاء أسوء اعتادت موقف عليه الأمم ، لأنه موغل في الصلف.

(**وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

والاستهزاء بالرسل عـادة مضت في الأوّلين ، كما أنّ ابتعاث الرسل سنة إلهيّة.

[8] ولكن منع هـذا الاسـتهزاء جريـان سـنة الله في بعث الرسل أو في إهلاك المســتهزئين؟ كلّا .. لأنّ الله لا يضرّه كفر من كفر ، كما لا ينفعه إيمان من آمن.

(**فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً**)

فلقد أخذ الله من هو أشــدّ جلــدا وأكــثر عــددا من العرب المكذبين ، والآية تشير إلى ضعة الجاهليين العرب وضعفهم لعلّهم يستفيقون عن جنـون كـبرهم وغـرورهم ، ولا يســـتهزءون برســـالات ربهم ، ولا يسترســـلون مع تقاليدهم العفنة في الشرك والفساد والإسراف.

وقد تكـرّرت الآيـات الـتي تشـير الى ذلك لأنّ علاج الغـرور والاسترسـال وبالتـالي الاسـتهزاء هو بيـان نقـاط ضعفهم ، قـال ربّنا في سـورة الأحقـاف (26) ـ : «**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ**» .

وقد قـالت الصّـدّيقة فاطمة الزهـراء (ع) تصف حـال العرب قبل الإسلام :

«**وكنتم على شـــفا حفـــرة من النـــار ، مذقّة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطئ الأقـدام ، تشـربون الطـرق ، وتقتـاتون القـدّ ، أذلة خاسئين ، تخـافون أن يتخطّفكم النـاس من حـولكم**...» [1]

(**وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ**)

قالوا : أي سبق القـول في تصـريف الأمثـال ، وبيـان عــبرة الأوّلين ، كما قـال ربّنا سـبحانه : (**وَسَـكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ**) [2] .

ويحتمل أن يكون المعـنى : أنّه قد تحقّق مثل الأوّلين ، وانتشرت عبرتهم في الآفاق مثلا ، والله العالم.

[9] ويسـتمر اسـتهزاؤهم بـالحق في الـوقت الـذي يعـترفون بـأنّ من خلق السـموات والأرض عزيز حكيم ، حيث تتجلّى عزّته في متانة الصنع ، كما تتجلّى حكمته في دقّة النظم.

---

(1) الإحتجاج / ج (1) ص (100) .
(2) إبراهيم / (45) .

(**وَلَئِنْ سَـــأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَــقَ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**)

[10] ومن آيـات عزّته وحكمته تـذليل الأرض لتكـون صالحة للمشي.

(**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً**)

مهد الأرض وهيّأها من أجل راحة الإنســـان ، فلا هي صلبة يسـتحيل زراعتها وبناؤها ، ولا هي هشّـة يغـرق فيها من عليها.

(**وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً**)

السبل هي الطرق السهلة بالرغم من وعــورة الأرض ، كما جعل طرقا واضحة حتى في البحار ، وعلى الإنسـان أن يكتشفها حتى يهتدي الى أقـرب الطـرق الموصـلة بين مكـــانين ، فهنـــاك مثلا سلســـلة جبليّة تبـــدأ من المحيط الأطلسي غرب مراكش ، وتتجه الى المغرب العربي ، ثم تمــرّ بـــالبحر المتوسط ، وتصــعد ثانية الى جنــوب أوربا ، فشرقها ، ثم تتجه جنوب تركيا ، فجنوب روسيا ، فشــمال الهند ، فشـــرق الصـــين ، وأمثـــال هـــذه السلاسل الجبليّة كثـــيرة ، بـــالرغم من كل تلك السلاسل ، فقد جعل الله بينهما فروجا كثيرة يسير عبرها الناس ، ولو كانت الجبـال العالية ذات انحدار شديد لعزلت أبناء البشر عن بعضهم.

وكما في السهول كذلك في السـهوب خط الله سـبلا لتواصل الناس مع بعضهم ، وهكذا في البحار والفضاء ..

من الـذي جعل هـذا السـبل؟ إنّه الله العزيز الحكيم ، ولماذا؟

(**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**)

نهتدي بهذه السبل الى أهدافنا ، والى ربنا الـذي خلق هذه السبل ، فكلّما كانت آيـات الصـنع والتـدبير أكـثر في الطبيعة كانت أكبر شهادة على الخالق ، وأقرب هدى.

[11] وكما خلق الســـموات والأرض ، وجعل الأرض مهدا هيّأ للإنسان رزقه فيها.

(**وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ**)

بتقـدير منه ، فقد يكـون نـزول المـاء شـديدا فتصـير سـيولا ، وقد يكــون شـحيحا فلا يســتفيد منها الإنســان ، ولكنّه سـبحانه يـنزل المطر بتقـدير منه على حسب حاجة الإنسان والأرض.

(**فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً**)

وكما يحـيي الله الأرض الميتة بـالمطر ، فينمو الـزرع والضرع ..

(**كَذلِكَ تُخْرَجُونَ**)

وقد اسـتفاد بعض المفسـرين من هـذه المقارنة بـأنّ الإنسـان يخـرج يـوم البعث من الأرض كـالزرع ، وقد جـاء في الحديث :

«**إذا أراد الله ـ عزّ وجـلّ ـ أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحا ، فـاجتمعت الأوصـال ، ونبتت اللحوم**»

فيكون القبر للإنسان في يوم القيامة كــرحم أمّه ، أو كالأرض بالنسبة الى البذرة.

وَالَّذِي خَلَــقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَــلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْــكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُـونَ (12) لِتَسْـتَوُوا عَلى ظُهُـورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْـرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا

هدى من الآيات :

تسـعى آيـات هـذه السـورة الى ترشـيد العلاقة بين الإنسان وما حوله ، وإنّما يتمّ ترشـيدها بالرؤية السـليمة ، ذلك أنّ بصيرة الإنسان تجاه الطبيعة وظواهرها هي الـتي تكيّف علاقته بها.

ويذكّرنا السياق هنا بأنّ ما أوتينا من نعم الحياة لا بـدّ أن يهـدينا الى معرفة ربنا والتقـرب إليه ، فنعمة الزوجية وسيلة لمعرفة الله ، كيف؟ فلقد خلق ربّنا من كـلّ شـيء زوجين اثنين ليعـرّف كـلّ شـيء بعجـزه وحاجته ، حـتى لا يشـعر أيّ مخلـوق بالاسـتغناء فيطغى ، وليـبيّن له أنّه مخلوق يحتاج الى قـرين يكمّله ، وكما حاجة الإنسـان الى الزوج كذلك حاجة الإنسان الى الأشياء والأحياء من دونه ، فالإنسـان بحاجة الى دابة وسـفينة إذا أراد قطع الفيـافي والبحـار ، وحاجته دليل عجـزه ، وشـاهدة على غـنى ربّه ، ولكن بدل أن يعطي الله للإنسان جنـاحين يطـير بهما ، أو أرجل سـريعة يسـابق بهما الـريح ، أو أذنين حـادّتين كما أذني الحصان ، بدل كل

ذلك زوّده بهبة العقل يســتطيع أن يســخّر بها الأشــياء ، فتراه يصنع السفينة ، ويمتطي صهوة الطيارة والصاروخ ، بل ويســخّر حــتى الأحيــاء من حوله لخدمته ، كالأنعــام ، والكلاب ، والدلافين و.. و..

ولو لا هبة العقل هل كان يستطيع ذلـك؟ كلّا .. ألم تر كيف يقود طفل قطيعا من الإبل؟

لــذلك عند ما يمتطي الإنســان صــهوة فرسه ، أو يستقلّ متن سفينة ، عليه أن يذكر الله فيقول :

ســبحان الله الــذي ســخر لنا هــذا ، وما كــان لنا أن نسخرها إلا بإذنه سبحانه.

إنّ المــــؤمن ينظر إلى الأرض باعتبارها أمّه ، وينظر الى النخل والشــــجر معتــــبرا إيّاها عمّاته ، وينظر الى الشمس والقمر معتبرا إيّاهما خلقان لله ، ويجريان بأمره طائعين ، والإسلام ربطنا بالطبيعة من حولنا ، فهناك دعاء لركوب الدّابة ، ودعاء لظهـور الهلال ، ودعـاء إذا سـمعت الرعـود ، و.. و.. ، وقد كـان رسـول الله (ص) يتعبّد الله ، وينظر الى النجوم متفكـرا فيها ، ويتلو هـذه الآيـات : (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهـارِ لَآيــاتٍ لِأُولِي الْأَلْبــابِ* الَّذِينَ يَــذْكُرُونَ اللــهَ قِيامــاً وَقُعُــوداً وَعَلى جُنُــوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْــقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ**) ... [1] .

بينات من الآيات :

[12] (**وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها**)

---

(1) آل عمران / (190 ـ 191) .

لماذا خلق الله الأشياء أزواجا؟ لأمرين ـ فيما يبـدو لنا ــ : أولا : لتتجلّى قدرته المطلقــة. أو ليس حسن الصــنع ومتانة الخلق في إطار التنوّع دليل القدرة؟ فإنّك ترى في ذات الــوقت الــذي يختلف الزوجــان عن بعضــهما اختلافا واسعا ، يخضعان لسنن واحدة تسوقهما الى هدف واحد ، أليس ذلك دليل قدرة الرب؟

الثــاني : لقد أركز الله في كل زوج الحاجة الى الآخر ، فهم محتـــاجون الى بعضـــهم ، وذلك أبـــرز دليل على حاجتهم الشديدة الى الله خالقهم ومدبّر أمورهم.

(**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ**)

فالذي خلق للبحار الفلك نمتطي صــهوته لنبلغ أقصى الأرض بتجارتنا الثقيلة ، هو الـذي خلق للصـحاري الأنعـام وسخّرها لنا ، ليس فقط لتوصلنا الى أهـدافنا المادية ، بل وأيضا لتقرّبنا الى الله ، أســـمى غايـــات البشر وأعلى مراميه ..

لماذا؟

[13] (**لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ**)

كي نستقلّها ، ونستوي على ظهورها ، ونسـتوحي من كلمة الإستواء أولا : أنّ الله سخّر الفلك والأنعام للإنسـان حتى يستقرّ في ظهورها دون وجل من تمرّدها عليه ، ثانيا : أنّ علينا أن نجلس عليها باســـتقرار ، ونتمكّن منها ، ولا ندعها تجمح أو تضطرب.

كما نستوحي من الآية ضرورة تسخير الطبيعة وعـدم إهمالها ، وقد ورد في الحـديث : «**كان أمـير المؤمـنين (ع) يقــول : من وجد مــاءا وترابا ثم افتقر بأبعــده الله**» [1]

---

(1) بحار الأنوار / ج (103) ص (65) .

والإســتواء على ظهــور الفلك والأنعــام هو الهــدف المرحلي منها أمّا الهدف الأسمى لهذه النعمة وسـائر نعم الله هو الاهتداء والتقرّب اليه.

(**ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**)

فالهدف من نعم الله المادية هو السموّ الـروحي. إنّها معراج الإنسان الى الله ، فـإذا شـبعت فقل : الحمد لله ، وإذا ارتـــويت فقل : الحمد لله ، وإذا اســـتغنيت فقل : الحمد لله ، وإذا ركبت السيارة فقل : سبحان الله ..

ويـذكّرنا القـرآن الحكيم بالأهـداف المادية والمعنوية لنعم الله علينا ، بالـذّات في هـذه السـورة الـتي تحـوّرت حول علاقتنا بالطبيعة من حولنا ، للأسباب التالية :

أولا : لكي لا نزيغ عن الغايات النبيلة للنعم ، فـالزواج جعل ليبنى به البيت والسـكينة والمحبة والخلق الرفيع فلا ينبغي أن نجعل هـدفنا منه مجـرد قضـاء وطر الشـهوة ، وجعلت الأنعــام للاســتواء على ظهورها وبلــوغ الأهـداف المشـــروعة ، وليس للهو بها أو للتجـــبر والبطش على الناس.

ثانيا : لكي لا تبطرنا النعم ونتخـذها للتفـاخر والتكـبر والفساد في الأرض.

ثالثا : لتعطينا السـكينة النفسـية والـتي تسـاهم في إصـلاح نفوسـنا من عقـدة الضـعة ، وتـدعونا لشـكر الله بعمل الصالحات.

لذلك أمرنا الله بهـذا الـدعاء عند ركـوب الأنعـام لكي ينقلنا امتطاؤها الى آفـــاق روحية أبعد من تلك الآفـــاق الأرضية التي نطويها عبرهـا. أرأيت أيّ أفق بعيد يبلغه من يقطع المسافة بين الشـهود والغيب في لحظة فينتقل من رؤية النقص في الطبيعة الى الكمال في خالقها!

(**وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا**)

ونتساءل : لماذا أمرنا الله هنا بالتسبيح وليس بالحمد؟

ذلك لأنّ حاجتنا ـ نحن البشر ـ الى الدواب أو الفلك ، وضعفنا عن توفيرها لو لا تسخير الله ، شاهد على تنزّه الله وغناه ، فهو غنيّ عن عباده ، غنيّ عن التوسّل بالآلات ، غنيّ عن تسخير شيء لنفسه ، تعالى الله وتقدس ربّنا عن كلّ ذلك.

ثم تسخير الأنعام والفلك دليل عجز الحيوانات والطبيعة وحاجتهما الشديدة لمدبّر حكيم هو الله.

ويهدينا ذلك الى تسامي ربّنا عن الحاجة. أو ليس حاجة كلّ شيء دليل مخلوقيته ، فكيف يحتاج الخالق؟

وأساسا كلّ نقص وعجز وحاجة وضعف في الخلق شاهد على ما يقابلها عند الخالق لدلالة العقل أنّ صفة الخالق غير صفة المخلوق ، قال أمير المؤمنين (ع) :

«مستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته ، وبما وسمها به من العجز على قدرته ، وبما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه» [1]

(**وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**)

أي لسنا بقرناء له ، ولا مطيقين تسخيره ، ولا بمستوى ضبطه ، وأصل الكلمة من المقارنة بمعنى المشابهة في القدرة.

[14] (**وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ**)

---

(1) نهج البلاغة / خ (185) / ص (269) ـ صبحي الصالح.

فالنعمة التي أعطيناها ليست دائمة ، ونحن مسئولون عنها يــوم القيامة ، لأنّ الله إنّما أعطاكها لهــدف مقــدّس سام ، وهو أن تعمل بمنهجه وبمقتضى أوامره.

وفي الآية ومضة أدبيّة فكما المسافر ينقلب ألى أهله كذلك الإنسان ينقلب ألى ربّه.

وحــول هــذا الموضــوع جــاءت طائفة من الأحــاديث ، فعن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله (ع) : هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كــان شــاكرا؟ قــال : «نعم» ، قلت : ما هــو؟ قــال : يحمد الله على كل نعمة [أنعمهــا] عليه في أهل ومــال ، وإن كــان فيما أنعم عليه من ماله حق أدّاه ، ومنه قوله عــزّ وجل (**سُـبْحانَ الَّذِي سَـخَّرَ لَنا هـذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**) ، ومنه قوله تعالى : (**رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكــاً وَأَنْتَ خَيْـرُ الْمُنْـزِلِينَ**) ، وقوله : (**رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْـرَجَ صِـدْقٍ وَاجْعَـلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً**) [1]

وعن أبي الحسن (ع) : «... وإن خـــرجت بـــرّا فقل الـــــــــذي قـــــــــال الله عـــــــــزّ وجل (**سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْـرِنِينَ**) ، ف إنّه ليس من عبد يقولها عند ركوبه فيقع من بعــير أو دابّة فيصيبه شيء بإذن الله» [2]

وروي عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله (ع) قــال : «إذا استويت على راحلتك ، واســتوى بك محملك ، فقل : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، ومنّ علينا بمحمد (ص) ، (**سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هـذا وَما كُنَّا لَـهُ مُقْـرِنِينَ وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ**) والحمد لله ربّ العالمين. اللهمّ أنت الحامل على الظهر ، والمســتعان على الأمر ، اللهمّ بلّغنا بلاغا يبلغ الى خير ، بلاغا الى مغفرتك ورضوانك ، اللهمّ لا طير

---

(1) البرهان / ج 4 / ص 136
(2) المصدر / ص 593

إلّا طيرك ـ الطير هو التشاؤم والفأل الرديء ـ ولا خـير إلّا خيرك ، ولا حافظ غيرك» [1]

وهكذا أمرنا الدّين الحنيف بـأن نـذكر الله عند ركـوب ما سخّره الله لنا مباشرة من الأنعام ، وما سـخّره بأيـدينا من الفلك (والسيّارة والطيـارة وما أشـبه) لكي نتـذكّر ما لهذه النعمة من أهـداف معنويّة وماديّة ، كما أمرنا بأذكـار وأدعية عند كــلّ نعمة عند الطعــام والشــراب والــزواج وزيارة البيوت والنوم واليقظة والوضـوء والغسل ، وحـتى عند النظر في المـرآة .. كـلّ ذلك لكي نتـذكّر هـدف كـلّ نعمة فلا نزيغ عنه ، ونشـكر الله عليها فلا نصـاب بـالبطر والكبر.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (593) .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19) وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْناهُمْ

---

18 [أو من ينشّؤا في الحلية] : الهمزة للاستفهام والواو للعطف ، أي هل هؤلاء الكفّار يجعلون لله تلك البنت التي تكبر وتتربّى في الزينة؟!
20 [يخرصون] : يكذبون.

كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

---

23 [مترفوها] : أي المتنعّمون فيها ، من أترف بمعنى تنعّم ــ والمراد به الرؤساء والكبراء ـ لأنهم دائما يقابلون المصلحين بالإنكار والتخاصم.

أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ

هدى من الآيات :

لكي تنفذ بصـيرة الإنسـان الى واقع الخلق وتصـلح بذلك علاقته به فلا يرفعه الى مقام الخالق ، ولكي تخلص عبـادة الإنسـان لخالقه من شـوائب الشـرك ، ويعلم أنّ النعم من عنده فلا يكفر به بإشراك عباده فيها ، وبالتـالي لكي تكون علاقته بالنعم سـليمة منبعثة من نـور التوحيد ، تسـوق آيـات الـدرس حقـائق التوحيد خالصة من زيغ المعتقـدات الجاهلية ، والـتي منها نظرية الحلـول الـتي يزعم أهلها أنّ لله في عباده جزء يتنزّل الله به عن مقـام ربوبيته درجة ، ويرتفع العبد به الى مقام الربوبية بقـدرها. إنّه الكفر المـبين بـالنعم وبمن أنعم سـبحانه ، وهكـذا الإنسان من طبعه الهبوط الى هذا الدرك من الكفر.

ويستنكر القـرآن زعمهم بـأنّ الله اختـار البنـات بينما اصطفى لهم البنين في الوقت الذي تـراهم يسـتاءون من الإنـاث حـتى إذا بشّـر أحـدهم بها ظـلّ وجهه مسـودّا وهو كظيم.

ويتساءل السـياق : كيف يختـار البنـات وهنّ ناشـئات الحلي والزينة ، ولا يصلحن للجدال والمخاصمة؟!

وهكـذا جعلـوا الملائكة إناثا بينما هم عبـاد الـرحمن والعباد أمام معبودهم شرع سـواء (وهكـذا ينسف القـرآن أسـاس التفاضل الـذاتي بين الخلق وهو في ذات الـوقت الانحراف الكبير الذي يزيغ اليه ذووا الثروة والجـاه) وينكر عليهم أن يقولـوا ما ليس لهم به من علم وينـذرهم بـأنّ كلامهم يعتبر شهادة ، وأنّه مسجّل عليهم ، وأنّهم يسـألون عنه.

(وجعل الملائكة أو غـيرهم أنصـاف آلهة يسـاهم في الإيمان بالقدر (الجبر) وأنّهم لا يملكون من أنفسهم شيئا) وأنّه لو شاء الله لما عبدوا الملائكة.

(ولكن انسـيـاقهم وراء النظرية القدرية تمّ بـدفع شـهواتهم ونـزوع الإنسـان الى التملّص من المسـؤولية) وإنّه ما لهم بذلك من علم إن هم إلّا يخرصون.

(وتـراهم يعظّمـون آبـاءهم الى درجة اتبـاعهم بغـير هدى) ولا يجوز تقديس الآباء إلّا بقـدر ما كـان عنـدهم من كتاب أو هدى ، أما إنّهم يقولون إنّا مهتدون لأنّنا نتبع آباءنا فيما وجدناهم ماضين عليه من شرعة ومنهاج.

وهذه عبادة جـرت في كل الأمم ، فما أرسل الله في قرية من نـذير يحـذّرهم من الاسترسـال مع المنكـرات إلّا قـال المـترفون فيها (الـذين عبـدوا الـثروة وخشـوا من الإصـلاح) (**إِنَّا وَجَـدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ**) ، وإنّنا ماضـون عليها .. وحين دعاهم النذير بما هو أهـدى من آثـار آبـائهم كفروا برسالته فـانتقم الله منهم بسـبب تكـذيبهم ، وأثبت الانتقام أنّهم مسئولون عن مـواقفهم ، اعـترفوا بها أو لم يعترفوا (وهكذا بان كفران الإنسـان وأصـله الجهل بمقـام الله وأنّه لا يتشبه بخلقه أبدا) .

بينات من الآيات :

[15] لقد بيّن القـــــرآن حقيقة الفصل الأبـــــدي بين الخالق والمخلوق حتى لا يضفى على الخـالق من صـفات المخلوقين شـيء ، ولا ينعت المخلـوق بصـفة من صـفات الخالق ، لأنّ الخالق لا يشبهه شيء.

وذكّرنا بسـفاهة كل المعتقـدات الجاهلية الـتي تخلط بين صفات الخالق والمخلوق ، والتي تنبعث ـ فيما يبـدو ـ من النظـــرة الشـــركية الى المخلـــوق وإعطائه الذاتية والقيمة من دون الله.

وكان من معتقداتهم السـفيهة أن جعلـوا لله البنـات ، وزعموا أن فيها جزء من الله.

(**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً**)

فقسّـموا الله جـزئين ، أحـدهما من ذاته ، والآخر من عباده. أو ليس الولد امتدادا لوالده ، حيث ينتقل جـزء من الوالد فيه حـتى يصـبح بضـعة منه ، هكـذا زعم القـائلون بـالحلول أنّ جـزء من الله ينتقل الى بعض عبـاده فيصـبح نصف إله ، ويكتسب قداسة بين سائر عباده ، وينتمي الى ذي العرش انتماء نسبيّا (كما زعم النصارى أنّه ثـالث ثلاثة سبحانه وتعالى عمّا يصفون ، وكما يـزعم المـترفون أنّهم يختلفـون ذاتيّا عن سـائر خلق اللـه) أو لم يفقهـوا أنّ كـلّ من خلقه الله هو عبد لله ونسبته الى الله نسبة المخلـوق الى خالقه ، وهم جميعا أمامه سـواء (من حيث الـذات) ، ومن السفه أن يجعل له جزء من عبـاده دون جـزء بل هم جميعا له ، ولكن في مســـــتوى العبودية وعلى صــــــعيد المخلوقية.

(**إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ**)

إنّه جحود متجاهر بجحده ..

أولا : لأنّه يجحد بآيــــــــات ربه ، ويتنكّر نعمه عليه ، انطلاقا من كــبر في نفسه وبــوعي منه وإصــرار ، لأنّه لا يريد أن يسلّم لأمره ويطيع أولياءه.

ثانيا : لأنّه يســاوي بين من أنعم عليه كل هــذه النعم الســابغة وبين عبــاده العــاجزين ، فيقــول إنّ بعض العبــاد شركاء لله ، وينسب إليهم من دون الله النعم.

ويتصل موضــوع نكــران النعم بهــذه الشــدة بمحــور السورة ـ وهو علاقة الإنسان بنعم الله ـ اتصالا متينا إذ أنّ أهمّ ركــائز العلاقة الســليمة شــكر الله ، وتجــاوز حالة الكفـران الطبيعية عند الإنســان الى حالة الشـكر المنبعثة من الإيمان.

[16] وهكذا زعموا بـأنّ الله اصـطفى لنفسه البنـات ولهم البنين.

(**أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ**)

ولكن كيف يجتمع الخلق والتبنّي ، ثمّ لمــاذا يصـطفي لنفسه الإنــاث والبنت في نظر الجــاهليين ليست المثلى ، فكيف يضربوه لله مثلا؟!

[17] (**وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَـرَبَ لِلـرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**)

مكفهــرا من الغضب وجهه ، كاظما غيظه يكــاد يتميّز من الغيظ.

[18] (**أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ**)

فالبنت التي تكون نشأتها ونموّها في الحلية ـ الزينة ـ وتعيش النعومة والرقّة ، هل هي قــادرة على القيــام بما تقوم به الملائكة؟ كلّا .. ولو اتخذ الله بنات لجعلهم في

رياض الجنان يمرحن ، ولم يجعلهنّ يمارسن أمور الحياة ، ثم إنّ النسـاء لـذلك لا يكـونّ قـادرات على الخصـام والجـدال كما الرجـال لأنهنّ عـادة يفصـحن عن كل ما تجيش به صدورهنّ لفرط عاطفتهن.

[19] ولأنّهم جعلوا لله جـزء من عبـاده ، وزعمـوا أنّه اتخذ البنـات مما خلق وهم يكرهـون البنـات ، تـراهم يعتقدون بأنّ الملائكة إناث.

(**وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً**)

لماذا؟ لعلّه للأسباب التالية :

أوّلا : إنّهم زعموا في الملائكة ما زعمته النصارى في المسيح حيث جعلوا لله فيهم جـزء ، لعلّه لعقيـدة الحلـول .. أو حسب نظرية الفيض وتنزّل وجود الله (تبارك وتعالى عما يقولـون) الى مرتبة الملائكة ، وهي عنـدهم أدنى من مقام الربوبية وأعلى من مقام سائر الخلائق.

ثانيا : لأنّهم لم يحبّوا الملائكة نسـبوا إليهم التـأنيث أو ليست الإناث أقلّ قدرا من الذكور عندهم؟!

ثالثا : لأنّهم كـانوا يتصـوّرون الملائكة يمثّلـون جـانب الشهوات ، بينما مقام ربّ العرش مقام العقل.

رابعا : قـالوا إنّما أنثت العـرب الملائكة في لغتهم لأنّهم كانوا يؤنّثون كـلّ مغيّب عنهم ، محجـوب عن أعينهم ، والله العالم.

(**أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ**)

هل كانوا حاضرين عند ما خلقهم الله حتى يحكوا بأنّ الملائكة بنات؟!

(**سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ**)

أي سنسجّل لهم قولهم بأنّ الملائكة إناث ، ويسألون عنه يـــوم القيامة ، وكفى بـــذلك رادعا عن أقـــوالهم اللّامسئولة.

[20] ويمضي السياق في دحض تخرّصات الجـاهليين الواحد بعد الآخر حـتى يبلغ محورها الرئيسي المتمثّل في النظرية القدرية ، ذلك أنّ أسـاس زيغ البشر ــ كما يبـدو وكما سـبق القـول آنفا ــ النظـرة الشـيئية الـتي تعطي للأشـــياء قيمة ذاتية بعيـــدة عن صـــلتها بالله العظيم .. فتضفي عليها هالة من القداسة ، والثبات والحتمية.

إنّ الاعتقاد بوجـود جـزء من الله في عبـاد الله هدفه تجريد الإنسان عن مسئولية أعماله. ألا تـرى كيف يتنصّـل الطاغوت ـ أيّ طاغوت ــ عن الالـتزام بالقـانون باسم أنّه ظلّ الله في الأرض ، وأنّه لا يخطئ؟ ويزعم بعض أدعيـاء التصوّف أنّه مظهر لتجلّي الحقيقة المحمّدية فهو لا يزيغ ، وزعم بعض أدعياء الفقه بالتصـويب ، وأنّ ما يحكمـون به عين ما حكم الله به من فــوق عرشه ، وهكــذا الإنســان العادي يذهب الى تبرير أعماله بأنّ وراءها إرادة الله.

كما أنّ الشرك بالملائكة ينبعث من نزوع الإنسان الى تبرير أعماله ، والتهـرّب عن المسـؤولية ، حيث زعم بـأنّ الملائكة يشفعون له.

وهكذا نجد السياق يواصل الحـديث عن هـذه الأفكـار الشركية حتى يبلغ جذورها المتمثلة في القدرية فيقول :

(**وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ**)

فالله سبحانه حسب هذا الزعم مسئول عن ضـلالتهم ، لأنّه كان قادرا على

إنقاذهم منها فلم يشأ ، كلّا .. إنّ الله آتـاهم فرصة الهداية ، ووفّر لهم عواملها ، وشـاءت حكمته أن يلقي بمسـؤولية الإختيار عليهم ، فـإن اهتـدوا بلغ بهم الكمـال ذروته ، وإن ضـلّوا سـقطوا في قعر الهاوية ، لأنّ تلك وهـذه إنّما تتمّ بإرادتهم.

وقد قلنا في بداية هذا الـدرس أنّ هـذه فكـرة قدريّة جبريّة هـــدفها تـــبرير واقع الإنســـان المتخلف ، وتلقي بمسؤولية الهداية على الله.

وقد أشار السياق الى سفاهة مجمل تصوّراتهم ، فهم جهلوا مقام الخالق فجعلوا له من عباده جزء ، ولو عرفوا شيئا من معنى الخلق والإنشاء وإحاطة الـرب قـدرة بكـلّ شيء ، وأنّ أمره بين الكاف والنـون من كلمة (كن) وفي لحظة إرادة يبتدع ملايين المجرّات ..

أقول : لو عرفوا شيئا من ذلك لسفّهوا أنفسهم ، ولم يزعموا أنّ له مراتب وجوديّة يتنزّل عبرها ليكون جزء منه في مخلوقاته ، سـبحان الله وتعـالى عما يقولـون علـوّا كبيرا.

ولو عرفـوا أنّ مهـام الملائكة مهـام صـعبة لا تليق بالنسـاء الناعمـات ، فمن مهـامهم اقتلاع قـرى لـوط عن أعماقها ثم قلبها وتـدميرها ، ومن مهـامهم بيـان أعظم الحقـائق وأدقّها ، ومخاصـمة المبطلين ، فكيف تليق بمن ينشّأ في الحلية ، ولا يفصح في الجدال؟!

لو عرفـوا ذلك لما زعمـوا أنّ الله اصـطفى البنـات على البنين.

ولو عرفـوا قـرب الملائكة من الله ، ومـدى كـرامتهم عنده ، لأنّهم لا يسبقونه بالقول وهم بـأمره يعملـون ، لما عادوهم وضربوا لهم المثل السيء الذي رفضوه لأنفسهم حين قالوا أنّهم إناث.

كلّا .. إنّهم عبـاد الـرحمن الـذي وسـعت رحمته كـلّ شيء ، وما داموا عبادا فهم

فـــــوق ما ينسب إليهم من الأنوثة (وهي مرتبة أدنى في زعمهم) ودون ما يتصوّر من أنّ فيهم جزء من الالوهيّة.

ولأنّهم عباد الرحمن فلا يجـوز أن يتخذ منهم الـرحمن بنــات ، وقد شــملت رحمته كــلّ خلقه ، وكيف تتفــاوت الخليقة تفاوتا ذاتيّا ، وهي كلّها مخلوقة لــربّ واحد ، بلى. إنّما يتفاضل الخلق بينهم بما يهب الله لهم حسب حكمته البالغة.

والآية تنسف أساس النظرة الشيئية الى المخلوقــات الـتي هي أسـاس الشـرك وأسـاس كـلّ الزيغ البشـري ، ببيان جهلهم المطلق بـذلك الغيب ، فهم لم يشـهدوا خلق الملائكة فكيف يحكمون بـأنّهم بنـات؟! وأساسا هل يجـوز أن يتحدّث الإنسان عمّا لم يؤت علمه؟!

(**ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ**)

فهم يتكلّفـــون علم ما لا قبل لهم به ، إنّهم أرادوا أن يعرفوا كيف آتاهم الله العقل والإرادة ، وكيف يجـوز لهـذا الإنسـان المحـدود أن يختـار بنفسه ، وأن يتجـاوز العوامل الضاغطة ، فوقعوا في ضلال بعيد.

(**إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**)

أرأيت كيف يخمّن الخـرّاص وزن التمر على النخــل؟ إنّه يعتمد على معلومـــات غـــير كافية ، يضـــيف إليها من خياله الخصب ما لا يغنيه عن الحق شيئا.

ويـوحي هـذا التعبـير بـأنّهم بنـوا على فكـرة صـحيحة نظرية خاطئة ، فالصـــحيح هو وجـــود دوافع ضـــاغطة ، والخطأ هو أنّها تسلب إرادة الإنسان.

صـحيح أنّ للاقتصـاد أثـرا كبـيرا على قلب الإنسـان ، وأنّ الناس عبيد الدنيا ،

وأنّهم يحوطون دينهم ما درّت معايشهم ، ولكنّ الخطأ هو الحتميّة الاقتصادية الـتي زعمت أنّ الإنسـان محكـوم كليّا بطرق الإنتاج كما قالت الماركسية.

وهكـــذا للاجتمـــاع جاذبية هائلة ، ولكنّها لا تحتّم على الإنسـان شـيئا ، وكـذلك التـاريخ يسـوق البشر في اتجاهه دون أن يكرهه على ذلك إكراهاـ

ولو لا قـدرة الإنسـان على تحـدّي العوامل الضـاغطة لما بنى حضارة ، ولا تقدّم شبرا ، ولما استطاع الـروّاد أن يخرقوا جـدر التخلّف بسـهام التجديد ، وما قـدر الثـوّار أن يغيّـــروا الواقع السياسي الفاسد ، ولا انتصر الرسل على الجاهليين الـذين كـانوا يملكـون وسـائل الإنتـاج ، وأجهـزة الاعلام ، وجاذبية المجتمع.

[21] ومن الحتميّـــات الموهومة الحتميّة التاريخية ، ولا يعترف الدين بالتاريخ والتراث وتقاليد الآباء إلّا بقدر ما فيه من هدى الله المـوحى به عـبر رسـالاته ، ولـذلك نجد الـــذكر الحكيم يـــذكّرنا بـــأنهم ما دامـــوا لا يملكـــون كتابا يستمسكون به فلا قيمة لماضيهم.

(**أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ**)

من قبل القرآن الذي يجادلون فيه.

(**فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ**)

[22] كلّا .. إنّ اعتمـــــادهم ليس على العلم (لأنه ما لهم به من علم) ولا على كتاب ، إنّما على تقاليد بالية.

(**بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ**)

على طريقة يأتمّ بعضهم بالبعض فيها.

(**وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ**)

نحن سائرون على آثارهم فنحن إذا مهتدون.

كلّا .. إنّ الآبـاء لم يكونـوا أنصـاف آلهة ، ولا شـرعية لعملهم ، ولا هدى في آثارهم من دون علم أو كتاب.

[23] وهـذه عـادة باطلة درج عليها المـترفون حينما بعث الله إليهم الأنبياء.

(**وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَـذِيرٍ إِلَّا قـالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَـدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ**)

فلربما كـانت عقيـدة الآبـاء منحرفة ، ولربما كـانت صحيحة ولكن في وقتها ، إذ أنّ «**تِلْـكَ أُمَّةٌ قَـدْ خَلَتْ لَها ما كَسَـبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَـبْتُمْ وَلا تُسْـئَلُونَ عَمَّا كـانُوا يَعْمَلُونَ**» أو قد يكونـوا صـالحين ولكن مع تقـادم الـزمن حرّفت عقائدهم.

وهذه الآية تبيّن لنا أنّ الناس انقسـموا تجـاه أنبيـائهم الى قسـمين : قسم اتبع الأنبيـاء ، وهم المستضـعفون ، وقسم خـالف هـدى الأنبيـاء ، وهم المـترفون ومن اتبعهم من عامّة الناس.

[24] بلى. من السفاهة اتبـاع الآبـاء بلا تعقّل ، كما لا ينبغي رميهم بـالانحراف رأسا ، إنّما يجب اتبـاع أهـدى السبل سواء عرفه الآباء أم لا.

(**قـالَ أَوَلَـوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْـدى مِمَّا وَجَـدْتُمْ عَلَيْـهِ آباءَكُمْ**)

وهـذا طعن غـير مباشر ، وغـير حـاد لعقيـدة الآبـاء ، فالرسول لم يطعن في سيرة

الآباء ، بل دعاهم الى اتباع الأهدى ، مشـيرا الى أنّ الآبـاء لم يكونـوا مهتـدين ، أو أنّ منهـاجهم كـان صـالحا لـذلك الوقت ، وقد نسخه تقادم الزمن ، وتطوّر الظـروف ، فما ذا كان ردّ أقوام الرسل لهذه الدعوة؟

(**قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ**)

كفروا بما أرسل الرسل ، وتبيّن زيف ادعائهم بحتمية اتباعهم لآبائهم ، كلّا .. ليس آباؤهم مسـئولين عن كفـرهم ، بل هم المسؤولون.

[25] وحين تمّت عليهم الحجة ، وثبتت لهم مسئوليتهم عن أعمالهم ، جاءهم الانتقام.

(**فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَـانْظُرْ كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِينَ**)

وسـواء اعـترف الإنسـان بجريمته أو لم يعـترف فـإنّ قضاء الله واقع به إذا تنكّب الطريق ، وهكذا لا يغنيه إنكار المسؤولية شيئا.

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُـدُونَ (26) إِلاَّ الَّذِي فَطَـرَنِي فَإِنَّهُ سَـيَهْدِين (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هـؤُلاءِ وَآبـاءَهُمْ حَتَّى جـاءَهُمُ الْحَـقُّ وَرَسُـولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جـاءَهُمُ الْحَـقُّ قـالُوا هـذا سِـحْرٌ وَإِنَّا بِـهِ كـافِرُونَ (30) وَقـالُوا لَـوْ لا نُـزِّلَ هـذَا الْقُـرْآنُ عَلى رَجُـلٍ مِنَ الْقَـرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَـهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُـونَ (32) وَلَوْ لا أَنْ يَكُـونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِـدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ

---

32 [سخريّا] : أي ينتفع أحـدهم بعمل الآخر له فينتظم بـذلك قـوام أمر العالم.

لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّـةٍ وَمَعـارِجَ عَلَيْها يَظْهَـرُونَ (33) وَلِبُيُــوتِهِمْ أَبْوابــاً وَسُــرُراً عَلَيْها يَتَّكِــؤُنَ (34) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِـرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

---

34 [معارج] : جمع معراج وهو السّلم.

36 [زخرفا] : هو الذهب.

إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا

هدى من الآيات :

يضــرب القــرآن مثلا على الصــراع بين الحق الــذي يحمله النــذير الى قومه والواقع الفاسد الــذي يــدافع عنه المـترفون باعتبـاره تـراث الآبـاء ، بقصة إبـراهيم ـ عليه السـلام ـ الـذي تحـدّى أبـاه وقومه ، وأعلن براءته مما يعبدون ، وجعل الإمامة في ذريته الطيبة لتكون منار هدى للأجيـــال المتعاقبة ، كما ومتّع طائفة من أبنائه (وهم أهل مكة وآباؤهم) دهرا طويلا حتى جاءهم الحق ورسول مبين فكذّبوه وقالوا هذا سحر.

(وقد قاوموا الرسالة الإلهية بقيمهم المادية) وقـالوا : لو لا نـزّل هـذا القـرآن على واحد من العظيمين في مكة والطائف (الوليد بن المغيرة من قريش مكة أو حــبيب بن عمرو من ثقيف الطائف ، حسب ابن عباس) .

ويبيّن القرآن ضلالة هذا المقياس ، أولا : بـأنّ الله هو الذي يقسم رحماته كيف

يشـــاء لا المخلوقـــون وثانيا : بـــأنّ الله قد قسم بينهم معايشـــهم حسب حكمته ، وإنما رفع بعضـــهم على بعض لكي يتخذ بعضـهم بعضا سـخريّا (وليس للغـني في غنـاه كرامة ، ولا على الفقــير في فقــره هــوان) وثالثا : بــأنّ رحمة الله (المتمثّلة في رســـالاته وجزائـــه) خـــير مما يجمعون من مال وزخرف.

(ويمضي السياق قدما في تهوين شـأن الـدنيا وليقتلع من النفوس مقياس الغنى في تقييم الحقـائق ، ويقـول :) لولا أن يكـون النـاس على الضـلالة جميعا بـإغراء زخـرف الدنيا لجمع الدنيا كلّها للكفـار ، فجعل لـبيوتهم سـقفا من فضة وسـلالم يعرجـون عليها (الى الطوابق العليـا) وجعل أبواب بيوتهم وسررها من فضة ، وأحسن تـأثيث منـازلهم بـالزخرف. ثم مـاذا بعد كـلّ ذلـك؟ إنّما ذلك متـاع زائل للحياة الدنيا ـ بينما تصفي الآخرة لمن اتقى ربّه ـ .

بينات من الآيات :

[26] ضـمن سـياق هـذه السـورة الـتي تتحـدّث عن تصـحيح العلاقة بين الإنسـان وما حوله من بشر وطبيعة ، يبين لنا السياق القرآني العلاقة المثلى بين الإنســان وبين آبائه ، فعلاقته يجب أن تكـــــــون مع القيم قبل العلاقة بالماضي بما فيه من خـير وشر .. لمـاذا؟ لأنّ الإنسـان لا يكتسب القدسـية بمجـرد مـرور الزمـان عليه ، ولأنّنا وهم أمام الله شـرع سـواء ، وإنما قيمتنا جميعا باتبـاع ما أمرنا الله به.

ولـولا هـذه العلاقة المجـرّدة عن التقـديس لما قـدرنا الانتفاع بتجاربهم ، وكيف نتقي الأخطار الـتي أحـدقت بهم وأهلكتهم ، وما هي بدايات انحرافهم ، وما هي عاقبته؟

كما أنّ العلاقة الســليمة الى التـــاريخ تجعلنا نعيش واقعنا بصـورة أفضل ، فمن النـاس من تجـده يهـرب من حاضره الى ماضيه ، ولا يرى إيجابيات عصره ، ولا

إنجازات معاصريه ، ولا يتنعّم بفوائـده ، ولا يقبل التطـوير والتجديد .. كـلّ ذلك لأنّه قد ارتمى في أحضـان التـاريخ ، يحتمي بكهفه ، ويتغنّى بأمجاده ، ويجـتر حوادثه ، ويتفاعل معها كما الأسطوانة الجريحة التي تكرّر ذات النغمة أبدا ، وهذه حقّا من أعظم علائم التخلّف ، فمثلا لم تكن قريش عند ما بزغ فجر النبوة تصـدّق بـأنّ الرسـول واحد منهم ، يعيش بين ظهـرانيهم ، يأكل مما يـأكلون ، ويشـرب مما يشربون ، يكون أفضل من إبراهيم وموسى وعيسى ومن عظماء التـاريخ (عليهم السـلام) ، بـالرغم من أنّ القـرآن الكريم عند عرضه لقصص أنبياء الله الكرام تراه يعرضـها بواقعياتها الإيجابية والسلبية ، وكيف كذّبهم النـاس ، ولكن مع ذلك يقدّسـهم من يـأتي من بعـدهم. لمـاذا؟ للتعـويض عن الحاضر بالماضي ، الـــذي يـــأتي بـــدوره من منطلق التهـرّب من تحمّل مسـئوليات الواقع الـراهن ، ذلك لأنّ الذي يقدّس واحدا من عظماء التـاريخ لا يكلّفه ذلك شـيئا كثيرا ، أمّا الذي يحـترم قائـدا حيّا يعيش في عصـره فـإنّ ذلك يعني طاعته والتسليم لأوامره.

ومن هذا المنطلق يتحـدّث القـرآن عن قصة إبـراهيم مع قومه ، عند ما تـبرّأ من عبـادة الأصـنام ، معتـبرا أنّ عبـادة الآبـاء لها ليس دليلا على شـرعيّتها ، وورّث هـذا الفكر التحـــرّري أبنــاءه ، وصـــارت تلك ســـنة يتوارثها المؤمنـون الصـادقون عـبر التـاريخ ، أن يؤمنـوا بالله ، ولا يخضعوا للفسـاد المستشـري بين النـاس ، والـذي تعـوّدوا عليه ، ولا يخضـعوا للشـرعيّة المزيفة ــ شـرعيّة الأمر الواقع ـ الذي يسـمّيه عالمنا السياسي اليـوم ، مهما كـان هذا الواقع صعبا.

بعد ذلك تتحدّث الآيات عن النظرة المادية البحتة الى القيم ، فلو أنـزل هـذا القـرآن على رجل من القريـتين عظيم ، رجل من مكة أو آخر من الطـائف. لمـاذا؟ لأنّ الـدنيا مقبلة عليهم ، والنظـرة المادية الى القيم نابعة من النظـرة المادية للأشـياء ، فالقيمة كـلّ القيمة في نظر بعض الناس للمادة ، أو كأنّ المادة هي القيمة الأساسية

التي تعطي الشرعية لسائر القيم.

(**وَإِذْ قـالَ إِبْـراهِيمُ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ إِنَّنِي بَـراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**)

كانت رسالة إبراهيم ـ عليه وعلى نبيّنا وآله السـلام ــ موجهة ضد اسـتمرارية الأمر الواقع ، ضد عبـادة الآبـاء ، وتقديس شرعهم ومعتقداتهم وتاريخهم ، لذلك قال لأبيه : إنّني براء مما تعبدون من دون اللـه. ويعتـبر هـذا من أهمّ ما يتميّز به إبراهيم الخليل من بين سائر الرسل.

[27] وبتبرّء إبراهيم (ع) مما عبده آباؤه ، قطع صلاته بهم ، واختط لنفسه ولآله من بعـده خطّا جديـدا نظيفا هو التوحيد.

(**إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**)

فـولاؤه ــ عليه السـلام ــ لربّه الـذي فطـره وخلقه ، وليس لآبائه ، رغم كونه ولد منهم لأنّهم لم يكونـوا سـوى سـبب ، وإذا كـان الأمر كـذلك فـإن فـاطره أولى بهدايته منهم.

[28] (**وَجَعَلَها كَلِمَــةً باقِيَــةً فِي عَقِبِــهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

أي جعل كلمة الـرفض والـبراءة مما يعبد الآبـاء باقية في عقبه لعلّهم يرجعـون إليها من الانحـراف ، ولم يجعل إبـراهيم عليه السـلام نفسه رمـزا باقيا يتّبع ويطـاع ، لأنّ العصـور تختلف ، وإنّما كـان إبـراهيم نـذيرا ، وإنّه لا بد أن يكون لكلّ قوم هاد ولكلّ عصر إمام.

وهكذا نستوحي فكرة من هذه الآية وآيـات أخـرى أنّ الأجيـال الـتي تـأتي بعد نهضة مباركة ينبغي أن يسـتفيدوا منها تجربة النهوض دون أن يعطوها كلّ الشرعية ،

ويحوّلوها الى عقبة في طريق التطـــــــوير والتجديد ، أو يجعلوها كهف الهروب من الواقع ومسئولياته الثقيلة ، كلّا .. إنّ لكل جيل نهضـته الـتي تـأتي ضد وضع فاسد يختلف عن ذلك الوضع الذي نهض السابقون ضده.

وهكذا فسّرت هذه الآية في النصوص الدينية بالإمامة ، فجاء في حديث مأثور عن هشـام عن الإمـام الصـادق ـ عليه السـلام ـ أنّه قـال : «إنّما هي جارية في عقب الحسين (عليه السلام) كما قال الله عـزّ وجل : (**وَجَعَلَها كَلِمَـةً باقِيَـةً فِي عَقِبِـهِ**) ثم هي جارية في الأعقـاب وأعقاب الأعقاب الى يوم القيامة» [1]

[29 ـ 30] وفي مقابل إبـراهيم (ع) وذريته من بعـده الكفّار الـذين يتقلّبـون في نعم الله مما دعـاهم الى الكفر وهكـذا انقسم أبنـاء إبـراهيم فـريقين : فريق منهم حمّله أمانة الرسـالة ، وجعل فيه كلمة الإمامة ، لعـلّ الآخـرين يجعلـونهم مرجعا لهم في شـؤون دينهم ودنيـاهم ، أمّا الفريق الآخر (وهم الأغلب) فقد ابتلاهم الله بـــــالنعم فأترفوا فيها.

(**بَـلْ مَتَّعْتُ هـؤُلاءِ وَآبـاءَهُمْ حَتَّى جـاءَهُمُ الْحَـقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ* وَلَمَّا جـاءَهُمُ الْحَـقُّ قـالُوا هـذا سِـحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ**)

لما ناموا على حرير النعم ، واطمأنّوا إليها رفضـوا أيّ فكرة جديدة ، وقالوا : هذا سحر ، ونحن كافرون به.

كـانوا يحسـبون أنّ هـذه المتع الـتي متّعهم ربّهم بها دليل صلاحهم ، ولكن قد تكون المتع والنعم استدراجا منه سبحانه ، قال تعالى :

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 596

(**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**) [1] وقال عزّ وجل : (**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**) [2] .

وربما تعني الآية أنّ الله متّعهم حتى إذا جاءهم الحق ورسول مبين كذّبوا به اعتمادا على النعم ، حيث يعزو القرآن في آيات كثيرة التكذيب بالرسل الى الإتراف ، كما سبق في الآية (23) حيث رأينا كيف قاد المترفون الناس الى التكذيب بالرسل ، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نعرف الصلة بين هذه الآية والآيات التالية التي تتحدث عن المترفين.

ولكن هل النعم دليل صلاح أصحابها؟ كلّا .. بل قد يكون بلاء أو استدراجا ، جاء عن أمير المؤمنين (ع) :

1 ـ «**يا ابن آدم إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره**»

2 ـ «**كم من مستدرج بالإحسان إليه ، ومغرور بالستر عليه ، ومفتون بحسن القول فيه ، وما ابتلى الله أحدا بمثل الإملاء له**» .

3 ـ «**أيّها الناس! ليراكم الله في النعمة وجلين كما يراكم في النقمة فرقين ، إنّه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا ، ومن ضيّق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختبارا فقد ضيّع مأمولا**» [3]

ولكن لماذا يتهم الكفّار الرسل بالسحر؟ لأنّ الرسالات التي يأتي بها الرسل كانت قريبة من قلوبهم وعقولهم وعواطفهم ، وكانوا ينجذبون إليها ، ولكنّهم لم

---

(1) آل عمران / 178.
(2) الأعراف / 183.
(3) بحار الأنوار / ج 73 ـ ص 383.

يريدوا الإيمان بها ، ففسّروها بالسحر ، لأنّه يجـذب الفـرد من حيث لا يدري ، ولكن جهلوا الفـرق الكبـير بين رسـالة الحق والسحر الباطل ، فـأثر السـحر وقـتي يـزول بـزوال المؤثّر ، وهذا ليس في الرسـالة ، كما أنّ الرسـالة تطلب منك موقفا وأنت في كامل وعيك ، وانطلاقا من عقلك ، بعكس ما هو عليه السحر فأنت مجبور على سـلوك معيّن بتـأثير السـحر ، ولا يفلح السـاحر بينما صـاحب الرسـالة منصور من عند الله ، ونتساءل : كيف قالوا بـأنّ الرسـالة سـحر ، وقد كـانوا يتوسّـلون بالسـحر في بعض الأحيـان؟ يبدو أن السـحر كـان مبغوضا عنـدهم ، وإنّما يتوسّـلون به أحيانا عند الحاجة.

[31] لماذا يكفر بالرسـالات الإلهيّة المـترفون؟ لأنّهم اتبعـوا ما أترفـوا فيه ، وضـاعت عنهم المـوازين الحق ، ومسـخت شخصـياتهم الإنسـانية ، فلم يعـودوا يملكـون مقـاييس سـليمة لمعرفة الحقـائق ، فقاسـوا كـلّ شـيء بميزان الماديـات ، وهكـذا زعمـوا أنّ رسـالة الله لا بد أن تنزل على كبـار المـترفين ، أو ليس قد خصّـهم الله بنعمة الغـنى حبّا لهم وإكراما لمقـامهم ، إذا فهم أحـقّ بنعمة الرسالة.

(**وَقـالُوا لَـوْ لا نُـزِّلَ هـذَا الْقُـرْآنُ عَلى رَجُـلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**)

جـاء في النصـوص الدينية عن تفسـير هـذه الآية عن الإمام العسكري (ع) عن أبيه قال :

إنّ رسول الله (ص) كان قاعدا ذات يوم بفنـاء الكعبة ، إذ قـال له عبد الله بن أميّة المخـزومي : لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولا لبعث أجـلّ من فيما بيننا مـالا ، وأحسـنه حـالا ، فهلّا نـزل هـذا القـرآن ، الـذي تـزعم أنّ الله أنزله عليك ، وابتعثك به رسولا على رجل من القريـتين عظيم : إمّا الوليد بن المغـيرة بمكة ، وإمّا عـروة بن مسـعود الثقفي بالطائف ، فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : أمّا قولك :

(**لَـوْ لا نُـزِّلَ هـذَا الْقُـرْآنُ عَلى رَجُـلٍ مِنَ الْقَـرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**) ، الوليد بن المغـيرة بمكّة ، أو عـروة بالطـائف ، فإنّ الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تسـتعظم أنت ، ولا خطر له عنـده كما له عنـدك ، بل لو كـانت الـدنيا عنـده تعدل جناح بعوضة ما سقى كـافرا به مخالفا شـربة مـاء ، وليس قسـمة رحمة الله إليك ، بل الله القاسم للرحمـات ، والفاعل لما يشاء في عبيده وإمائه ، وليس هو عزّ وجلّ ممّن يخـــاف أحـــدا كما تخافه أنت لماله وحاله ، فعرفته بالنبوّة لـذلك ، ولا ممّن يحبّ أحـدا محبّة اللهو كما تحب ، فيقدّم من لا يستحقّ التقديم ، وإنّما معاملته بالعـدل ، فلا يـؤثر لا فضل مـراتب الـدين وجلاله إلّا الأفضل في طاعته والأجدّ في خدمته ، وكذا لا يؤخّر في مراتب الدين وجلاله إلّا أشدّهم تباطؤا عن طاعته.

وإذا كان هذا صـفته لم ينظر الى مـال ولا الى حـال ، بل هذا المال والحـال من تفضّـله ، وليس لأحد من عبـاده عليه ضريبة لازب ـ اللازب الشديد اللزوم ـ فلا يقـال له : إذا تفضّلت بالمال على عبد فلا بدّ أن تتفضّل عليه بالنبوّة أيضا ، لأنّه ليس لأحد إكراهه على خلاف مــراده ، وإلزامه تفضّلا ، لأنّه تفضّل قبله بنعمه.

ألا تـرى يا عبد الله كيف أغـنى واحـدا وقبّح صـورته ، وكيف حسّـن صـورة واحد وأفقـره ، وكيف شـرّف واحـدا وأفقره ، وكيف أغنى واحدا ووضعه ، ثم ليس لهذا الغــنى أن يقول : هلّا أضيف الى يساري جمال فلان ، ولا للجميل أن يقول : هلّا أضيف الى جمالي مال فلان ، ولا للشـريف أن يقول : هلّا أضيف الى شـرفي مـال فلان ، ولا للوضـيع أن يقــول : هلّا أضــيف الى ضــعتي شــرف فلان ، ولكن الحكم لله ، يقسم كيف يشــــاء ، وهو حكيم في أفعاله ، محمود في أعماله.

وذلك قوله تعالى : (**وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هـذَا الْقُـرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**) قال الله تعالى : (**أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَـمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَـتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**) فأحوجنا بعضهم الى بعض ، أحوج هذا الى مال ذلك ، وأحوج

ذلك الى سلعة هذا والى خدمته.

فترى أجلّ الملوك ، وأغنى الأغنياء ، محتاجا الى أفقر الفقـراء في ضـرب من الضـروب ، إمّا سـلعة معه ليست معه ، وإمّا خدمة يصلح لها لا يتهيأ لذلك الملك أن يستغني إلّا به ، وإمّا بـــاب من العلـــوم والحكم هو فقـــير الى أن يستفيدها من هـذا الفقـير ، فهـذا الفقـير يحتـاج الى مـال ذلك الملك الغني ، وذلك الملك يحتاج الى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته ، ثم ليس للملك أن يقـــول : هلّا اجتمع الى مـالي علم هـذا الفقـير ، ولا الفقـير أن يقـول : هلّا اجتمع على رأيي وعلمي وما أتصـــــرف فيه من فنـــــون الحكمة مال هذا الملك الغـني ، ثم قـال (ص) : «**وَرَفَعْنا بَعْضَـهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضـاً سُـخْرِيًّا**» ثم قـال : يا محمــد! قل لهم : (**وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**) أي ما يجمعه هؤلاء [1]

ونستخلص من هـذا النص : أنّ الجاهلية تعطي القيمة للمـادة لا للمبـادئ ، وقد أشـار القـرآن الى هـذه النظـرة الشـاذّة عند ذكر قصة طـالوت حينما اختـاره ملكا لبـني إسـرائيل فقـالوا : (**أَنَّى يَكُـونُ لَـهُ الْمُلْـكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ**) [2] وعند ما حكى قصة صاحب الجنة وصاحبه ، قال : (**فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْـكَ مـالاً وَأَعَـزُّ نَفَـراً ، وَدَخَـلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظـالِمٌ لِنَفْسِـهِ قـالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيـدَ هـذِهِ أَبَداً ، وَما أَظُنُّ السَّـاعَةَ قائِمَـةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً**) [3]

إذ زعم هـذا أنّ أمواله دليل على حبّ الله له ، ولهـذا فهو لا يظنّ أنّ الساعة قائمة ، لأنّ الدنيا أنسـته الاخـرة ، ولكن إن قامت الساعة فسيجد خيرا منها منقلبا.

---

(1) الإحتجاج / ج 1 / ص 32.
(2) البقرة / 247.
(3) الكهف / 32 ـ 36.

هكذا تمسّك بالمقاييس المادية في تقييم الآخرة.

وهكـذا زعم كفّـار قـريش أنّ ثـروة أحد الـرجلين في مكّة أو الطائف ترشّح أحدهما للرسالة.

[32] وقد جاءت رسـالات الله لتنقذ البشر من ويلات المادة وأصحابها ، جاءت لتكون بصائرها منارا للفقراء في كفاحهم ضد استغلال الأغنياء ، وللمستضعفين ضد إرهـاب المستكبرين ، جـاءت لتبصـير الجـاهلين بزيف قيم المـادة التي يدعوا إليها أدعياء العلم والدين من أصـحاب الطغـاة والمترفين من أجل تكريس طغيانهم وفسادهم ، وتضـليل المحرومين حتى لا يطالبوا بحقوقهم.

وهكذا ردّ القرآن تلك المقولة الجاهليّة ببيان بصيرتين :

الأولى : كما أنّ الله تفضّـل على الأغنيـاء بالمـال فلا يسأل عن ذلك ، كذلك يتفضّل على البعض بالرسـالة ، ولا يجوز أن يعترض عليه في ذلك.

الثانية : أنّ المـال ليس أساسا سـليما للتقـييم ، بل رحمة الله المتمثّلة في الرســالة هي الأفضل ، وهي ـــ وليس المال ـ دليل حبّ الله لعبده ، وتخصيصه بفضله.

(**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**)

إنّ النبـوة رحمة الله فهل فـوّض إليهم أمر تقسـيمها بين عبـاده؟ كلّا .. فالله قسم المعيشة بينهم ، فقد أعطى لكـلّ شـخص معيشـته ، حسب حكمته ، ولا يحـقّ لأحد الاعـتراض عليه ، وبالـذات المـترفون تـراهم لا يعترضـون على الله في تقـدير المعيشة لهم ، فكيف يعترضـون فيما هو أهمّ من المعيشة وهو رحمة الله المتمثّلة في النبوّة.

(**نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**)

إنّ الله لم يعط الكمــالات لجميع النــاس ، بل أعطى المال والولد ، وجعل بعضهم شـريفا ، وأعطى لمن يشـاء الملك ، ومنع عنه سـائر النعم ، فمثلا سـليمان (ع) الـذي سـخّر الله له الجنّ والطـير والـريح لم يـرزق ولـدا على شدّة حبّه له.

ونسـتوحي من قوله سـبحانه : (**نَحْنُ قَسَـمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ**) أنّ تقسيم المواهب والنعم كـان بحيث تصـلح حيـاتهم (وعيشـهم) ، فـأعطى ربّنا كـلّ واحد من النـاس موهبة يحتاج الآخرون إليه فيها.

إذا عند ما أعطى ربّنا الوليد بن المغــيرة وعــروة بن مسعود الثقفي المال والغنى ، فليس لأنّهما أقرب النـاس إليه أو أنّه يحبّهما ويكره غيرهما ، وإنّما لأنّ الحيـاة قـامت على أساس الحاجة المتبادلة بين الناس ، ولا يستغني أحد عن أحد ، ولـذلك عند ما سـمع الإمـام زين العابـدين (ع) رجلا يدعو قائلا : «اللهمّ اغنني عن خلقك» نهره وقـال له (ع) : «**ليس هكذا : إنّما النـاس بالنـاس ، ولكن قل : اللهم اغنني عن شرار خلقك**» [1]

وجاء في الحـديث عن أمـير المؤمـنين (ع) أنّه قـال : «**اللهم لا تجعل بي حاجة الى أحد من شرار خلقك ، وما جعلته بي من حاجة فاجعلها الى أحسنهم وجها ، وأسـخاهم بها نفسا ، وأطلقهم بها لسـانا ، وأقلّهم عليّ بها منّا**» [2]

والحكمة من هذه الحاجة المتبادلة انتفاع بعضـهم من بعض ، وهذا تفسير قوله تعالى :

(**وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا**)

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 78 ص 135.
(2) المصدر / ص 56

والسخرة هو الاستخدام ، فقد خصّ كلّ أناس بموهبة لتتكامل الحيـاة ، إذ لو جعل الله كـلّ النـاس مكتفين في كلّ شيء لكانوا يطغون ويتكبّرون ، لأنّ بعض النـاس وهم محتاجون بشدّة إلى الآخرين تـراهم يقولـون : «**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى**»! فكيف إذا أحسّوا بالاستغناء وتحـرّزوا من قيـود الاحتيــاج الى الآخـــرين؟!! بل لو لم يتفاضل النـــاس بالمواهب لما بـنيت حضـارة ، ولا تنـامى مجتمع أو تجمع ، ولعاش الناس كما سائر الأحياء في صراع أبدي.

(**وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**)

لقد زعموا أنّ الرسـالة لا بـدّ أن تهبط على الأغنيـاء ، فــردّهم الله بأنّه هو الــذي يقسم بينهم معايشــهم ، وأنّه خصّ كلّ فرد بموهبة ، وأضاف : إنّ قيمة الرســالة أعظم من قيمة المال ، فلو كان ينبغي اجتماع الخير عند آخر فلا بدّ أن تجتمع عند صـاحب الرسـالة ، لأنّها أعظم قيمة عند الله.

[33] ولكي يقتلع جــذور هــذا التقــييم الخــاطئ من قلــوب البشر ، مضى الســياق في بيــان خساسة الــدنيا وعدم احترامها عند الله ، لأنّها زائلة ، فإذا قيست بالآخرة لم تكن سوى متاع يسير.

(**وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً**)

أي على دين واحد هو الكفر بالله.

(**لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُـوتِهِمْ سُـقُفاً مِنْ فِضَّةٍ**)

أي لو لا الخوف من تحوّل المؤمـنين كـافرين لأعطى الله الكفـار كـلّ ما يريـدون ، ولجعل سـقوف بيـوتهم من فضّـة ، ولجعل بيـوتهم طبقـات عديـدة يرتقـون إليها عـبر سلالم ودرجات.

(**وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ**)

[34] (**وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً**)

ربما سبب ذكر الأبواب لـبيوت من يكفر بـالرحمن هو أن تكون بيوتهم مركزا اجتماعيّا ، أو يكـون تعـدّد الأبـواب دليل سعة الـبيوت ، أو المـراد أن تكـون تلك الأبـواب كما السرر من فضة.

(**وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ**)

[35] (**وَزُخْرُفاً**)

قال العلامة الطبرسي : الزخرف كمال حسن الشيء ، ومنه قيل للـذهب زخـرف ، ويقـال : زخرفه زخرفة إذا حسّنه وزيّنه ، ومنه قيل للنقوش والتصاوير زخرف.[1]

وعلى هـذا يكـون المعـنى أعطـاهم ما يكمل حسـنهم وحسن بيوتهم من الذهب والفضة والفرش والأثـاث ، وما إلى ذلك.

ولكنّ الله منع بحكمته هــذه النعم عنهم لكي لا يبتلى المؤمنون بلاء عظيما ، فلو فعل ذلك لم يتحمّل أحد منهم إغـراء النعم المتـوافرة عند الكفّـار فكـانوا يكفـرون بالله جميعا.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) :

«**لو فعل الله ذلك لما آمن أحد ، ولكنّه جعل في المؤمنين أغنياء ، وفي**

(1) مجمع البيان ـ ج 9 / ص 36

الكافرين فقراء ، وجعل في الكافرين أغنياء ، وفي المؤمـــنين فقـــراء ، ثم امتحنهم بـــالأمر والنهي ، والصبر والرضا» [1]

هب أنّ الله أعطى كلّ ذلك للكفـار ، فهل يعـني ذلك أنّ لهم عند ربّهم كرامة بذلك ، وللمؤمنين عليه هوانا؟ كلّا .. إنّ كـلّ ذلك ليس ـ بعد كـلّ ذلك ـ سـوى متـاع ، لا يستفيد منه صاحبه إلّا قليلا ، وهي في الحيـاة الـدنيا الـتي تـأطّر كـلّ شـيء فيها بالدونيّة والضـعة ، بينما هيّأ ربّنا الآخـرة حيث القـرار الأبـدي للمتقين فـدعاهم الى دار ضيافته ، ومقام كرامته ، ومنازل قربه ورضوانه.

(**وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا**)

المتاع : ما يتمتّع به الإنسان مؤقتّا.

(**وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**)

فالقيمة الحقيقية ليست للمـــادة الزائلة ، بل القيمة الأساسية للعمل الصالح الذي يدّخره المؤمنون للآخرة.

وبكلمة : الدنيا زائلة ، وما فيها من نعم ليست سـوى متاع لا قيمة له عند الله ، ولو لا أنّ إغراء هذه النعم كـان يسـبّب في ميل النـاس جميعا الى الكفر لكـان ربّنا قد أكملها للكفّـــار ، لـــدناءتها وزوالها ، ولكنّ الله اللطيف بعبـاده أبى أن يجمع الخـيرات عند الكفّـار ليعطي فرصة الإيمان للآخرين.

---

(1) تفسير نور الثقلين ـ ج 4 / ص 599.

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَـيْطاناً فَهُـوَ لَـهُ قَـرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُـدُّونَهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قـالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَـوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَـذابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْـدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِـكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُـونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَـدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْـكَ إِنَّكَ عَلى صِـراطٍ مُسْـتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَـذِكْرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَـوْفَ تُسْـئَلُونَ (44) وَسْـئَلْ مَنْ أَرْسَـلْنا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رُسُـلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الـرَّحْمنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ (45)

---

38 [المشـرقين] : أي المشـرق والمغـرب ، وغلب المشـرق لقاعـدة الأشرف أو الأقرب إلى القصد.

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ

نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً

هدى من الآيات :

ذكر الله نـــور ســـاطع يعشو عنه البعض (لأنّهم لا يريـــدون تحمّل مســئولياته) فيقيض لهم الله شـــيطانا يقودهم الى النـار ، وذلك بـأن يصـدّهم عن سـبيل الحق ، ويزيّن لهم الباطل فيحسبون أنّهم على هدى.

بهــذا يكمل الســياق ما بــدأه بالآيــات المتقدّمة من تهوين شأن الدنيا ، وتسفيه من يتخذ متاعها مقياسا للحق ، ذلك أنّ علاج الميل الى الـــدنيا معرفة حقيقتها ، ولكن كيف يتمّ ذلك؟

إنّما بــذكر الله فهو نــور ، وحين يعــرض عنه البعض يبتلون بالشـياطين من الجن ، وبقرنـاء السـوء من أبالسة الإنس الــذين يزيّنــون للمحــرومين أعمــال الســلاطين والمترفين من أدعياء العلم والدين.

وعند لقاء الله في ذلك اليوم الـرهيب يكتشف المـرء مدى خسارته ، فيقول لقرين

السـوء الـذي أضـلّه : يا ليت كنّا متباعـدين في الـدنيا كما تباعد المشـرق عن المغـرب ، ولكن هيهـات لا ينفع يومئذ التبرّي من قرينه الذي يلازمه الى الأبد.

وحين يضلّ الله أحدا لا تنفعه دعوة الرسـول أو عظة الناصحين. أو يسـمع الأصـمّ ، أو يهتـدي الأعمى ، ومن هو في ضلال بعيد؟! (بهذا يشير الذكر الى مسئولية الإنسـان عن هداه أو ضلالته) .

أمّا الرسول فما عليه إلّا البلاغ فـإذا عـذّب الله أولئك الضـلّال بعد أن يـذهب به أو في حياته فـإنّ الأمر بيد الله يعذّبهم آجلا أو عاجلا.

إنّما عليه (وعلينا نحن التـــابعين لــــه) أن يستمسك بـالوحي (ولا تزلزله دعايـات المـترفين) فهو على صـراط مستقيم.

إنّ القرآن هو ذلك الذكر الذي يعالج أمـراض القلب ، والـتي يجمعها حبّ الـدنيا ، وهو للرسـول أوّلا ، ولقومه الأقرب فالأقرب ، وسوف يسألون جميعا عنه.

(وهو الشرف الذي يسمو على شـرف المـال والجـاه عند قريش ، لأنّه يدخل المؤمن حصن التوحيد ، ويفكّ عنه أغلال الشرك) .

والتوحيد هو رسـالة الأنبيـاء (وهو يتنـافى والخضـوع لأصحاب القوّة والثروة) .

بينات من الآيات :

[36] كيف نواجه إغراء المادّة ، ونتجـاوز الافتتـان بما لـدى الكفّـار من مظـاهر القـوّة ، وزخـرف الحيـاة؟ إنّ الإنسان من تراب وكلّ شيء يحنّ الى أصله ، فحبّ الدنيا عميق في كيـان الإنسـان وهو رأس كـلّ خطيئة ، فكيف الخلاص منه؟

علما بأنّه من دون التطهّر من حبّ الـــــدنيا لا يخلص توحيد الإنسـان ، بل يظل يخلط عملا صـالحا وآخر سـيّئا ، بل يشوب نيّته نزغات شـيطانية حـتى في الصـالحات من أعماله ، لا يخلص ـ مثلا ـ لقيـادة الحق إلّا عند ما تـوفّر له متـاع الحيـاة الـدنيا ، فـإذا محّص بـالبلاء أنهـار في وادي الشرك.

الإجابة تتلخّص في كلمة ذكر الله ، فيه تفيض النفس سـكينة ، والقلب اطمئنانـا. إنّه النـور الـذي يهـزم ظلام الجهل والوسوسة والغفلة عن الفؤاد ..

فعند ما تعصف وساوس الشيطان بـالنفس ، وتتلاحق عليه نزغاته وهمزاته ، لا يجد الإنسـان مفـرّا إلّا الى اللـه. أو لم يقل ربّنا : (**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّـــيْطانِ نَـــزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ**) [1] وقـال سـبحانه : (**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّـيْطانِ تَـذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ**) [2] .

ولكن البعض يعشو عن ذكر الله ، يتغافل عنه ويتجاهله ، لا يستعيذ بالله ، يستسلم لنزغـات الشـيطان ، ولا يتـذكّر أنّه عـدو مـبين ، وهنالك يتمكّن منه الشـيطان ، ويعيّن له الله قرين سوء من الشياطين يقوم بأمرين :

الأوّل : يمنعه من عمل الخير ، ولا يدعه يسلك سـبيل الرشاد ، فيسلب بذلك توفيق الهداية عنه.

الثاني : يزيّن له سوء عمله فيراه حسنا فلا يفلح أبدا.

(**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ**)

قـالوا أصل العشو النظر ببصر ضـعيف ، يقـال عشى إذا ضعف بصره ، وأظلمت

---

(1) الأعراف / (200) .

(2) الأعراف / (201) .

عينه.

(**نُقَيِّضْ**)

نعيّن أو نتيح.

(**لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**)

يلازمه ولا يدعه لوحده ليله ونهاره.

ولعل استخدام اسم «الرحمن» هنا لبيان مـدى عمى الرجل الذي يعشو عن النظر الى آثـار من وسـعت رحمته كلّ شيء. أفلا التجأ إليه من عادية إبليس ، وفرّ الى كهف رحمته من عدوّه المبين؟!

[37] (**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ**)

بالضـبط نقيض ما تفعله الملائكة بقلب المـؤمن حيث تثبّته على الطريق ، وتزيل عن طريقه العقبـــات حـــتى يتوفّق لعمل الخـير ، بينما قـرين السـوء يسـوّف صـاحبه التوبة ، ويعرقل مســـيرته الى الله ، ويلقي عليه الكسل كلّما قام الى الصلاة أو دعي الى فعل الخير. إنّه يملأ قلبه وعودا كاذبة وأماني ووساوس.

بل قد يفتح الشيطان أمـام صـاحبه بابا مسـتقبليّا من الخـير حـتى يمنعه عن الخـير العاجل ، ثم يمنعه عن ذلك الخير أيضا.

(**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**)

هكـذا يـزيّن الشـيطان لقرينه الضـلال حـتى يحسـبه هدى. وما دام الإنسان يشك في طريقته يرجى له النجـاة ، ولكن حينما يزيّن الشيطان له عمله فلا يجد في نفسه

داعيا الى التفكّر في صــحّة نهجه وســلامة خطّه ، لا ينجو أبدا.

ونستوحي من الآية بصيرتين :

الأولى : إنّ الخطوة الأولى في سبيل الضلال كما في طريق الهدى يخطوها الإنسـان بكامل حريّته ، فـإذا عشى عن ذكر الــرحمن أضــلّه الله بقــرين الســوء ، وإذا تــذكّر بصّره وأعاذه من شر الشيطان.

إذا فمســئولية الإنســان الكــبرى هي اختيــار الهداية بالاســـتعاذة بالله ، بـــالإقلاع عن حالة التكبّر الدونيّة الى سماء العبوديّة لله.

الثانية : لا يلغي مسئولية الإنسان عن عقائده وأفعاله أنّه يحسب أنّها صـــحيحة ما دام هـــذا الحســـبان آت من تزيين الشـيطان. إنّه كمن يلقي بنفسه من شـاهق يتحمّل مسـئولية عمله حـتى ولو فقد الإختيـار أثنـاء دحرجته بين الصـخور. لمـاذا؟ لأنّه هو الـذي سـلب نفسه القـدرة حين رمى بنفسه من عل .. كـذلك الـذي يـرفض الالتجـاء الى الله فيقيّض الله له شيطانا يضلّه. إنّه لا يزال مسـئولا عن ضلالته لأنّ بدايتها منه.

وهكذا مجرّد الإعتقاد بشيء لا يبرّر المضيّ فيه ما لم يعتمد على منهج ســـليم ، وإلّا فكثـــير من المجـــرمين يعتبرون أفعالهم صالحة.

[38] إذا أردت أن تعــرف حقيقة شــيء في الــدنيا فــانظر كيف يتجسّــد في الآخــرة ، إذ أنّ تلك الــدار هي المقيــاس. إنّها الحصــاد الأكــبر بينما الــدنيا مزرعة وهل يعرف الزرع إلا بالحصاد.

وإنّما يصوّر لنا كتـاب ربّنا مشـاهد الآخـرة ، ويبثّ في كلّ موضوعة صورا

مناسبة لها من واقع الآخرة ، بهدف جعلها مقياسا ، ولعلّنا نقترب أكثر فأكثر الى حقائق الخلق ، ولا ننظر الى ظاهر من الحياة الدنيا.

وهنا في سـورة الزخـرف حيث تـبيّن آياتها المحـور السليم للحياة وهو التوحيد ، لا المال ولا الصـداقة القائمة على أساسه ، يبيّن لنا القرآن مشهدا من مشاهد الصـراع القائم هنالك بين أصدقاء السوء هنا ، فيقول :

(**حَتَّى إِذا جاءَنا**)

وحضر عند ربّه هذا الذي عشى عن ذكر الله.

(**قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْـدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**)

يتمنّى يومئذ أن يكـــــون بينهما ما بين المشـــــرق والمغرب لما يجد من سيئات الاقتران به.

[39] كلّا .. لا ينفع التـــــــبرّي من البعض ، ولا ينفع التبرير ، لأنّ الظلم قد وقع فعلا بكامل اختيـارهم ، والنـار تسع الجميع.

(**وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ**)

أي لا يجـديكم نفعا أنّكم تمنّـون التباعد عن بعضـكم ، إذ أنّه جاء متأخّرا بعد أن ظلمتم أنفسكم.

(**إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ**)

قـالوا : لا ينفعكم اشـتراككم في العـذاب شـيئا إذ لا تتقاسمون العذاب بل لكلّ الحظ الأوفر.

وقـالوا : لا يتسـلّى أحد بعـذاب غـيره فليست هنالك البلية إذا عمّت طـابت ، لأنّ العـذاب هنالك لا يطيب لأحد أبدا ، لأنّه شديد ودائم.

ولأنّ قرنـاء السـوء في خصـام دائم مع بعضـهم فلا يسلّى أحد أبدا.

[40] وحين يضلّ قرين السوء صاحبه يكون مثله مثل الأصم والأعمى.

(**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَ**)

كلّا .. لأنّ جهاز الاستقبال معطّل عنده فكيف يسـتمع ، وقد قال الشاعر :

لقد أسمعت إن نـاديت حيّا ولكن لا حيـاة لمن تنـادي

(**أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

كلّا .. لأنّ من انحـرف عن الطريق قليلاً تـرجى أوبته إليه ، ولكنّ الذي شطّ بعيدا حتى أحاطت به الضلالة كيف يمكن هدايته.

هكذا ينبغي اليأس عمن استبدّ بقلبه حبّ الـدنيا فأخذ يقيس كلّ شيء بالمال والجاه ، والقوّة الظاهرية. إنّه في ضـلال مـبين ، ولا يعجبك ما عنـده فتفكّر في كسـبه بأيّة وسـيلة فتقـدّم له التنـازلات من دينك ومواقفك ، كلّا .. ما عند الله خير وأبقى.

[41] إنّ عاقبة هؤلاء العذاب في الدنيا وقبل العـذاب الأكبر عند ربّهم ، وسـواء تمّ ذلك بعد وفاتك أو في حياتك فإنّهم معذّبون ، فلا تغررك أمـوالهم وأولادهم ، ولا يحزنك مكرهم ودعاياتهم ، ولا تستعجل عليهم فإنّ العذاب الـذي ينتظرهم شديد.

(**فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ**)

إنّ وجـود الرسـول والمؤمـنين بين الكفّـار قد يـؤخّر عنهم العـذاب الى أجل محـدود ، قـال الله تعـالى : (**وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللـهُ مُعَـذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**) [1] .

[42] وقد يعـــذّب الله الكفّـــار في عهد الرســـول وبمشـهد منه أو من الـدعاة من أتباعه ، لكي يـريهم قوّته ويقرّ أعينهم بنصره.

(**أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ**)

فلا تنفعهم ثروتهم أو قوّتهم شيئا.

[43] ولأنّ عاقبة الكفّـار الـدمار فلا بـدّ من مواجهة إغـرائهم وإرهـابهم ، ولا يمكن ذلك إلّا بالتمسّـك الشـديد بالرسالة.

(**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ**)

لينظر المـؤمن الى الظـواهر السياسـية والاجتماعية من خلال بصائر الوحي ، لكي لا يتـأثّر بها سـلبيّا ، وليطبّق مناهج الرسالة بدقّة حتى يمكّنه الله في الأرض ، لأنّ كـلّ بند من بنـــود الشـــريعة قـــوّة واقتـــدار ، وليكن واثقا من سلامة خطه فإنّ الثقة بالنصر طريق إليه.

(**إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

[44] وليس الشـرف في أمـوالهم ومناصـبهم ، وإنّما هو في الـوحي الـذي يعبق ذكر المتمسـكين به في كـلّ أفق.

---

(1) الأنفال / (33) .

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)

لقد ذهب أصحاب الأمـوال ، وأصـبحوا أحـاديث يعتـبر بهم المعتبرون ، بينما بقي ذكر أصحاب الرسالة على كـلّ شفة وعلى امتداد العصور.

بلى. إنّ أصحاب الرسالة مسئولون قبل غـيرهم عنها ، لأنّها نزلت في بيوتهم فهم أحقّ بها وأهلها.

(وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ)

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ أنّه قال : «**الذكر رسول الله ، وأهل بيته أهل الذكر ، وهم المسؤولون**» [1] .

[45] ولا يجوز الاستسلام لأهواء المترفين أو الطغـاة ، لأنّ في ذلك شـركا بـربّ العـزة .. وقد جـاءت الرسـالة لتطهــير النفــوس من الشــرك ، وتطهــير المجتمع من القيـادات الشـركية ، فكيف تقبل بهم اليـوم شـركاء في السلطة.

(وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَـلْنا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رُسُـلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)

كلّا .. إنّما هو إله واحد ، وما جعل الله لرجل من قلـبين في جوفه يخضع بأحـدهما لربّه وبالثـاني لأصـحاب الثروة أو السلطة.

التوحيد محور العلاقة الاجتماعية :

سبق الحديث في محور سورة الزخـرف المتمثّل في تهوين شأن الدنيا ، لكي

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (105) .

لا يجعلها المسـلم قيمة يقيس بها الأمـور ، وآيـات هـذا الـدرس تنسف العلاقة القائمة على أسـاس هـذه القيمة الزائلة ، ذلك أنّ القيمة السـليمة عند الله هي الـتي تمتـدّ من الحياة الدنيا إلى الآخرة.

وإذا اسـتطعنا إصـلاح قيمة التجمّع أو الرابطة الـتي توصلنا ببعضنا فجعلناها الإيمان دون المصالح العاجلة ، ولا الإقليم ، والعنصر ، والشـهوات ، والأهـواء ، والعصـبيّات ، فقد أقمنا فعلا المجتمع الربّاني المنشود.

ولقد جـاءت رسـالات السـماء جميعا وفي طليعتها القرآن الكريم لتحقيق هذه الغاية السـامية ، ولكن كيـف؟ بتهـوين الـدنيا ، وحط شـأنها ، لكي لا تصـبح بما فيها من زخرف مقياسا ، ثمّ بالنهي عن اتخاذ المترفين فيها قادة ، وأخيرا ببيان الرابطة الشيطانية الـتي تنتهي بأصـحابها الى النار.

وإذا كـان حبّ الـدنيا أرضـيّة فـإنّ قيـادة المـترفين الشجرة. أمّا ثمرتها فهي الصلة بين قرناء السوء.

ويبـدو أنّ السـياق ذكّرنا أوّلا بهـوان الـدنيا على الله (حتى أعطاها للكفّار) ثم أخذ يبصّرنا بحقيقة قرناء السـوء في هـذا الـدرس ، حيث نسـتوحي منه بصـائر حكيمة في الروابط الاجتماعية ، ذلك أنّ للعلاقة الاجتماعية ـ وبالذات تلك الـتي ترتكز عليها البـنى التحتيّة للمجتمع ـ قاعـدة ، فقد تكـون الأرض قاعـدة التجمّع فتنشأ الصـلة الوطنيّة والإقليمية ، وقد تكـون اللغة هي القاعـدة فتنمو الحالة القوميّة ، وقد نكون المصالح العامّة التي تنمو وتتّسع الى الحالة الإمبريالية ، وقد تتجلّى في صـورة الأمميّة البروليتاريّة.

والصـلة الـتي تربط في هـذه الحـالات جميعا بين الإنسان والإنسان هي صلة مادية

ناشئة من التراب ، بينما رسالات الله تريد صلة أخرى هي صــلة الــروح ، صــلة الحبّ الإلهي ، صــلة القيم الربّانية ، وهذه الصلة قائمة على أساس ذكر الله.

وهي تستنزل رحمة الله ، وتنمّي قيم الفضيلة والخير والإحسان ، كما تحافظ على الحق والعدل والحرية ، بينما الصلات الأخـرى تسـتدرج البشر الى نقمة الله ، وتطمس معالم الحق ، ولا تنمّي الخير ، بل وتساهم ــ عـادة ــ في إشاعة الفحشاء ، وبثّ روح الاعتداء والظلم.

فإذا بحثنا عميقا في أسباب الشـقاء والعـداء وعوامل الصــراع والحــرب والاعتــداء بين النــاس ، ســواء داخل التجمّع الواحد أو بين الأمم ، فلن نجـــدها ســـوى هـــذه الصلات الجاهلية النابعة من حبّ الدنيا وزخرفها.

والقـرآن هنا يحـذّرنا من الوقـوع في هـذه المهالك ، ويأمرنا بالتمسّـك بـالوحي ، فمن عشى عنه فقد قـرن به شيطان ، يبعده عن السبيل ، ويزيّن له السيئات.

ويبدو أنّ باطن هذه الآيات التبصـير بـدور القـرين في حياة الإنسان ، والقرين قد يكون زوجة أو زوجا أو صاحب السـبيل أو زميل الدراسة أو شـريك التجـارة أو الجليس والأنيس ، والإسـلام يأمرنا بـذكر الله حـتى يكـون معيـار اتخاذ القـرين ربانيّا ، لأنّه حسب ما يكـون الإنسـان يختـار أقرانه ، وكما يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) : «**كلّ امرء يميل إلى مثله**» .

«**لا يصحب الأبرار إلّا نظراؤهم**» .

«**لا يوادّ الأشرار إلّا أشباههم**» [1] .

---

(1) ميزان الحكمة / ج (5) ص (298) .

وحين يتخذ القرين بمعيار إلهي تكـون علاقته به متينة ، بينما إذا كـانت المصـلحة أو الهـوى أساسا للصـداقة انهارت بتبدّل الأحوال ..

وحين يكون المعيار الإلهي حاكما يصنع المؤمنون من تجمّعهم جنة أرضـيّة حيث يـوادّون بعضـهم في الله لا تجد في قلـوبهم غلّا للـذين آمنـوا ويـأنس الواحد منهم الى صـاحبه كما الظمـآن الى شـراب سـائغ .. وهنالك تتجلّى السعادة الدنيوية ، كما لا تتجلّى في أيّ نعمة أخرى ..

وتمتد هذه الخلّة حـتى يـوم القيامة حيث يقـول ربّنا : (**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**) وحـتى تبلغ بهم الجنة حيث تـراهم (**إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ**)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (50) وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ

---

50 [ينكثون] أي يغدرون وينقضون العهد.
53 [أسورة] : جمع سوار وهو الحلية التي تلبس في اليدين المرفق والزند.

مَعَــهُ الْمَلائِكَــةُ مُقْتَــرِنِينَ (53) فَاسْــتَخَفَّ قَوْمَــهُ فَأَطــاعُوهُ إِنَّهُمْ كــانُوا قَوْمــاً فاسِــقِينَ (54) فَلَمَّا آسَــــفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنــــاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (56)

---

54 [فاستخفّ قومه] : بأن حسبهم خفيفي العقول يتمكّن من إنهاضهم لنصــره بمجــرد خطــاب ومغالطة ، كما هي عــادة الطغــاة دائما أمــام الجماهير.

55 [آســفونا] : أغضــبونا والله تعــالى لا يغضب كما الإنســان ، وإنّما له رسل وملائكة يغضــبون له ، كما أنّ غضــبه عــزّ وجل على العصــاة هو إرادة عقوبتهم.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ؟!

هدى من الآيات :

في سياق هذه السورة التي تدور حول تصحيح علاقة الإنسـان بما حوله ، يضـرب لنا القـرآن مثلا من فرعـون الذي اغترّ بزينة الحياة الدنيا ، واستعبد الناس بها ، فكانت نهايته الأليمة أن أغرقه الله وجنـــده ، وما هـــذه العاقبة وأمثالها من الظالمين ببعيد.

لقد جاء موسى (ع) الى فرعون لكي يحدّد له العلاقة السليمة بالطبيعة ، فله أن يسخّرها ويستفيد منها ، لا أن يركن إليها ويطمئنّ بها ، لأنّها متغيّرة ، وكلّ متغيّر زائل ، بيد أنّ فرعـون آثر الكفر على الإيمـان ، ورفض الانقيـاد لرسالة الله ، وقيادة موسى (ع)

ويركّز الله في هـــذه القصة على علاقة الإنســـان بالطبيعة ، فقد اعتقد فرعون أنّه ما دام يملك مصر ، وأنّ الأنهار تجـري من تحته ، فلا بـدّ أن يكـون هو ملك النـاس وموجّههم دون موسى (ع) الذي جـاءه بمدرعة الصـوف ، وبيده عصاه التي يتوكّأ

عليها ، ويهشّ بها على غنمه ، غـافلا عن أنّ قيـادة الحيـاة ليست للأغنى أو الأعتى بل للأصلح.

وتتناسب هذه الآيات والآية التي تقـول : (**وَقالُوا لَـوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُـلٍ مِنَ الْقَـرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**) لأنّ أهل الجاهلية كما فرعون اعتقدوا بـأنّ الأصـلح للحكم هو الأغنى وليس الأصلح الأقرب إلى الله عزّ وجل.

كما هي مثل للقرين الـذي يقيّضه الله لمن يعشو عن ذكره ، حيث أنّ فرعون حين وجد قوما فاسقين استخفّهم ، وأثار فيهم النزعات الشرّيرة والشهوات العقيمة ، فقـال لهم : ألا تـرون ــ يا قـومي ــ أنّي أملك مصر ، كما بيـدي تنظيم أنهارها. هل أنا خير أم هذا الـذي لا يـتزيّن بأسـورة من ذهب ، ولا تصفّ وراءه جنوده (من الملائكة)؟!

وهكذا يصدّ الطغاة (وهم قرناء السـوء) الغـافلين عن ذكر ربّهم ، ويزيّنــون لهم ســوء أعمــالهم ليحســبوا أنّهم مهتدون!

وأخــيرا : يضــرب القــرآن بهــذه الآيــات مثلا لعاقبة المستهزئين بالرسالات ، الـذين ازيّنت الـدنيا في أعينهم ، فعبدوها وقاسـوا كـلّ شـيء بزخرفها ، كيف يحيط بهم ما عبدوه ، ويكون هلاكهم بما افتخروا به. ألا تـرى كيف تبجّح فرعون بالأنهار التي تجـري من تحته فأطاعه قومه بـذلك فأغرقهم الله فيها؟! هكذا يضرب الله للناس الأمثال.

وللسياق هنا محـوران : الأول : ما يتعلّق بموسى (ع) وفرعـون ، الثـاني : ما يرتبط بفرعـون وملئه ، الـذين لم يتدخّلوا لحسم الحـوار للحق ، فاسـتحقّوا العـذاب بسـبب سكوتهم عن فرعون واتباعهم له.

بينات من الآيات :

[46] (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

الملأ في القرآن هي الطبقة المترفة المتسلّطة على الناس. ونستوحي من إشراك الله للملأ مع فرعون في الدعوة أنّ هؤلاء كانوا فراعنة صغارا يستفيدون من فرعون ، ويستفيد منهم ، وكانوا يلتفّون حوله ، ويستعين بهم ، وإذا راجعنا قصص الأنبياء نجد أنّ الملأ هم الذين كانوا يحرّضون الناس على الكفر ، ويقفون أمام الرسالات.

[47] (**فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ**)

كانوا يضحكون من الآيات التي جاء بها موسى (ع) بدل أن يستفيدوا منها ويؤمنوا بها ، ومثلهم مثل الصخرة الملساء لا يستقرّ عليها قطر السماء ، ولا تنبت الزرع ، كذلك القلوب المتحجّرة تنزاح عنها المواعظ ، ويستهزأ أصحابها بالرسالات والرسل ، وهذا مثل لما أجمله السياق في فاتحة السورة.

[48] (**وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها**)

تدرّج الله لهم بالآيات ، فمن العصا واليد ، الى السنين ونقص من الأموال والثمرات ، الى الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم ، الى الرجز ، وكلّ آية من هذه الآيات أكبر وأعظم من أختها ، وكلّها كانت من نوع العذاب الأدنى الذي يقضيه الله بلطفه على بعض الأمم بهدف إنذارهم.

(**وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

[49] تراهم هل رجعوا؟ كلّا .. فحين يصيبهم العذاب يتوسّلون بموسى (ع)

ـ ويسمّونه ساحرا ـ أن يدعو ربّه بما عهد عنده من الآيات والرسالة إن أزال عنهم العذاب إنّهم لمهتدون.

(**وَقـــالُوا يا أَيُّهَا السَّـــاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِــدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ**)

وفي هذه الآية ثلاث ملاحظـات : الأولى : أنّهم سـمّوا موسى سـاحرا ، والثانية : أنّهم قـالوا : ادع لنا ربّك ، ولم يقولــوا : ربّنا ، والثالثة : أنّهم حين العـــذاب بالآيـــات لم يهتـدوا ، ولكنّهم قـالوا : إنّنا لمهتـدون إن كشف عنا ربّك العــــذاب ، فهم لن يهتـــدوا إلّا بعد أن يكشف الله عنهم العذاب.

وتساءل المفسّـرون : كيف سـمّوا موسى سـاحرا ثم سألوه أن يدعو ربّه بالنجاة؟

والجواب :

أوّلا : يكشف القرآن الحكيم دائما تناقضـات الكفّـار ، وكيف أنّهم ضلّوا فلا يهتدون سـبيلا ، وبالـذات فيما يرتبط بظاهرة النبوّة ، فقال ربّنا سبحانه : (**بَـلْ قـالُوا أَضْـغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**) [1] .

وقـال سـبحانه : (**انْظُرْ كَيْـفَ ضَـرَبُوا لَـكَ الْأَمْـثـالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**) [2]

وقـوم فرعـون بـدورهم ضـلّوا في أمر موسى ، فمن جهة قالوا : يا ساحر ، ومن جهة ثانية اعـترفوا بـأنّ قدرته ليست منه ، ولا من بعض ما يعرفه من الحيل ، بل من الله ، فسألوه أن يدعو ربّه.

---

(1) الأنبياء / (5) .

(2) الإسراء / (48) .

ثانيا : إنّ تهمة السحر التي كان الكفّـار يفترونها على الأنبياء كانت أقوى حجّة لصـدق نبـوّتهم ، إذ أنّهم اعـترفوا من خلالها بأنّ الرسل يأتون بما هو خارق العـادة ، ولكنّهم كانوا يفسّرونها بالسحر .. ونحن نعـرف بـراءة الرسل من السـحر ، إذ لا يفلح السـاحر حيث أتى ، ونعـرف الفـرق الذي جهلوه بين السـحر والنبـوة ، فيكـون اعـتراف الأمم الكـافرة دليلا على صـدق الرسل ، وأنّ تلك كـانت آيـات تشابهت عليهم بـامتلاك الرسل الخـوارق ، كما نعـرف أنّ كفر أولئك الجاهلين كان بدافع الكبر وحبّ الدنيا والهروب من المسؤولية.

ثالثا : بـالرغم من اتهـام النـبي موسى (ع) بالسـحر ، ونكثهم المكرّر لوعدهم إيّاه بالتصديق ، لم يزل هذا النبي العظيم يـدعو ربّه لأجلهم. وحقّا : ما أوسع هـذا الصـدر ، وما أرحم هذا القلب ، وما أدوم هذه الاستقامة في طريق الدعوة التي ينبغي أن نجعلها لأنفسنا أسوة ومثلا حسنا.

[50] وبرحمة الله سـبحانه الواسـعة وعطفه على العبـاد يرفع عنهم العـذاب ، مع علمه أنّهم لن يهتـدوا إذا أبدا ، ولكن ليعطيهم الفرصة تلو الفرصة.

(**فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ**)

ويتبيّن لنا من هذه الآيات أنّ العـذاب نوعـان : عـذاب الإنـذار ، وعـذاب الانتقـام ، فمن رأى النـوع الأوّل من العـذاب فلا يفـوّت الفرصة على نفسه ، لأنّه إذا جـاءه العذاب الثاني فلا مردّ له من الله.

وإنّنا نجد فرعون وملأه قد تعهّدوا بالهداية ، إذ قالوا : (**إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ**) ، ولكنّهم أخلفوا بعد أن كشف الله عنهم العذاب.

[51] وخشي فرعـون من انتشـار الـدعوة بين قومه فاستدرك الأمر بإثارة الشهوات

في أنفسهم.

(**وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ**)

كيف نادى كلّ أهل مصر الذين كانوا قومـه؟ هل جمع الملأ منهم فنادى فيهم؟ أم أنّه بثّ الشائعات عـبر أجهـزة إعلامه ، ووسائل دعايته ، كالسـحرة والكهنة ومن أشـبه؟ لعلّ هـذا أقـرب الى معـنى النـداء في قـومه ، حيث يظهر أنّه أبلغ كلّ قومه بكلامه هذا.

(**قالَ يا قَوْمِ**)

فأثار فيهم النخوة والعصبية حيث ناداهم بأنهم قومه.

(**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ**)

وهكـذا احتجّ عليهم بأنّه ملكهم الشـرعي فلا بـدّ من طاعته. أو ليس يملك القوة والمنعـة؟ ثم احتجّ عليهم بأنّه يملك ناصية القدرة الاقتصادية أيضا ، قائلا :

(**وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي**)

فهو المنظّم للريّ الذي بأمره تجري الأنهار المتفرّعة من النيل ، والتي قيل بأنّها كانت تبلغ (360) كم ، وكـانت تروي منها زراعتهم.

وقد قـالوا : إنّ الحضـارة النهريّة تـدعو الى النظم والاسـتقرار أكـثر من غيرها ، لأنّ حيـاة أهلها قائمة على حسن توزيع الميـاه. ولعـلّ السـياق يشـير الى ذلك حيث لمّح فرعـون بـأنّ الرسـالة تهـدّد النـاظم الـذي يهيّأ توزيع المياه ، ولذلك قال المفسّرون إنّ معنى «من تحـتي» هو بأمري وسلطتي ، وهو تعبير بالغ الروعة.

ولا ريب أنّ الإصلاح في المجتمعات المستقرّة كـذلك المجتمع أشدّ صعوبة.

(**أَفَلا تُبْصِرُونَ**)

لمـــاذا لم يقل : أفلا تعقلـــون ، أو تتفكـــرون؟ لأنّه يدعوهم الى رؤية الظاهر ، أمّا إذا دعاهم للتفكير فسوف يكتشفون بأنّه ليس سوى بشر عادي مثلهم ، وإنّما سيطر عليهم بجهلهم. ولو عقلـــوا لعرفـــوا أنّ ملك مصر لله ثم لمن عمّرها ، وأنّ فرعون يستحقّ منهم أشدّ العذاب على استغلالهم ماليّا ، والتسـلّط عليهم سياسـيّا ، بلا تخويل منهم ، ولا تفـويض من عند الله ، فكيف يطـالبهم بـأجر ، ويمنّ عليهم ، لأنّه طغى عليهم ، وانتهب ثرواتهم؟!!

[52] ثم اســـتهزأ برســـول الله إليهم ، وأخذ يقيّم حقائق رسالات ربّ العالمين بالمعيـار المـادي ، وكيف أنّ موسى (ع) مستضـــعف ، وأنّه لا يفصح قـــولا ، ولا يملك شرفا.

(**أَمْ أَنَا خَيْـرٌ مِنْ هـذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ وَلا يَكـادُ يُبِينُ**)

مستضـعف ، وراعي غنم. لا ذكر لــه. وهــذه عــادة الطغــاة أن يستصــغروا الرسل والــدعاة الى الله ، فلقد سمعنا قصة إبـراهيم وقومه لمّا جعل الأصـنام جـذاذا حين قــالوا تصــغيرا : «**سَــمِعْنا فَتًى يَــذْكُرُهُمْ يُقــالُ لَــهُ إِبْراهِيمُ**» (1) .

[53] ثم أخذ يقيس موسى (ع) بما يملكه من ثـــروة أو سلطة ، وهكذا يقيس الجاهليّون الناس بالغنى والقوّة ، لا بالصلاح والخير.

(**فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ**)

الأسورة جمع السوار.

(**أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**)

وإذا لم يكن ذا مـال ، فلتـأت معه الملائكة متقـارنين يعاضد بعضهم بعضا ، كالجنود المجنّدة التي يملكها هو.

وجـاء حـديث شـريف عن أمـير المؤمـنين (ع) : ولقد دخل موسى بن عمــران ومعه أخـــوه هــارون ـــ عليهما السـلام ـــ على فرعـــون ، وعليهما مــدارع الصـــوف ، وبأيديهما العصي ، فشـرطا له ـ إن أسـلم ـ بقـاء ملكه ، ودوام عزّه ، فقـال : ألا تعجبـون من هـذين يشـرطان لي دوام العز ، وبقـاء الملك ، وهما بما تـرون من حـال الفقر والـــذلّ ، فهلّا ألقي عليهما أســـاورة من ذهب؟! إعظاما للـذهب وجمعه ، واحتقـارا للصـوف ولبسـه! ولو أراد الله سـبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنـوز الـذّهبان ، ومعـادن العقيـان ، ومغـارس الجنـان ، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحـوش الأرضـين لفعل ، ولو فعل لسـقط البلاء ، وبطل الجـــزاء ، واضـــمحلّت الأنبـــاء ، ولما وجب للقــابلين أجــور المبتلين ، ولا اسـتحقّ المؤمنــون ثــواب المحســـنين ، ولا لـــزمت الأســـماء معانيها ، ولكنّ الله سبحانه جعل رسله أولي قوّة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم ، مع قناعة تملأ القلـوب والعيـون غنى ، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى.

ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تـرام ، وعـزة لا تضـام ، وملك تمد نحوه أعناق الرجـال ، وتشد اليه عقد الرحـال ، لكـان ذلك أهـون على الخلق في الإعتبـار ، وأبعد لهم في الاسـتكبار ، ولآمنـوا عن رهبة قـاهرة لهم ، أو رغبة مائلة بهم ، فكانت النيات مشتركة ، والحسنات مقتسمة. ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتباع لرسله ، والتصديق بكتبه ، والخشـــوع لوجهه ، والاســتكانة لأمــره ، والاستســلام لطاعته ، أمـورا له خاصة ، لا تشـوبها من غيرها شـائبة ، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجــزاء أجزل [1] .

---

(1) الأنبياء / (60) .

[54] (**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ**)

لقد جرّد فرعـون قومه من ثقل العقل والإيمـان ، بما أثـار فيهم من حبّ الشـهوات الرخيصة ، فأطـاعوه ، لأنّ الإنسـان حينما يملك العقل والإيمـان فإنّه سـيكون رصـينا وموزونا ، لا تحرّكه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، بينما إذا فقده كان كريشة تتقاذفه الرياح.

ولقد كـان فرعـون ــ شـأن كـلّ الطغـاة ــ يعـرف أن منطق العقل والعلم والفطــــرة يؤيّد موسى (ع) ، ولكنّه انحــرف عنه الى إثـارة العصـبيّات ، والتلــويح بالإرهـاب والإغراء ، وبالتالي إزاغة الناس عن عقولهم الرصـينة الى شهواتهم الخفيفة.

وهذا شأن الاعلام الجاهلي اليوم الـذي يسـتخدم آخر إنجـازات العلم في إثـارة الشــهوات ، وبثّ العصـبيّات ، وتخويف النـــاس من الرســاليين ، انطلاقا من النزغـــات الشيطانيّة.

هل سمعت كيف دعا وزير الحرب الأمريكي رؤوسـاء العرب بدعم إسـرائيل ماديّا ، لأنّها تحافظ على عروشـهم ضدّ ما أسماه بالتطرّف الديني؟

أســمعت كيف يتّهمــون أوليـــاء الله بالإرهـــاب ، ثم يعذّبونهم ، ويذبحونهم ، ولا من معترض؟

وما نقمــوا منهم إلّا أنّهم يــدعونهم الى التوحيد ، ونبذ الأنداد ، الـذين يمثّلهم اليـوم مسـتكبروا الشـرق والغـرب وعملاؤهم.

لقد قــال فرعــون وأجهــزة إعلامه : لمــاذا لا يلبس موسى أســـورة من ذهب ، ويـــدعم منطقه بجنـــود من الملائكة؟ واليـوم تقـول أجهـزة الفراعنة الجـدد : ما قيمة شرذمة من

المطرّفين ، إنّهم لا يملكون قوة ولا مالا؟ [1]

بلى. ولكنّهم يدعون الى الله ، والله هو القويّ الغني.

ولكن من الذي يتّبع دعايات الظالمين ، ويخضع لإعلامهم؟ إنّما هم الفاسقون.

(**إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**)

سلّموا أنفسهم للباطل ففسـقوا عن الحق ، لأنّهم لم يربّوا أنفسهم منذ البدء على التسليم للحق ، فكـان لا بـدّ أن يسلّموا لباطل فرعون.

ويبـدو من هـذه الآية أنّ فرعـون ليس هو المسـؤول الوحيد ، إنّما الذين اتبعـوه كـانوا أيضا مسـئولين ، وإلّا لما قـال عنهم ربّنا : «فأطـاعوه» ولما قـال عنهم : «**إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**» فقد أطـاعوا فرعـون في باطله ، لأنهم كـانوا فاسـقين في واقعهم ، فاسـتحقّوا العـذاب باختيارهم السيء.

[55] لقد أغضبوا الربّ الرحمن بعنادهم على الجحود ، وبلغ بهم فعلهم المشين درجة الأسف.

(**فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ**)

إنّ الله لا يتأسّف ، ولكنّ الواقع واقع يبعث على الأسف ، والله يفعل ما ينبغي أن يفعله من يأسف ، كما أنّ أولياء الله الذين رضـاهم رضى الله وسـخطهم سـخط الله يأسفون.

[56] (**فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ**)

سلفا : مثالا يحتذي بهم ، ومثلا : عبرة لمن يعتبر.

---

(1) نهج البلاغة / ح (192) ص (291 ـ 292) ـ صبحي الصالح.

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُـكَ مِنْـهُ يَصِـدُّونَ (57) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ خَصِـمُونَ (58) إِنْ هُـوَ إِلاَّ عَبْـدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْـهِ وَجَعَلْنـاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْـرائِيلَ (59) وَلَـوْ نَشـاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَــةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُـونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّـاعَةِ فَلا تَمْتَـرُنَّ بِها وَاتَّبِعُـونِ هـذا صِـراطٌ مُسْـتَقِيمٌ (61) وَلا يَصُـدَّنَّكُمُ الشَّـيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ (62) وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَـدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هـذا صِـراطٌ مُسْـتَقِيمٌ (64) فَـاخْتَلَفَ الْأَحْـزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَـذابِ يَـوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَـلْ يَنْظُـرُونَ إِلاَّ السَّـاعَةَ أَنْ تَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (66)

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ

هدى من الآيات :

تتوالى آيات الدرس تبصرنا بشرف الرسـالة ، وهـوان الـدنيا ، لكي نبـني تجمّعنا على أسـاس الـوحي لا المتـاع الزائل ، وابن مريم آية في شرف الزهد في الدنيا ، ومثل أعلى لبني إسـرائيل في الرغبة عن زخـرف الحيـاة ، وقد أمعن عبيد الدنيا من اليهـود ومن تـأثّر بهم من الجـاهليّين العـرب في الصـدّ عنه ، وعن سـبيله المسـتقيم ، ونهض الرسول لردّ الشبهات التي بثّوها حوله ، لكي تتكرّس في الأمة قيـــادة الحق ، وقيم الرســـالة المتمثّلة في موسى وعيسى ومحمّد ــــ صــلى الله عليهم ــــ ومن مضى على سبيلهم كالإمام علي وأهل بيت الرسول ـ عليهم السّلام ـ والمنتجبين من أصحابهم.

كـذلك نجد سـورة الزخـرف تضـرب لنا المثل العالية من حياة أولي العـزم من الرسل باسـتثناء نـوح (ع) ، لأنّ الســورة تبصّــرنا أساسا بقيــادة أصــحاب الرســالات ، وتحرّضنا ضد قيادة أولي القوّة والثروة.

والجاهليّون الذين منعهم تعصّبهم الأعمى عن الإيمـان بعيسى كانوا يتساءلون :

ءآلهتنا خـير أم هـو؟ وهم يعلمـون مقـام عيسى ، ولكنّهم إنّما جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

ثم يتـابع السـياق حديثه عن عيسى ــ عليه السـلام ــ الذي جعله الله مثلا لبـني إسـرائيل ، فيقـول : (إنّ أعظم فضائله كـانت في عبوديّته للـه!) فهو عبد أنعم الله عليه ، وكـانت دعوته إلى الله الواحد (كما دعــوة كـلّ الرســل) وإنّما جــاء ليعلّم بـــني إســرائيل الحكمة ، ويفصل بين خلافـاتهم ، ولكنّهم عـادوا واختلفـوا فيه ، فويل للظـالمين من عذاب أليم.

ويختم الدرس بالإنـذار من السـاعة الـتي تـأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

بينات من الآيات :

[57] يتّبع القـــرآن الحكيم منهجا رائعا حين يفصّـــل القول في موضوعة هامة عبر سورة واحدة أو سور شتّى ، ثم يجمله مشـيرا إلى ذلك التفصـيل ، وهكـذا ينبغي أن يتّبع المتـدبّر منهج النظـرة الشـموليّة الـذي أشـارت إليه النصـــوص ، بـــأن يفسّـــر بعض القـــرآن ببعضه ، ويعيد متشـابهاته الى محكماته ، ولا يجعل القـرآن عضـين يأخذ ببعضه ويترك بعضا.

وهنا يجمل القــرآن حديثه عن النــبي عيسى ــــ عليه السلام ـ كما جعله مثلا يحتذي لنبي إسرائيل ، كما ضــرب مثلا للعرب لعلّهم به يهتدون إلى نوع القيادة الـذي أمـروا باتباعه.

لقد رفع الله شأن ابن مريم حين خلقه من غـير أب ، وجعله يكلّم الناس في المهد صبيّا ، وآتاه الكتاب والحكمة ، وجعله مباركا.

ولقد أكرمه الله بالزهد في الـــدنيا ، والخلق الرفيع ، وتلك هي قيم الوحي الحق ،

وليس المال والجاه وما أشبه.

وكان يكفي العرب هدى مثال عيسى ، فرسالة النـبي محمد (ص) ورسالة أخيه عيسى (ع) واحـدة ، وزهـده في الدنيا ، وخلقه العظيم ، ومعالم شخصـيته ، كلّها متشـابهة ومعالم شخصية ابن مـريم ، ولكنّ قريشا صـدّت عن هـذا المثل السامي. لماذا؟

أوّلا : لأنّهم لم يؤمنـــوا بتلك القيم العليا الـــتي مثّلها عيسى ــ عليه السـلام ــ بشخصـيته ودعوته ، فهم عبـدوا آلهة تمثّل الشهوات والأماني الزائلة ، وزيّنها قرناؤهم من شـياطين الجنّ والإنس في أعينهم ، حـتى قـالوا : ءآلهتنا خير أم هو؟!

ثانيا : لأنّ إيمانهم بعيسى بن مريم (ع) مثال الفضائل (والذي قد فـرض نفسه على وجـدانهم وفطـرتهم بـالرغم منهم) كان يدعوهم الى الإيمان بــالنبي محمد (ص) لأنّهما على نهج واحد ، فصدّوا عن ذاك ليصدّوا عن هذا.

ثالثا : ولعلّ قريشا تأثّرت بالدعاية السـلبية الـتي بثّها اليهود حول النبي عيسى ـ عليه السـلام ــ ، ويبـدو أنّ من أبعاد رسالة النبي (ص) في قومه إحياء ذكر إخوته الأنبيـاء الكرام ـ عليهم السلام ـ لا سيّما أنبياء بني إسرائيل الذين ربما منعت عصبية العرب من قبولهم ، وبالـذات عيسى ــ عليه السلام ـ الذي تعرّض للإعلام المضادّ من قبل اليهـود بالإضافة الى كونه من بني إسرائيل.

(**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً**)

أي بيّن القرآن كما الرسالات السـابقة واتباعها مثـال عيسى (ع) في زهده وخلقه وآياته ليهتـدي به العـرب الى رسولهم الكريم ، والى أوصيائه الذين يجسّدون نهجه.

(**إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**)

فلا يؤمنون به مع أنّ شخصيته أسـمى من كـلّ ريب ، ولعل كلمة «يصدّون» أشربت معنى الصدّ عن سـبيل الله ، وقـال بعضـهم : إنّ معناها يضـجّون ، من الصـديد وهو الجلبة ، فيكون تفسيرها : يثـيرون الضـجيج واللغط حـول هذه الشخصية من الأفكار السـلبية لكي لا يؤمنـوا بعيسى (ع) ، وقد سمّى القـرآن أفكـار الضـالّين بـاللغو في آيـات أخرى ، كقوله سبحانه : (**وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ**) [1] .

وقد طبّقت نصوص أهل البيت ـ عليهم السلام ـ هـذه الآية على أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ لأنّه كما جـاء في أحاديث عديدة عن النبي (ص) أنّه شـبيه عيسى بن مـريم (ع) .

ولا ريب أنّ عليّا ـ عليه السـلام ـ كـان مثـالا للقيـادة الربّانية التي تمثّل قيم الوحي ، كما كان النـبي عيسى بن مريم (ع) ، كما أنّ عليّا ـ عليه السـلام ـ غـالى فيه قـوم حتى قالوا فيه مثلما قالت النصارى في عيسى بن مريم ، وقلاه آخـــرون حـــتى ســـاووه بمعاوية ، واقتصد فيه الصالحون.

في الحـديث عن أهل الـبيت ـ عليهم السـلام ـ عن الإمـام علي (ع) قـال : «**جئت الى النـبي (صـلّى الله عليه وآله) يوما فوجدته في ملأ من قــريش ، فنظر إليّ ثم قال : يا علي إنّما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم أحبّه قوم وأفرطوا في حبّه فهلكوا ، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا ، واقتصد فيه قــوم فنجــوا. فعظم ذلك عليهم ، وضــحكوا ، فنزلت الآية**» [2] .

وللآية تفسـير آخر مسـتوحى من نصّ ورد في نـزول الآية ، نذكره فيما يلي ، علما

---

(1) فصّلت / (26) .
(2) جوامع الجامع ـ الطبرسي / ج (2) ص (517) .

بأنّ تطبيق القرآن على موارد نزول آياته لا يعـني تحديـده بها ، فللقـرآن أبعـاد مختلفة وبطـون شـتّى تجـري عليها جميعا الآيات كما تجري الشمس على السهول والجبال.

روي أنّه لما نـزلت هـذه الآية : (**إِنَّكُمْ وَما تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ حَصَـبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ**) [1] قـال أحد مشـركي قـريش وهو (عبد الله ابن الزعـبري) : هـذا خاصّة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقـال الرسـول (ص) : «بل لجميع الأمم» فقـال : خصـمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أنّ عيسى بن مـريم نـبي ، وتثـني عليه خـيرا وعلى أمّه ، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما ، واليهـود يعبـدون عزيرا ، والملائكة يعبدون ، فإذا كـان هـؤلاء في النـار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، فسكت النبي ـ صـلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وفرح القوم ، وضـحكوا ، وضـجّوا ، فأنزل الله تعالى : (**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ**) [2] .

[58] (**وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ**)

هل آلهتنا خير أم عيسى؟

إنّهم زعمـــوا أنّ آلهتهم خـــير من عيسى لأنّها تمثّل الـثروة والقـوّة والتقاليد المتوارثة ، بينما عيسى ـــ عليه السلام ـ مثال الزهد والطهر والفضيلة.

وهم يعرفـون أنّ عيسى خـير من آلهتهم ، ولكنّهم لا يريدون الإذعان بهذه الحقيقة التي تنسف أسـاس بنيـانهم الجاهلي.

(**ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً**)

لأنّ فطرتهم تهديهم إلى سموّ عيسى بعلمه ورسـالته وبأخلاقه وفضائله عن آلهة

---

(1) الأنبياء / (97) .
(2) الأنبياء / (101) .

تمثّل شهواتهم وعصبيّاتهم التافهة.

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

كلّما ابتعدت أمّة عن قيم الـوحي كلّما ازدادت حاجتها النفسية الى الخصام والجدال ، أو ليس الإنسـان يمـارس الجـــــدال من أجل دحض الحق ، كما قـــــال ربنا : (وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ)؟ أو ليسـوا قد هبطـــوا الى حضـــيض الباطل ، فلا بـــدّ أن يبلغـــوا ذروة الخصام حتى يبتدعوا لكلّ حـقّ بـاطلا يجـادلون به لـدحض الحق.

هكذا قال الرسول (صلّى الله عليه وآله) :

«**ما ضـلّ قـوم بعد هـدى كـانوا عليه إلّا أوتـوا الجدال ، ثم تلا هذه الآية**» [1] .

وحسب بعض التفاسـير أنّ معـنى الآية : إنّ القـوم قـالوا ما دام عيسى ابن مـريم في النـار ـ لأنّه يعبد من دون الله ـ فلا بـأس أن تكـون آلهتهم أيضا في النـار وهم معها ، ولكنّهم كـانوا يعلمـون أنّ عيسى ليس في النـار ، لأنّه لم يكن راضيا عن عبـادتهم له ، ولم يكن يـدعو أحـدا إلى عبادة أحد غير الله ، فما كان مثلهم بعيسى إلّا جدلا.

[59] وإبطالا لجدالهم بيّن الله أنّ عيسى لم يكن إلها كما اتخذه النصارى ، ولم يدع الرسـول النـاس الى نفسه أن يعبد من دون الله ، إنّما كان عيسى عند القـرآن عبـدا مخلوقا ، وإنّما كان يميّزه عن الآخرين نعمة الـوحي الـذي أنزل عليه.

(إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ)

حيث انتخبه الله لرسالاته.

---

(1) تفسير فتح القدير / ج (4) ص (564) .

(**وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ**)

ليقتدوا به ، حيث أنّ الرسـول ــ أي رسـول ــ يجسّـد المكرمـات ، فيـأمر الله باتخـاذ سـنّته منهجـا. ولقد فشت المادية في بـني إسـرائيل ، وفـرّغت الرسـالة من روحها وقيمها وأهدافها المباركة ، فكان عيسى بن مـريم ــ عليه السـلام ــ مثلا لبـني إسـرائيل في الزهد والخلق الرفيـع. هكذا يصف أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أخاه عيسى بن مريم حين يقول

«**وإن شـــئت قلت في عيسى بن مــــريم عليه السلام ، فلقد كان يتوسّـد الحجر ، ويلبس الخشن ، ويأكل الجشب وكـان إدامه الجـوع ، وسـراجه باللّيل القمر ، وظلاله في الشتاء مشـارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهـــــائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مــال يلفته ، ولا طمع يذلّه ، دابّته رجلاه ، وخادمه يداه**» [1] .

[60] والله غـنيّ عن طـاعتهم ، ولو شـاء لأهلكهم ، وأسكن مكانهم ملائكته الـذين لا يعصـون الله ما أمـرهم ، وهم إذ يعصونه بالشرك لا يخرجون عن إطار قدرته.

(**وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً**)

أي بدلا منهم.

(**فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ**)

[61] ومضى القرآن يكرم عيسى بن مــريم ، ويجعله من أشراط السـاعة ، حيث رفعه الله اليه ، وادّخـره لآخر الزمان حيث يهبط من السماء ، ويصلّي خلف المهدي

---

(1) نهج البلاغة / خطبة (160) ص (227) .

المنتظر ـ عليه السلام ـ بعد ظهوره.

(**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ**)

جاء في النصوص المتظافرة عن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم : تعال صلّ بنا ، فيقول : لا. إنّ بعضكم على بعض أمراء تكرمة من الله لهذه الأمّة» [1]

(**فَلا تَمْتَرُنَّ بِها**)

أي فلا تشكّوا ، وإنّما يشك الإنسان حين يجعل علمه جهلا بالتكاسل عن العمل ، كما قال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : «**لا تجعلوا علمكم جهلا ، ويقينكم شكّا ، إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقّنتم فأقدموا**» [2]

ولعلّ الحكمة في التأكيد على النهي من الشك هي أنّ الحقائق العظمى تحمّل الإنسان مسئولية كبيرة ، ولكي تهرب النفس منها تستجير بالشك والارتياب : من يقول أنّ الساعة قائمة ، ومن يقول أنّ الناس يبعثون ..

وعيسى ـ عليه السلام ـ كان كلّ شيء فيه دليلا على الساعة ، فقد ولد من غير أب ، ثم رفع الى السماء دليلا على قدرة الله التي لا تحدّ ، ثم انّه كان دائم التذكرة بالآخرة ، وقد اتخذ من الزهد في الدنيا منهجا لحياته ، ومحورا لدعوته.

(**وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ**)

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ـ ص (611) نقلا عن مجمع البيان ثم قال : أورده مسلم في الصحيح وفي حديث آخر : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم.

(2) نهج البلاغة / حكمة (274) ص (524) .

واتباع الرسول دليل الإيمان بالسـاعة ، فمن أيقن بها وفكّر كيف ينقذ نفسه من ويلاتها ، فسوف لا يجد صـراطا مستقيما الى الجنة والرضوان غير رسالة الرسول وحسن اتباعه فيها.

و «هذا» إشارة الى رسالة الله المتمثّلة في القرآن.

[62] (**وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ**)

فيجعل بينكم وبين الصراط المستقيم حواجز التكبّر ، والعزّة بالإثم ، أو حواجز الدم واللغة .. وهكذا ، وقد تكون نفسك أو صـديقك أو حـتى زوجتك هم شـيطانك الـذي لا يفتأ يصدّك عن الصراط المستقيم.

إنّ الشـــيطان وما فتأ حـــتى الآن يجعل بينك وبين الرسل أو من يخلّفه حـــواجز من التهم والشـــائعات والشبهات ، وهكذا تجد أجهزة الطـاغوت يلمّعـون الوجـوه الخبيثة ، ويشوّهون صور الرسل والشخصيات الرسالية.

(**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**)

فقد يأتي إليكم بصفة الناصح ، وهو لكم عـدو مـبين ، وهو يمكر ويكيد ويزيّن ويغرّ ، ويأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه ، وبالتـالي إنّه قد عقد العـزم على إغـواء أبنـاء آدم ، جـاء في الحـديث : «**إنّ الشـيطان يسـنّي لكم طرقه ، ويريد أن يحـــلّ دينكم عقـــدة عقـــدة ، ويعطيكم بالجماعة الفرقة ، وبالفرقة الفتنة ، فاصدفوا عن نزعاته ونفثاته**» [1] .

[63] (**وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قـالَ قَـدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ**)

---

(1) نهج البلاغة / خ (121) ص (178) .

وهو جـوهر الرسـالة ، الـذي يصـدّقه عقل الإنسـان وفطرته .. ورأس الحكمة توحيد الله ، ومخافته ، والتوكّل عليه ، والتحابب فيه ، والإحسان الى الناس ابتغاء رضوانه ، وهذه هي وصايا الأنبياء (عليهم السـلام) وبالـذات النـبي عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ

فلقد جاء في بعض مواعظه :

«بحقّ أقول لكم : إنّ أرواح الشياطين ما عمّرت في شـيء ما عمّـرت في قلـوبكم ، وإنّما أعطـاكم الله الـدنيا لتعملوا فيها للآخرة ، ولم يعطكموها لتشغلكم عن الآخرة ، وإنّما بسطها لكم لتعلمـوا أنّه أعـانكم بها على العبـادة ، ولم يعنكم بها على الخطايا.

بحقّ أقول لكم : إنّ الأجر محـروص عليه ، ولا يدركه إلّا من عمل له.

بحقّ أقول لكم : إنّ الشجرة لا تكمل إلّا بثمـرة طيّبة ، كذلك لا يكمل الدّين إلّا بالتحرّج عن المحارم.

بحقّ أقول لكم : إنّ الزرع لا يصلح إلّا بالماء والـتراب ، كذلك الإيمان لا يصلح إلّا بالعلم والعمل.

بحـقّ أقـول لكم : إنّه لا يجتمع المـاء والنـار في إنـاء واحد ، كـــذلك لا يجتمع الفقه والغي (وفي نســخة : والعمى) في قلب واحد.

بحقّ أقول لكم : إنّ النفس (الشمس) نور كلّ شـيء ، وإنّ الحكمة نـور كـلّ قلب ، والتقـوى رأس كـلّ حكمة ، والحقّ باب كلّ خير ، ورحمة الله باب كـلّ حق ، ومفـاتيح ذلك الـدعاء والتضـرّع والعمل ، وكيف يفتح بـاب من غـير مفتاح» [1] .

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج (14) ص (316) نقلا عن تحف العقول.

ويبدو أنّ عيسى ـ عليه السلام ـ بعث لتصحيح مسيرة المؤمـنين بـالتوراة ، ولقد أجمل الإمـام الصـادق ـــ عليه السلام ـ شريعة عيسى حين قال :

«كـان بين داود وعيسى بن مــريم أربع مـأة ســنة ، وكـــان شـــريعة عيسى أنّه بعث بالتوحيد والإخلاص وبما أوحي به نــوح وإبــراهيم وموسى ، وأنــزل عليه الإنجيل ، وأخذ عليه الميثاق الذي أخذ على النـبيّين ، وشـرع له في الكتـاب : إقامة الصـلاة مع الــدين ، والأمر بـالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتحـــريم الحـــرام ، وتحليل الحلال ، وأنـــزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثـــال ، وليس فيها قصـاص ، ولا احكـام حـدود ، ولا فـرض مـواريث ، وأنـزل عليه تخفيف ما كـان نـزل على موسى في التـوراة ، وهو قول الله في الذي قال عيسى بن مـريم لبـني إسـرائيل : (**وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُـرِّمَ عَلَيْكُمْ**) وأمر عيسى من معه ممن اتبعه من المؤمـنين أن يؤمنـوا بشـريعة التـوراة والإنجيل» [1] .

(**وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ**)

فقد جـاء عيسى ـــ عليه السـلام ـــ لـيرفع الاختلاف الكبير الذي كان قد دبّ في بني إسـرائيل حـتى بلغ دينهم فتفرقوا مذاهب شتّى ، وأبرزها أربع :

الأولى : طائفة الصـدوقيين من أولاد هـارون ، الـذين توارثـــوا الولاية على الهيكل منذ عهد داود وســـليمان ، واهتمّـوا بالقشـور وشـكليّات الطقـوس ، وأضـاعوا القيم فـتراهم يرتكبــون الموبقــات ثم يأخـــذون على غــيرهم استخفافهم ببعض الطقوس.

الثانية : طائفة الفريسيين ، حيث عزفـوا عن الـدنيا ، ومالوا الى التصوّف ، وترفّعـوا على النـاس ، واغـتروا بما لديهم من زهد ومعرفة.

---

(1) المصدر / ص (234) .

الثالثة : السـامريين نفـوا الكتب الـتي أضـيفت الى الكتب الموسويّة في العهود المتأخرة.

الرابعة : طائفة الآسـين وقد تـأثّروا ببعض المـذاهب الفلسفية [1] .

وقد جـاء عيسى بن مـريم ينفي كـلّ هـذا التكلّف في الـدين ، ويعيد النـاس الى عبـادة ربّهم الواحد ، ويـأمرهم بالاهتمام بروح الدين وليس حدوده فقط ، فقال فيما قال :

«**أيّها القادة العميان الذين يحاسـبون على البعوضة ، ويبتلعـون الجمـل!! إنّكم تنقّـون ظـاهر الكـأس والصـفحة ، وهما في البـاطن مترعـان بـالرجس والـدعارة ، ويل لكم أيّها الكتبة والفريسـيّون المـراؤون. إنّكم كـالقبور المبيضّـة ، خارجها طلاء جميل ، وداخلها عظام نخرة**» [2] .

وخاطب الجماهير ، وتحدّث عن العلماء الفجّار ، قائلا :

بحقّ أقول لكم : إنّ شر الناس لرجل عـالم آثر دنيـاه على علمه ، فأحبّها وطلبها ، وجهد عليها حتى لو اسـتطاع أن يجعل الناس في حيرة لفعل ، وماذا يغـني عن الأعمى سـعة نـور الشـمس وهو لا يبصـرها ، كـذلك لا يغـني عن العالم علمه إذا هو لم يعمل بـه. ما أكـثر ثمـار الشـجرة ، وليس كلها ينفع ويؤكل ، وما أكـثر العلمـاء ، وليس كلّهم ينتفع بما علم ، وما أوسع الأرض ، وليس كلّها تسـكن ، وما أكـثر المتكلّمين ، وليس كـلّ كلامهم يصـدق ، فاحتفظوا من العلماء الكذبة الذين عليهم ثياب الصـوف ، منكّسوا رؤوسهم الى الأرض ، يزوّرون به الخطايا ،

---

(1) في ظلال القـرآن ، بتصـرّف وإيجـاز / ص (348 ــ 349) نقلا عن «عبقرية المسيح» للعقاد / الطبعة السابعة ـ دار احياء التراث العربي.

(2) المصدر.

يطرفون من تحت حـواجبهم كما ترمق الـذئاب ، وقـولهم يخـــالف فعلهم ، وهل يجتـــنى من العوسج العنب ، ومن الحنظل التين؟! [1] .

(**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**)

إذ أنّ الفلاح لا يكون إلّا بتقوى الله ، وطاعة رسوله.

[64] (**إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ**)

أســـتوي أنا وأنتم عنـــده ، فهو ربي وربكم ، ولست بربّكم ، أو ابن ربّكم.

(**فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ**)

الصراط المستقيم أن تسقط في ذاتك عبادة الأوليـاء أو عبادة الأصنام ، أنّى كانت حجرية أم بشرية ، وتعبد الله وحده.

[65] (**فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ**)

اختلفوا في عيسى (ع) ، منهم من جعله ثـالث ثلاثة ، ومنهم من عاداه وأراد قتله ، ومنهم من آمن به وصـدّقه ، قال تعالى : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللـهِ كَما قالَ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ لِلْحَـوارِيِّينَ مَنْ أَنْصـارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللـهِ فَـآمَنَتْ طائِفَـةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ**) [2] .

(**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**)

---

(1) بحار الأنوار / ج (14) ص (307) .
(2) الصف / (14) .

وهـذا الاختلاف على عيسى (ع) كـان سـببا للعـذاب الأليم ، لأنّه ظلم ، وهكذا كـلّ اختلاف في الـدين نـابع من الأهواء.

[66] (**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّـاعَةَ أَنْ تَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

لو مات الإنسـان وهو قـائم يصـلي أو في حالة عبـادة أخــرى ، فطــوبى له وحسن مــآب ، أمّا لو كـــان يعمل الخبـائث ، أو يظلم الآخـرين ، فيا للخسـارة العظمى! إنّ ساعة المـوت مصـيريّة لا بـدّ من أن نكـون مسـتعدّين لها دائما ، لأنّها تـنزل بنا في أيّة لحظة ، ولـذا نجد في سـورة مريم (ع) قوله : (**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَـوْمَ وُلِـدَ وَيَـوْمَ يَمُـوتُ وَيَـوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**) وقوله : (**وَالسَّـلامُ عَلَيَّ يَـوْمَ وُلِـدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**) ، وقد قال يعقــوب لبنيه : (**فَلا تَمُـوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْـلِمُونَ**) [1] ، وفي الـدعاء : «اللهمّ اجعل خـير أعمـالي خواتيمها ، وخـير أيّـامي يـوم ألقاك» .

---

(1) البقرة / (132) .

الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (67) يا عِبـادِ لا خَـوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَـوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُـونَ (68) الَّذِينَ آمَنُـوا بِآياتِنا وَكـانُوا مُسْـلِمِينَ (69) ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَـرُونَ (70) يُطـافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْـتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَـذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِـدُونَ (71) وَتِلْـكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (72) لَكُمْ فِيها فاكِهَـةٌ كَثِـيرَةٌ مِنْها تَـأْكُلُونَ (73) إِنَّ الْمُجْـرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ

---

70 [تحبرون] : تسرّون فيها سرورا يظهر أثره على وجوهكم.
71 [بصحاف] : جمع صحفة ، وهو الجام الذي يؤكل فيه الطعام.
75 [لا يفتّر] : لا يخفّف ، من الفتور بمعنى التخفيف.

فِيــهِ مُبْلِسُــونَ (75) وَما ظَلَمْنــاهُمْ وَلكِنْ كــانُوا هُمُ الظّالِمِينَ (76) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77)

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ

هدى من الآيات :

تتركّز سورة الزخرف في إبعـاد الإنسـان عن محورية المادة ، وبالـذات في العلاقـات الاجتماعية ، وقد تلونا في الآية (36) كيف أنّ الذي يعشو عن ذكر الله يقيض الله له شـيطانا فهو له قـرين ، وهنا يـبين القـرآن أهمية الخلّة الربّانية التي تمتدّ الى يوم القيامة حيث يخاطب عباد الله بـألّا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون ، وهم الـذين آمنـوا وأسـلموا لـربّهم ، فيسـرعون الى دخـول الجنة هم وأزواجهم يحبرون.

وبعد أن يفصّـل القـول في نعم الجنة يـذكّرنا الـربّ بـأنّهم ورثوها بأعمـالهم (ممّا يزيـدهم نعمة الى نعمتهم) بينما المجرمون في عذاب جهنم خالـدين ، لا يخفّف عنهم ، ولا ترجى لهم النجـاة ، وهـذه هي العاقبة الـتي اختاروها لأنفسـهم بظلمهم ، وعند ما طلبـوا من مالك (الملك الموكّل بجهنم) أن يقضي الله عليهم (فيموتوا) يقـول لهم مالك : إنّكم باقون هنا.

بينات من الآيات :

[67 ـ 68] يذكّرنا الربّ هنا بأمرين :

أوّلا : بمحورية التقوى في الصـداقة ، لأنّها هي الباقية حقّا ، وفي يـــوم القيامة حيث يبحث كـــلّ واحد عن خليل يشفع له (**فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَـدِيقٍ حَمِيمٍ**) [1] لا ينفع غير الأصدقاء في الله فليس المطلوب صداقة كيفما اتفق ، بل تلك الصداقة التي تمتدّ من الدنيا الى الآخــرة ، الى أن يدخلا في الجنة بسلام.

وفي مقابل هذه الصداقة هناك صداقة لا تتعدّى حدود الزمالة أو المصـلحة المشـتركة ، تنتهي بانتهـاء الزمالة أو المصلحة. إنّ هذه الصداقة ليست بالضرورة سـيئة إلّا أنّها محـــدودة ، وتقـــوم في الغـــالب على أسس مادية ، وهي معرضة للاهتزاز والزوال.

وهـــذا جـــانب من النظـــرة الشـــاملة الى الحيـــاة في الإسلام ، التي تنظم حيـاة الإنسـان وعلاقاته على أسـاس التقـــوى ، لا على رمـــال متحرّكة ، فالعلاقة المادية عقيمة سواء كانت في السياسة أو الإقتصاد أو الاجتماع.

ثانيا : بمنهجية الآخرة. إذا أردنا أن نعرف صحة فكـرة لا بد أن ننظر الى عاقبتها ، وعاقبة الأمـــــــور تتجلّى في الآخرة بأظهر صورها ، وعلينا أن نجعل ذلك مقياسا لعملنا في الـــدنيا ، فما عاقبة التقـــوى إلّا الجنة ، وما نهاية الخلّة الصـالحة إلّا الشـفاعة والتقابل على سـرر في الجنة ، قد نزع الله ما في قلوبهم من غلّ ، وهكـذا فـإنّ أيّ علاقة لا تنفع في الآخـرة فهي ليست نافعة في الـدنيا أيضا ، وإنّما أنت الذي تبـني لنفسك قصـرا في الجنة بعملك ، أو تحجز لنفسك دركا في النار (لا سمح الله) ،

---

(1) الشعراء / 100 ـ 101

والدنيا صورة مصغّرة عن الآخـرة ، فـالظلم ظلمـات يـوم القيامة ، والغل والغش حيّـــات وعقـــارب في النــــار ، والنظـــرة الحـــرام نــار في العين يــوم القيامة ، والكــذب عقرب تلدغ اللسان.

وربّنا سبحانه يوزّع مشاهد القيامة على سـور القـرآن توزيعا ينسجم وموضوعاتها ، فـإذا كـانت سـورة الزخـرف تتحـدّث عن علاقـات الإنسـان المادية تجد فيها ما يتناسب وهـذا الموضـوع ، مثل نهاية العلاقـات في الآخـرة ، وإنّما يتحدث القـرآن الكـريم عن الآخـرة قبل وبعد كـلّ بصـيرة يبيّنها ، لأنّ النفس لو تـــركت من دون التـــذكرة بـــالآخرة لطغت ولتجبّـــرت ، ولم تنتفع بالبصـــائر ، ولا كيف كـــانت عاقبتهمـــا. تقـــول الرواية التاريخية : كـــان عقبة بن أبي معيط يجالس النبي (ص) فقـال قـريش قد صـبأ عقبة بن أبي معيط ، فقـال خليل له يسـمّى أميّة بن خلف : وجهي من وجهك حـــرام إن لقيت محمّـــدا ولم تتفل في وجهه ، ففعل عقبة ذلك ، فنذر النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قتله ، فقتله يـــوم بـــدر جهـــدا ، وقتل أميّة في المعركة .. قالوا فيهما نزلت هذه الآية» [1] .

ترى هل كانت عاقبة عقبة هذه السوءى لو لم تربطه بأميّة تلك الخلّة القائمة على غير أساس إيماني؟!

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)

بلى. لا بـــدّ للإنســـان من صـــداقة ، إذا فليبحث عمّن يهديه الى الحق ، ويعينه على دينه ودنيـــاه ، هكـــذا أمرنا الإمام الصادق عليه السلام :

«**واطلب مواخـــاة الأتقيـــاء ، ولو في ظلمـــات الأرض ، وإن أفنيت عمرك في**

(1) راجع تفسير القرطبي / ج 16 ص 109.

طلبهم ، فــإنّ الله عــزّ وجــلّ لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض ـ بعد النبيّين صـلوات الله عليهم ــ وما أنعم الله على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم» [1] .

ونجد في النصوص الدينية الكثير من الأحـاديث حــول الصـداقة. كيف تكـون في اللـه؟ وما هي علامـات الأخلّاء المتقين؟ وما هي حـدود التعـاون بينهم؟ وما هي الحقـوق المتبادلة بينهم؟ كلّ ذلك لتنظّم حلقات المجتمع الإسلامي رصـــينة مباركة ، وتتنـــامى روح التعـــاون بينهم في كافّة الحقـول ، في السـلم كما في أيّـام المقاومة ضد الغـزاة والطغـاة ، حين تقـوم طلائع حـزب الله قياما واحـدا لله ، لمحاربة أعـــداء الله ، ومن أجل تطـــبيق حكم الله في الأرض ، عندئذ يحتاجون الى قيم تنظيميّة وبرامج للتعـاون ، فلا يجــدون أفضل من هــذه النصــوص الــتي تغنينا عن الكثير من الأساليب التنظيمية التي يسـتوردها البعض من هنا وهناك.

بلى. الحكمة ضالّة المـؤمن يأخـذها أنّى وجـدها ، وإنّ تجارب الآخـرين في تنظيم المقاومة ضد الغـزاة والطغـاة هي ثـروة إنسـانية مشـتركة لا بـأس بالانتفـاع بها ، ولكن بشـــرطين : أوّلا : أن نبـــني تنظيما على أسس إســـلامية طـاهرة ، اعتمـادا على الـزخم الهائل من بصـائر الآيـات والأحـــاديث الـــتي وردت في ذلك ، ثانيا : أن نهـــذّب ما نستفيده من تجارب الآخرين بما لدينا من قيم وتعاليم.

وإنّ البحث عن الخليل الإيمــاني صــعب ، وهــام في ذات الوقت ، ولـذلك نجد التحـريض عليه شـديدا ، ويكفينا هنا الحديث التالي ناصحا في هذا الحقل :

يقـــول الإمـــام أمـــير المؤمـــنين (ع) في الخليلين المؤمنين ، والخليلين الكافرين :

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 613.

«فأمّا الخليلان المؤمنان فتخالّا في حياتهما في طاعة الله تبارك وتعالى ، وتباذلا عليها ، وتوادّا عليها ، فمات أحدهما قبل صاحبه ، فأراه الله منزلته في الجنة ، يشفع لصاحبه فيقول : يا ربّ خليلي فلان كان يأمرني بطاعتك ، ويعينني عليها ، وينهاني عن معصيتك ، فثبّته على ما ثبّتني عليه من الهدى حتى تراه ما أريتني فيستجيب الله له حتى يلتقيا عند الله عزّ وجل ، فيقول كلّ واحد منهما لصاحبه : جزاك الله من خليل خيرا ، كنت تأمرني بطاعة الله ، وتنهاني عن معصيته.

وأمّا الكافران فتخالا بمعصية الله ، وتباذلا عليها ، وتوادّا عليها ، فمات أحدهما قبل صاحبه ، فأراه الله تبارك وتعالى منزلته في النار ، فقال : يا ربّ خليلي فلان كان يأمرني بمعصيتك ، وينهاني عن طاعتك ، فثبّته على ما ثبّتني عليه من المعاصي حتى تراه ما أريتني من العذاب ، فيلتقيان عند الله يوم القيامة ، يقول كلّ واحد منهما لصاحبه : جزاك الله من خليل شرّا ، كنت تأمرني بمعصية الله ، وتنهاني عن طاعة الله» [1]

(**يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**)

لا خوف عليهم من موقف يدوم خمسين ألف سنة ، ولا خوف عليهم من النار ، ولا حزن عندهم من التقصير في الدنيا ، كلّا .. إنّهم لم يخسروا فرصهم في الدنيا حتى يحزنوا كما يحزن غيرهم.

[69] (**الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ**)

ولعلّ الإسلام هنا يعني التسليم للقيادة الشرعية.

[70] (**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ**)

---

(1) المصدر ص 612

لقد كـانوا يـؤثّرون على أزواجهم ومن يحيط بهم من عشيرتهم الأقربين عبر التربية ، واليوم يجدون فائـدة هـذا التأثير ، فلا يفرّق بينهم وبين أزواجهم ، كما أنّهم يشفعون لأزواجهم ومن اتصل بهم في الـدنيا بعمل صـالح أو علم نـافع ، إذ يـدعون لهم فيسـتجاب لهم ، وهـذه حقيقة الشفاعة ، أمّا سببها فهو تواصل الخيرات بين المؤمـنين ، فمن أخذ من أحد علما نافعا في الدنيا استفاد في الآخـرة ، ومن اتبع إمـام هـدى انتفع بشـفاعته ، ومن خـدم أهل الصلاح لصلاحهم شفعوا له عند ربّهم ، وهكذا.

وقد ورد في الروايـات أنّ المـؤمن إذا ادخل الجنة يسمح له بـأنّ يـدخل معه من يريد ، وفي بعض الروايـات أنّ المـؤمن يشـفع في مثل ربيعة ومضر ، وأنّ المـؤمن ليشفع في صديقه إذا مات قبله وأدخل الجنة.

والحبـور هو السـرور والبهجة لانتهـاء العنـاء ، وقـال البعض : إنّه لذة السماع ، وإذا جعلنا معنى الحـبر الكرامة فإنها تعني سموّا في المقام ، وفرحا في القلب ، وسرورا في العين ، ولذّة في السماع ، وزينة وطيبا.

[71] (**يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ**)

دخـول الجنة هو يـوم عيد المؤمـنين ، ففي الجنة يطـاف على المؤمـنين بصـحاف الـذهب وأكـواب كـانت قواريرا ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من أنواع الملذّات ، فمن الحـور الى الغلمـان الى صـنوف الأكل والرحيق والسندس ، وما تلذّ الأعين ، فكلّ شـيء جميل وجـذّاب ، وقد أجمل القول لأنّ التفصيل فـوق مسـتوى عقولنا نحن البشر.

وقد جـاءت في تفسـير الآية أحـاديث بحرمة اتخـاذ أواني الذهب والفضة ، لأنّهما

كرامة للمــؤمن في الآخــرة. قــالوا : الصــفحة ما تتسع لإطعام خمسة ، أما الكوب فقالوا : إنّه الكوز بلا عروة.

(**وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ**)

لا خوف من الموت ، ولا من التحوّل الى النار.

[72] (**وَتِلْــــكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

يدخل الله المؤمـنين الجنة بما عملـوا ، فالجنة ليست بـالتمنّي ولكن بالسـعي والجد والعمل ، وليس أيّ عمل ، كلّا .. إنّما العمل الخـــالص لله ، ولعـــلّ كلمة الوراثة هنا تشــبه كلمة الشــكر الــتي تقــال لمن عمل صــالحا ، وهو يــــورث بهجة روحية .. وقلّما يحــــدّثنا القـــرآن عن النعم المادية في الجنة أو في الــدنيا إلّا ويشــفعها ببيــان النعم المعنوية التي هي أعمق لذّة وأدوم سرورا.

[73] (**لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ**)

الفاكهة هي ما يأكل الإنسان تفكّها وليست هي الغذاء الأساسـي. إنّها فاكهة كثـيرة يأكل المؤمنـون منها ، للتنعّم واللّذة ، وليس للحاجة والضرورة.

[74] وفي مقابل المؤمنين هناك المجرمون.

(**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ**)

فالإجرام سبب للخلود ، إذ ليست كـلّ الـذنوب تـؤدّي الى الخلود في عذاب جهنم.

[75] (**لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**)

فلا أمل للمجـرمين من الفكـاك من العـذاب حيث لا يخفّف عنهم ، وهم مبلسون فيه لا يرجون الخلاص.

[76] فهل ظلمهم الله حين أدخلهم هذا المصـير؟ كلا ..

(**وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمِينَ**)

إذ بعث الله لهم أنبيـاء ، وتعاهـدهم بـالنعم ، وأمهلهم بأن أعطـاهم الفرصة بعد الفرصة ، وحين يأخـذهم الجليل بالعذاب ، ويكبّهم في النار ، فهل هو ظالم لهم؟! كلا ..

ولا بد أن نتلوا هـذه الآيـات وكأنّنا المعـنيّون بها حـتى ننتفع بها.

[77] (**وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ**)

جـاء في الحـديث : «إنّ أهل النـار إذا دخلوها ، ورأوا نكالها وأهوالها ، وعلموا عذابها وعقابها ، ورأوها كما قـال زين العابدين (ع) : «ما ظنّك بنار لا تبقي على من تضـرّع إليها ، ولا يقـدر على الخفيف عمّن خشع لها ، واستسـلم إليها ، تلقي سكّانها بأحرّ ما لديها من أليم النكـال وشـديد الوبـال» يعرفـون أنّ أهل الجنة في ثـواب عظيم ، ونعيم مقيم ، فيؤمّلـون أن يطعمـوهم أو يسـقوهم ليخفّف عنهم بعض العـذاب الأليم ، كما قـال الله عـزّ وجـلّ جلاله في كتابه العزيز : (**وَنـادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُـوا عَلَيْنا مِنَ الْمـاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللـهُ**) قـال : فيحبس عنهم الجواب أربعين سـنة ، ثم يجيبـونهم بلسـان الاحتقار والتهـوين : (**إِنَّ اللـهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكـافِرِينَ**) قال : فـيرون الخزنة عنـدهم وهم يشـاهدون ما نـزل بهم من المصاب فيؤمّلون أن يجـدوا عنـدهم فرحا بسـبب من الأسـباب ، كما قـال الله جـلّ جلاله : (**وَقـالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ**)

الْعَـذابِ) قـال : فيحبس عنهم الجـواب أربعين سـنة ، ثم يجيبـــــــــــــــونهم بعد خيبة الآمـــــــــــــــال : (**قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ**) قـال : فـإذا يئسـوا من خزنة جهنّم ، رجعـوا الى مالك مقـدّم الخزّان ، وأمّلـوا أن يخلّصـهم من ذلك الهـوان ، كما قـال جـلّ جلاله :(**وَنـادَوْا يا مالِـكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ**) قـال : فيحبس عنهم الجواب أربعين سـنة وهم في العـذاب ، ثمّ يجيبهم كما قـال الله في كتابه المكنـون : (**قـالَ إِنَّكُمْ مـاكِثُونَ**) قـال : فـإذا يئسـوا (يـأملون) من مـولاهم ربّ العالمين الذي كان أهون شيء عندهم في دنياهم ، وكـان قد آثر كـلّ واحد منهم عليه هـواه مـدّة الحيـاة ، وكـان قد قـدّر عنـدهم بالعقل والنقل أنّه أوضح لهم على يد الهـداة سـبل النجـاة ، وعـرّفهم بلسـان الحـال أنّهم الملقـون بأنفسهم الى دار النكال والأهوال ، وأنّ باب القبـول يغلق عن الكفّـار بالممـات أبد الآبـدين ، وكـان يقـول لهم في أوقات كانوا في الحياة الدنيا من المكلّفين بلسـان الحـال الواضح المبين : هب أنّكم ما صدّقتموني في هـذا المقـال ، تجوّزون أن أكون من الصادقين؟ فكيف أعرضتم عـني ، وشهدتم بتكـذيبي وتكـذيب من صـدّقني من المرسـلين؟! وهلا تحرّزتم من هذه الضرر المحـذّر الهائـل؟ أما سـمعتم بكثرة المرسـلين ، وتكـرار الرسـائل؟ ثم كـرّر جـلّ جلاله مـرافقتهم في النـار بلسـان المقـال فقـال : (**أَلَمْ تَكُنْ آيـاتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَـذِّبُونَ**) فقـالوا : (**رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِـقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْمـاً ضـالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ**) فيقفـون أربعين سـنة ذلّ الهوان لا يجابون ، وفي عذاب النار لا يكلّمون ، ثم يجيبهم الله جلّ جلاله : (**اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُـونِ**) قـال : فعند ذلك ييأسـون من كـلّ فـرج وراحة ، ويغلق أبـواب جهنّم عليهم،ويـدوم لـديهم مـآتم الهلاك والشـهيق والزفـير والصراخ والنياحة» [1] .

وفي روايات أخرى : إنّ الله عند ما يقـول لهم : إنّكم ها هنا ماكثون ، يقولون

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 8 / ص 304

لمالك : ادع لنا ربّك أن يســمح لنا بالبكــاء على أنفســنا ، فبعد أربعين ســنة يــأتيهم الجــواب من الله أن ابكــوا ، فيبكون. وهل البكاء آنئذ ينفعهم؟! كلا .. نستجير بالله من النار.

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَــبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُـونَ (80) قُـلْ إِنْ كـانَ لِلـرَّحْمنِ وَلَـدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِـدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَـرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَـذَرْهُمْ يَخُوضُـوا وَيَلْعَبُـوا حَتَّى يُلاقُـوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلــهٌ وَهُـوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبــارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْـدَهُ عِلْمُ السَّــاعَةِ وَإِلَيْــهِ تُرْجَعُــونَ (85) وَلا يَمْلِـكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّـفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَـهِدَ بِـالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ

---

79 [أبرموا] : أحكموا ، وحاكوا المؤامرات ضدّ الحق.

لَيَقُـولُنَّ اللـهُ فَـأَنَّى يُؤْفَكُـونَ (87) وَقِيلِـهِ يا رَبِّ إِنَّ هـؤُلاءِ قَـوْمٌ لا يُؤْمِنُـونَ (88) فَاصْـفَحْ عَنْهُمْ وَقُـلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

---

88 [وقيله] : أي قول الرسول.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ

وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ

هدى من الآيات :

ينذر القرآن الذين يعاندون الرسالة ، فلا يتبعون الحق ، بأنّ عنادهم سوف يسلّط عليهم عذابا لن يحيد عنهم.

وإذا عاند الإنسـان الحق فإنّه سـوف ينكر كـلّ شـيء حق بلا تـــورّع (وقد رأينا كيف أنّ بعض الفلاســـفة في التـاريخ أنكر الوجـود الـذي هو أظهر وأجلى شـيء عرفه البشر ، فقالوا : إنّ ما نراه لا يعدو كونه خيالات) .

ثم يبيّن ربّنا سفه ما يقوله المشركون من أنّ لله ابنا ، وذلك بأن يردّ عليهم الرسول (ص) أنّه أوّل العابدين لله ، وأنّ كلّ شيء مخلوق لله ، وليس من شـيء قـائم بذاته ، إنّما الله القـــائم على كـــلّ شـــيء ، فلو لا أنّه يمسك السموات والأرض لزالتا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده! وكما في التكوين كذلك في التشـريع ، فلو أراد الله أن يفقر أحـدا هل يغنيه أحـد؟! أو أراد أن يضـلّه هل يهديه أحد؟!

وآخر الآيات تتحدّث عن الله الذي هو في السـماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ، الـــــــــذي له ملك السـموات والأرض وما بينهما ، ولا يحتــاج الى ابن ، وأنّنا إليه راجعون ، وأنّ الذين يعبـدون من دون الله لا يملكـون شـــفاعة ، فلن تشـــفع لهم الجنّة ولا الأصـــنام ، ولكنّ الشفاعة عند من يكذّبون بهم من الرسل والأنبياء.

وهـؤلاء الـذين يكـذّبون بالرسل إنّما يكـذّبون بالله ، ولئن سـألتهم من خلق الخلق وخلقهم ليقـولنّ اللـه. إنّهم يعترفون بالله تكوينيّا ، فهو الذي خلقهم وخلق كـلّ الخلق ، ولكن لا يؤمنون بالله تشـريعيّا ، إذ أرسل إليهم الرسل ، وأيّدهم بآياته ، فما فائدة إيمانهم بأنّ الله خـالقهم ، إذ لم يؤمنــوا بــأنّ الله هو الوحيد الــذي يجب أن يشــرّع ، لأنّ شرعه سبحانه يتناسب مع أهداف الخلقة ، ولا أقـدر على التشريع إلّا من خلقنا.

وأخيرا يحدّد السـياق العلاقة المثلى مع هـؤلاء القـوم المتمثلة في العفو عنهم ، والـدعوة الى السـلام ، وتـرك أمرهم الى يوم القيامة.

بينات من الآيات :

[78] إتماما للحديث عن النار ، وعقب أن يـردّ عليهم مالك بأنّهم ماكثون أبدا في النـار ، يـبيّن لهم سـبب ذلك ، قائلا :

(**لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ**)

قال ابن عبـاس : إنّ المـراد من الأكـثر هنا هو الكـل. ولعلّه فهم من الآية أنّ عـــادة البشر هي كراهية الحق إلّا من عصـمه الله ، ونسـتلهم من ذلك أنّ على الإنسـان أن يتجاوز في ذاته هذه الكراهية بعزم الإرادة حتى يبلغ الحق ، أمّا إذا استرسل مع هواه فسوف يقوده الى الباطل.

[79] لا ينفع التحدّي والعناد شيئا ، لا بدّ من التسـليم والطاعة ، وإذا زعم الكافرون أنّهم قادرون على مواجهة الحق وأهله ، بالكيد المـتين ، والعـزم الشـديد ، والمكر الخفي ، فليعلموا بأن الله أمتن كيـدا ، وأشـدّ عزما ، وهو خير الماكرين.

(**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ**)

إذا كانوا قرّروا أن لا يؤمنـوا بالله ، فقد قرّرنا وأبرمنا أمـرا ، فكـان أمرنا أنّهم في النـار خالـدون ، مـاكثون فيها خاسئون ، والإبرام هو القرار الذي لا تراجع فيه أو تردّد.

[80] بعد أن قهر الله كبرياءهم ، بإنذارهم بنـار جهنم ، وتصـوير ذلّهم وخـزيهم ، وردّ طلبـاتهم حـتى بالإعـدام للنجاة من عذاب النار .. وبعد أن أوصل ذلك بإنكـار الحق وهدّدهم بأنّ تحدّيه لا يجديهم نفعا وانبأنا بأنّ كراهية الحق حالة عامة وعلينا معالجتها في أنفســنا ، بــالخوف من عاقبة الكفر بالحق.

أقـول بعد أن أسـقط ربّنا هـذه الحـواجز الـتي تفصل البشر عن الإيمان بـالحق ، أخذ ينسف تـبريرا يحتمي الى ظلّه الكفّـار ، حين يزعمـون أنّهم قـادرون على إخفـاء كفرهم عن الله بالنفاق.

(**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى**)

نسمع سرهم الذي يحدثون أنفسهم به فقط ونجواهم الذي يتحدثون به في مجالسهم الخاصة.

(**وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**)

وليس رسل الله يكتبـون عليهم أعمـالهم فقط ، بل وهم «لديهم» عندهم

حاضــرون وفي الروايــات : ان الملائكة الكتبة تجلس في حنك الإنســان ، فما يلفظ من قــول الا كــان عليه رقيب عتيد.

ولكي نقتلع جذور النفاق من أنفسنا فليس أفضل من استشعار علم الله بالسر والنجوى.

جاء في الدعاء : «إلهي وسيدي فأسألك بالقدرة التي قدّرتها ، وبالقضية التي حتمتها وحكمتها ، وغلبت من عليه أجريتها ، أن تهب لي في هذه الليلة ، وفي هذه السـاعة ، كلّ جرم أجرمته ، وكلّ ذنب أذنبته ، وكلّ قـبيح أسـررته ، وكـــلّ جهل عملته ، كتمته أو أعلنته ، أخفيته أو أظهرته ، وكلّ سيئة أمرت بإثباتها الكـرام الكـاتبين ، الـذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني ، وجعلتهم شهودا عليّ مع جوارحي ، وكنت أنت الـرقيب عليّ من ورائهم ، والشـاهد لما خفي عنهم ، وبرحمتك أخفيته ، وبفضلك سترته» [1]

[81] وعاد القرآن ينفي الشرك ، وأن يكون للـرحمن ولد ، لكي لا يظنّ الإنسان أنّ بمقدوره الفرار من حكومة الله الى ظلّ الشركاء ، كلا ... ليس أمام البشر إلّا طريق واحد ، هو طاعة الله ، وتحمل مسئوليّاته.

ثم انّ سورة الزخرف تطهر قلب الإنسـان من عبـادة الـثروة والسـلطة ، بينما الشـرك تجسـيد لهـذه العبـادة ، فالمشركون أنّما عبدوا الأنداد لأنّهم زعموا أنّها رمز المال والبنين ، وهكذا نجد السياق فيها يدحض الأفكار الشــركية ، ويستجلي بصائر التوحيد.

ومن تلك الأفكار ما زعمته النصارى في نبيّهم أنّه ابن الله ، وقد بيّن القــرآن إنّما هو عبد أنعم الله عليه ، ولكي يحصّن القرآن المسلمين من الغلوّ في دينهم ، كما

---

(1) دعاء كميل

فعلت الأمم السابقة ، فإنّ هذه الآية تـبيّن أنّ نبيّنا محمـدا (صـــلّى الله عليه وآلـــه) ليس إلّا عبـــدا لله ، بل هو أوّل العابدين له ، وكيف يكون العبد ربّا أو ولدا لله؟!

(**قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ**)

ولا ريب أنّ محمدا أعظم الأنبيـاء ، فـإذا كـان هو أذلّ العابـدين ، فكيف يكـون غـيره ابنا للـه؟! تعـالى الله عما يصفون.

وهكـــذا نفت الآية الكريمة الشـــريك عن الله ببلاغة نافذة ، من هنا قال كثير من المفسّـرين : انّ كلمة «إن» هنا نافية ، ومعناها : ليس للـرحمن ولـد. ويبـدو أنّ معـنى النفي مفهوم من مجمل تـركيب الجملة ، وليس من كلمة «إن» .

وروى السيوطي عن ابن عباس أنّه قال (في الآيـة) : لم يكن للـــرحمن ولد ، فأنا أوّل العابـــدين ، وروي عن الحسن وقتـادة أنّهما قـالا : ما كـان للـرحمن ولد فأنا أوّل العابدين ، قـال : يقـول محمد : فأنا أوّل من عبد الله من هـذه الأمّة ، وروي عن مجاهد : قل إن كـان للـرحمن ولد في زعمكم فأنا أوّل العابـــــدين ، فأنا أوّل من عبد الله وحده وكذّبكم بما تقولون. [1]

ومثل هـذا روي عن الإمـام أمـير المؤمـنين ـــ عليه السلام ـ أنّه قـال : «(**إِنْ كـانَ لِلـرَّحْمنِ وَلَـدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِـدِينَ**) ، أي الجاحـدين» [2] والتأويل في هـذا القـول باطنه مضاد لظاهره.

ويبـــدو أنّ الآية تنفي أيضا الأسس الفاســدة لنســبة الولد الى الله سبحانه ، ذلك أنّهم زعمـوا أنّ الأعظم مـالا يكون الأقرب الى الله ، وتسقط عنه المسؤوليّات ،

---

(1) الدّر المنثور / ج 6 ص 24

(2) نور الثقلين / ج 4 ص 616.

كلا .. إذا كانت الولادة صحيحة ـ وهي غير صـحيحة ــ فـإنّ الأقــرب الى الله هو الرســول ، وليس أصــحاب المــال ، ونحن حين نرى أقرب الناس الى الله أشــدّهم خوفا منه ، وأكثرهم عبادة له ، وأعظمهم تمسّكا بالدّين ، فإنّنا نهتدي ألّا شريك له ، ولا يجوز لغير الرسول ـ بطريقة أولى ــ أن يتهــرّب من المســؤولية بــدعوى أنّه ابن الله أو منتم الى ابن الله.

إنّ من أهمّ الــدواعي الى الغلــوّ في الــدّين ، وادّعــاء الصــلة النســبية بين ربّ العــرش ســبحانه والأنبيــاء عليهم الســـلام (كعزير عند اليهـــود ، والمســـيح عند النصـــارى) التهــرّب من المســؤولية ، بــدعوى أنّ ابن الله ينجيهم من عــــــذاب الله ، ويفــــــديهم بنفسه للخلاص من نقماته ، وبــدعوى أنّهم أولاد الله ، بانتمــائهم نســبيّا أو ســببيّا الى الله.

ألم يزعم اليهود أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه؟ أو لم يتخذوا من تلك العقيــدة الفاســدة تــبريرا لعــدوانهم على ســائر النـــاس ، والقـــول بأنّه ليس عليهم في الأمّيّين ســـبيل؟! كــذلك زعم الجــاهليّون العــرب أنّ انتســابهم الى إبــراهيم الخليل (ع) يكفيهم فخرا،ومن الله قربى!

أو لم يزعم بعض المسلمين أنّ مجرّد حبّهم للرســول وأهل بيته (صــلّى الله عليه وآلــه) وأصــحابه يغــنيهم عن العمل؟!

كلا .. ليس للـــــرحمن ولد ، والـــــدليل على ذلك أنّ الرســول هو أوّل العابــدين لله ، وإذا كــان له ولد لم يكن أوّل من يعبد الله ، ذلك الرسول الأقرب الى الله.

والملائكة ليسوا أولاد الله ، لأنّهم عبــاده المكرمــون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون.

وعيسى (ع) ليس ولد الله ، لأنّه ليس إلّا عبـــدا أنعم الله عليه.

وهذا التفسير يبدو لي واضحا ومتفقا مع سائر الآيـات ، كما هو متفق مع تفسير الرعيل الأوّل من المفسّـرين .. بينما ذهب السّدّي وتبعه آخـرون أنّ معـنى الآية : لو كـان للـرحمن ولد فأنّا أحـقّ النـاس بعبـادة ذلك الولد لأنّي أوّل العابدين ، «فإنّ السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخـدم ولـده» [1] ولا أستحسن هـــذا التفســـير ، بـــالرغم من ميل كثـــير من المتأخّرين اليه ، لأنّه لا ينسجم مع النهج الـذي نعهـده في بصائر القرآن ، والله العالم.

ويبقى سـؤال : كيف ذكر الرسـول أنّه أوّل العابـدين وقد جـاء متـأخّرا زمنيّا عن سـائر الأنبيـاء المخلصـين في طاعة الله؟

تجيب النصوص الدينية عن ذلك بما يلي :

إنّ نبيّ الله محمّد (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) أوّل من عبد الله وسـبّحه ، وقد جـاءت الروايـات مؤكّـدة على ذلك ، فقد روي :

عن أبي ذر الغفـاري عن النـبي صـلّى الله عليه وآله (في خبر طويل في المعراج ساقه الى أن قال) : «قلت ـ يا ملائكة ربي هل تعرفونا حـقّ معرفتنا ، فقـالوا : يا نـبيّ الله وكيف لا نعـــرفكم وأنتم أوّل ما خلق اللـــه؟ خلقكم أشباح نور من نوره ، في نور من سناء عـزّه ، ومن سـناء ملكه ، ومن نـــور وجهه الكـــريم ، وجعل لكم مقاعد في ملكـــوت ســلطانه ، وعرشه على المـــاء قبل أن تكـــون الســـــماء مبنيّة ، والأرض مدحيّة ، ثم خلق الســـــماوات والأرض في ســـتة أيّـــام ، ثم رفع العـــرش الى الســـماء السابعة فاستوى على عرشه وأنتم أمـام عرشه تسـبّحون وتقدّسون وتكبّرون ،

---

(1) التفسير الكبير للفخر الرازي / ج 27 ص 330

ثم خلق الملائكة من بدء ما أراد من أنوار شتّى ، وكنّا نمرّ بكم وأنتم تسبّحون وتحمدون وتهلّلون وتكبّرون وتمجّدون وتقدّسون ، فنسبّح ونقدّس ونمجّد ونكبّر ونهلّل بتسبيحكم وتحميدكم وتهليلكم وتكبيركم وتقديسكم وتمجيـدكم ، فما أنـزل من الله فـإليكم ، وما صـعد الى الله فمن عنـدكم ، فلم لا نعرفكم؟» [1]

وجـاء في الرواية عن المفضّـل عن أبي عبد الله (ع) قال : «يا مفضّـل! أما علمت أنّ الله تبـارك وتعـالى بعث رســول الله (صــلّى الله عليه وآله وســلّم) وهو روح إلى الأنبياء (ع) وهم أرواح قبل خلق الخلق بـألفي عـام؟ قلت : بلى. قــــال : أما علمت أنّه دعــــاهم الى توحيد الله ، وطاعته ، واتباع أمـره ، ووعـدهم الجنة على ذلك ، وأوعد من خالف ما أجابوا إليه وأنكره النار؟ فقلت : بلى» [2]

وعن أبي عبد الله (ع) قــال : إنّ بعض قــريش قــال لرســول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) : بـأي شـيء ســبقت الأنبيــاء وفضّــلت عليهم ، وأنت بعثت آخــرهم وخاتمهم؟ قال : إنّي كنت أوّل من أقرّ بـربّي جـلّ جلاله ، وأوّل من أجاب ، حيث أخذ الله ميثاق النبيّين ، وأشـهدهم على أنفسهم : «**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قـالُوا : بَلى**» فكنت أوّل نبي قال : بلى ، فسبقتهم الى الإقرار بالله عزّ وجل [3]

وفي الـدعاء عن الامـام الهـادي (ع) يصف الرســول (ص) وآله : «خلقكم الله أنوارا فجعكم بعرشه محـدقين» [4]

[82] (**سُــبْحانَ رَبِّ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**)

لو أنّهم عرفـوا شـيئا من عظمة ربّهم لما خرقـوا له بنين وبنات ، ولما شبّهوه

---

(1) بح / ج 15 ص 8

(2) المصدر / ص 14

(3) المصدر / ص 15

(4) الزيارة الجامعة.

بأنفسهم في الأمثال والصفات. إنّه هو الله ربّ السموات والأرض ، وربّ القــدرة العظيمــة. وفي الحــديث : «ربّ المثل الأعلى عمّا به مثّلــوه ، ولله المثل الأعلى الــذي لا يشبهه شيء ، ولا يوصف ، ولا يتوهّم» [1]

[83] ربما ضر المزيد من الاهتمام بجدال المشـركين ، ويكفي أن ندعوهم الى الهدى ، ونبيّن لهم الحجج ، فـإذا عموا عنها تركناهم يخوضون في غيّهم ، ويلهـون أنفسـهم بأفكارهم الضالّة ، ويلعبـون في الحيـاة بلا هـدف حكيم ، حتى يلاقوا يوم الجزاء العادل الذي يعدهم الله.

(**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا**)

ولعــلّ الخــوض هنا يســاوق اللهو وهو ما يصــرف الإنســان عن الواقع ، بينما اللعب هو الســعي المنظّم لأهداف غير رشيدة (حسبما يبدو لي) .

وحين يبتعد الإنســان عن هــدى ربّه فهو بين فكــرة باطلة يلهو بها عن الحق وســعي دؤوب لغــير الأهــداف المشـروعة ، وقد قـال ربّنا سـبحانه : (**وَما هـذِهِ الْحَيـاةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ**) .

أمّا المهتــدون الى ربّهم فعقــولهم تســتنير بضــياء المعرفة ، وتزداد ولها الى الحقائق ، أمّا سعيهم فهو دائب في سبيل تحقيق الفلاح والرضوان.

وبتفكّر أعمق سنصل الى الحقيقة التالية : إنّه الإيمان بالله وحده الـذي يجعل الفكر يعمر بهـدف سـام ، هو معرفة الله أكـثر فـأكثر ، كما يجعل عمل الإنســان ذا معنى وذا هدف مقدّس هو ابتغاء مرضاة الله.

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 617

[84] إنّه الله الــذي وســعت رحمته وقدرته وهيمنته وتدبيره السموات والأرض ، يدبّرهما بذات النظام الحسن الحكيم ، فلا فطور ولا خلل لا في أصغر موجود ولا أكبر.

إنّ وحـدة التـدبير دليل على وحـدة الخـالق ، ووحـدة الحـــاكم والمهيمن ، وهي حجة بالغة ضد أولئك الـــذين زعمـــوا أنّ للأرض آلهة وللســـماء إله ، فما لله لله وما لقيصر لقيصر ، كلا .. كلّ شيء لله ، واليه المصير.

(**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ**)

وآيات الله تهدينا الى بالغ حكمته وعلمه.

(**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**)

وهل ينبغي أن يخرق لله ولد أو يشرك به شــيء؟ كلا .. والعجيب أنّ حالة الجــدل قد بلغت بــالبعض الى اتخــاذ هـذه الآية الكريمة مـادة للجـدل ، كما جـاء في الحـديث التالي :

في الكافي عن هشام بن الحكم قال : قال أبو شاكر الديصاني : إنّ في القرآن آية هي قولنا ، قلت : وما هي؟ فقال : (**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلـهٌ**) ، فلم أدر بما أجيبه ، فحججت فخــبرت أبا عبد الله ـــ عليه السلام ـ فقال :

«هذا كلام زنـديق خــبيث ، إذا رجعت اليه فقل : ما اسمك بالكوفة؟ فإنّه يقول : فلان ، فقل له : ما اسـمك بالبصـرة؟ فإنّه يقـول : فلان ، فقل : كـذلك الله ربّنا ، في الســماء إله ، وفي الأرض إله ، وفي البحار إله ، وفي القفار إله ، وفي كلّ مكان إله» .

قال : فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته ، فقال : هـذه نقلت من الحجاز! [1]

[85] (**وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما**)

وهذه الآية تجيب على إشـكال سـابقتها ، فهو إله في السماء ، وإله في الأرض ، إلّا أنّ السـموات والأرض ملكه ، وتحت قبضته .. وتبارك مصدر البركة.

(**وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

[86] وحين تقـــوم الســـاعة ، ونرجع الى الله ، فهل يملك الشركاء المزعومين الشفاعة؟ كلا ..

(**وَلا يَمْلِـكُ الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ الشَّـفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**)

كما أنّه في عالم التكوين ليس هناك الله وابنه ، فكذا في عـالم التشـريع ، فإنّه لا شـفيع عند الله إلّا من شـهد بـالحق ، فالفضل آنئذ لله ، والقـدرة له وحـده ، وهو يمنع من قدرته ما يشـــاء دون أن تنقص قدرته مقـــدار ذرّة ، ومن دون أن يصـــير ذلك صـــاحب قـــدرة ذاتيّة ، وليس باستطاعة أحد أن يقف أمام الله ، فالكلّ مهما أوتوا عبيد له سبحانه ، وإنّه لا يشفع أحد لأحد إلّا من شهد بالحق.

وفي الرواية عن رسول الله (ص) قال في هـذه الآية : «**هم الـــذين قد عبـــدوا في الـــدنيا ، لا يملكـــون الشفاعة لمن عبدهم**» [2]

[87] وهؤلاء الذين عبدوا غيره ، ولم يشفع لهم أحد ، لأنّ الله لا يقبل الشفاعة

---

(1) المصدر

(2) تفسير البرهان / ج 4 ـ ص 156

لأحد إلّا من شهد بالحق له سبحانه ، هؤلاء ..

(**وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُـولُنَّ اللـهُ فَـأَنَّى يُؤْفَكُونَ**)

فالله يحاكمهم ، وأفضل حكم فطرتهم ، فيقول لهم : من خلقكم؟ ولا يملكون ان يقولوا غيره سبحانه.

لقد كانوا يعترفون بأنّ الله خالق السموات والأرض ، ولكنّهم كانوا يزعمون ـ مع ذلك ـ وجود قدرة ذاتية لسـواه ، شـأنهم شـأن أغلب البشر اليـوم حيث أنّهم يغـترّون بمظاهر القوة عند الطغاة والمتجبّـرين ، فيخضـعون لهم ، ويذرون حكم الله الحق الى أحكامهم الجائرة.

[88] لقد بلغ الاهتمـام بشـأن الـدعوة عند الرسـول (ص) حـدّا جـأر الى الله ، وأخذ يشـكو اليه عـدم إيمـان قومه.

(**وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ**)

ولعـلّ التعبـير ب «قـوم» للدلالة على أنّهم اجتمعـوا على ترك الإيمان.

[89] فكيف ينبغي التعامل مع قوم لا يؤمنون؟

تحدّد الآية الأخيرة من هـذه السـورة العلاقة السـليمة معهم ، قائلة :

(**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**)

إنّها علاقة العفو عن جرائمهم بحقّه ، والسلام معهم ، والمـؤمن يحمل في داخله قلبا يسع الـدنيا ويزيد ، لأنّ نظره الى الآخرة ، ولا يأبه بما يجري حوله هنا.

الفهرست

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف